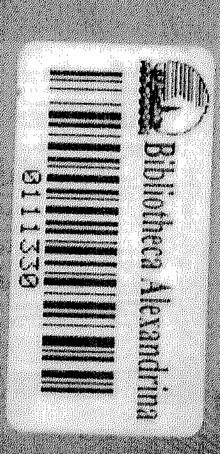
د. صالح زهر الدّين

تاريخ المسلمين الموحّدين "الدروز"

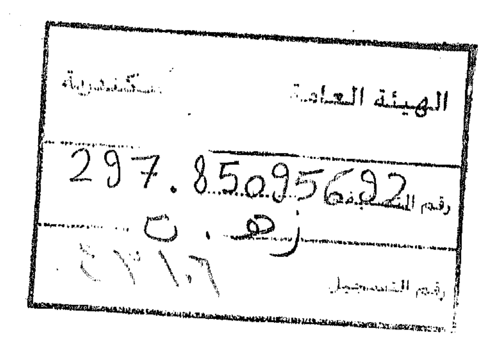


المركز العربي للأبحاث والتوثيق

تاريخ
المسلمين الموحدين
"الدروز"

د. صالح زهر الدين

تاريخ
المسلمين الموحّدين
"الدّروز"





المركز العربي للأبحاث والتوثيق

الطبعة الثانية

١٩٩٤

المركز العربي للأبحاث والتوثيق

بيروت - شارع مار الياس - تجاه ثكنة الحلو
هاتف ٣٠٥١٥٨ - ص.ب ١٤/٥٠٦٨

الإهـــداء

إلى الوالدين الكريمين

اللذين علّماني منذ نعومة أظافري

ألاّ أخفض رأسي إلا أمام الحق والحقيقة .

صالح

آراء وتعليقات
حول الكتاب

«. . . لقد كان استمتاعي بقراءة هذا الكتاب عظيماً، نظراً لما ساده من روح قومي عربي، وحرص صادق على أن الدرزية مذهب إسلامي».

الدكتور حسين القوتلي
(مدير عام الإفتاء سابقاً)

كتاب «تاريخ المسلمين الموحدين الدروز» يملأ فراغاً في المكتبة اللبنانية والعربية خصوصاً أنه يؤرِّخ للدروز بعد حرب أباحت التعرُّض للقيم التي تدافع عنها هذه الفئة أو تلك في لبنان. . .

ومن الواضح أن صالح زهر الدين حاول أن يلقي ضوءاً مختلفاً وغير معروف على تاريخ الدروز، وعلى موقعهم في صناعة تاريخ لبنان، وتاريخ العرب الحديث بقليل من العاطفة وبكثير من التوثيق والتدقيق.

مجلة «الشمس» اللبنانية
نيسان ١٩٩٤

هدف الكتاب تسجيل التاريخ الحقيقي المتعلق بالطائفة الدرزية في جميع حقولها الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية والعسكرية انطلاقاً من الأمانة التاريخية التي يمتاز بها المؤلف بعيداً عن التعصُّب الطائفي الذي يعتبر في كثير من الأحيان عدواً لدوداً للحقيقة التاريخية.

صحيفة «الأنوار» اللبنانية
تاريخ ٢٠/٧/١٩٩١

كتاب الدكتور صالح زهر الدين عن تاريخ الموحدين الدروز مرجع يمتاز بالشمول والدقّة.

صحيفة «النهار» اللبنانية
تاريخ ٢٦/٧/١٩٩١

أحسن الدكتور صالح زهر الدين بإخراج كتابه عن «بني معروف» ليوضّح الكثير مما يجب إيضاحه، وليدفع الكثير من الأباطيل(. . .) لقد وفّق فيما فعل بإبراز تلك الصفحة المجيدة من تاريخ العرب التي كتبها بنو معروف، في سيرتهم الاجتماعية، أو في نضالهم الوطني للمستعمرين الفرنسيين في ثورة سنة ١٩٢٥ التي أحالوها إلى ثورة سورية شاملة، كانت بفضل بطولتهم جميعاً، وبطولة قائدهم سلطان الأطرش، من أعظم ما عرف العرب في تاريخهم الحديث من أمجاد حربية.

حسن الأمين

صحيفة «النهار» اللبنانية

تاريخ ٢٧/٨/١٩٩١

«إنّي معجب بالكتاب لأنّه حجّة لي جديدة في محبّتي وإعجابي ببني معروف، كما هو حجّة لكل من يسعى لمعرفة الحقيقة عنهم ناصعة مشرّفة أخّاذة(. . .) سلمت يداك يا صالح، أيها الرجل الصالح».

المحامي عبد الله قبرصي

صحيفة «الديار» اللبنانية

تاريخ ١٧/٨/١٩٩١

«أثني على مجهود الدكتور صالح زهر الدين لإخراج هذا الكتاب الذي جاء يسلّط الأضواء على تاريخ الدروز الناصع. . .».

السفير الدكتور حليم أبو عز الدين

صحيفة «النداء» اللبنانية

تاريخ ١/٩/١٩٩١

* تصفّحت كتابك القيّم «تاريخ المسلمين الموحدين (الدروز)» وقرأته قراءة الصديق الصدوق الذي يفخر بما فيه من آراء سديدة، فيردّدها في المحافل والحلقات الخاصة، وينتقد بإخلاص وتجرّد ما فيه من أخطاء وهفوات. . .

إن هذا الكتاب ثمرة جهود جبّارة وتحرّيات للحقيقة التاريخية تشكر من عارفيك والأجيال الصاعدة عليها، وتحفظ لك اليد في إنجازها وإقرارها. .

خصوصاً ولقد اتبعت بحق الأسلوب العلمي فيه، والبحث الأكاديمي المعمّق، فكنت مثال الباحث والمؤرّخ الموضوعي الذي لا يسعى لاكتشاف الحقيقة فقط، بل ولتعميمها ونشرها أيضاً بغرض الاستفادة منها لأكبر عدد ممكن من الناس.

عادل علي ضو
(أستاذ اللغة العربية في الثانويات الرسمية)

مقدمة المؤلف

منذ الثالث عشر من نيسان ١٩٧٥، يعيش لبنان حرباً أهلية قاسية تهدّد كل ما يتعلّق بوجوده، انطلاقاً من وحدته السياسية، مروراً بالشعب والأرض، وانتهاء بالمؤسسات.

كل فريق من القوى المتصارعة على هذه الساحة يعطي هذا الصراع أسباباً مختلفة. فمنهم من يدّعي «بطائفية» الصراع استناداً إلى مقولتهم في «التعدّدية الحضارية» المزعومة. بينما يعلن فريق آخر بأن الصراع هو صراع اجتماعي واقتصادي وسياسي بالدرجة الأولى. كما أن كل واحد من الفريقين يطلق حججه وبراهينه على صحة ما يعلنه.

من هنا يمكن القول، إن اختيار موضوع مختص بدراسة طائفة دينية في لبنان، وخصوصاً في هذا الوقت، يثير كثيراً من التساؤلات.

لكن اختيارنا لموضوع متعلّق بالطائفة الدرزية في لبنان، بعيد كل البعد عن أية حساسية طائفية وعن كل الأجواء التي تدّعي طائفية الحرب الأهلية هذه.

وعندما نكتب عن الطائفة الدرزية، لا يعني ذلك أننا نكتب تاريخاً طائفياً، خارجاً عن الإطار الوطني، كما فعل كثير من كتبة تاريخ الطوائف لإبراز الطائفة وكأنها هي الوطن، وإهمال الطوائف الأخرى، وتحقيرها أحياناً.

وليس كل من يكتب تاريخ طائفة دينية، أصبح خارجاً عن نطاق الانتماء الوطني الصادق. والفرق كبير جداً بين الطائفية وبين خدمة طائفة معيّنة.

فتناولنا لموضوع الطائفة الدرزية في لبنان خارج كلياً عن إطار «التسابق الطائفي في كتابة التأريخ الطائفي»، وبعيد كلياً عن العصبيّة الدينية التي تؤدِّي إلى المبالغات أحياناً وإلى «اختلاس الحقائق التاريخية وإعطائها بكل بساطة وجرأة لغير أصحابها».

فالهدف الأساسي من دراستنا هذه، هو تسجيل الحقائق المتعلِّقة بهذه الطائفة في جميع حقولها: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية والعسكرية، انطلاقاً من الأمانة التاريخية، بعيداً عن التعصب الطائفي الذي يعتبر في كثير من الأحيان عدواً لدوداً للحقيقة التاريخية، حيث أن كثيراً من المؤرِّخين العرب والأجانب، الذين كتبوا عن الموحّدين الدروز، انطلقوا في دراساتهم من منطلقات طائفية وتعصب أعمى تحقيقاً لأهداف ومصالح معيَّنة، أوصلهم في النهاية لتزوير الكثير من الوقائع والحقائق وتشويهها.

فبعيداً عن هذه المنطلقات التعصبية، والنتائج المترتِّبة عليها، والتزاماً بالأمانة التاريخية والضرورة العلمية للبحث الصحيح، فإن دراستنا للطائفة الدرزية في لبنان تستند أولاً وقبل كل شيء لمعايشة الواقع بكل تفاصيله وضروراته ومنطلقاته وتعقيداته، ليس باعتباري أحد أفراد هذه الطائفة الكريمة فحسب، بل لأنني أعيش عاداتها وتقاليدها لحظة لحظة، والتي ترتكز في جوهرها إلى العقيدة الدينية، وتستمد أصالتها من المبادىء التوحيدية. بالإضافة إلى المصادر والمراجع التي كتبت عنهم بنزاهة وصدق بعيداً عن التعصب والتزوير، مع الإشارة إلى بعض حملات الدس والتشويه البعيدة عن العلم والمنطق.

وإن ما يبدو ضرورياً تسجيله منذ تمركز الطائفة الدرزية في لبنان حتى اليوم، هو أن تاريخها كان مليئاً بالمآثر التي تغافل عنها المؤرِّخون إما عمداً أو عن طريق جهلهم لها، حيث كان الموحّدون الدروز، ولا يزالون، وطنيين بكل ما «للوطنية» من معنى، كما كانت الحرية والاستقلال، ولا زالتا، رمزاً وشعاراً لهم، وملازماً لدمهم.

على هـذا الأسـاس، واستنـاداً لهـذه النقـطة التي «تجـاهلهـا» معـظم المؤرِّخين، فقد تلاقت أهداف الاحتلال ـ أي احتلال ـ مع أهداف الاستعمار الغربي في تركيـزهم على هـذه الطائفـة للقضاء عـلى نزعتهـا التحرريـة، التي أثبتت عبر تاريخها الطويل في لبنان، بأنها مقدَّسـة، وتمثِّل جـزءاً من حياتهـا، بل كل حياتها.

ولهذا كان التحامل عـلى فخر الـدين المعني واتهامـه بالمسيحيـة وهو في حضرة صديقه السلطان مراد الرابع، والتي كلَّفته حياته وحياة أسرته ككـل. كما كان مخطط «تنصير» الطوائف اللبنانية في العهد الشهابي، حلقة في سلسلة «إبـادة الـدروز» التي بـدأهـا العثـمانيـون ومن قبلهم المماليك، ثم أكملهـا الفرنسيون بشخص الجنرال غورو عندما دخـل دمشق (بعد أن عُـيِّن مفوَّضـاً سامياً على سوريا ولبنان)، ووقف أمام قبر صلاح الدين الأيـوبي قائـلاً: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين».

وهذا دليل قـاطع عـلى «الروح الصليبيـة»، المتأصِّلة في نفـوس أحفاد صليبيي القـرن الثاني عشر، حيث كـرَّس الدروز جهـدهـم وحياتهم لقتـالهـا واستئصالها من الأرض العربية قبـل حوالي ثـمانية قـرون من الزمن، اعـترف الصليبيون خلالها، كما اعـترف غيرهم فيـما بعد، بكفـاءة الدروز القتـالية في الدفاع عن الأرض التي يعيشون عليها والتي تعتبر جزءاً منهم لا يمكن التخلِّي عنه.

وحتى هذه اللحظة، لم تتـوقَّف الحملة «الإبـاديـة» ضد هـذه الطائفـة. وكلما توقَّف أحد أساليبها ليرتاح من عناء المجابهة، سرعان مـا ينبري أسلوب جديد ليأخذ مكانه في الصراع. وأسلوب الدعاية والإعلام سلاح فتَّاك قاطع (كـما أكَّد ذلـك، الدكتـور غوبلز، مسـاعـد هتلر الأيمن) تستخـدمـه الـدول الاستعـمارية اليـوم وأدواتها المـأجورة عـبر حملة من الدسّ والتشـويه والـتزوير تستهدف الطائفة الدرزية في كل مناطق تواجـدها وانتشـارها. إنها تستهـدف الشجرة الوطنية العريقة بعروبتها في أرض العرب وخـارجها، تلك الشجـرة التي تمتد جذورها في التربة اللبنانية، من التنوخيين إلى الأرسلانيـين والمعنيين

حتى العائلة الجنبلاطية وغيرها من هذا القرن. وهذه السلسلة التي تمثّل لبّ الإسلام وجوهره، هي أكبر من أن تشير إليها الأصابع وتقذف بالاتهامات الباطلة، لأنها اتّسمت بالوطنية الحقّة وتشرّبت مبادىء الحرية منذ أن كان للحرية والوطنية وجود على هذه الأرض.

والحقيقة، أن الدروز تعوّدوا على صناعة التاريخ، لكنهم لم يتعوّدوا على كتابته بعد، فأخذ غيرهم عنهم ذلك. صنعوا تاريخ لبنان بالدم، فكتبه غيرهم بحبر الدسائس والتزوير، ثم جيّره لمصلحته. والمأساة التي يعيشها لبنان اليوم، هي النتيجة الحتمية لسياسة التحريف والتزوير هذه.

انطلاقاً من ذلك، والتزاماً بالأمانة والحقيقة التاريخية، كما سبق وذكرنا، فقد عمدنا إلى تقسيم تاريخ الطائفة الدرزية إلى أقسام ثلاثة، ضم كل منها عدداً من الفصول. وكانت هذه الأقسام أو الأبواب، كما سمّيناها، على الشكل التالي:

الباب الأول: تناول الدعوة الدرزية والحياة الدينية عند الموحّدين «الدروز».
الباب الثاني: تناول حياة الموحّدين في «لبنان» من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية.
الباب الثالث: تناول حياة الموحّدين في «لبنان» من الناحية الاجتماعية.

هذا بالإضافة إلى ملحق خاص تناول شهادات أهل الفكر والقلم بالموحّدين الدروز، نثراً وشعراً، تؤكّد ما ذهبت إليه الطروحات التي جاءت في فصول الكتاب.

وبالرغم من هذا التقسيم لتاريخ الطائفة، لا بدّ من الإشارة إلى أن جميع هذه النواحي مترابطة فيما بينها ارتباطاً وثيقاً، لا تقبل الفصل ولا الانقطاع. فهي حلقات في سلسلة تمثل متلاحمة، تاريخ الموحّدين «الدروز» في هذه البقعة الصغيرة من الوطن العربي.

وأخيراً أوجّه شكري وتقديري لسماحة شيخ عقل الطائفة الدرزية في لبنان الشيخ محمد أبو شقرا، لتوجيهاته وملاحظاته ونصائحه، ومساعدته في

تأمين كثير من المراجع الهامة. كما أوجِّه شكري أيضاً إلى معالي الوزير الأستاذ وليد جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي في لبنان وقائد الحركة الوطنية اللبنانية، وإلى معالي الوزير الأستاذ مروان حمادة، وإلى معالي الوزير السابق الأستاذ خالد جنبلاط، الذين سهَّلوا لي مهمة البحث والتنقيب لإنجاز كتابي هذا.

كما تقضي الأمانة العلمية والأخلاقية، بادىء ذي بدء، أن أوجِّه كلمة شكر خالصة للدكتور كلود ليوزو، الذي أشرف على مخطوطة هذا الكتاب لمدة أربع سنوات متواصلة، وساعدني في كثير من إرشاداته، وملاحظاته وتوجيهاته، باعتباره كان المشرف الأول على مخطوطة هذا الكتاب، الذي هو في الأصل أطروحة أكاديمية أُعدَّت في جامعة باريس السابعة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، وكذلك الدكتور جاك كولان، والدكتور أنطوان فغالي، وغيرهم من الذين اطلعوا على المخطوطة قبل طباعتها وإقرارها ومناقشتها، حيث كان لملاحظاتهم العلمية والأكاديمية، أهميتها الكبيرة.

كما أخص بالشكر أيضاً الصحافي الكبير، الصديق الأستاذ رجا سري الدين، رئيس المركز العربي للأبحاث والتوثيق، الذي أولى موضوع الكتاب اهتماماً خاصاً.

كما أشكر جميع الأخوة الذين قدَّموا لي المساعدة الهامة، حيث تضيق هذه الصفحات عن ذكر أسمائهم جميعاً.. فإليهم أقدِّم اعتذاري، مع أسمى عبارات الوفاء والتقدير.

وقبل أن أختم مقدمتي هذه، لا بدّ من الاعتراف، بأن أيّ عمل في هذا الإطار، يستحيل وصوله إلى درجة الكمال؛ والبناء القوي لا يقوم إلاّ على المداميك الصلبة والمتراصة. فعسى أن أكون قد وُفّقت في وضع مدماك أساسي في هذا الصرح الذي يستحق كل غالٍ ونفيس في سبيل إعلاء شأنه وبنيانه على الدوام.

د. صالح زهر الدين

البَاب الأوَلــ

الـــدّرُوز :
دَعوَتهُـم وَحيَـاتهُم
الدّيـنيَة

الفصل الأول

نشأة الفاطميين

إن ضعف السلطة المركزية، والصعوبات التي واجهت الخلافة العباسية شكَّلت العوامل الأساسية في ولادة عدد من الدويلات، مستقلّة عن العاصمة الأم، بغداد، منذ سنة ٩٢٠م[*]، والتي تعتبر علامة مميَّزة في تاريخ العرب ككل.

يمثِّل هذا التاريخ منطلقاً أساسياً لمرحلة الضعف والتفكك والانحطاط الذي بدأ ينخر جسد السلطة المركزية، مؤثراً على أعضائها ومتفرّعاتها، مؤدّياً في النهاية لانتقال الخلافة من العباسيين إلى الأتراك.

وكانت الدولة الفاطمية التي ولدت في المغرب، وانتقلت بعدها إلى مصر، إحدى النتائج التي تمخضت عن هذا الانحطاط.

ينتسب الفاطميون إلى فاطمة الزهراء[1]، ابنة النبي محمد (صلعم) وزوجة الإمام علي بن أبي طالب. وكان عبيد الله المهدي من مؤسسي دولتهم الأوائل في المغرب. وتعاقب على حكمها خلفاء تمكَّنوا من إرساء دعائمها وتقوية مرتكزاتها حتى أصبحت تهدِّد الخلافة الأم في بغداد. وكان حكم الخليفة العزيز لدين الله، والد

(*) يقول المؤرخ فيليب حتي في كتابه (تاريخ العرب الجزء الثاني، دار الكشاف، بيروت ١٩٥٠، ص ٥٨٠) ما يلي: «لم تستهل سنة ٩٢٠ إلا والخليفة قد أضاع كل سلطته حتى في بغداد نفسها».

(١) رد المؤرخ السني المقريزي في «خططه» الجزء الأول ص ٣٤٨ - ٣٤٩، على المؤرخين الذي ينكرون النسب الفاطمي. وهو من المؤرخين القلائل (من السنّيين) الذي أيدوا انتساب الفاطميين إلى فاطمة الزهراء، مثلما أيده ابن خلدون. (النجار، عبد الله، مذهب الدروز والتوحيد، دار المعارف بمصر ١٩٦٥، ص ٢٥. وحتي، فيليب، لبنان في التاريخ، دار الثقافة بيروت ١٩٧٨، ص ٣٣٥).

الحاكم (أبو علي المنصور)، الحكم الأقوى والأكثر أهمية بالنظر إلى سابقيه. كان الخامس بين الخلفاء من السلالة الفاطمية ولكنه الخليفة الثاني الذي بدأ حكمه في مصر بعد والده المعز لدين الله.

فتح مصر:

لقد تجمّعت في مصر قبل فتحها جميع عناصر هدمها ونهايتها كدولة قوية. ذلك لأنها كانت تعاني من ضروب الانحلال والفساد الاجتماعي الشامل ما لا يوصف، خاصة وأن الترف والرفاهية والبذخ الذي عرفه المجتمع المصري يومذاك كان كافياً لأن تشكل جميع هذه العناصر بداية النهاية له. وخير دليل على ما كان يعيشه المجتمع المصري من الانحلال والفساد، تلك الحادثة التي اعتبرها البعض سبباً مهماً لتسيير الجيوش الفاطمية لاحتلالها والسيطرة عليها. وخلاصة هذه الحادثة كما أوردها المؤرّخ محمد عبد الله عنان في كتابه عن الحاكم (ص ٢٥) نقلاً عن خطط المقريزي، واتعاظ الحنفاء «أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المعز) أرسلت إلى مصر صبية للبيع، فعرضها وكيلها في السوق وطلب فيها ألف دينار، فأقبلت إليه امرأة أنيقة فتية على حمار وساومته في ثمنها، واشترتها منه بستمائة دينار، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هي ابنة الأخشيد محمد بن طغج، وأنها اشترت الصبية لتستمتع بها لأنها تهوى الصبايا الحسان؛ فلما عاد إلى المغرب حدَّث المعز لدين الله بأمرها، فدعا المعز شيوخ القبائل، وروى الوكيل لهم حادثة الصبية. عندئذ قال المعز: «يا إخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شيء، فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم، تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتَّع بها، فقد ضعفت نفوس رجالهم وذهبت الغيرة منهم، فانهضوا بنا إليهم»[٢].

لقد فشل الخلفاء الفاطميون في السيطرة على مصر في جميع حملاتهم من قبل. وعندما توفرت العوامل الذاتية والموضوعية للخليفة المعز، استطاع تحقيق الأمنية التي راودت الفاطميين وقتاً طويلاً. وجاء موت كافور، واضطراب الأحوال في مصر، والتنافس على السلطة، ونقمة الجند... بالإضافة للاستعدادات الهائلة والحشودات

---

(٢) المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ١٦٦. واتعاظ الحنفاء (القاهرة) ص ١٤٣.

العسكرية الفاطمية الضخمة، وتسليم قيادتها لأعظم قادة المعز وأكفأ مواليه وأحبّهم إليه من أجل تنفيذ هذه المهمة الخطيرة[3]، وهو أبو الحسين جوهر بن عبد الله المعروف بجوهر الصقلي. . . كل ذلك، سهَّل انتقال مصر إلى الفاطميين، على يد القائد جوهر الذي تمكَّن من فتحها والسيطرة عليها، ثم بنى جامع الأزهر بعد مدة استمرَّت من سنة ٩٧٣ حتى ٩٧٥. وبعد الإنجاز من عملية البناء، استدعى الخليفة المعز إلى القاهرة، فغادر المغرب متوجهاً إلى عاصمته الجديدة في عام ٩٧٥. في هذه الفترة، كانت مصر في ذروة ازدهارها. كان هناك الغنى والرفاهية، والعمران وحياة القصور والتقدم الاقتصادي والثقافي من ناحية، كما كان الفساد وعلب الليل والابتعاد الهائل عن القواعد الدينية من ناحية أخرى. وقد فرض هذا الواقع وجود حركة تأخذ على عاتقها مهمة إعادة الحياة الدينية إلى ما كانت عليه أيام الرسول وخلفائه الراشدين، وتمنع الناس من متابعة السير على طريق الفساد والانحلال.

وجاء موت الخليفة العزيز، المفاجىء في بلبيس عام ٩٩٦[4] ليدفع بأبي علي المنصور للوصول إلى السلطة كخليفة فاطمي في مصر. وقد أخذ المبادرة في إقامة سلطة دينية وسياسية متخذاً من الدين وعقائده أساساً ومرتكزاً، كما اتخذ من «الحاكم بأمر الله» لقباً له.

الحاكم بأمر الله

«ولد» في الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ٣٧٥ هـ، الموافق في الثالث عشر من آب ٩٨٥م. هو ابن الخليفة العزيز. وقد أظهر منذ ساعاته الأولى طموحاً كبيراً يؤهِّله للقيام بدور سياسي وديني معاً.

في الواقع، كانت تصرفات الحاكم بأمر الله وأعماله تدخل في إطار الشواذ بنظر الآخرين في المجتمع الذي كان يعيش فيه، كما استلفتت أنظاراً خارج مجتمعه أيضاً.

---

(٣) عنان، محمد عبد الله «الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية» مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٥٩، ص ٢٧.

(٤) CL. Huart, «histoire des arabes» Tome I, Paris 1912, Page 345 هيوارت، كلود «تاريخ العرب»، الجزء الأول باريس ١٩١٢، ص ٣٤٥.

كان يرى بوضوح فساد المصريين ومجتمعهم ككل، وهو الذي يمتلك ثقافة عالية، ويمارس واجباته الدينية على جبل يصله ممتطياً دابته، هو جبل المقطّم.

كان محباً للعلم والعلماء والفقهاء. وعلى أساس ذلك كان يشجّع المناظرات والنقاشات التي تزيل الكثير من الالتباسات في هذا الزمن الذي كثرت فيه الشيع والمذاهب. ثم بنى «دار الحكمة» التي تعتبر من المنجزات الهامة في عصره، «وجعل منها جامعة علمية نقل إليها الألوف من المؤلفات، وزوّدها بأثمن ما كان في قصره من كتب، وبأدوات الكتابة لمن أراد النسخ. وكان منها قاعات للقراءة والمطالعة، وأخرى للمحاضرات، وغيرها لاجتماع الدعاة والفقهاء. وكان افتتاح هذه الدار في العاشرة من جمادى الآخر سنة ٣٩٥ هـ»[٥]. كانت بمثابة القاعدة لانطلاق حياة روحية جديدة على أساس التعاليم الدينية لعقيدة التوحيد. كما حوّل جامع الأزهر أيضاً إلى جامعة دينية وعلمية كبرى، لعبت ـ وما زالت ـ دوراً مهماً، مؤدية للعلم خدمات جلّى.

وانطلاقاً من فهمه وإدراكه بأن وراء كل سبب مسبِّب، وليس من نتيجة دون سبب أو أسباب، فقد منع حتى زراعة الكرمة التي كانت المصدر الأساسي لاستخراج الكحول. كما أصدر أوامره بأن تبقى الحوانيت مشرَّعة الأبواب خلال الليل، وبغياب أصحابها، كدليل على استتباب الأمن ودقّة المراقبة وقوة السلطة. ومنع على النساء الخروج من بيوتهن ومخالطة الرجال، حتى أنه منع السكّافين من صناعة الأحذية النسائية أيضاً[٦]. «كما حرَّم على النساء أن يكشفن عن وجوههن في الطريق، أو خلف الجنائز، وحرَّم عليهن التزيّن والتبرّج كما حرَّم البكاء والعويل والصياح وراء الموتى، وشدَّد الحاكم في تنفيذ هذه الأوامر، وعوقب كثيرون من المخالفين بالجلد والتشهير والإعدام»[٧]. كما أصدر أوامره أيضاً بمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير والمتوكلية والدلينس، وحرَّم ذبح الأبقار السليمة إلاّ في أيام النحر (عيد الأضحى وغيره) وفي غيرها لا يذبح إلاّ ما كان ذا عاهة أو ما لا يصلح للحرث. وحرَّم بيع

---

(٥) طليع، أمين، «أصل الموحدين الدروز وأصولهم»، منشورات عويدات، الطبعة الثانية ١٩٨٠، صفحة ٨٣.

(٦) ك. هيوارث، المرجع السابق، ص ٣٤٥.

(٧) عنان، محمد عبد الله، المرجع السابق، ص ١٢٩ (عن اتعاظ الحنفاء (المخطوط)، لوحة ٥٩ أ).

الفقاع(*) وعمله بأي صورة، وكان الفقاع مسكراً ذائعاً في ذلك العصر. كما حرَّم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات منذ الغروب إلى الفجر، وأن يزاولوا البيع والشراء بالليل، فخلت الطرق من المارة، وأقفرت الشوارع والميادين بالليل، وغدت القاهرة كالمدينة المحصورة[٨]. ثم صدرت أوامر أخرى تشدِّد على منع عمل النبيذ، وتحريم الخمر والمسكرات والتشدّد في ملاحقة المخالفين.

ولكن الملفت للنظر، أن جميع هذه الأوامر الصادرة عن الحاكم كانت تتميَّز أيضاً، بالشدّة في تنفيذها والعقوبات التي سنّت لمخالفيها. وكان السهر على تطبيقها من أهم واجبات مدبّر الدولة أو قائد القواد[٩].

وجميع هذه الغرائب (على حدّ قول لامنس) تحمل في جوهرها أبعاداً ورموزاً كبيرة، ولا يمكن اعتبارها إلا بهدف تأسيس عقيدة التوحيد والتعرّف إلى الديانة الدرزية[١٠]. ورغم ذلك، يكفي بأنه أعتق العبيد وأعطاهم حرية الاختيار والتصرف. وهذا ما أشار إليه الأنطاكي قائلاً: «وعتق سائر مماليكه وملّكهم أمور نفسهم والتصرف فيها فيما يملكونه واقتنوه من أموالهم وأثاثهم ورباعهم على إرادتهم»[١١]. وتأتي هذه الخطوة في طليعة المآثر التي سطّرها طوال مدة حكمه، حيث قيل فيها: «إن في إعتاق الحاكم للرقيق خطوة ثورية جديرة بالبحث والدراسة، لما تنطوي عليه من قدرة اجتماعية وسياسية واقتصادية لم تشهد مثلها القرون الوسطى»[١٢].

ومن خلال التعمّق في دراسة المجتمع المصري قبل الحاكم وخلال حكمه، نجد أن جميع أعماله وتصرفاته كانت نابعة من المجتمع المصري ذاته بقصد إصلاحه وإبعاد الناس عن الفساد والانحلال الاجتماعي الذي غاص فيه حتى أذنيه. «فالبيئة الجغرافية

(*) الفقاع هو نوع من الشراب يشبه البيرة.

(٨) عنان، محمد عبد الله، المرجع السابق، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٩) المقريزي، الخطط، الجزء الرابع، ص ٨٨.

(١٠) لامنس «الإسلام عقائد ومؤسسات» ص ٢١٣

HENRI Lammens, «L'islam Croyances et Institutions» Beyrouth 1943, Page 213.

(١١) الانطاكي، يحيى بن سعيد، تاريخ الانطاكي، ص ٢٢١.

(١٢) أبو صالح، عباس. مكارم، سامي «تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي»، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، بيروت ١٩٨٠، ص ٦١.

والـوضع الاجتـماعي الزاخـر بالأغـراب، متعدِّدي الأهـواء والجنسيـات والـطقـوس، والوضع الاقتصادي الذي بلغ أقصى الثراء، كلها تسوق إلى المزالق، إذا لم يكن هناك وازع نفسي مـع سلطة توجّـه وتبطش في وقت معـاً»[١٣]. ولم تكن هـذه السلطة سـوى سلطة الحاكم نفسه.

أما فيما يتعلَّق باختفائه، فقد تضـاربت الروايـات حولـه. فمنها مـا أشارت إلى الدور الذي لعبتـه أخته «ست الملك» في عمليـة قتله والتخلّص منه بـواسطة مؤيـديها وأنصارها وعلى رأسهم زعيم قبيلة كتامة، والتي كانت تعتبر من أشهر القبـائل وأقـواها بأساً في عهده. ومنهم من قال بأن «موته (الحاكم) لغز على الأيام، وجدت ثيابه مزرَّرة عـلى ضفة البحـيرة، ولم يوجـد له أثـر». وقال فيـه المستشرق دوزي نقلاً عن الـواقـع الدرزي للقاضي أمـين طليع ص ٦٤: «كـان الحاكم لغـز عصره، ذهن بعيد الغـور، وافر الابتكار، وعقلية تسمو مجتمعها بمراحل»[١٤].

والكثير من المؤرِّخين ظلموا الحاكم بحكمهم عليه وكالـوا له الاتهـامات التي لا تحصى ولا تعدّ. وبقي قلائل منهم وفوه حقه وتكلَّموا عنه بصدق وواقعية، انطلاقاً من الفهم العميق لطبيعة العصر، والدراسة الوافية لشخصيته وأعماله وتصرفاته على ضـوء المجتمع ذاته. هؤلاء المؤرِّخون (كمحمد عبـد الله عنان، وعبـد المنعم ماجـد، ومحمد كامل حسين، ومحمد علي الزعبي وغيرهم) كتبوا بمـوضوعيـة وبمنطق تـاريخي صحيح، بعيـداً عن التحيّز والـتزييف والدجـل. وأشار الأستـاذ عبد المنعم مـاجـد إلى منـاقب الحاكم في كتابه «الخليفة المفترى عليه» قـائلاً: «أضـاف أعاديـه (الحاكم) عـلى سيرتـه تزييفاً وتحيّزاً وتشويهاً لم يعرف له مثيل... إنه شخصية صوفية مثـالية نـادرة، لا تهتمّ إلاَّ بالعمل والواجب... لم تفهم تصرفاته الفهم الصحيح... ارتقى ذروة الفضـائل وهو صبيّ... يتفانى في القيام بواجبه عند المجاعات والمظالم... إلخ»[١٥].

ومن المتفق عليه «أن اختفاء الحاكم كان فجأة ليلة السابـع والعشرين من شوال

---

(١٣) أبو شقرا، سامي. «مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ»، مطبعة ناصيف، عماطور، ١٩٧٩، ص ٤١.
(١٤) و(١٥) نفس المرجع، ص ٤٠ وص ٤٠ ـ ٤١.

عـام ٤١١ هـ (١٣ شباط ١٠٢١) وبـطريقة غـامضة لم تعـرف تفـاصيلهـا»[١٦]. ولكن الموحّدين الدروز لا يعتقدون مطلقاً بموت «الحاكم»، وينتظرون عودتـه بفارغ الصـبر. فبالنسبة لهم قد دخل في الغيبة مستتراً، وينتظرون رجوعه كالمهدي المنتظر[١٧].

---

(١٦) ك. هيوارت، المرجع السابق، ص ٣٤٧ CT. Huart, op., p. 347

(١٧) Histoire des religions, Tome 3 , Sous la direction de Henri Charles Puech, Encyclopédie de la pleiade, Edition goullimand, Paris 1976, P. 166-167.

تاريخ الأديان، الجزء الثالث، باشراف هنري شارل بيوش، باريس ١٩٧٦، ص ١٦٦ - ١٦٧.



الفصل الثاني

إعلان الدعوة

أعلنت الدعوة التوحيدية (الدرزية) سنة ٤٠٨ هـ/١٠١٨م، وهي سنة «الكشف»، حيث يعتبر هذا التاريخ نقطة بارزة في تاريخ الطائفة، ممثلاً السنة الأولى في انطلاقها. وكان الداعي محمد بن اسماعيل الملقَّب بنشتكين الدرزي، من أوائل المقرّبين للحاكم والعاملين بمساعدته على نشر الدعوة، خاصة في منطقة الشام، ووادي التيم على الأخص. ولكن المكانة التي احتلّها كبير الدعاة وإمامهم، حمزة بن علي الزوزني، لدى الحاكم بأمر الله، أدّت إلى تقليده الإمامة مما أثار الحسد والضغينة في نفس نشتكين الدرزي، وبدأ ارتداده يأخذ وجهه العلني ضد حمزة ودعوة التوحيد ككل. ويعتبر حمزة بن علي المؤسِّس الحقيقي لمذهب التوحيد وواضع فلسفته.

وإذا مثّلت سنة ٤٠٨ هـ، انطلاقة الدعوة بصورة علنية، فإن ذلك لا ينفي وجودها قبل هذا التاريخ، والخطوات التي قام بها الحاكم بأمر الله لا تنفصل أبداً عن عملية التحضير لها بل وكانت جزءاً منها. ويشير الأستاذ عبد الله النجار إلى أن «الدعوة بدأت سرّية قبل ٤٠٨ هـ»[1]. ومما يجدر ذكره هنا هو أن أحمد حميد الدين الكرماني الذي كان حجّة العراقين وأكبر مفكّري الاسماعيلية وفد على مصر في عام ٤٠٨ هـ، فوجد أحوالها مضطربة بأمر دعوة جديدة تدور حول الحاكم بأمر الله، محدثة البلبلة في نفوس أصحاب الدعوة الاسماعيلية الفاطمية بمصر. فكانت رسالته «مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله»[2]. ولم تكن هذه الرسالة هي الوحيدة التي

---

(١) النجار، عبد الله، مذهب الدروز. والتوحيد، دار المعارف بمصر ١٩٦٥، ص ١١١.

(٢) الكرماني، أحمد حميد الدين، «رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله»، منشورة ضمن كتاب =

كتبها الكرماني في إثبات صحّة إمامة الحاكم، بل سبقها رسالتان هما «المصابيح في الإمامة» و«الرسالة الكافية في الرد على الهاروني» (٣).

ومن المعروف أن الكرماني الذي لقّب بحجّة العراقين، والذي كان من أكبر مفكّري الاسماعيليين، كان يحتلّ مكانة مرموقة في عالم الفقه والدين والقلم، ولا مجال للحكم عليه خاصة وأنه عاش الحدث بتفاصيله، بصدق وواقعية بعيداً عن الزيف والتشويه.

الصراع بين حمزة بن علي ونشتكين الدَرَزي:

كان محمد بن اسماعيل الملقَّب بنشتكين الدَرَزي، من الدعاة الأول، قبل إعلان الدعوة، ومن أكثر المقرَّبين للحاكم (حيث من المرجح أن الدعاة قد بثّوا سرّاً قبل هذا التاريخ تمهيداً لإعلانها فيما بعد)، كما تعتبر منطقة ديار الشام ومنها وادي التيم في «لبنان»، المنطقة التي تولّى فيها نشتكين أمر الدعوة ونشرها، وكان رئيساً لدعاتها. وسمّي معتنقو المذهب الجديد «بالدروز» نسبة إليه، ولكنهم يرفضون هذه التسمية ولا يقبلون إلا «الموحّدين» أو «الأعراف». كما عرفوا في سوريا باسم «بني معروف». بيد أن سياسة الدَرَزي في استمالة الأتباع واستخدام العنف في إجبار المعتنقين، وسوء تصرفه واستعماله للسلطة، بالإضافة لتقليد الإمامة لحمزة بن علي من قبل الحاكم واحتلاله للمرتبة الأولى لديه، كل ذلك أدّى بنشتكين لمنافسة حمزة على السلطة والتنكّر لإمامته وإعلان ارتداده عن الدعوة بصورة علنية.

لم يقف نشتكين بمفرده في وجه حمزة، بل وقف إلى جانبه عدد من الدعاة الآخرين على رأسهم البرذعي أبا منصور، وأبو جعفر علي بن أحمد الحبَّال الذي كان مأذوناً لحمزة وعلى يديه استجاب نشتكين الدَرَزي. ويقول حمزة: «وأما البرذعي فأنا أرسلت إليه ودعوته إلى التوحيد... فأقسم أنه لا يدخل في هذا المذهب إلا بتوقيع من مولانا. فلما أرسل إليه الدرزي رسوله ومعه ثلاثة دنانير وأوعده بالمركوب والخلع،

= طائفة الدروز، للدكتور محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٦٢، ص ٥٥ - ٥٦. والطبعة ٢، ١٩٦٨ ص ٥٢ - ٥٣.

(٣) بدوي، عبد الرحمن، «مذاهب الإسلاميين»، الجزء الثاني، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٣، ص ٥٨٥.

مضى إلى عنده، وفتح له أبواب البلايا والكفر»[٤].

والواضح أن الخلاف بين حمزة ونشتكين بدأ قبل السنة الأولى للدعوة[٥]. حتى ولو كانت الإمامة، أساس الخلاف وسبب النزاع والمنافسة. وقد وجّه حمزة كتاب «تنبيه» إلى نشتكين في نهاية عام ٤٠٨ هـ، ومما جاء فيه: «إن كنت تدّعي الإيمان فأقرّ لي بالإمامة كما أقررت في الأول... من غير أن تلعن أحداً... لأن اللعنة لا تزيد في الدين ولا تنقص منه. وخاطب الناس بالتي هي أحسن. فإن مولانا يحب المحسنين. فإذا فعلت مالت قلوب العالم إلينا»[٦].

يبدو من خلال ذلك أن ثقة الحاكم بحمزة وتقليده الإمامة، سبقت إعلان الدعوة، ـ أو توافقت معها على أبعد تقدير ـ لا كما تشير الانسيكلوبيديا الإسلامية محدّدة عام ٤١٠/١٠٢٠، تاريخ دعم الحاكم لحمزة، وإحلاله في المرتبة الأولى بدل نشتكين، حيث ورد فيها ما يلي: في عام ٤١٠/١٠٢٠، أعلن الحاكم دعمه ومساندته لقائد آخر (غير نشتكين) هو حمزة بن علي من زوزن (بلاد فارس)، والذي أعطى لمذهب الحاكم شكله الدرزي النهائي[٧]. فهو الزعيم الفكري للدعوة الجديدة وواضع فلسفة العقيدة الدرزية على حدّ قول فيليب حتي[٨].

ومحمد بن اسماعيل هذا (الدَرَزي) من أصل فارسي (والدَرَزي لفظة فارسية معناها خياط)[٩]، كان كبير الدعاة وأعظمهم شأناً لدى الحاكم، وأكثرهم قوة قبل بروز حمزة. وعندما كلّفه الحاكم بنشر الدعوة كان يجبر الناس بالقوة على اعتناقها. وقد اشتهر بالبطش مستنداً للحاكم وثقته وسلطته القوية. وكان يعتبر الآمر الناهي، شديد

---

(٤) النجار، عبد الله، المرجع السابق، ص ١١٢. ومحمد كامل حسين، المرجع السابق ص ٧٧.

(٥) حسين، محمد كامل، المرجع السابق، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٦) النجار عبد الله، المرجع السابق، ص ١١٢.

(٧) Encyclopédie de L'Islam, établie avec le concours des principaux orientalistes par: B. LEWIS, CH. Pehiat et J. schacht, 1956, Tome 2, p 647

الانسيكلوبيديا الإسلامية، باريس ١٩٥٦، الجزء الثاني، ص ٦٤٧.

(٨) حتي، فيليب، لبنان في التاريخ، دار الثقافة، بيروت، الطبعة ٣، ١٩٧٨، ص ٣١٨.

(٩) كرد علي، محمد «خطط الشام»، الجزء ٦، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٢، ص ٢٦٣، وفيليب حتي، المرجع السابق، ص ٣١٥. وعبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ص ٥٩٥.

التأثير نظراً لشخصيته المدعومة، وصلة الوصل بين الحاكم والبشر. إلا أن ظهور حمزة بن علي وتقدّمه في أمر الدعوة، وزيادة تأثيره، أصبح يدخل على الحاكم دون وساطة الدَرَزي الذي بدأت تساوره الشكوك في الوقت الذي بدأت فيه قوته بالضعف ونفوذه بالتراجع. وجاء حرمانه من تقليده الإمامة ـ وهو الأقدم من حمزة ـ ليزيد الطين بلّة. وعندما اعترض لدى الحاكم على حمزة، كان جواب الحاكم: «حمزة منّا أهل البيت»، وهو الجواب نفسه الذي حسم به النبي الخلاف الذي نشب عند وقعة الخندق (أو وقعة الأحزاب)، حول سلمان الفارسي قائلاً: «سلمان منّا أهل البيت». ثم أخذت منافسة نشتكين لحمزة تكبر وتزداد، وبلغت نقمته الذروة يوم طالبه بالإمامة، فأجابه حمزة قائلاً: «إن الإمامة لا يشترك فيها اثنان في وقت واحد. فإنها نور كلّي لا يقبل الانقسام»[10]. وبما أن نشتكين لا يستطيع التصرف مع حمزة كما يتصرّف مع الآخرين، وهو الذي أجبر على الاعتراف بإمامة حمزة بكتابة «العهد» على نفسه، فقد صمّم على التخلّص من حمزة بن علي والقضاء عليه.

ولعب البرذعي أبو منصور، دوراً هاماً في ارتداد الدَرَزي بعد أن أوغر صدره بقوله له بأنه الأحق بالإمامة من حمزة على أساس أقدميته في الدعوة وأنه أهل لها. واشتركا معاً في الارتداد والخروج عن التوحيد.

وازدادت نقمة الموحّدين على الدَرَزي، بعد أن «عمد إلى التشويه والتحريف في رسائل حمزة بقصد التنفير والاستعداء كما فعل الداعي المرتد سكين، وابن البربرية «المعتوه الذي ادّعى منزلة الإمام المسيح» و«لاحق» الذي استوجب النقمة بالتحريف وزخرفة الآيات المكذوبة، و«محلاّ» و«مصعب» وغيرهم[11]. وفي هذه الأثناء، حصلت معارك دامية بين أهل التأويل وأهل التنزيل ذهب ضحيتها أربعون شخصاً من أهل التأويل[12]، وكان ذلك يوم أربعاء. لكنهم هدروا دم هؤلاء الأربعين ثم اتفقوا فيما بينهم على ضرورة القضاء على حمزة بن علي وإخوانه. وفي اليوم الثاني، شنوا هجومهم

(١٠) النجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ١١٤.

(*) يشير الاستاذ فيليب حتي إلى أن الدَرَزي هو من أصل تركي (لبنان في التاريخ، ص ٣١٥).

(١١) عبد الله النجار، مرجع سابق، ص ١١٤.

(١٢) مقابلة مع أحد أتقياء الدروز المشهود لهم بالعلم والمعرفة الدينية.

على المسجد الذي يتواجد فيه حمزة ورفاقه، وهو مسجد «ريدان» في القاهرة وعددهم اثنا عشر شخصاً بينهم خمسة لا يصلحون للقتال. بينما كان المهاجمون من أنصار نشتكين يزيد عن عشرين ألفاً. وهكذا نشب القتال بين هؤلاء السبعة(*) المعتصمين في مسجد «ريدان» وجيش نشتكين، طوال النهار، ولم يتمكّنوا من الدخول للمسجد، حتى كادت أنفس السبعة تتلاشى بينما حمزة يحثّهم على الصبر والقتال مؤكّداً لهم هزيمة أعدائهم وانتصارهم هم. وعند المغرب، أطلّ الحاكم بأمر الله على شرفة قصره المطلّ على المسجد، فتراجعت جموع المقاتلين عند رؤيته، وانتصر حمزة بن علي، وقتل نشتكين الدَرَزي أمام مسجد «ريدان». وكان ذلك ليلة الجمعة من أوائل السنة الثانية لحمزة أي سنة ٤١٠ هـ(١٣).(إن سنة ٤٠٩ هـ، لا تحسب من سني حمزة لأنه كان متخفِّياً، ولم يمارس فيها سلطته، وقالوا إن القصد من غيبته امتحان الموحّدين، كما ذكر: «أنه يمتحن الخلق بغيبته في التاسعة»).

بعد هذه الغيبة، رجع حمزة إلى نشاطه من جديد في بداية العاشرة (٤١٠ هـ) ليتوّجها بالقضاء على زعماء المرتدين: نشتكين والبرذعي وعدد كبير من أتباعهما، مدعوماً بقوة الحاكم وسلطته. وهذا ما تطرّق إليه مشيراً إلى غيابه وعودته قائلاً: «ومولانا جل ذكره لا يستر عبده الهادي إلى عبادته عن عبيده أياماً يسيرة (سنة ٤٠٩) إلا لما يريد من إظهاره على سائر العبيد (سنة ٤١٠) ويؤيده بالقدرة والتأييد». وليس صحيحاً ما ورد في «شذرات الذهب» لابن عماد، ووافقه عليه عبد الرحمن بدوي في حاشية كتابه «مذاهب الإسلاميين الجزء ٢» بأن «الدَرَزي قتل سنة ٤٠٨ وقطع لكونه ادّعى ربوبية الحاكم» (١٤).

ويمثل عام ٤١٠ هـ، أي السنة الثانية من سني حمزة بن علي، نقطة مهمّة وبارزة في تاريخ الطائفة. في سنة ٤١٠ هـ، وبعد موت الدَرَزي، حاول حمزة جمع حركة التوحيد كلها تحت قيادته وتوجيهه. وكانت عقيدته أكثر وضوحاً وأصالة منها

(*) كان هؤلاء السبعة: التميمي والقرشي والسامري والمقتنى والجد والفتح والخيال.

(١٣) ليس صحيحاً ما ذكره فيليب حتي في كتابه «لبنان في التاريخ» ص ٣١٨ نقلاً عن يحيى بن سعيد الانطاكي في ابن البطريق ج ٢، ص ٢٢٣ بأن الدرزي قتل في وادي التيم بعد سنتين قضاهما في الدعوة إلى الحاكم.

(١٤) بدوي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص ٥٩٤ نقلاً عن «شذرات الذهب» لابن عماد، ج ٣، ص ١٨٦.

عند الدَرَزي. هي كما عند الاسماعيليين بشكل عام، عقيدة الانبعاث الكونية للواحد الأحـد والعودة إليـه بمعرفـة روحية انسـانية. . . ولهـذا أطلق حمزة عـلى أتبـاعـه اسم «الموحّدين»(١٥).

محنة الموحّدين على أيدي بعض عمّال علي الظاهر:

بعد غيبة الحاكم وحمزة، اعتلى علي الظاهر العرش كخليفة على الفاطميين، وعلى يد بعض عمال هذا الأخير، تعرَّض الدروز لمحنة كبرى، (بعد أن قطع على نفسه عهداً بعدم إيذائهم والتعرّض لهم)، هادفاً إبادتهم واستئصالهم لأنهم رفضوا الاعتراف بإمامته وإعلان ولائهم له، لأنهم كانوا يؤمنون بأن الإمامة انتهت من الحاكم إلى حمزة بن علي تحت اسم «إمام الزمان» ولا يعترفون بأحد سواه، وهو مرجعهم وإمامهم الكبير.

عانى الموحدون خلال حكم الظاهر شتى أنواع الاضطهـاد والتنكيل، كـما ذهب منهم عـدد كبير من الضحـايا في الـوقت الذي دامت محنتهم فيـه ست سنـوات وعـدة أشهـر. بيد أنهم، رغم هـذه النكبات، تـابعوا سـيرهم بإيمـان عميق دون أن يزعـزع عقيـدتهم خوف التنكيـل والموت. وكـانت معركـة **الأقحوانـة** في فلسطين في ١٢ آذار ١٠٢٩، الامتحـان الأكثر أهميـة في تاريخهم منـذ غياب الحـاكم وحمـزة. ودارت بينهم وبين أعدائهم رحى معركة كبرى أثبت الموحدون خلالهـا قوتهم العسكـرية تحت أمـرة القائد الفاطمي أنوشتكـين الدزبـري والأمير رافـع بن أبي الليل ضـد أعدائهم بقيـادة صالح بن مرداس، حسان بن مفرّج وسنان بن عليّـان. لقد حقق المـوحدون في هـذه المعركة انتصاراً ساحقاً بعد ان قتل ابن مرداس بسيف رافع بن أبي الليل نفسه مما أدى فيما بعد إلى **محنة انطاكية** عام ١٠٣٢ على يدي نصر بن صالح بن مرداس مدعـوماً من البيزنطيين ضد الموحدين. هذه المحن ساهمت في القضاء على عـدد كبير من المـوحدين ودفعت أعداداً أخرى منهم لاعتناق المذهب السائد وفق مبـدأ «التقية». ويبقى لمعـركة الأقحوانة المكانة السامية في تاريخ الموحدين السياسي والعسكري والـديني. فهناك «في سهل الأقحوانة وجوار حطين كان بناء الطائفة الدرزية العكسري المتين، وفيهـا تفيأت

(١٥) الانسيكلوبيديا الإسلامية ص ٦٤٧ - ٦٤٨. Encyclopédie de L'Islam. op, p. 647-648.

راية الأمير أنوشتكين وانتسبت بفخر إليه، وهناك تعاقدت الأيدي، وعلى مقام شعيب القائم في الأقحوانة ما بين طبرية وحطين عقدت المواثيق وتليت الأقسام (جمع قَسَمْ) وعرّفت الدرزية بأخوّة سلاح، ومعمودية دماء فرقة عسكرية لا تنوء ولا تلين(١٦).

على هذا الأساس يبني الأستاذ سليم أبو إسماعيل استنتاجه بأن الدروز بعيدون جداً عن نسبتهم إلى نشتكين الدَرَزي، وهم لا ينتسبون إلا «للقائد الفاطمي الأمير أنوجور أبي منصور أنوشتكين الدُزْري». فإذا صحّ وجود هذا الاسم، فاستنتاجه «اليتيم» يزيل جميع الالتباسات وينفض الغبار عن جوهر الانتماء الحقيقي للتوحيد المتمثل بالانتساب (اسمياً) إلى المرتدين، بل لزعيمهم وقائد نهجهم الارتدادي.

ولكن كيف تغافل أبو إسماعيل عن ذكر القائد رافع بن أبي الليل ودوره في معركة الأقحوانة، وهو الذي قتل بسيفه صالح بن مرداس؟

ومن خلال العودة إلى المصادر التاريخية نلاحظ أن القائد الفاطمي الذي كان يقاتل إلى جانب رافع بن أبي الليل كان اسمه أنوشتكين الدُزْبري قائد الظاهر في بلاد الشام(١٧)ضد الحلف المعادي الذي كان يتألف من صالح بن مرداس وسنان بن عليّان وحسان بن مفرّج بن دغفل بن جرّاح أمير الرملة(١٨)وسجّل النصر فيها للموحدين.

وليس من العجب مطلقاً أن تتنكر الطائفة لنشتكين الدرزي، وأن ترفض التسمية باسمه والانتساب إليه. ذلك لأن هذه الطائفة عاداتها وتقاليدها التي تعتبر جزءاً من أصالتها ووجودها. والكثير من أبناء الطوائف الأخرى الذين يعيشون بين

---

(١٦) أبو إسماعيل، سليم، «الدروز» مطابع فضول، بيروت ١٩٥٥، ص ٦٥.

(١٧) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة «ذيل تاريخ دمشق»، نشر الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨، ص ٧٣. وابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد، «زبدة الطلب من تاريخ حلب»، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٩٥١ - ١٩٦٨، ص ٢٣١. وابن الأثير «الكامل في التاريخ» دار صادر، بيروت ١٩٦٥ - ١٩٦٧، الجزء السابع ص ٢٦١.

(١٨) ابن خلدون، عبد الرحمن، «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر»، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٩، ج ٤، ص ٥٨١ - ٥٨٢.
وأيضاً لامنس، «سوريا..» الجزء الأول ص ١٥٣. والجزء الثاني ص ١٠٩.
Lammens, «la syrie», Tome I,P. 153. et Tome 2 , Page 109

«الـدروز» يدركـون جيداً مـدى أهمية العـادات والتقاليـد في حياة الـطائفة ككـل. كما يلاحظون تمسك الطائفـة بهذه الإصـالة التي أصبحت تمشي مـع الدم وتنخـر العظم. وإذا خرج أحد الأبناء عن طاعـة أبيه، وعن القـواعد التي تعتـبر مقدسـة من الناحيـة الدينية، فكثيـراً ما نـرى بأن الأب يعلن عـلى الملأ نكـران ابنه، وبـأنه لا يمت لنسبـه بصلة ولا علاقة له به.

فإذا كان ذلك ما يتعلق بأحد الآباء «الدروز» تجاه ولده، فكيف بطائفة بكاملها لها عاداتها وتقاليدها وأصالتها؟

على هذا الأساس يرفض أبناء عقيدة التوحيد تسميتهم «بـالدروز»، ولا يقبلون إلا «الموحدين» أو «الأعـراف» أو «بني معروف». «وكنيتهم هـذه تعود لإمـام الدعـوة التوحيديـة حمزة بن عـلي الذي بـدأ بنشر هذه الـدعوة في سنـة ٤٠٨ هـ/١٠١٨، من القـاهرة في ظـل الخلافـة الفاطميـة، فقد كنّـاهم بقـولـه «كنّيتم بـالأعـراف ووصفتم بالأشراف. وأمرهـم في إحدى رسائله: «أأمروا بالمعروف وهو التوحيد وانهوا عن المنكر وهو الشرك. إذاً بني معروف هم أبناء التوحيد»[١٩].

وبعـد مقتل نصر بن صـالح بن مـرداس، وسيطرة الفـاطميين عـلى حلب بعـد انتصارهم على المتمـردين، عاش المـوحدون فـترة من الأمن والاستقرار، بعيـدين عن الملاحقات والمحن. أما دعوة التوحيد فقد عادت إلى الظهور من جديد على يد «المقتنى بهاء الدين» بمساعدة وتوجيه «إمام الزمان» حمزة بن علي، الذي كـان متخفياً في مكـان سرّي في القاهرة، وكان بهاء الدين على علم به واتصال معه. أما فيما يتعلق «بالحدود» الآخرين، فإنهم غابوا كما غاب الحاكم وحمزة، بينما تسلّم بهاء الـدين أمر نشر الـدعوة وهـو أصغر الحـدود، لأنه «الجنـاح الأيسر» أو التالي، وهـو الذي يمثـل لسان الـدعوة (لسـان المؤمنين وسنـد الموحـدين»، وإليه يعـود الفضل في نشر عـدد كبير من رسـائل الـدعوة. «ولـه من الحـدود ثـلاثـة هم الجدّ، أيـوب بن عـلي. والفتـح، رفـاعـة بن عبد الوارث. والخيال، محسن بن علي»[٢٠].

---

(١٩) أبو زكي، فؤاد، «ثلاثة أدباء روحانيين من بني معروف»، رسالة ماجستير غير مطبوعة نوقشت في الجامعة اليسوعية عام ١٩٨٠ باشراف الدكتور جبور عبد النور، المقدمة ص ٦.

(٢٠) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٥١١.

ويعود تقليد المقتنى لرتبته هذه من قبل إمام الزمان، إلى السنة الثانية من سنيّ حمزة، في ١٣ شعبان سنة ٤١٠، كما تدل على ذلك رسالة عنوانها «تقليد المقتنى» وآخر تاريخ ورد في رسائل المقتنى بهاء الدين هو تاريخ ٤٣٣ هـ»[٢١].

إلا أن إقفال باب الدعوة، كان في عام ٤٣٦ هـ أو ١٠٤٣ م. وعلى هذا الأساس يشير الدكتور عادل إسماعيل إلى أنه في عام ١٠٤٣ م، وفي وسط العالم الإسلامي المعادي للعقيدة الجديدة، خلص بهاء الدين وحمزة إلى وقف دعوتهم والتبشير لها وذلك بالإعلان عن إقفال باب الانتساب إليها[٢٢]. موصين بالتقيد بأصول المذهب والمحافظة على تعاليم الرسائل التوحيدية. ومنذ ذلك الوقت، أثبت الدروز وجودهم كطائفة دينية لها تاريخها وعاداتها وتقاليدها الخاصة:

---

(٢١) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٦٠٣.

(٢٢) إسماعيل، عادل، «تاريخ لبنان» الجزء ١، باريس ١٩٥٥، ص ٣٠. Ismail, Adel, «l'histoire du Liban, Tome I, Paris 1955, Page 30.

الفصل الثالث

أركان الدعوة أو «الحدود»

«الحدود» في عقيدة التوحيد خمسة من كبار أركانها كان لهم الدور الأول والأساس في إرساء دعائمها وانتشارها. وهم:

١ ـ حمزة بن علي بن أحمد الزوزني:

هو من أصل فارسي من زوزن (في إيران اليوم). وهو تجسيد للعقل الكلي. وله ألقاب متعددة، كهادي المستجيبين، والمنتقم من المشركين، «ولد في زوزن من أعمال خراسان في بلاد فارس سنة ٣٧٥، مساء الخميس في ٢٣ ربيع الأول. وهو اليوم (والتاريخ) الذي «ولد» فيه «الحاكم» بمصر... ظهر في جميع الأدوار بأسماء مختلفة [(١)]. قرّبه الحاكم إليه وأخصّه بالإمامة. كان مميّزاً عنده كما كان الوسيط الأوحد إزاء الله والقنال الذي يمتلك كل المعارف التي هي ما فوق الطبيعة على حد قول لامنس اليسوعي[(٢)].

كانت ممارسته الدينية مع اتباعه وانصاره من جملة العوامل التي أدخلته في صراع مع نشتكين الدَرَزي، الذي كان من أقدم الدعاة وأكثرهم نشاطاً للدرزية[(٣)]، حيث كان يمارس سياسته بطريقة مخالفة لطريقة حمزة. وفي الوقت الذي كان فيه نشتكين

---

(١) كرد علي، محمد، «خطط الشام» الجزء السادس، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٢ ص ٢٦٥. وسلمان، توفيق، «أضواء على تاريخ مذهب التوحيد»، بيروت ١٩٦٣، ص ٢٩ والنجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ١٢٣.

(٢) لامنس، هنري، «الإسلام، عقائد ومؤسسات» بيروت ١٩٤٣، ص ٢١٥ - ٢١٦ (باللغة الفرنسية).

(٣) لامنس، هنري، المرجع السابق، ص ٢١٣ Lammens, H. op., Page 213

يمارس استخدام العنف وإكراه الناس على اعتناق المذهب، مستنداً لاسم الحاكم وثقته به، كان حمزة بن علي يكره استخدام القوة في استمالة الأتباع مطبقاً المبدأ الذي انتهجه النبي محمد «لا إكراه في الدين»، مؤمناً بأن اعتناق العقيدة الجديدة أمر اختياري حر. وقد رأينا أن الحاكم بأمر الله أعتق العبيد، حتى إذا استجابوا للدعوة، يكون ذلك بملء اختيارهم وإراداتهم ودون أي إكراه.

وبعد موت الـدَّرَزي، وخروج حمزة منتصراً في صراعه مع المرتدين، أصبح «الناطق الرسمي» لدى الحاكم والمؤسس الحقيقي للنظام الديني لدى الدروز[٤]. وهو الذي وضع «العهد» (الميثاق)، ويعتبر واجباً مقدساً، يتلوه كل موحد بصوت منخفض كل صباح ومساء. ونستطيع القول أن «حمزة بن علي كان بدون ريب، سيداً من أسياد الملك الحكمي التالد والطريف، ومن أغزر واخطر الشخصيات الفكرية والتنظيمية القيادية والروحية التي تبرز لنا في منعطفات التاريخ»[٥].

كان اللون الأخضر شعاراً له. اختفى بعد غيبة الحاكم بوقت قصير في نهاية عام ٤١١ هـ.

٢ ـ أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي:

هو تجسيد للنفس الكلّية، وصهر حمزة بن علي. يمتص العلم من الإمام الأعظم (العقل الكلي). يحتل المرتبة الثانية بعد حمزة، والأكثر شهرة بينهم بضربة سيفه القاطعة. أخ وصهر حمزة بن علي. وقد قلّده حمزة وقال فيه: «فجعلتك خليفتي... وجعلت لك الأمر والنهي على سائر الحدود، تولي من شئت وتعزل من شئت. من خالفك فقد خالفني، ومن أطاعك فقد أطاعني»[٦]. وقد اتخذ من اللون الأحمر شعاراً له.

وللتميمي كتب عديدة أشهرها «تقسيم العلوم وإثبات الحق وكشف المكنون».

---

(٤) لامنس، هنري، المرجع السابق ص ٢١٤ Lammens, H. op., P. 214

(٥) مكارم، سامي «أضواء على مسلك التوحيد ـ الدرزية»، دار صادر، بيروت ١٩٦٦، المقدمة بقلم كمال جنبلاط، ص ٥٠.

(٦) النجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ١١٥ ـ ١١٦.

وكتاب آخر عنوانه «اليونان»، أشار فيه إلى الدَرَزي وارتداده قائلاً: «إن الدَرَزي تكبّر فسقط إلى الحضيض لأن الكبرياء أصل المآثم... إياكم وهذا الشقي.. لكونه عصى دعوة المولى وخالقه.. واعتقد بالحلول [مذهب المنصور الحلاج الصوفي]»[7].

وعند تعرّض الدروز (عقالاً وجهالاً) إلى أي مصيبة أو ضائقة، سرعان ما تسمع أصواتهم تستنجد منادية «يابو إبراهيم»، كدليل على الإيمان من ناحية وشهرة سيفه القاطع من ناحية أخرى لانقاذهم من المأزق الخطر الذي أصابهم.

٣ ـ أبو عبد الله محمد بن وهب القرشي:

هو تجسيد «الكلمة». وبشير المؤمنين يحتل المرتبة الثالثة بعد النفس الكلية. والعقل الكلي ويستمد قوته منها[8]. كان اللون الأصفر شعاراً له.

قلّده حمزة بن علي في شهر شوال ورفع درجته إلى منزلة «الكلمة» بقوله: «فرفعت درجتك، وأضفت إلى منزلتك، وهي المنزلة التي كانت للشيخ «المرتضى» قدس المولى روحه، وأنت تسلّمت علومه «وحدّه». وواريته في تربته وقد سُلِّمت إليك جميع كتبه التوحيدية.. لا فوقك أحد أعلى منك غير صفوة المستجيبين (النفس) الشيخ «المجتبى»[9].

٤ ـ أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري:

وهو «الجناح الأيمن» أو (السابق)، نظام المستجيبين، كان شعاره اللون الأزرق. جاء ذكر تقليده في الرسالة الخاصة بتقليد المقتنى بهاء الدين، الذي تقدمه الشيخ «المصطفى» أبو الخير[10].

٥ ـ بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد السمّوقي المشهور «بالضيف»:

وهو «الجناح الأيسر» أو (التالي)، الشيخ المقتنى، لسان المؤمنين وسند

---

(٧) النجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ١١٤.

(٨) لامنس، هـ، مرجع سابق، ص ٢١٤ Lammens, op. P. 214

(٩) النجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ١١٦.

(١٠) النجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ١١٨.

الموحدين. جاء في تقليده «فجعلناك الجناح الأيسر، إذ كان الشيخ «المصطفى» قد تقدّمك وهو سلامة بن عبد الوهاب»[11] وكان شعاره اللون الأبيض.

ولعب «المقتنى» دوراً هاماً بعد غياب الحاكم وحمزة و«الحدود» الآخرين، إذ تنسب إليه مجموعة كبيرة من رسائل الدعوة حتى الاعلان عن إقفال بابها عام ٤٣٦ هـ. كما أنه عاش المحن والاضطهادات التي تعرض لها الموحدون بعد الغيبة. ويأتي بعد «الحدود الخمسة» عدد من الدعاة والمأذونين والمكاسرين، يجسدون الجد والفتح والخيال. كما يخضع الموحدون بدورهم لجميع هؤلاء[12].

الأركان الأساسية لعقيدة التوحيد

١ ـ صدق اللسان:

(الصدق تكتب بالسين وليس بالصاد وذلك حسب حساب الجمّل). يعتبر الصدق من أولى الواجبات المقدسة لدى الموحدين، ـ بين اتباع المذهب على وجه الخصوص ـ. وهو أمر ممارسته إجبارية بين جميع أبناء الطائفة الذين يعتبرون أخوة في الحقوق والواجبات. والصدق في نظرهم «رأس الإيمان لأنه يمثل العقل، والكذب أصل البهتان لأنه يمثل الشيطان. ومن مستلزمات الصدق الوفاء بالوعد والمحافظة على العهد»[13].

أما من ناحية أخرى، وفي ظل المحن والاضطهادات، فإنهم مارسوا مبدأ «التقية» مع غير الموحدين وهو «الاستتار بالمألوف والنهي عن المنكر». وتطرّق الإمام جعفر الصادق لموضوع التقيّة قائلاً «التقية دين الله والتحصين سيفه ولولاهما لما عُبد الله». وبنفس المعنى أيضاً قال: «ما عُبد الله بأحسن من التقية»[14].

---

(١١) النجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ١١٨. وبدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٦٠٣.

(١٢) الانسيكلوبيديا الإسلامية، ص ٦٤٨، Encyclopédie de l'Islam, op., P.648

(١٣) طليع، أمين، مرجع سابق، ص ١٣٣.

(١٤) مكارم، سامي، مرجع سابق، ص ٩٧ نقلاً عن الإمام جعفر الصادق في «الحكم الجعفري»، جمعه وحققه وقدّمه عارف تامر، بيروت ١٩٥٧، ص ٦٨.

وفي هذا القول تبرز عظمة التوحيد وتأخذ صورتها الحقيقية الخافية عن أعين الحاسدين والخبثاء. ومبدأ التقيّة يعتبر مشتركاً بين كل المذاهب التي تعود بأصلها للشيعة، ولكنه لم يوضع موضع التطبيق إلا عند الدروز نتيجة المضايقات التي عاشوها منذ تاريخهم. ويستغرب الدكتور عبد الرحمن بدوي ذلك قائلاً: «ولكن الغريب هو أن فريضة الصدق هذه لا تقوم إلا بالنسبة إلى الأخوات في ديانة التوحيد، وليست واجبة بالنسبة إلى غيرهم»(١٥).

هذا فيما يتعلق بتعاليم المذهب وعقائده، حيث يمثل ذلك غاية الصدق في المحافظة على أسرار العقيدة تنفيذاً لوصية «إمام الزمان»، بعد أن أقفل باب الدعوة منذ ١٠٤٣ م، وقد سجّلها المغرضون نقطة سوداء في تاريخ هذه الطائفة، وعدّوا المحافظة على الأسرار التوحيدية نوعاً من الكذب والدجل.

لم يمارس الدروز هذا المبدأ إلا إبان الصعوبات التي استهدفت وجودهم ومن أجل المحافظة على حياتهم في وجه السلطة القوية. ومن المعروف، أن الاضطهادات المتلاحقة التي عاشها الموحدون في مصر، أدت بالنهاية إلى القضاء على المذهب هناك في موطنه الأصلي الأول، وحذّرت معظم الرسائل فيما بعد بضرورة الستر، خاصة في «المنشور الذي أرسل إلى آل عبد الله وآل سليمان سنة ٤٣١ هـ». فقد جاء فيه: «واستديموا بالستر لما أوعزناه إليكم»(١٦).

«وكان شيوخ آل عبد الله فرع من تنوخ، يسكن بعضهم قرية «عين درافيل» على مقربة من عبيه ناحية الغرب»(١٧). أما آل سليمان، فهم «عموم شيوخ الدين في جميع قرى وادي التيم، المركز المهم لقبول الدعوة»(١٨). أما شيوخ البستان فكانوا «يسكنون غوطة دمشق وما حولها من القرى. وسمّيت بالبستان لكونها مليئة بأشجار الفاكهة. والبستان في عرف الموحدين دعوة التوحيد، وأشجار البستان المستجيبون.

---

(١٥) بدوي، عبد الرحمن، ص ٧٣٣.
(١٦) النجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ١٨ ـ ١٩.
(١٧) سليمان، توفيق، أضواء على تاريخ مذهب التوحيد، بيروت ١٩٦٣، ص ١٢٩.
(١٨) سليمان، توفيق، المرجع نفسه، ص ١١٩.

وأثـاره أعمالهم الصـالحة ومـاؤه ما يستمـدون من أسيادهم الحـدود، وترابـه نفـوسهم وحراسه مشايخه. وأشهر هؤلاء السادة المكرمين الشيخ فخر الدين حمزة بن أبي العباس الحسني العلوي الفـاطمي الملقب بالشريف أبي يعـلى. وهو الـذي أرسل سيـدنا بهـاء الدين معه رسالة الغيبة لأهل جزيرة الشام بعد شهرين من غيبة سيـدنا الإمـام (ص) وذلك في أوائل محنة إنطاكيـة وكان الشيـخ أبو يعـلى ساكن الجـامع الأمـوي وهو كبـير سكان قرية (المزّة)»[١٩].

ويشـير كثير من المؤرخـين إلى أن السلطان العثماني سليـمان بـاشـا أصـدر حكـماً باعدام الشيخ بشير جنبلاط بعد إتهامه بالخروج عن الإسـلام، والكفر، والعمـل على إقامة دولة درزية على غرار الأمير فخر الدين والاستقلال عن السلطنة العثمانية، ولكن بعد أن أدرك السلطان حقيقة هذه الاتهامات، عفا عنه، مما دفع بالشيخ بشير إلى بنـاء جامع في المختارة على غرار جامع الجزار في عكا، كدليل على «إسلامية» الشيـخ وعدم كفره. وقد هدم الأمير بشير الشهابي الثاني هذا الجامع ودكّـه من أساسـه بعد القضـاء على الشيخ بشير جنبلاط عام ١٨٢٥[٢٠].

وكان التنوخيون والإرسلانيون والمعنيون قد قاموا ببناء عدد كبير من الجـوامع في الفترات التي كانوا يعيشون خلالها وضعاً دقيقاً مع العثمانيين، وما زالت آثـار الجوامـع باقية حتى اليوم في عرمون وبيروت والشـويفات والنـاعمة وعبيـه ودير القمـر والمختارة وعالية إلخ . . .[٢١].

وبالإضافة لذلك، كان هناك عدد كبير من الدروز اعتنقوا المذهب السـائد بعـد المحن التي تعرضوا لها وخاصة محنة إنطاكية وحلب[٢٢].

---

(١٩) سلمان، توفيق، المرجع نفسه، ص ١٢٥.

(٢٠) ميشال شبلي، تاريخ لبنـان، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧، ونجيم ب، المسألـة اللبنانيـة، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ (باللغـة الفـرنسية) ـ وهشي، سليم «المـراسلات الاجتـماعية والاقتصـادية لـزعماء جبـل لبنان خـلال ثلاثـة قرون (١٦٠٠ ـ ١٩٠٠) الجزء الأول، بيروت ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ص ٣٣.

(٢١) الزعبي، محمد علي، «الدروز ظاهرهم وباطنهم»، منشورات مكتبة العرفان، مطابع دار الهلال، بيروت، ص ٩٣ ـ ٩٤.

(٢٢) الأسود، إبراهيم بك، «ذخائر لبنان»، مطابع الرهبانية اللبنانية، ١٩٧٠، ص ١١٨.

٢ ـ حفظ الإخوان أو التعاون المتبادل:

يشكل «التعاون المتبادل» بين أبناء عقيدة التوحيد، الواجب الثاني من الواجبات المقدسة لديهم، انطلاقاً من تجاربهم وامتحاناتهم مع أعدائهم وتجسيداً لمبدأ «في الاتحاد قوة والتفرق ضعف». وكثيراً ما نسمع اليوم من المشايخ المتقدمين في السن عبارات تحمل في جوهرها الكثير من الدلالات حول أهمية التعاون والتحالف بين أبناء الطائفة ومنها مثلاً: «الدروز مثل طبق النحاس أينما ضربت عليه بإصبعك، يعطيك صوتاً واحداً». وهذا التعاون يقضي بوقوف المؤمن إلى جانب أخيه المؤمن بالحق فقط وأن يشد أزره في كل المواقف المحقّة وليس بمساعدته إذا كان مخطئاً. فالتعصب الدرزي لا يمكن أن يكون إلا للحق وحده. ولهذا رأينا دروز لبنان يهبّون مدافعين عن إخوانهم في سوريا ضد الفرنسيين عام ١٩٢٥.

٣ ـ التبرّؤ من عبادة العدم والبهتان:

وهو ما يتعلق بالأصنام والأوثان، وضرورة النهي عن عبادتها وممارسة الطقوس الدينية المتعلقة بها. وذلك لأن الوثنية والأصنام تمثل البعد الأكبر والكفر بالإله الواحد الذي لا يعبد الموحدون سواه. وهذا ما أشار إليه «العهد»، وعلى أساسه سمّوا «بالموحدين».

٤ ـ البراءة من الأبالسة والطغيان:

وهو ما يتعلّق بالمرتدّين الذين تنكّروا للدعوة التوحيدية بعد أن آمنوا بها وعملوا لها فترة من الزمن. وليس صحيحاً ما يشير إليه الدكتور عبد الرحمن بدوي بأن «البراءة من الأبالسة والطغيان، تعني الأنبياء السابقين والأديان والشرائع السابقة»[٢٣](*). وقد تطرقنا سابقاً إلى أمثال هؤلاء الأبالسة وطغيانهم (كنشتكين الدَرَزي والبرذعي والحبّال وغيرهم). وجاء كثير من رسائل الدعوة محذراً الموحدين من اتباع أساليب هؤلاء

---

(٢٣) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٥١٢.

(*) «إن مذهب التوحيد الدرزي لا يسمح بشتم الرعاع من الناس فكيف يسمح بشتم الأنبياء»؟ فكيف أيضاً بالبراءة منهم؟ (الأطرش، فؤاد يوسف. الموحدون الدروز تهم وتاريخ وحقائق، بيروت ١٩٨١. ص ٧٥).

والسير على خطاهم لأنهم أصحاب كفر وضلال، والذين يعرفون الدروز على حقيقتهم يدركون تماماً بأنهم يحترمون جميع الأديان ويقدسون جميع الأنبياء والرسل انطلاقاً من إيمانهم بمعتقدهم الذي يقول بانتقال هؤلاء الأنبياء من دور إلى دور، كما هو الحال عند «إمام الزمان» حمزة بن علي. وقد أوضح الشيخ الإسماعيلي المحامي خضر حموي عندما أشار إلى ذلك قائلاً: «في عقيدة التوحيد ليس من حق أي دين أن يظهر بمظهر المحتكر للحقيقة بل أن الأديان متممة لبعضها البعض وإذا ما ظهرت مختلفة عن بعضها البعض فإن ذلك راجع لاختلاف الظروف ولمكان نزول الشرائع»(٢٤).

٥ ـ توحيد الخالق في كل عصر وزمان ودهر وأوان:

لأنهم يوحّدون الخالق أطلق عليهم إمامهم حمزة اسم «الموحدين»، ولأنهم لا يؤمنون إلا بالله وحده «والتبرؤ من عبادة الأوثان والأصنام، والشمس والقمر، وآلهة النيران، ومذهب الدهرية، ومن كل عقيدة خارجة عن مذهب التوحيد»(٢٥).

٦ ـ الرضا والتسليم:

من واجبات المؤمن أن يتقبل بكل رضى جميع أحكام الله ويسلّم بها تسليماً دون أي اعتراض لأنها صادرة عن الإرادة الإلهية، بعيداً عن الشكوك التي تؤدي في أحيان كثيرة إلى الكفر والخروج عن الطاعة للمولى، وبالتالي عن حقيقة الإيمان(٢٦).

وتعتبر المصائب والنكبات التي يتعرض لها الدروز ـ والعقال منهم على وجه الخصوص ـ المحك الأساسي لاختبار إيمانهم بعقيدتهم وتوحيدهم. وخير دليل على ذلك، الأمير السيد عبد الله التنوخي، المثال الأعلى لهم في التجلد والرضى والتسليم

---

(٢٤) هشي، سليم، «الإسماعيليون عبر التاريخ»، بيروت ١٩٦٩، ص ١٦.

(٢٥) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٦٨٦.

(٢٦) أشارت إلى هذه القواعد التوحيدية كتب متعددة نذكر منها على سبيل المثال:

Encyclopédie de l'Islam, op., P. 649. et Lammens, H. op., Page 219. et «histoire des religions», publié sous la direction de Maurice Brillant et René Aigrain, Tome 5, Page 269.

إضافة إلى عبد الله النجار وتوفيق سلمان ومحمد علي الزعبي، وأمين طليع وإبراهيم بك الأسود وغيرهم...

لمشيئة الخالق، بعد مروره بتجربة قاسية على أثر وفاة ولده الوحيد، عبد الخالق، يوم عرسه، من رمحة فرسه، ومما جاء في خطبة الأمير السيّد يومها:

«أيها الناس! إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا فوت من الموت. أيجوز للعبد أن يعترض على حكم ربّه فيما أبدع. أو أن يغضب إذا هو استرد ما أودع. وقضاء الله لا مردّ له ولا مندفع. أيها الناظرون إليّ، اتظنّون أن صبري على فقد ولدي جهالة. وأن تركي للتعرض للقضاء ضلالة. أو أني نسيت علمه وفضله، وطاعته وصبره؟ لا. ولكن الصبر مطية من اتقى، والرضى والتسليم منارة من ارتقى»[٢٧]. هل هناك دليل أكبر من هذا، يستطيع الإنسان أن يثبت فيه عظمة إيمانه وعقيدته؟ أنني أستطيع القول بأنها ذروة الإيمان وصدق الاعتقاد.

جميع هذه القواعد تشكل بمجموعها دعائم العقيدة ومرتكزاتها الأساسية، إذ لا يصح اعتبار المؤمن موحداً إلا إذا تقيّد بها وعمل على أساسها، لأنها جوهر الإيمان وحقيقة التوحيد.

التفاوت في معرفة العقيدة:

ينقسم أبناء الطائفة الدرزية من الناحية الدينية إلى قسمين:

أ ــ العقّال وهم «أولئك الذين ألّموا بعلوم الدين، ولازموا الصلاة التي تتلى ليلة الجمعة من كل أسبوع»[٢٨].

ب ــ الجهّال وهم الذين لا يمارسون الواجبات الدينية التي يقوم بها العقّال، مع أن الكثير من هؤلاء الجهّال مطلعون على عدد من الكتب المعروفة بـ «كتب المعتقد»، كما أنهم يعلمون أمور الدين ولكنهم لا يتفرغون لها كلياً كما يفعل «الأجاويد» (العقال).

ولكن تعريف الدكتور عبد الرحمن بدوي للجهال في التكوين الديني للمجتمع

---

(٢٧) نويهض، عجاج «عبد الله التنوخي والشيخ محمد أبو هلال»، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٣، ص ١٢٥. وسليمان، توفيق، «مرجع سابق، ص ١٤٦. وأبو شقرا، سامي، مرجع سابق، ص ٢١٤.

(٢٨) طليع، أمين، مرجع سابق، ص ١٣٦.

الدرزي، يغلب عليه الدس والتشويه إن لم يعبّر عن جهالة تامة في تعريفه لهذه الفئة من المجتمع. فيعرّفهم قائلاً: «أما الجهال فهم سائر أبناء الطائفة الدرزية ويسمّون أيضاً: «الشرّاحين»، لأنه لا يسوغ لهم غير تلاوة بعض شروح الرسائل الدرزية، دون الرسائل نفسها، كما لا يسوغ لهم مطالعة القرآن الكريم. ويرخّص للجهال بالتدخين والاستمتاع باللذّات الدنيوية والترف في المعيشة، ولا يفرض عليهم لباس خاص، ولا يحضرون من مجالس الحكمة إلا أوائلها حيث يقتصر على الوعظ والإرشاد العام»(٢٩).

والحقيقة أن «الشرّاحين» هم من رجال الدين (الأجاويد) الذين قطعوا شوطاً كبيراً في المعرفة الدينية، وتفرض عليهم جميع ما يفرض على فئة العقال، حيث لا يقبل انضمامهم لهذه الفئة إلا بعد إخضاعهم لفترة طويلة من التجربة يتوضح بعدها أنهم أهل للتوحيد واتباع قواعده وسلوكه مثبتين تخلّيهم عن «التدخين واللذات الدنيوية والترف في المعيشة، وكل ما ينهى عنه الدين». كما يفرض عليهم اللباس الخاص بفئة العقال.

لكن الأستاذ إبراهيم بك الأسود يقول بأنه: «ليس للجهّال أن يحضروا مجالس الدين إلا ليلة العيد، والعيد عندهم هو عيد الأضحى»(٣٠).

بينما يعتبر المؤرخ الكبير محمد كرد علي، أن «الشرّاح» هم فئة من الفئات الثلاث التي يقسم على أساسها الدروز من حيث الدين: «العقال والأجاويد، والشرّاح، والجهّال. ويرخّص للشرّاح بالاطلاع على ما كتبه الشيخ الفاضل (محمد أبو هلال) بشرح أحد أوليائهم الأمير عبد الله التنوخي الملقّب بالسيّد دفين قرية عبيه»(٣١). هذا ويعتبر عقال الدروز(الأجاويد) أن «شرح» الأمير السيد عبد الله التنوخي هو «خواص العقيدة». فكيف يُسمح إذن لهؤلاء «الشرّاح» بالتدخين واللّذات الدنيوية والترف في المعيشة (على حدّ قول الدكتور بدوي)؟

---

(٢٩) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٦٥٩.

(٣٠) الأسود، إبراهيم بك، «ذخائر لبنان» مطابع الرهبانية اللبنانية، ١٩٧٠، ص ١٢٢.

(٣١) كرد علي، محمد، «خطط الشام»، دار العلم للملايين، الجزء السادس، بيروت ١٩٧٢، ص ٢٦٦.

ولكل من العقَّال والجهَّال نظامهم الخاص، يختلف نظام أحدهم عن الآخر. ولكن هذا لا ينفي أنهم ينتمون إلى طائفة واحدة ومذهب ديني واحد هو مذهب التوحيد.

فالعقَّال يمارسون واجباتهم الدينية انطلاقاً من حقائق الإيمان، في منازلهم بصورة منفردة، أو بصورة جماعية في بيوت العبادة التي يطلق عليها اسم «المجالس» و«الخلوات» المبنية عادة على مكان مرتفع مشرف على القرى التي تحيط بها. يجتمعون بها بشكل دائم، مساء الخميس، أو ليلة الجمعة من كل أسبوع، حيث تأخذ هذه الليلة أهمية خاصة في حياة الطائفة، إذ لا تقتصر أهميتها على العقال فقط، بل تتعداهم إلى الجهال أيضاً.

إزاء هذا الواقع، لا بد من التمييز بين «المجلس» و«الخلوة» والفرق بينهما لدى الطائفة الدرزية.

فالمجلس: هو المركز الديني الذي تمارس فيه عائلة أو مجموعة عائلات في قرية واحدة واجباتها الدينية مساء كل خميس وفي الليالي العشرة التي تسبق يوم عيد الأضحى المبارك، والتي تسمى «بليالي العشور». .

أما الخلوة: فهي المركز الديني لكل عقّال البلاد، والموحدين الذي يتواجدون خارج لبنان أيضاً. ومن الممكن أن تتحول أحياناً إلى مركز سياسي عندما تشعر الطائفة بأن مصيرها في خطر. فيبادر زعماؤها الدينيون والدنيويون لاتخاذها مركز اجتماع لهم يخرجون فيه بموقف موحد لمواجهة الخطر الذي يهددهم. كما تمثل في كثير من الأحيان المكان الذي ينقطع فيه الأتقياء إلى الزهد والتقشف والتخلي عن كل ما يمنعهم من عبادة الخالق.

ويمارس هؤلاء العقال واجباتهم الدينية في غرفة بسيطة، خالية من الزينة والزخارف، والنصب والتماثيل، مقتصرة على بعض البسط الضرورية للجلوس والتي تمثل كل أثاثها(٣٢). أن أثاث جميع أماكن العبادة الدرزية متشابهة. بيد أن الخلوات،

---

(٣٢) Mascle (P.Y), le Djebel Druze, Edition 3, Damas 1943, Page 219 - 220.
ماسكل، «جبل الدروز» الطبعة ٣، دمشق ١٩٤٣، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

تتميَّز باحتلالها مساحة واسعة وعدداً كبيراً من الغرف يتّسع لأكبر عدد ممكن من العقّال في سهراتهم الدينية.

أما في «المجلس»، حيث يجتمع عقّال القرية، يقوم أحد مشايخها، والذي يسمّى بـ «سايس المجلس» بمهمة المسؤول عن شؤونه، مشرفاً على الاجتماعات الدينية الأسبوعية ذات المراحل الثلاث: (٣٣)

١ ــ تستغرق المرحلة الأولى تسعين دقيقة. وباستطاعة كل درزي أن يشارك فيها شرط إرتداء الثياب الخاصة بشيوخ الدين: سروال أسود وعمامة ذي لون أبيض أو قلنسوة بيضاء (مختلفة عن القلنسوة اليهودية)، ترمُز إلى النقاء والصفاء، وتقتصر على الوعظ والإرشاد فقط.

٢ ــ وتستغرق المرحلة الثانية ثلاثين دقيقة زيادة عن الأولى. وهي مخصصة للذين تقدموا في إطلاعهم على العقيدة. مستفسرين حول بعض التعاليم التي يتضمنها مذهب التوحيد قبل «تسلّم الدين» والسماح لهم في الإطلاع على كتب العقيدة.

٣ ــ وتستغرق المرحلة الثالثة ساعتين ونصف الساعة بعد المرحلتين الأوليتين. وهي مخصصة لكبار المشايخ الذين تخطوا الشروط الواجبة لانتقالهم إلى هذه المرحلة. وبالنسبة لهم، تمثل هذه المرحلة «دور الكشف» والتعمق في أسرار المذهب. بيد أن ليلة عيد الأضحى هي الوحيدة التي يستمر فيها كبار المشايخ ممارسة فروضهم الدينية حتى الصباح.

وإذا كان ذلك حال العقال الرجال، فكذلك الحال بالنسبة للنساء المتدّينات. فهن يخضعن أيضاً لنفس النظام ونفس المراحل، كل منهن حسب تقدمهن في معرفة تعاليم العقيدة.

(٣٣) أشار الاستاذ إبراهيم بك الأسود إلى هذه المراحل الثلاث دون تحديد وقت كل مرحلة، فقال: «وفي ليلة كل جمعة ينضمون (رجال دين الدروز) إلى مجالس خلواتهم لاستماع قراءة الكتب الدينية وانصرافهم من تلك المجالس يكون بحسب درجاتهم في الدين. فمنهم من يبكر في الانصراف ومنهم من ينصرف في وسط السهرة ومنهم من ينصرف في آخرها (الأسود، ذخائر لبنان، ص ١٢٢).

وجميع هؤلاء العقّال لا يأكلون ولا يشربون أبداً في منزل موظف يقبض ماله من خزينة الدولة، أو في منزل آخر يشعرون أن ماله ذي شبهة أو اكتسبه بطريقة غير مقبولة. هذا و«الأجاويد العقال نوعان: الاتقياء المتبحّرون بالعلم، المنقطعون في خلو إلى الصلاة والزهد. والأجاويد العاديون، الذي ألّموا بشؤون دينهم وثابروا على صلاتهم وعبادتهم دون أن ينقطعوا عن الناس»(٣٤).

وكل درزي يستطيع أن يصبح «موحداً» وذلك بعد خضوعه لتجربة قاسية يُمتحن خلالها صدق توبته. ولا يمكن لأي موحد، رجل كان أو امرأة، أن يقبل في عداد الموحدين، إلا بعد اجتياز هذه المرحلة مثبتاً فيها أهليته التوحيدية.

كما يجب عليه العيش حياة دينية قاسية، بممارسة الصلوات اليومية بصورة منتظمة، ممتنعاً عن المنبهات والمسكرات، والكذب والسرقة وأعمال الثأر والغزو. ويتميز العقال بثياب خاصة وعمائم بيضاء(٣٥).

ولهؤلاء العقال مكانة خاصة وسلطة مميزة بين أبناء الطائفة. ويتمتعون باحترام الصغار والكبار معاً. ولا يمكن أن تصدر كلمة بذيئة عن أحد منهم، ولا يتفوهون إلا بأحلى الكلام مع كل الناس دون تمييز، ومستعدون دوماً لفض النزاعات والخلافات، وزرع المحبة والسلام أينما يحلّون(٣٦).

ورغم وجود هذه التراتبية بين عقال الطائفة الدرزية، في معرفة العقيدة، إلا أنها تختلف كلياً عن التراتبية التي تكرسها قوانين الكنيسة فيما يتعلق بالطوائف المسيحية، وعنها عند الطوائف الإسلامية. إذ لا وجود للطبقات (بالمفهوم الديني) بين صفوف الموحدين الدروز، ومنهم من يحتل مركزاً مرموقاً بفضل تقدمه في حفظ كتب **المعتقد من ناحية** (أي بفضل ورعه وتقواه) وقيامه بالأعمال الجليلة التي تعود بالنفع العام على الطائفة ككل. «والمركز الوحيد الذي يتصف بالصفة الرسمية هو مركز شيخ

(٣٤) طليع، أمين، مرجع سابق، ص ١٣٧.

(٣٥) الانسيكلوبيديا الإسلامية ص ٦٤٩. Encyclopédie de l'Islam, op., p. 649

(٣٦) الانسيكلوبيديا الإسلامية ص ٦٤٩. Encyclopédie de l'Islam, op., p. 649

العقل، الذي يتحلى بالزعامة الدينية، ويرأس أعلى محكمة مذهبية معترف بها رسمياً من الدولة»(٣٧).

والموحّدون الدروز بعيدون عن الانخراط في العمل السياسي، إذ يحرّم عليهم ممارسة هذا النشاط لأنه يعيق الموحد عن القيام بصلاته وواجباته الدينية، والتعمّق في أسرار المذهب وباطنيته. والموحدون الدروز لا يحبّذون الأحزاب السياسية ويقولون بأن حزبهم هو «حزب حمزة بن علي» فقط. وفي كثير من الأحيان، يضطر خلالها مشايخ عقل الطائفة لتبوؤ الزعامة الروحية والزمنية، في الأوقات العصيبة التي تستهدف وجود الطائفة ككل. كما هي الحال في زمن الشيخ علي جنبلاط، والشيخ حسين ماضي، والشيخ محمد أبو شقرا، شيخ العقل الحالي في لبنان. أما فيما يتعلق بالجهال من أبناء الطائفة الدرزية، فإنهم عرفوا تراتبية واضحة لعبت دورها الكبير في التمييز بينهم على أساس الألقاب التي انطلقت في أكثر الأحيان من سيطرتهم الاقتصادية وانعكاسها على مجمل النواحي الأخرى. فعرفوا رتبة «المشايخ» (على أساس اللقب لا على أساس الدين)، و«المقدّمين» و«الأمراء»، وفرضوا من خلالها وضعاً تمييزياً فيما بينهم من ناحية، وبينهم وبين عامة الشعب من ناحية أخرى. والارستقراطيون الدروز من غير الموحدين تميزوا عن الجهال العاديين كونهم حملوا لقب أمير(٣٨).

وانطلاقاً من قواعد المذهب ووصاياه يعيش الدروز حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ وعلى هذا الأساس يعمد المؤرخون ذوو النوايا الخبيثة لإلصاق التهم والإشاعات بهذه الطائفة. وفي هذا المضمار، ينبري الدكتور فيليب حتي ليأخذ على عاتقه ـ وبالنيابة عن كل المزوّرين والمشوّهين للحقائق ـ مهمة إطلاق الاتهامات الزائفة والأباطيل الخبيثة قائلاً: «... وهذا الدين الغريب العجيب الذي طووه وعن أعين الناس أخفوه، هو علّة عللهم ومفتاح سرّهم والحافز على شتى أعمالهم. فهم لا يعيشون إلا له ولا يعملون إلا بحسب أوامره وطبقاً لما يوحيه عليهم»(٣٩).

---

(٣٧) طليع، أمين، مرجع سابق، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٣٨) الانسيكلوبيديا الإسلامية ص ٦٤٩. Encyclopédie de l'Islam, op., p. 649

(٣٩) أبو مصلح، فريد، «تقويم الأود والسير في الجدد»، دون تاريخ، ص ٤٠.

الفصل الرابع

اتهامات ودسائس بحق الطائفة

لقد احتار «أحفاد الصليبيين» في أمر الطائفة الدرزية التي أذاقت أجدادهم مرارة هزائمهم التي شكلت وصمة عار على جبينهم إلى الأبد. وعبر المحاولات الجادة، عجزوا عن الوصول إلى خفايا المذهب وأسراره، وقد خبروا هذه الطائفة في كثير من ميادين الحياة، العسكرية منها والاجتماعية، كما خبروها في المجال السياسي، دون معرفة السر الكامن في أبنائها، والدافع الأساسي لكل أعمالهم وتصرفاتهم.

وانطلاقاً من هذا «الجهل الصليبي» لحقيقة المذهب الدرزي الذي يشكل عصب حياة الطائفة وعمودها الفقري، تسابق «أحفاد الصليبيين» هؤلاء في خلق الافتراءات والتهم، وكأنها أصبحت «حقل تجارب» يختبر فيه هؤلاء فعالية «سلاحهم» المعبَّأ بكل أنواع «الذخيرة» من كذب ودس وتشويه وتزوير. ولم تقتصر هذه الحملة الخبيثة على الغربيين وحدهم، بل وشاركهم في تأجيج نارها بعض الذين يعيشون على فتات موائد الغرب من «المستغربين» والذين تعلّموا في مدارسه فن التزوير والكذب، ولو كان ذلك مخالفاً لقناعاتهم، حيث من يكن كاذباً مع نفسه، لا يمكن أن يصدق مع الغير، وفي الحكم على الآخرين. ومن يمارس هذا «الفن» ويتعلم أصوله وقواعده بهذا الشكل، فإنه يلازم الدم والعظم بحيث يصعب التخلص منه بسهولة، ولو كانت الحقائق واضحة. إزاء ذلك، فقد قاد الجهل أصحابه إلى سيل من الاتهامات الباطلة والافتراءات التي كذّبت من قبل «أهل البيت» أنفسهم.

وهذه بعض الأمثلة التي شكّلت جزءاً من الحملة المشوّهة للحقيقة، على لسان

بعض الغـربيين، كـما جاء الـرد الصـادق من بعضهم ليكشف زيف الادعـاءات والأباطيل، خاصة تلك التي تتهم الدروز بالوثنية وعبادة «الحاكم بأمر الله» عـلى صورة العجل.

فبالنسبة لـ «تارود Tharaud» فقد كـان الحاكم، إلـه الدروز، يـزعم بأنـه كان على محادثـات مع الشيـطان(١). أما في نـظر موريس بـاروس Maurice Barrès، فقد كان الدروز عبدة أوثان(٢). بينـما كان الـدروز الذي يسكنـون هذه الأمـاكن، في نظر لامـرتين، يعبـدون العجل(٣). وكـذلك الحـال عند سلفسـتر دي سـاسي، فقـد كـان الدروز يعبدون الحاكم بأمر الله على صـورة عجل تمثـل رمز الألـوهية، وهي مـوضوع عبـادتهم. ويضيف: إنه تمثـال عجل من ذهب، يقـرأون في كتبهم المقدسـة ويعطونـه تفسيرات خفية نقلت إليهم تقليدياً. إنها ملّة مخالفة شاذة(٤).

ويـأتي كلام «مـاسكل» ليمثـل رداً صادقـاً على كـل هؤلاء مع أنـه ينتمي للبيئة نفسهـا التي إليها ينتمـون، ولكنه يكتب بصـدق وواقعية دون زيف وتشـويـه قـائـلاً: يمارس الدروز عبادتهم في غرفة بسيطة تفتقـر لكل أنـواع الزينـة والزخـارف والنصب والتماثيل، إلا من بعض البُسط الضرورية للجلوس(٥).

كما يمثل اعتراف الملحق الثقافي البريطاني في بـيروت كشاهـد عيان دليـلاً قاطعـاً على ما رآه أثناء زيارته لخلوات البياضـة مجيباً عن رأيـه في هذه الـزيارة: «فـور دخولي سيطر عليّ خشوع غريب، ربما كانت البساطة التي واجهتني في الخلوة هي التي عمقت الخشوع في نفسي»(٦).

ومن نـاحية أخـرى، فإن «دي سـاسي» يعود منـاقضاً نفسـه بنفسه عنـد ترجمة

(١) J.J. Tharaud. «le Chemin de Damas», Paris 1923, Page 89-90.

(٢) Maurice Barrès, «Enquête au pays de Levant», Paris 1924, Page 70-75.

(٣) Lamartine, «Voyage en orient», Tome 2, Paris 1841, Page 556-559.

(٤) S.De sacy. «Exposé de la religion des druzes», Tome 1, Page 231-232.

(٥) Mascle (P.Y) «le Diebel Druze» Edition 3, Damas 1943, P. 219-220.

(٦) أبـو مصلح، حافظ، واقـع الدروز، تـرجمة نـازك فواز، المكتبـة الحديثـة للطباعـة والنشر، دون تاريـخ، ص ٢٤.

«العهد» المعروف بـ «عهد» حمزة بن علي، مؤكداً أن الدروز لا يعبدون إلا الخالق وحده (٧).

أما على صعيد المؤرخين العرب، الذين استندوا في أحكامهم على هؤلاء، فإنهم وصلوا إلى النتيجة نفسها. وكان الدكتور «حتي» في طليعة من نهلوا من معين الغربيين، مستنداً إلى «حججهم»، وهو الذي ولد بين الدروز في «شملان»، قرب عاليه، وعاش عمره بين ظهرانيهم، مختلطاً بهم، وعارفاً بعاداتهم وتقاليدهم وجميع نواحي حياتهم حتى الدينية منها، و«مطلعاً» (!!!) على كتبهم، وهو المشهور بالعلم والأدب، كما في «البحث والتدقيق». ورغم ذلك، فإن الدروز لم يسلموا ممن حضنوه، وعاملوه كأنه أحد منهم، لأنه لم يكتب عنهم انطلاقاً من معايشته لهم وفهمه لكل مجرى حياتهم، بل لأنه اتخذ من «حجج» الغربيين و«أسانيدهم» منطلقاً «لبحثه وتدقيقه»، ناسياً ومتجاهلاً بأن صاحب البيت أدرى بالذي فيه. من هذا المنطلق طعن الدروز في توحيدهم من ناحية، عندما وافق دي ساسي، وتارود، ولامرتين، وباروس، وستانلي، وفان لنب، ونيبوبولد في اتهامهم الدروز بعبادة العجل، كما طعنهم من ناحية أخرى عندما قال «بأن المقوم الدرزي الموضوع بعد زمن حمزة وبهاء الدين بوقت طويل يعلم أن أرواح الملحدين والمرتدين ينتقلون أو يتحوّلون (أي بالتناسخ) إلى كلاب وخنازير وأيضاً إلى خدم»(٨).

ولو كان الدكتور «حتي» مطلعاً فعلاً وبشكل دقيق على الكتب المقدسة ليقوم بدور الباحث المدقق والموضوعي، لما سمح لنفسه الموافقة على ما اتهم به الغربيون الدروز بأنهم يعبدون العجل(*). ولكي لا يصبح في موقف العاجز عن التفكير واصدار الحكم الصحيح، وإلا يصح فيه القول «سمع فأطاع». هذا ما جاء في إحدى رسائل حمزة بن علي مشيراً فيها لنشتكين الدَرَزي، ناعتاً إياه «بالعجل» بعد ارتداده، والتي تقول:

---

(٧) Sylvestre de sacy, op., Page 704-705.

(٨) أبو مصلح، فريد، مرجع سابق، ص ٧٢.

(*) يشير الأستاذ إبراهيم بك الأسود: «إن نسبة عبادة العجل إلى الدروز خطأ فاحش. فإنهم يؤمنون بأن الله إله واحد لا بداية له ولا نهاية» (ذخائر لبنان، ص ١٣٠).

«فلا تكونوا ممن قالوا سمعنا فأطعنا، وشربوا في قلوبهم «العجل» بكفرهم. والعجل فهو ضد ولي الزمان... سمّي الضد عجلاً لأنه ناقص العقل عجول في أمره له خوار» إشارة إلى الآية ٨٨ سورة طه: «فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار»(٩). فمن خلال هذا الحكم على الدروز، تتوضح نوايا الغربيين ومن يقف إلى جانبهم. حيث يبدو جلياً أن الطائفة الدرزية هي في موقع الاتهام بالارتداد والكفر كما كان موقع نشتكين الدَرَزي، ويتخذون هم بالمقابل موقع «القاضي العادل» كما كان موقع حمزة بن علي. ويصبح هدف القضاء على الطائفة ككل والتخلص منها ضرورة ملحّة في نظرهم. وعلى هذا الأساس كانت جميع تحركاتهم ومخططاتهم.

وتبقى هذه التهم(**) تهماً سياسية في أغلب الأحيان ـ ولو اتخذت وجهاً مذهبياً وطائفياً ـ تستمد أبعادها وأهدافها من الواقع الاقتصادي والاجتماعي في كل فترة من الفترات التاريخية تبعاً لعملية الصراع التصفوي على الوجود بين القوى المتصارعة.

---

(٩) النجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ١١٥.

(**) يقول الأستاذ بسام ضو في (الدروز في معترك العروبة. «أصل مخطوط». ص ١٤) «أن التهمة ـ أية تهمة ـ سواء أطلقت لتمسّ العرب الدروز أو غيرهم من فئات شعبنا العربي، لا تخرج عن كونها حدثاً سياسياً وتعبيراً ثقافياً تاريخياً، له جذوره الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وله ارتباطه الوثيق بحركة الصراع الاجتماعي ـ السياسي في المرحلة التاريخية التي تشيع فيها هذه التهمة أو تلك... إنه أي الحدث ـ التهمة، شكل من أشكال السلاح الإعلامي والسياسي ذي الجذور الطبقية الاجتماعية، تستغله الطبقة ذات المصلحة لتدافع بواسطته عن موقعها التاريخي في حركة المجتمع، مما يجعله ضمن هذه الصيرورة جزءاً لا يتجزأ من تراثها الفكري المتجذّر في علاقات الواقع المادية؛ ذلك لأن هذه العلاقات هي التي تصنع الوعي، وليس الوعي هو الذي يصنع الواقع». وهذا ما عبّر عنه كارل ماركس بقوله: «إن الوعي الاجتماعي هو انعكاس للواقع الاجتماعي المادي».

الفصل الخامس

لماذا يقدس الدروز «ليلة الجمعة»؟

إن لهذه «الليلة» مكانة هامة عند عقال الطائفة وجهالها على السواء. كما يكمن سر كبير في الإيمان بها وبقدسيّتها بهذا الشكل، خاصة وأنها تمثل رمزاً عظيماً في ترسيخ جذور المذهب ومبادئه. ومن أقدس الواجبات التي يمارسها الموحدون في مجالسهم وخلواتهم، كل حسب تقدمه في تعاليم العقيدة، يُفرض حضورها على الموحد (أو الموّحدة) إسبوعياً وبصورة منتظمة مع الإخوان أبناء المذهب، دون انقطاع عن القيام بالواجبات الدينية، مخلصاً في ممارسة تعاليمه ووصاياه، وعلى علاقة روحية مع «الحدود الخمسة» الذين يجتمعون بدورهم هذه الليلة، وحتى الصباح.

هذه السرّية التي مارسها الدروز في إخفاء حقيقة مذهبهم وممارستهم لتعاليمه دفعت بالمستشرقين الغربيين ـ على العموم ـ إلى إطلاق التهم والافتراءات والأكاذيب قائلة بأن «الدروز يمارسون الفسق والفواحش والمنكرات في خلواتهم ليلة الجمعة». وكان توديلا اليهودي الإسبانيولي أول من قال بذلك، وأخذها عنه المؤرخون الغربيون وردّدوها ـ حتى أصبحت وكأنها حُجّة وإثبات ـ مما دفع بالدكتور فيليب حتي أن يردّدها «واضعاً بها الشبهة» كما يقول. ولكن «لا حاجة للبحث والإنكار بأمر هذه التهم. فالذي يعرف شيئاً عن الدروز يعرف حق المعرفة أن هذه أكاذيب ومفتريات وإن الدروز هم أشرف الناس طراً من حيث الأعراض وأسرعهم للغضب لها ولإهراق دمهم في سبيلها ولصيانتها من كل امتهان ودنس. فلا يقول لهذه الأمور إلا كل نذل لئيم خبيث»[1].

(١) أبو مصلح، فريد، مرجع سابق، ص ٩٢.

وفي هـذا الإطار، يشكّـل كلام الـدكتـور تـوفيق تـوما رداً مبـاشـراً عـلى كـل الإدعـاءات والتهم حيث أن نقاوة العـادات الـدرزيـة واحـترامهـا للنسـاء تكلم عنهـا الكتّـاب (والمؤلفون) المسيحيـون، (كـما هي الحـال في كتـاب «حسر اللثـام» ص ٨٨) مؤكدين أنه خلال المذابـح (بين الـدروز والموارنـة) لم يعتد درزي عـلى امرأة مسيحيـة أبـداً(٢). وبصورة تفصيليـة واضحة يشـير الأستاذ إبـراهيم بك الأسـود قائـلاً: «إنهم (الـدروز) في حروبهم لا يتعـرَّضون أصـلاً لما يمسّ الآداب ومـا سمع أنهم سـطوا على العـرض ولا قتلوا النساء ولا الأطفـال وربما احتمى نسـاء أعدائهم ببيـوتهم بعـد قتـل بعـولتهن ورائين منهم غـاية الـرفق والإنسانيـة وذلـك لأن الـدروز شـديـدو التمسـك بالناموس الأدبي فلا يسطون على أعراض غيرهم وعندهم احترام للحريم»(٣).

بـالإضـافـة إلى أنـه «ليلة الجمعـة في الأول من محـرّم سنـة ٤٠٨ هـ/ ٣٠ نـوار ١٠١٨ م أصدر الحاكم سجلاً يعلن فيه بداية دعـوة التوحيـد. ونودي بحمـزة بن علي إماماً للموحدين»(٤). كما أن النصر الذي أحرزه حمزة، ضـد نشتكين الـدَرَزي، زعيم المـرتـدين والـذي أدى إلى مقتـل هـذا الأخـير، كـان في ليلة الجمعـة من سنـة ٤١٠ هـ/ ١٠١٩ - ١٠٢٠ م(٥).

إنطلاقاً من ذلـك، تتخذ ليلة الجمعـة مكانتهـا المقدسـة عنـد أبنـاء الـطائفـة الدرزية، ليس عند العقال منهم فقط، بل وعند جهـالهم أيضاً، الـذين يحترمـون هذه الليلة احـترامـاً كبيـراً - مـع أن الكثـيرين منهم يجهلون السر الكـامن في قـدسيتهـا - ويعملون بتـوجيهات عقـالهم فيما يختص بهـا، حيث يحرّم زواج الـدروز في هذه الليلة لإيمـانهم أن الأطفال الـذين يولـدون نتيجة الجـماع فيها، لا يمكن أن يـولـدوا بشكـل طبيعي دون عـاهات وتشـويهات ونقص في أعضـائهم، أو يولـدون أمواتـاً. كما يحـرّم

(٢) Toufic Touma, «Paysans et Institutions féodales chez les druzes et les Maronites du Liban du XVII[e] siècle à 1914 - Tome 1, Page. 99. Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1971.

(٣) الأسود، إبراهيم بك، مرجع سابق، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٤) أبو صالح، عباس، ومكارم، سامي، «تاريخ الموحدين الـدروز السياسي في المشرق العـربي، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، بيروت ١٩٨٠، ص ٦٠.

(٥) من مقابلة مع أحد أتقياء الدروز المشهود لهم بالعلم والمعرفة الدينية.

الجهال على أنفسهم شرب الخمر والمسكرات في هذه الليلة منفذين نصائح عقالهم (أجاويدهم) وإرشاداتهم انطلاقاً من الاحترام العميق الذي يولونه لمشايخهم.

مصادر عقيدة التوحيد:

يطلق الدروز على كتبهم المقدسة اسم «**كتب العقيدة**»(الحكمة). وفي الواقع أن من يطلع على هذه الكتب يرى بأنها تشتمل على «فلسفة فيثاغورس وسقراط وأفلاطون والأفلوطينية المتجددة، كما ينبغي ألا ننسى أنهم كانوا يمثلون الكنه اليوناني للنظام»[٦]. ويشير عبد الله النجار بدوره إلى هذه الفلسفة قائلاً: «. . . ومن مصادر أرسطو، وأفلاطون واتباع فيثاغورس انحدر المذهب إلى الدروز الذين يعتبرون هؤلاء الفلاسفة أسيادهم (الروحيين)[٧].

هذا ونستطيع القول، أن «كتب العقيدة» تمثل في معظم جوانبها عصارة الفلسفة اليونانية القديمة، التي يعتز بها العلم، كما تعترف البشرية بفضلها عليها.

لم تقتصر هذه الكتب في مصادرها على هؤلاء فقط، بل أن هرمس الهرامسة (المثلث العظمة) (امحوتب) في مصر «ينظر إليه الدروز بعين التقديس ويجعلونه في مصاف الأنبياء كما يفعل الصائبة أو كما يعدّه المانويون. وهؤلاء يعتبرونه واحداً من الأنبياء الخمسة الذين سبقوا «ماني»[٨].

وامحوتب هذا، الذي لقبّه اليونان بهرمس الهرامسة، كان ظهوره حوالي سنة ٢٨٣٠ ق.م. عبد الإله آتوم ـ الممثل بقرص الشمس ـ مشيراً إليه «برستيد» قائلاً: «إن أمحوتب، أي هرمس الهرامسة قد سبق أخناتون لعبادة آتوم. وإنه محرر العقل البشري من جميع القيود القديمة»[٩].

وهو الذي «بنى أول هرم مدرّج من الحجر في مدينة هيلوبوليس ـ مدينة

---

(٦) جنبلاط، كمال، «هذه وصيتي»، مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، طبعة حزيران ١٩٧٨، ص ٤٦.

(٧) النجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٨) مكارم، سامي، «أضواء على مسلك التوحيد»، بيروت، دار صادر ١٩٦٦، ص ١٤٥.

(٩) برستيد، «تاريخ الشرق القديم» تعريب أحمد بدوي، مصر، الطبعة الأولى صفحات ١٤٥ ـ ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

الشمس ـ في سقّارة بالقرب من القاهرة الحديثة، وهو الذي شاد الهيكل الرائع المدهش فناً وعمارة، الذي قصده وعاش فيه عدة سنوات أفلاطون، عليه السلام ـ وقد أطلق اليونان فيما بعد على أمحوتب لقب هرمس الهرامسة، وهو ذاته إدريس القرآن»[١٠]. كما كان للفلسفة الهندية والإيرانية أثرها في هذه الكتب أيضاً. وليس غريباً ما أبداه الأستاذ كمال جنبلاط من اهتمام لدراسة الفلسفة الهندية متعمِّقاً فيها بمساعدة حكمائها، لأنه يدرك تأثيرها كمصدر «للرسائل الدرزية»، ومن لا ينهل من النبع الأساس، لا يمكن أن يرتوي.

(١٠) مكارم، سامي، المرجع السابق، مقدمة كمال جنبلاط، ص ٤٩ ـ ٥٠.

الفصل السادس

التقمص عند الدروز

يعتبر التقمص من الدعائم الأساسية لعقيدة التوحيد، كما يشكِّل الركيزة الهامة لإيمان الموحِّد الدرزي، بانتظار اليوم الأخير الذي يحدّد فيه ثواب النفس وعقابها على ضوء تصرفاتها عبر العصور السابقة. وقد أصبحت عقيدة التقمّص نظرية علمية قائمة بذاتها يؤمن بها كثير من الغربيين، ولو أن بعضهم يؤمن بها بطريقة تختلف عنها عند الدروز. ففي فرنسا مثلاً، حيث إن «الأستاذ شارل هنري أحد أساتذة السوربون يعتقد بالتقمص ويقول بأنه يثبته علمياً»[1]. وقد أشار المؤرِّخ الثقة القاضي أمين طليع تفصيلياً إلى هذا الموضوع ونظرة الغرب له[2].

وتبقى المكانة الكبيرة بين الغربيين للعالم والبحاثة الأميركي إيان ستيفنسن «حيث زار القارات الخمس بحثاً عن فكرة التقمّص والتذكّر وتمخّض نشاطه عن مؤلف كبير اسمه «التقمّص»، عدَّد فيه البلدان والشعوب التي تؤمن بهذه العقيدة، وتعتبر انتقال الروح من جسد انسان إلى جسد انسان آخر بعد الوفاة سنّة طبيعية جداً وحقاً إلهياً يماشي التطورات الكونية، ويثبت العدالة الإلهية في محاسبة نفوس البشر، حيث تمرّ النفس في كل الحالات من غنى وفقر، وعلم وجهل، وصحة وسقم، وذكاء وبلاهة، إلخ . . . »[3]. ويؤكّد ستيفنسن «أن عدداً لا يقل عن نسبة خمسة وعشرين بالمئة من سكان البرازيل يعتقدون بالتقمّص»[4].

(١) طليع، أمين، «التقمص»، منشورات عويدات، بيروت، طبعة أولى ١٩٨٠، ص ٧٢.
(٢) طليع، أمين، المرجع السابق، ص ٦٠ ـ ١١٠.
(٣) أبو شقرا، سامي. «مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ».مطبعة ناصيف ، عماطور ١٩٧٩، ص ٢١.
(٤) طليع، أمين، «التقمص» المرجع السابق، ص ٦٦.

وتشير معظم المصادر والمراجع أن عقيدة التقمص عرفت منذ عصور سحيقة في القدم، في مصر الفرعونية والهند والصين واليابان واليونان وكذلك في أفريقيا، إلخ . . . ويقول المؤرِّخ والبحاثة تيلر Talor، في مؤلفه «الحضارة البدائية»: «كان في القديم السحيق أرقاء أتى بهم سكان أميركا القدامى من أفريقيا، ولفرط ما كان يحيق بهؤلاء الأرقاء من جور وسوء معاش، كانوا يلقون بأجسامهم في المحيط أملاً منهم في التقمّص ببلادهم فينجون من هذا الرق»[٥].

كما أن فلاسفة اليونان البارزين كانوا يعتقدون بالتقمّص. وقد نقل فيثاغورس فكرة التقمّص من مصر إلى اليونان. هذا وتناقل العالم عن أفلاطون كلام سقراط قبل أن يشرب كأس السم منفِّذاً قرار إعدامه بسرور لأنه سينتقل إلى مكان آخر قائلاً: «إني أعترف أنه لولا اعتقادي بأني سأذهب نحو رجال هم أفضل من هؤلاء. . . من الخطأ الفاحش أن لا تثور نفسي ضد الموت»[٦].

وإذا كانت جميع العصور والأحداث حلقات في سلسلة اسمها التاريخ، فظهور المسيحية والإسلام يعتبر من الحلقات المترابطة في هذه السلسلة التي لا تقبل التفكك والانفصال. وكما عرف التقمّص في عصور ما قبل الميلاد، فإنه عرف أيضاً في زمن الإنجيل والقرآن.

وقد جاء في إنجيل مرقس: إن يوحنا المعمدان قام من الأموات. وما يقوله بولس الرسول وهو فيلسوف الكنيسة المسيحية: «هكذا أيضاً قيامة الأموات، يزرع في فساد ويقام في عدم فساد. يزرع في هوان ويقام في مجد. يزرع في ضعف ويقام في قوة. يزرع جسماً حيوانياً ويقام جسماً روحانياً». وفي رسالته الثانية إلى أهل كورنتوس يقول بطرس الرسول في الإصحاح الرابع عشر: «لذلك لا نفشل وإن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدَّد يوماً بعد يوم»[٧]. كما جاء في الإنجيل أيضاً: «إن إيليا يأتي ليتم الأشياء. . . قد أتاكم في البدء ولم تعرفوه»[٨].

---

(٥) أبو شقرا، سامي، المرجع السابق، ص ١٩.
(٦) أبو شقرا، سامي، المرجع السابق، ص ١٩. وطليع، أمين، المرجع السابق، ص ٣٧.
(٧) طليع، أمين، التقمص، ص ٤٣.
(٨) أبو شقرا، سامي، مرجع سابق، ص ٢٢.

كذلك عرف القرآن كثيراً من الآيات التي تؤكِّد التقمّص منها مثلاً: من سورة البقرة الآية ٢٨ : ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾. وأيضاً: ﴿لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل﴾، و﴿يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾ إلخ . . .

فهذه الأمثلة التي أعطيت عن التقمّص، تشكِّل مدخلاً لدراسة هذه العقيدة التي تعتبر ركناً أساسياً من أركان التوحيد الدرزي، ولا يمكن فهم حقيقة المذهب إلا بفهم التقمص على حقيقتها.

من هنا ينطلق الدروز في الإيمان بأن الجسد هو الذي يموت، بينما النفس تبقى خالدة. والتقمص في نظر الموحّدين هو انتقال النفس بعد الموت مباشرة من جسد إنسان إلى جسد إنسان آخر(٩) والجسد هو قميص الروح، وهذه القميص هي التي تتغيَّر عند الوفاة منتقلة إلى جسد إنسان آخر وليس إلى جسم حيوان كما يعتقد المؤرِّخون الأجانب في معظمهم.

والدروز لا يعترفون ولا يقرّون بانتقال النفس الإنسانية إلى جسد غير إنساني. من هذا المنظار، يأخذ اليوم الأخير معناه وقيمته الحقيقية من خلال النفس العاقلة القادرة على التمييز بين الخير والشر لأن التغيير الروحي في عقيدة التوحيد مستمر حتى نهاية الأجيال. و«عندما ينكرون التناسخ فإنهم ينكرون انتقال النفس البشرية إلى جسم غير الجسم البشري»(١٠).

كما أنهم لا يعتقدون بالفسخ والرسخ والمسخ، تلك التهم التي أطلقها عليهم الغربيون لأن قبولهم بها يعني إبطال الحساب في اليوم الأخير، إذ لا يعقل محاسبة غير العاقل المدرك، ولا يصح حساب مع «المسخ» لأن حساب الروح وعقابها مبني على قاعدة العدل الإلهي في محاسبة الأرواح بعد مرورها في أدوار الدهر الطويل. وقد أخطأ الدكتور عبد الرحمن بدوي عندما نسج على منوال الدكتور فيليب حتي، ناسباً إلى جهَّال الدروز إيمانهم بتناسخ نفوس الأشرار في الحيوان، بعد أن يشير إلى أن هؤلاء الجهَّال تابعون للعقَّال من الدروز(١١). وهذا

(٩) كرد علي، محمد، خطط الشام، الجزء ٦، بيروت ١٩٧٢، ص ٢٦٥.
(١٠) طليع، أمين، التقمص، ص ١٣.
(١١) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٥١١.

ما ينافي الحقيقة كلياً وبعيد عن المنطق حيث إن العقّال والجهّال من الدروز لا يؤمنون إلا بالتقمص، انطلاقاً من حقائق مذهب التوحيد وتعاليمه.

وهو في موقفه هذا لا يختلف عن موقف المؤرّخين الغربيين، وأتباعهم. لكنه يتصرّف بمرونة ذكية ـ ولو مزيّفة ـ مبعداً نفسه عن التجرّؤ بحقيقة موقفه ملقياً بهذه التهمة على الجهّال من أبناء الطائفة.

وتؤكّد رسائل العقيدة أن «الحدود الخمسة جميعهم مشخّصون أو ممثلون، ليس في زمن الحاكم وحسب، بل في جميع العصور. وقد جاء على لسان حمزة: «لا يخلو مني عصر». بمعنى أنهم يتقمّصون الثوب البشري كسائر البشر، دون أن يعرفهم الناس»[١٢].

ويقول المقتنى بهاء الدين مؤكّداً حقيقة التقمّص: «إن العذاب الواقع بالإنسان يكمن في نقلته من درجة إلى درجة، كذلك نقلته من قميص إلى قميص». كما أن «النفوس الناطقة دائمة الانتقال ولا زوال... ولا غنى للنفس عن الجسم ولا تنتقل إلا إليه»[١٣].

واستناداً إلى ذلك، يعتقد الدروز «أن البشر لا يتناقصون ولا يزيدون، وأن الأرواح معدودة منذ بداية الخلق، وأنها خلقت من نور العقل الكلي، وبقيت تنتقل من جسد بلي إلى جسد ولد من جديد مارّة في أدوار التجربة والامتحان»[١٤]. وفي هذا الصدد يأتي كلام الدكتور سامي مكارم ليوضح بعض الالتباسات ويزيل الغموض قائلاً: «ففي عقيدتهم (الدروز) أن الذين تقبّلوا الدعوة وتعرّفوا إلى الحقيقة في الماضي لا يزالون يولدون عند من تقبّل الدعوة»[١٥].

وفي الوقت الذي شوّه فيه المفترون عقيدة التقمّص الدرزية وألصقوا بها ما يعتبر فاسداً ومشوّهاً للجوهر، جاءت كلمة سماحة شيخ عقل الطائفة الدرزية في لبنان الشيخ محمد أبو شقرا[١٦]، لتضع الأمور في نصابها الصحيح قائلاً فيها: «الموحّدون الدروز لا يؤمنون

(١٢) النجار، عبد الله، مرجع سابق، ص ١٣٨.
(١٣) تقي الدين، زين الدين عبد الغفار، النقط والدوائر، ص ٣١.
(١٤) طليع، أمين، التقمص، ص ١٤.
(١٥) مكارم، سامي، مرجع سابق، ص ١٢١ و Encyclopédie de L'Islam, op., P. 650.
(١٦) مجلة «الضحى» تصدر عن دار الطائفة الدرزية، بيروت، ١٩٧١، العدد ١٠.

بالحلول ولا بالتناسخ بل يؤمنون بالتقمّص. فبالتقمّص يثبت عدل الله في مخلوقاته، وتتكافأ الفرص وتتاح لكل مخلوق. النفوس البشرية اللطيفة خالدة باقية، والأجسام الكثيفة أقمصة للنفوس، ولا لطيف دون كثيف، والنفوس لا تفارق الأجسام لحظة واحدة، بل تنتقل بسرعة من جسد بشري إلى جسد بشري جديد، وتسري فيه كسريان تيار الكهرباء في السلك. والنفوس جواهر والأجسام آلاتها، كالعين آلة البصر، واللسان آلة الكلام والآذان آلة السمع، والجسم بمجموع أعضائه آلة النفس. إن خلود النفس لا يكون ولا يمكن أن يكون بالنسبة إلى عدل الخالق تعالى، وبالنسبة إلى الثواب والعقاب، إلا بواسطة التقمّص، وهذا الأمر أشارت إليه كتب الأديان جميعها».

إذن فالدروز لا يؤمنون إلا بالتقمّص الذي يميّز بين الجنسين: «الذكر يولد ذكراً والأنثى تولد أنثى. والقول بغير ذلك لم يرد في النصوص ولا هو متعارف عليه»(١٧). وكل ما يخالف هذه القواعد الأساسية هو بعيد عن عقيدة التوحيد ولا يدخل إلا ضمن التشويه والتزوير.

بالإضافة لكل ذلك، إن وجود الموحّدين لا ينحصر فقط في لبنان وسوريا وفلسطين، بل يتعدّى ذلك إلى بلاد أخرى وتحت أسماء مختلفة. ويذكر الأستاذ ابراهيم بك الأسود أنه «يوجد طوائف عديدة خارجاً عن سورية إن لم تكن على مذهب الدروز فهي تشابهها في المعابد وفي بعض الفروع وتدين بحب آل البيت. ويقال إن في الهند وجبال هندكوش أيضاً مئات من الألوف يكتمون معتقدهم كالدروز ويجتمعون للعبادة ليلة الجمعة وهم هناك في غاية الصولة والشدّة وفي حروب دائمة مع مجاوريهم من المجوس. ومن الذين يشبهون الدروز في بعض الأحوال المذهبية خارجاً عن برّ الشام قبيلة عرب بني لام في العراق والله أعلم»(١٨).

وتأكيداً لذلك، تثبت كتب العقيدة وجود رسائل عديدة أرسلت في زمن الدعوة من قبل حمزة والمقتنى بهاء الدين، للهند والصين والقسطنطينية وغيرها. حتى في أيامنا هذه، هناك طائفة دينية تسمّى بـ«الموحّدين» تعيش في الصين.

---

(١٧) طليع، أمين، المرجع السابق، ص ١٩. ومكارم، سامي، المرجع السابق، ص ١٢٢.
(١٨) الأسود، إبراهيم بك، ذخائر لبنان، ص ١٢١.

الفصل السابع

الدعاة المرتدّون عن التوحيد

لعب عدد مهم من الدعاة دوراً كبيراً في ارتدادهم عن التوحيد، وشكّلوا لمرحلة من الزمن، خطراً ضخماً، ليس فقط على كبار أركان الدعوة، بل وعلى سيرها ومستقبلها أيضاً، ولولا الملاحقة «التوحيدية» لهم والقضاء عليهم في بدء نشاطهم، وعلى أنصارهم، لتعرّض الموحّدون ودعوتهم لضائقة كبرى لا تقل خطراً عن المحن والاضطهادات التي عاشوها بعد غيبة الحاكم وحمزة، لا بل أخطر منها بكثير. نذكر منهم على سبيل المثال:

محمد بن اسماعيل المعروف بنشتكين الدَرَزي:

كان من أول الدعاة وأقربهم للحاكم، ولكن أنانيته دفعته ليعلن رفضه لأوامر حمزة بن علي بعد أن تقلّد هذا الأخير أمر الإمامة حاملاً «لقب إمام الزمان». لجأ بعد ذلك للتفريط بقدسيّة الدعوة وتزوير السكّة والقيام بأمور مخالفة للأخلاق والأصول، هذا وكثر أتباع الدَرَزي من جهة أخرى، لما كان عليه من تساهل في تقبّل الأتباع وإغراء للعامة[1] . ولكن الخطة الحكيمة التي لجأ إليها الحاكم بأمر الله وحمزة في تعليق الدعوة في عام ٤٠٩ هـ، كان لها الأثر الكبير في كشف الدَرَزي على حقيقته من ناحية، وازدياد النقمة عليه من ناحية أخرى بعد أن انقطعت صلته بالتوحيد، مما أدّى

(١) أبو صالح، عباس، ومكارم، سامي، مرجع سابق، ص ٦٣ نقلاً عن «الأصول التوحيدية»، الجزء الثاني، الرسالة رقم ٢ ورقم ١٦.

فيما بعد إلى نقمة أهل القاهرة عليه حيث أوقعوا هزيمة به ذهبت بأربعين من أتباعه، وكانت سبباً لدفع نشتكين الدَرَزي لمهاجمة حمزة وهو في مسجد ريدان. قتل أمام مسجد ريدان في القاهرة في العاشر من آذار ١٠١٩ أي في عام ٤١٠ هـ(*)، أثناء صراعه مع «إمام الزمان». نشطت دعوة التوحيد بعد موته واستمرَّت لمدة عامين في ظل الحاكم وحمزة قبل غيبتهما محقّقة نجاحاً كبيراً في توسعها وانتشارها. ويعود «الدروز» في نسبتهم إلى الدَرَزي، ولكنهم لا يقبلون هذه التسمية ويفضِّلون اسم «الموحّدين» أو «الأعراف»، ويطلق عليهم أيضاً اسم «بني معروف»[٢]،

عبد الرحيم بن الياس:

هو ابن عم «الحاكم» وأحد دعاته الكبار في دمشق. وكان «الحاكم» قد أوصى إليه بالخلافة من بعده مبعداً علي الظاهر (ولده) عنها. ولكن سرعان ما أعلن عبد الرحيم عصيانه على الحاكم وارتداده عنه. واشترك مع ابن تالشليل (أمير الأكراد) في حملة على الموحّدين في وادي التيم. تلك الحملة التي سبَّبت في مقتل عدد كبير منهم (الموحّدين) كما سُبي وأحرق وأُهلك خلق كثير[٣]. ولم يقف عبد الرحيم بن الياس عند هذا الحد، بل أراد تجريد حملة للقضاء على الحاكم نفسه بمساعدة أمير الرملة حسان بن مفرّج. لكن عصيان الجيش الفاطمي على عبد الرحيم، أدَّى إلى هزيمته ولكنه استطاع الإفلات والفرار[٤]. هذا وبعد تمرّده وعصيانه على الحاكم، خلع عبد الرحيم بن الياس عن ولاية دمشق، وذلك في السنة الأولى للدعوة حيث شارك المقتنى بهاء الدين في أسر عبد الرحيم وأرجعه إلى القاهرة بأمر من الإمام حمزة بن علي[٥]. وبعد أن قدَّم اعتذاره وتوبته للحاكم، عاد عبد الرحيم بن الياس والياً على دمشق ثم

(*) يذكر المؤرخ الكبير محمد كرد علي (خطط الشام، الجزء ٦، ص ٢٦٤) إن نشتكين الدرزي قتل سنة ٤١١ هـ، والصحيح هو سنة ٤١٠ هـ/ في العاشر من آذار ١٠١٩ م.

(٢) كرد علي، محمد، خطط الشام، الجزء السادس، ص ٢٦٤.

(٣) كرد علي، محمد، خطط الشام، الجزء الأول، ص ١٤٧.

(٤) أبو صالح، عباس. ومكارم سامي، مرجع سابق، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٥) الأشرفاني، محمد مالك، عمدة العارفين، الجزء الثالث، ص ١٨٨ و١٠٤ ـ ١٠٥.

عاد لعصيانه من جديد، وبنقمة أشدّ من ذي قبل. وقال فيه «إمام الزمان» في كشف الحقائق، هو إبليس لعنه الله في كل كتاب[٦].

لاحق بن الشرف العباسي:

احتلّ «لاحق» مركزاً مهماً ومرموقاً في أمر الدعوة، إذ كان الآمر الناهي على سائر الدعاة بعد تقليده من قبل المقتنى بهاء الدين، و«لا أحد فوقه إلا المقتنى نفسه»[٧]. «ويبدو أن هذا الداعي عندما ذاق طعم السلطة، ظهر على حقيقته وحدّثته نفسه بإقامة دعوة خاصة به (مقلّداً بذلك نشتكين الدَرَزي). فتنكّر لأوامر المقتنى محرِّفاً تعاليم الدعوة. فبادر المقتنى إلى عزله»[٨].

ابن البربرية:

كان أحد الدعاة الذين لعبت الأطماع الشخصية بنفوسهم تقليداً لزعيم المرتدين نشتكين وسيراً على خطاه. لقد أعلن ارتداده في عام ١٠٢٩/ ٤٢٠ هـ في سبسطاس في مصر، معلناً الدعوة لنفسه بعيداً عن أوامر المقتنى وجوهر التوحيد. استطاع ابن البربرية أن يحيط نفسه بعدد من الأتباع ملحقاً بدعوة التوحيد تشويهاً كبيراً بإدخاله الكثير من القضايا البعيدة عن روح الدعوة ومناقضة لها كلياً. وهذا ما دفع بالمقتنى بهاء الدين «إلى الذهاب إلى الاسكندرية حيث وجّه رسالة يشهّر بها هذا المرتدّ عن الدعوة»[٩]، وسُمِّيت هذه الرسالة برسالة الاسكندرية، كانت كافية لوضع حدٍّ لابن البربرية بالتمادي في خطوته وانحرافه.

مسعود بن سكين الكردي المعروف بـ «سكين»:

كان لارتداد «سكين» أثر كبير في مجرى دعوة التوحيد. إذ كانت إقامته البعيدة عن مركز الدعوة في مصر، عاملاً مساعداً وهاماً في إطالة عمر ارتداده بالإضافة إلى العامل الآخر المتمثّل بصعوبة تحرّك المقتنى بحرية للقضاء عليه، بسبب وجود الظاهر

(٦) سلمان، توفيق، مرجع سابق، ص ٢٣.
(٧) أبو صالح ومكارم، مرجع سابق، ص ٧٠ نقلاً عن «الأصول التوحيدية» الرسالة ٤٥.
(٨) أبو صالح ومكارم، مرجع سابق، ص ٧٠ نقلاً عن «الأصول التوحيدية» الرسالة ٧٧.
(٩) أبو صالح ومكارم، مرجع سابق، ص ٦٩ نقلاً عن «الأصول التوحيدية» الرسالة ٧٦.

الـذي أوسم الموحّـدين شتى ألـوان الاضـطهـاد والتنكيـل في المحنـة التي دامت عـدة سنوات.

تسلَّم «سكـين» أمـور الـدعـوة في جـزيـرة الشـام العليـا منـذ سنـة ٤١٨ هـ/١٠٢٧(١٠) وبقي حتى ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ - ١٠٣٥ في مـركـزه حتى ظهـر عـلى حقيقتـه. وكان عـلى رأس الدعـاة - إلى جانب لاحق ومصعب التيمي - الـذين قامـوا «بخط منحرف عن عقيدة التوحيد، ولاقى هؤلاء المرتدون الثلاثة، لما كانـوا يدعـون إليه من تساهل في القيم الخلقية وصل إلى حدّ الإباحية، تجاوباً مـع كثير من النـاس، فجمعوا حولهم عـدداً من الأتباع الـذين أساؤوا إلى سـير الدعـوة وسبَّبوا لها كثيراً من المتـاعب»(١١). وعندمـا بلغت دعـوتـه الخـطورة بمكـان استـدعى المقتنى «سكينـا» إلى الاسكندرية في محـاولة لإقنـاعه بـالعودة إلى الخط الصحيح للدعوة، كما أرسل أحـد أعوانه الثقات وهو الـداعي أبو اليقـظان عمار إلى وادي التيم لإقنـاع شرذمة «سكـين» بالشيء ذاته، مع رسالة يعلمهم فيها عـزل «سكين». ولكن أنصـار «سكين» في قـرية كوكبا أعلنوا عن موقفهم جهاراً إلى جانب «سكين» ووثبوا على الداعي عـمار وأوسعوه ضرباً وأخرجوه من قريتهم حتى إذا ما وصل إلى أرض «إبل» المجاورة لحقـوا به وقتلوه وأخفوا جثته تحت رجمـة من الحجارة وعـادوا من حيث أتوا، ويبـدو أنهم اختاروا قتله خارج بلدتهم لكي يبعدوا عنهم تهمة القتل فلا تلاحقهم السلطة المركزية(١٢).

بعد أن علم المقتنى بهاء الدين بموت رسوله الداعي عمار، حزن عليه كثيراً وقرَّر إرسال السيدة «سارة» وهي «من الموحّدات وابنة أخيـه بالـذات، وقيل ابنـة أخته»(١٣) للقيام بالمهمـة التي انتدب إليهـا الداعي عـمار قبلها في وادي التيم. وأحـرزت السيدة «سـارة» في مهمتها نجـاحاً كبيـراً على مـا يبدو. ولـو لم يكن كذلـك لما تـرك «سكين» الاسكندرية مغادراً إلى وادي التيم بعد أن علم أن عدداً من أنصاره عاد إلى التوحيد. عندها أحسَّ «سكين» وحليفه مصعب التيمي بخطورة بهاء الـدين وتأثـيره، فعمدا إلى

(١٠) أبو صالح ومكارم، مرجع سابق، ص ٧٠ نقلاً عن «الأصول التوحيدية»، الرسالة ٤٦.

(١١) أبو صالح ومكارم، مرجع سابق، ص ٦٩ - ٧٠.

(١٢) الأشرفاني، محمد مالك، المصدر السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(١٣) الأشرفاني، محمد مالك، المصدر السابق، ص ١٤٩ - ١٥٣.

اتباع نهج نشتكين في محاولته القضاء على حمزة بن علي، وذلك بتصميمهما على التخلّص من المقتنى بالوشاية عليه لدى الظاهر، مما دفع بهاء الدين إلى «ستر الدعوة من جديد خوفاً من أن يجدّد الظاهر محنته على الموحّدين»[١٤].

بعد موت الظاهر سنة ١٠٣٦م، وتقرّب المقتنى من الخليفة المستنصر بالله، استدعى السيدة «سارة» من وادي التيم وطلب من الأمير أبي الفوارس معضاد بن يوسف الفوارسي، وهو أحد أعيان جبل لبنان وكان قاطناً في قرية فلجين[١٥] قرب عاليه، أن يتوجه إلى وادي التيم للقضاء على «سكين» وشرذمته. وقام الأمير أبو الفوارس معضاد بمهمته هذه خير قيام بمساعدة فتاة من أهل التوحيد اسمها «صالحة»، وهي ابنة أحد المرتدين من رفاق سكين، واسمه أبو جمعة[١٦]. تمكّن أبو الفوارس من القضاء على جماعة سكين، عندما اتفق مع «صالحة» على كلمة السر المتمثّلة «بنور سراج» في الوقت الذي يكون فيه والدها مجتمعاً مع «سكين» وجماعته. ولما لاح ضوء السراج هجم الأمير أبو الفوارس معضاد على المنزل الذي يجتمع فيه المرتدّون وقضى عليهم، بيد أن سكيناً استطاع الفرار إلى بلدة مجاورة تدعى «عرنة»، وصلها عند الفجر، حيث تعرَّفت إليه امرأة من آل كبّول، كانت تخبز. وبعد أن أطعمته وسقته غلبه النعاس، فدفعته دفعة قوية إلى نار التنّور فمات حرقاً سنة ١٠٣٧[١٧].

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أن الحشو والتحريف الذي أدخله سكين ورفاقه على المذهب، والذي استوجب النقمة والتنديد، ووصم الناكثون والمرتدون بالسكينيين والدَرَزيين، فجميع هذه «المحاولات من الدس والتحريف وقعت أثناء الدعوة. وقد تصدّى لها الدعاة وحذّروا منها وأزالوها وعاقبوا مقترفيها. . . فليس من المعقول أن يأمر الحاكم بقتل الدَرَزي عقاباً له على دسّه وتحريفه، ويستوجب سكين النقمة والتنديد للشيء نفسه، ويبقي في الوقت ذاته على هذا الدس والتحريف»[١٨].

---

(١٤) العقيلي، يوسف «خبايا الجوهر»، ص ٧٦٧ ـ ٧٦٩. و«الأصول التوحيدية»، الرسالة ٦٦.

(١٥) سلمان، توفيق، حرجج سابق، ص ١٣١.

(١٦) الأشرفاني، محمد مالك، مصدر سابق، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(١٧) الأشرفاني، محمد مالك، مصدر سابق، ص ٢١٢.

(١٨) مكارم، سامي «أضواء على مسلك التوحيد، الدرزية» بيروت ١٩٦٦، ص ١١٣.

مصعب التيمي :

كـان هذا المـرتدّ من الحلفـاء الأساسيين لسكين، ومن ضمن الحلف الجهنمي الذي سعى لتقويض دعوة التوحيد، وذلك من خلال الخطة القاضية بقتـل المقتنى بهاء الدين نفسه بالوشاية عليه لدى الظاهر. ولـو لم يكن من نفس الطينـة التي ينتمي إليها الظاهر، (وهي طينة الارتداد والكفر) لما كان بينهما هـذا التحالف القـوي، الذي أدّى بنائب المقتنى في القاهرة، أيوب بن علي، إلى التخفّي هربـاً من علي الـظاهر[١٩]، كـما أجبر بهاء الدين على ستر الدعوة من جديد خوفاً من محنة جديدة للموحّدين عـلى يدي الظاهر كما أشرنا من قبل. وساهم مصعب إلى جانب رفاقه، قادة الارتداد، في تحويـر وتحريف الرسائل التوحيدية وفي إدخال كثير من البدع فيها والحطّ من القيم الخلقية إلى حدّ الإباحية. لكن جميع هذه الدسائس والتحريفـات أُزيلت بزوال مـرتكبيها وحـوفظ عـلى نقاوة العقيـدة وصفائهـا بفضل المقتنى بهـاء الدين ـ ودعم رفـاقه «الحـدود» لـه ـ واستمرّت الدعوة بنشاط ونجاح منقطع النظير حتى تاريخ الإعلان عن إقفال بابها سنة ١٠٤٣م.

لم يقتصر دور المـرتدين عـلى هذا العـدد فقط بل كـان هناك أسـماء قادة شكّلت طليعة هذه الحركة الارتدادية كأبو جعفر علي بن أحمد الحبّال، وأبـو منصور الـبرذعي، واضعة نهجاً خاصاً في الكفر والردّة والتحريف سار عليه مرتـدّون آخرون من أمثـال: «محلاّ» و«ابن أبي حصبة» و«حسن بن معلّى» وغيرهم ممن وجدوا الكفر طريقاً للشهرة.

---

(١٩) الأصول التوحيدية، الرسالة ٨٠.

الفصل الثامن

سرّية كتب المعتقد

«كتب المعتقد» هي عبارة عن كتب تضم الرسائل التوحيدية للدعوة التي كان لحمزة بن علي، وأبو ابراهيم اسماعيل التميمي، والمقتنى بهاء الدين، بالإضافة إلى بعض منها للحاكم، كان لهم الدور الأول في وضع فلسفتها، لتشكّل فيها بعد عقيدة دينية لطائفة سُمِّيت خطأ وافتراء «بالدروز»، وهي طائفة الموحّدين والأعراف.

وكان للأمير السيد عبد الله التنوخي الفضل الكبير في «شرح» هذه الرسائل الفلسفية حيث يصعب على كثير من مشايخ الدروز فهمها بسهولة لأنها عقيدة فلسفية أولاً، لا تُفهم على حقيقتها وجوهرها إلا من قبل المتعلّمين وعلى مستوى من الثقافة ـ والفلسفية منها خاصة ـ بينها هناك نسبة مهمة من أجاويد الطائفة أمّية ولا تمتلك الحد الأدنى من العلم والثقافة. ولهذا كان «شرح المعتقد» على يد الأمير السيد عبد الله التنوخي خدمة جلّى للطائفة ككل. وعقّال الطائفة يسمّون شرح الأمير السيد بـ «**خواص العقيدة**» . ومن المستبعد جداً أن نجد في التاريخ مذهباً من المذاهب الدينية الباطنية، أو سراً من أسراره، حوفظ على سرّيته، كما حوفظ على أسرار عقيدة التوحيد الدرزية، التي بقيت مستورة ومحافظ عليها بدقة وكتمان شديدين لا مثيل لهما في تاريخ الأديان. وسبب ذلك يعود أولاً وقبل كل شيء إلى جهاز الدعوة من الأساس فيما يختص بتنظيمها بشكل سرّي دقيق، كما يعود من ناحية أخرى إلى الإيمان الصادق والعميق في نفوس معتنقيها من الموحّدين، حيث لا يجوز ـ دينياً ـ قراءة «**كتب العقيدة**» إلا للعقّال[1] و«لا يصل إلى درجة العقّال إلا من كان منهم رجلاً حسن

---

(1) Encyclopédie de L'Islam, Tome 2, Page 649.

الأخلاق، عالي الهمّة يوثق بصلاحه وبقدرته على كتمان السر»[٢]. كما لا يجوز طبع هذه الكتب وإطلاع باقي الطوائف عليها، وهي بشكل مخطوطات تنسخ باليد. ولهذا يصعب وجودها كلها في حوزة شيخ واحد، باستثناء العقّال الذين بلغوا مرتبة عالية في إطلاعهم وفهمهم لعقيدة التوحيد، ويعتبرون بالتالي مرجعاً روحياً كبيراً. إذ أن عملية نسخها تتطلّب وقتاً طويلاً، ولا يسمح بذلك إلا لمن اجتاز مرحلة كبرى في أمور المذهب، والذي يمتلك قاعدة الخط الرائع الجميل واستخدام الريشة المتعدِّدة الألوان.

والجدير بالذكر أن دعوة التوحيد ليست بـ «دعوة تبشيرية»[٣]، لذلك لا يعمد الدروز إلى كشفها وإظهارها للملأ، إنها كامنة في أعماقهم، لا تخرج أبداً على أطراف ألسنتهم، وقد أغلق باب الدعوة منذ وقت طويل (١٠٤٣) ولم يعد يسمح لمريد أو مرتد. والكثير من المؤرِّخين يرجع ذلك - وهذا جزء من الحقيقة - إلى الأوضاع السياسية التي عاشها أبناء عقيدة التوحيد. «ولا شك أن الإصرار على إبقاء الدين أمراً سرياً أملته عليهم الظروف السياسية»[٤]، حتى إن الشيخ أحمد الهجري (وهو من المشايخ الأتقياء الذين اشتهر عنهم بالتقوى وخلق المعجزات)، أجاب عن سر هذا الاختفاء قائلاً: «هو غير واجب، لكن درج عليه أشياخنا، مدفوعين بظروف سياسية، ثم ذهبت تلك الظروف وبقي هو موروثاً»[٥].

ومن المحتمل، أنه عندما تعرّض الشوف في سنة ١٥٨٤، للحملة العثمانية على أثر حادثة جون عكار، وقتل ابراهيم باشا، والي مصر وقائد الحملة، من عقّال الدروز، «ست مئة رجل من الوفد الذي ذهب لمقابلته في عين صوفر، ونزع السلاح من أيدي الناس، وقتل منهم على ما روي، ستين ألف رجل»[٦]، وكذلك أثناء حملة أحمد الحافظ باشا عام ١٦١٣، على الشوف وتخريب وحرق عدد كبير من الضياع في

---

(٢) حتي، فيليب، مرجع سابق، ص ٣١٩.
(٣) أبو مصلح، حافظ، واقع الدروز، مرجع سابق، ص ٢١.
(٤) حتي، فيليب، مرجع سابق، ص ٣١٩.
(٥) الزعبي، محمد علي، مرجع سابق، ص ٩٢.
(٦) الدويهي، أسطفان، تاريخ الأزمنة، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥١، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ وحيدر شهاب، ص ٦١٨ - ٦١٩، والشدياق طنوس، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

المنطقة الدرزية، فمن المحتمل أن بعض الكتب الدينية حُملت إلى دمشق ومصر بعد نهب الخلوات الدرزية. و«إن أقدم هذه الخلوات وأرفعها مقاماً عندهم (الدروز) خلوات البياضة قرب حاصبيا. وإلى الجنوب الشرقي من هذه الخلوات خلوة شبعا التي نهب كتبها جيش ابراهيم باشا عام ١٨٣٤، فكانت المرة الأولى التي تعرَّف فيها العالم إلى كتبهم. وأقدم دراسة أوروبية للطائفة الدرزية وتاريخها وعقائدها قام بها عالم(!!!) فرنسي اسمه سلفستر دي ساسي «Sylvestre de Sacy»(٧). رغم ذلك، فإن التعرّف «الغربي» على الكتب الدرزية شيء، ومعرفة أسرار المذهب على حقيقتها شيء آخر. لهذا عجز «الغربيون» عن فهم المذهب فهماً صحيحاً لأنه يحتوي على كثير من الألغاز والتفسيرات الباطنية التي تختلف في جوهرها عن التفسير الظاهري. يضاف إلى ذلك جهلهم لعقيدة التقمّص التي تشكِّل المحور الرئيسي لمذهب التوحيد.

وفي إحدى مقابلاتي(*) لسماحة شيخ عقل الطائفة الدرزية الشيخ محمد أبي شقرا، ورداً على سؤال عمّا أورده الدكتور فيليب حتي حول «خلوات شبعا» ونهبها من قبل جيش ابراهيم باشا عام ١٨٣٤ أجاب قائلاً: إن الكثير من المؤرِّخين ـ ومنهم حتِّي بالطبع ـ لا يعتمد التدقيق في الأخبار والروايات، ولو حاول الدكتور حتِّي اعتماد الدقّة في أبحاثه، لعرف بأن شبعا لم يكن فيها دروز في يوم من الأيام، ولا وجود لخلوات فيها أيضاً. ومن المعروف أن الخلوات التي نهبت ـ ليس فقط من قبل ابراهيم باشا، بل من قبل الفرنسيين أيضاً ـ هي خلوات البيّاضة القريبة من بلدة شبعا.

---

(٧) حتي، فيليب، مرجع سابق، ص ٣١٩.

(*) مقابلة مع سماحة الشيخ محمد أبي شقرا شيخ عقل الطائفة الدرزية، في مبنى دار الطائفة في بيروت يوم الثلاثاء بتاريخ ١٦/٢/١٩٨٢.

الفصل التاسع

أصل الموحّدين الدروز وعروبتهم

الدرزية مذهب لا دين. لأن «النحلة المتفرّعة من دين ما، لا تسمّى ديناً، بل مذهباً، فالعلوية والدرزية مثلاً، مذهبان من مذاهب الإسلام لا دينان»[1] . وفي هذا الإطار، يؤكِّد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان أن آل معروف (الدروز) «خرجوا من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة وأن نحلتهم اسماعيلية فاطمية، ولكن انشقاقهم عن الشيعة مضى عليه نحو عشرة قرون فتراخت الصلة»[2] .

بيد أن بعض المؤرِّخين اللبنانيين الذين احترفوا عملية الدس والتشويه والتزوير في مدارس الإرساليات الأجنبية، وعلى رأسهم الدكتورين فؤاد افرام البستاني وفيليب حتيّ، فإنهم لم يخرجوا عن إطار الادعاءات والمزاعم التي أطلقها مؤرِّخو الإفرنج في أصل هذه الفرقة الإسلامية. وفي حديث لمجلة «الحوادث» البيروتية يؤكِّد فؤاد افرام البستاني: «أن الدروز ليسوا من الإسلام في شيء». وقال أيضاً: «والدروز ليست طائفة مسلمة وإنما هي دين قائم بنفسه يختلف عن الدين الإسلامي»[3] . بينما يأتي تصريح الشيخ محمود شلتوت، إمام الجامع الأزهر (الجامع الذي حوَّله الحاكم بأمر الله من جامع ديني إلى جامعة علمية ودينية)، مؤكِّداً أن «الدروز موحّدون مسلمون مؤمنون»[4] . وحول هذا الموضوع تطرَّق الأمير شكيب أرسلان في مقاله «النقد

---

(١) الزعبي، محمد علي، مرجع سابق، ص ٣ (نقلاً عن الشيخ عبد الله الجزار مفتي عكا).

(٢) زعيتر، أكرم، «الميثاق» (تصدر عن بيت اليتيم الدرزي في عبيه)، الجزء الخامس، نوار ١٩٨٠، ص ٢٦١ . ويؤكد ذلك الاستاذ إبراهيم بك الأسود في «ذخائر لبنان» ص ١٣٩ .

(٣) زعيتر، أكرم، «الميثاق» المرجع السابق، ص ٢٥٣ .

(٤) المناصرة، عز الدين، «شؤون فلسطينية» عدد ١٠٨، ت٢، ١٩٨٠، ص ٣٦ نقلاً عن نبيه القاسم =

التاريخي وعروبة آل معروف»، مشيراً إلى الدس والتحريف في كتاب الدكتور «حتّي» عن الدروز، قائلاً: «نقل المؤلّف الأستاذ فيليب حتي في كتابه عن الدروز جميع ما خلط الخالطون من إفرنج وغيرهم في أصل هذه الفرقة وجرى هو نفسه مجرى بعض مؤرّخي الإفرنج» (٥).

والحقيقة أن بعض المؤرّخين الغربيين ادّعى بأن الدروز لا يمتّون إلى العرب والعروبة بصلة، وأنهم يعودون في أصلهم إلى القائد الصليبي، الكابيتان الفرنسي «درو». فقد زعم هذا التيار الممثّل بـ «سانتي، وساڤاري دي بروف، وموندرل، وكاكسيا ماري وغيرهم» (٦)، أن القائد الفرنسي «درو» الذي نجا من مذابح عكا، بعد أن تمكّن السلطان الأشرف (سلطان مصر) من انتزاع المدينة من أيدي الصليبيين عام ١٢٩١، وقضى على نفوذ الفرنجة في الأرض المقدّسة، استطاع هذا القائد الهرب في الصحراء حتى وصل أخيراً إلى منطقة جبل لبنان، حيث اتخذها مقراً لإقامته. وانطلاقاً من هذه «الخرافة» يزعم هؤلاء بأن الدروز هم من بقايا الصليبيين. بيد أن الدكتور مزهر يقول: «فإن دلّ كلامهم على شيء فإما عن جهل مطبق للتاريخ أو على سوء نية فاضح»(*). في المقابل يأتي كلام المستشرق الفرنسي «بيجيه دى سان بيير»، والمستشرق «بورون»، ليمثّل رداً واضحاً على هذه المزاعم قائلاً بأنه منذ وجود الدرزية، كان لبنان مركز إقامة الدروز الأساسي (٧). وهذا يعني بأن الدروز وجدوا في هذه المنطقة قبل سقوط عكا بقرن ونصف القرن (٨).

ويتساءل الأمير شكيب أرسلان في مقاله «النقد التاريخي وعروبة آل معروف» كيف لم يُشر مؤرّخو الإسلام ولا مؤرّخو الإفرنج أنفسهم ولا مؤرّخو الموارنة الذين هم

= «واقع الدروز في إسرائيل» القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٦.

(٥) أرسلان، شكيب، «الميثاق»، الجزء السادس، حزيران ١٩٨٠، ص ٣١٠.

(٦) Ismail, Adel «histoire du Liban», Paris 1955, Tome 1, Page 28-29.

(*) مزهر، يوسف، تاريخ لبنان العام، الجزء الأول، بيروت، ص ٢٩٣.

(٧) P.De st Pierre, «histoire des druses, peuple du Liban», Page 5. et Bouron, «histoire du Liban et de la montagne Hauranaise», Paris 1930 Page 92.

(٨) عادل إسماعيل. مرجع سابق. ص ٢٩ Ismail, Adel, op., Page 29.

أكثر الطوائف اللبنانية اختلاطاً بالدروز، كيف لم يُشر جميع هؤلاء - وحتى مؤرِّخو لبنان - إلى حادث كهذا، مع أنهم نقَّبوا عمَّا هو أصغر منه بكثير؟»[٩].

لم تقتصر المزاعم على هذا الحد، بل ادعى البريطانيون أيضاً أن «الدروز هم من أصل انكليزي، أي هم من سلالة الجنود الانكليز الذين صاحبوا ريتشارد وغيره من ملوك الانكليز الذين أسهموا في الحروب الصليبية». كما ادعى الفاتيكان بأن «الدروز الموحّدين يضربون لأعراق رومانية كاثوليكية». وادعى اليهود بدورهم «أن الموحّدين هم من السلالة السليمانية». ومن المؤرِّخين من أعاد الدروز بأصلهم إلى الفرس والمجوس والشركس والهنود (كفيليب حتي مثلاً).

وطبيعي أن هذا الادعاء - ومن أي طرف كان - لم يكن نتيجة البحث العلمي الصادق، أو نتيجة الدراسة الحديثة العميقة والموضوعية لأصل هذه الطائفة، بقدر ما كان يحمل - هذا الادعاء - من أبعاد وأهداف بعيدة جداً عن الحقيقة العلمية، ولا تخلو من الدس والتشويه والتزوير. ولكن الحكم الصحيح والذي يعتبر معياراً ومقياساً للحقيقة هو، ذلك النابع من المعايشة والمعرفة الحقيقية لهذه الطائفة عن طريق الاحتكاك المباشر معها وعن قرب، ودراسة عاداتها وتقاليدها بصدق ونزاهة، وبكل أمانة لا بقصد الدس والتحريف وتحقيقاً لهدف استعماري رخيص. والوطنية هي جزء من تراث الدروز، ويضحّون بكل غال ونفيس في سبيلها، وبدفاعهم عنها، فإنهم مؤمنون بأنهم يدافعون عن العروبة ككل. وعلى هذا الأساس، أشار الجنرال الفرنسي أندريا Andria، الذي خبرهم وعايشهم طويلاً، إلى وطنيتهم قائلاً: «علاوة على شجاعتهم في المعارك، فإنهم واثقون من أنهم يقاتلون من أجل قضية وطنية، تهدِّد نسلهم إذا سكتوا عنها»[١٠].

ولم يُخف تشرشل، كبير سياسيي انكلترا الذي عاش فترة عشر سنوات متنقِّلاً في هذه المنطقة، وبين الدروز بشكل خاص، لم يُخفِ اعترافه بعروبة الدروز، مؤكِّداً أن

---

(٩) أرسلان، شكيب، «الميثاق»، الجزء السادس، حزيران، ١٩٨٠، ص ٣١٧.

(١٠) الجنرال أندريا، «ثورة الدروز وتمرد دمشق»، ترجمة وتعليق حافظ أبو مصلح، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١، ص ١٤٧.

الأرستقراطية الدرزية عامة تعلن بفخر وعناد انتسابها للأصل العربي العريق[١١]. كما أن الرحّالة اليهودي بنيامين الذي زار «إقليم لبنان» في القرن الثاني عشر للهجرة ووصف المجتمع الدرزي، ذهب إلى «أن الدروز سلالة قبائل عربية أنزلها الأمبراطور بمبي لبنان حوالي سنة ٦٤ ق.م»[١٢].

وبشكل أكثر تحديداً، فإن الدروز يتحدَّرون من القبائل العربية الاثنتي عشرة التي كانت تقيم منذ الفتح العربي في معرّة النعمان، ثم انتقلت بعدها لتستقر في لبنان. ويؤكِّد ذلك كثير من المؤرِّخين العرب الذين يعرفون هذه الطائفة ويعيشون بين ظهرانيها[١٣]. ويشير عبد الرحمن بدوي (ص ٦٤٢) إلى الحجج التي يقدِّمها الدروز توكيداً على عراقة أصولهم العربية فيقول نقلاً عن الأستاذ سليمان أبو عز الدين إن «أسماء الدروز، إلا القليل منها عربية»[*]. وإن «الدروز من أصحّ الفروع العربية لفظاً لبعض الحروف الهجائية، أي الثاء، والذال، والظاء، والقاف». كما يشير الأمير شكيب أرسلان مؤكِّداً عروبة الدروز بقوله: «إن لفظهم بالعربي الصحيح . . . لا يساويهم فيه أحد من جميع سكان سورية».

كما أن المؤرِّخ الأستاذ أكرم زعيتر[١٤] يؤكِّد ذلك قائلاً: «الدروز لباب العرب. ولا يوجد درزي واحد يرضى بأن ينسب لغير الإسلام».

وبصورة أكثر شمولية، يقول المؤرِّخ الكبير الأستاذ عارف النكدي بأن «هذه الطائفة عربية الأصل، بل هي أعرق طوائف بلاد الشام عربية وأخلصهن في ذلك دماً. . أما عربية هذه الطائفة فثابتة: ١ ـ بأسمائها العربية اللفظ والمعنى والمصطلح. ٢ ـ بعاداتها وأخلاقها وآدابها. ٣ ـ بسلامة ألفاظها العربية. ٤ ـ بأنساب كثير من أسرها وقبائلها التي حفظت عمد أنسابها وسلسلاتها، بعضها بالتسجيل الصحيح في سجل المحاكم الشرعية، وبعضها بالنقل

---

(١١) توما، توفيق، مرجع سابق، ص ٣٨ .Touma, Toufic, op., Page 38

(١٢) حسين، محمد كامل، مرجع سابق، طبعة ١٩٦٨، ص ٦.

(١٣) مثلاً: شكيب أرسلان، سليمان أبو عز الدين، حيدر شهاب، طنوس الشدياق، صالح بن يحيى، يوسف مزهر، توفيق توما، عبد الرحمن بدوي، إبراهيم الأسود، والانسيكلوبيديا الإسلامية وغيرهم.

(*) يصف الرحالة الفرنسي ڤولناي Volney، الدرزي وعروبته قائلاً: «الدرزي هو عربي نقي جداً، يفتقر إلى كلمة واحدة أوروبية الأصل» (voleny, voyage en Egypte et en syrie, Tome 2 Paris 1959 page 231.

(ڤولناي، رحلة في مصر وسوريا، الجزء ٢، باريس ١٩٥٩، ص ٢٣١.

(١٤) زعيتر، أكرم، مجلة القدس، العدد الرابع تاريخ ١/٣/١٩٨٠.

الدقيق والسند المتصل. ٥ ـ بتاريخها الثابت. وتاريخ هذه الطائفة تاريخ قريب عهده لا تضيع أصوله وحوادثه في مجاهل القدم»(١٥).

وانطلاقاً من العلاقة العضوية بين الصهيونية والاستعمار العالمي، فإن الصهاينة لم يتخلّوا في هذا العصر عن مشاركة أسيادهم الاستعماريين في الدسيسة ضد الدروز. ولم تقتصر مشاركتهم على الناحية النظرية فقط، بل وبشكل أرقى بتطبيقها على واقع الصراع العربي ـ الصهيوني في فلسطين المحتلة. وذلك من خلال التفرقة بين الدروز وإخوانهم المسيحيين والمسلمين الفلسطينيين، حيث أبعد الأخيرون عن الخدمة في جيش الاحتلال، بينما فرض التجنيد الإلزامي على الدروز ضمن خطة الإيقاع بين أبناء الشعب العربي الواحد في فلسطين وخارجها، وكدليل وإثبات أمام الآخرين بأن «الدروز ليسوا بعرب». ولتظهر الدولة الصهيونية، من ناحية أخرى، أمام العالم الخارجي بأنها دولة «ديمقراطية»، ضمن مخطّط القضاء على الهوية العربية للدروز مستغلة تشبّث الإنسان الدرزي بأرضه، مع ما يعانيه اقتصادياً وثقافياً وسياسياً في ظل القبضة الحديدية الصهيونية المحكمة عليه.

وتحاول الصهيونية بشتى الوسائل والطرق إقناع الدروز بأن لهم خصوصيتهم المميّزة، وقومية خاصة بهم على غرار «القومية اليهودية». متناسية شهداء دروز شفاعمرو وكفار عطا عام ١٩٤٨ الذين سقطوا ضمن الفيلق الدرزي في جيش الإنقاذ دفاعاً عن عروبة فلسطين وحريتها.

وفي هذا الإطار، أرسل الطلاب العرب الدروز في الجامعة العبرية كتاباً لوزير الداخلية يؤكّدون فيه «أن الدرزية هي مذهب ديني، وأن قومية الدروز هي القومية العربية». كما أكّد الشيخ قاسم فرو من عسفيا: «إننا إذا أنكرنا أننا عرب فإننا ننكر تاريخ ثوراتنا التاريخية... وإن من يريد أن يبدّل قوميته العربية بقومية لم توجد يوماً، ألا وهي «القومية الدرزية» مقابل عضوية الكنيست أو راتب أو وظيفة، فإن هذا لا يغيّر من التاريخ والحقائق التاريخية شيئاً»(١٦).

---

(١٥) «الميثاق»، الجزء الثاني عشر، كانون أول ١٩٨٠ ص ٦١٥ ـ ٦١٦.

(١٦) المناصرة، عز الدين، «شؤون فلسطينية» عدد ١٠٨، ت٢ ١٩٨٠، ص ٣٩، نقلاً عن «الاتحاد» ١٩٦٤/٣/١٧.

ورغم كل الدعايات الصهيونية العنصرية، فإنهم يعامَلون معاملة متشابهة مع إخوانهم المسيحيين والمسلمين الفلسطينيين. وقد فسَّر المؤتمر القطري الأول للجنة المبادرة الدرزية الذي عقد في شفاعمرو بتاريخ ١٩٧٨/٩/٩، هذه السياسة العنصرية بحق الدروز قائلاً: «أمام الدعاية لسنا عرباً وأمام السياسة العنصرية نحن «عرب مئة بالمئة» »[١٧].

لكن ردّة الفعل الدرزية تثبت بالدليل القاطع عروبة الدروز، وتحركاتهم في الأرض المحتلة المناهضة للاحتلال ورفضهم الخدمة العسكرية في الجيش الاسرائيلي أكبر شاهد على ذلك. وكثير من الشباب الدرزي في داخل فلسطين المحتلة تعرَّضوا للاعتقال والسجن نتيجة هذه المحاولات، مصممين على التخلِّي عن حياتهم مع تمسكهم الصلب بالأصالة العربية وترسيخ الانتماء لها.

وخرجت اللجان الدرزية في الأرض المحتلة كخطوة أولى على هذا الطريق، وكدليل على تشبّثهم بالأرض وعلاقتهم العضوية بها. وكانت «لجنة المبادرة الدرزية» برئاسة الشيخ فرهود قاسم فرهود إحدى العلامات البارزة في طبيعة الصراع. وليس الشاعر العربي الفلسطيني الدرزي سميح القاسم إلاّ أحد الرموز التي تمثِّل المقاومة بأروع صورها، وعندما رفض الانصياع لقانون التجنيد الإلزامي قال: «إنني كعربي أؤمن بعروبتي... أرفض حمل البندقية، وإن تجنيدي بالقوة سيحيلني إلى مجرم... وستكونون مسؤولين عن كل النتائج».

كذلك الحال بالنسبة للصحفي التقدمي سلمان الناطور، الذي أعلن موقفه الرافض للخدمة العسكرية في جيش الاحتلال قائلاً: «إنني أرفض الخدمة في جيش الاحتلال لأنني إنسان أولاً، وعربي ثانياً، وفلسطيني ثالثاً، ودرزي رابعاً».

وتأتي انتفاضة دروز هضبة الجولان اليوم ضد السلطات الصهيونية حلقة من سلسلة المقاومة الدرزية للصهاينة، وهي امتداد للمرحلة السابقة التي بدأت بالمردة والبيزنطيين والصليبيين والمغول والمماليك والعثمانيين مروراً بالفرنسيين وانتهاء بالصهيونية وحلفائها.

فعملية البقاء الدرزي لا يمكن ترسيخها إلا بمقاومتها لهذا الأخطبوط الصليبي القديم ـ الجديد. كما يتخذ في كثير من الأحيان طابع التحدِّي المباشر والمدوَّن خطياً كما هي

(١٧) المناصرة، عز الدين، «شؤون فلسطينية» المرجع السابق، ص ٥٤ ـ ٥٥.

الحال مع عاصم الخطيب أحد قادة لجنة المبادرة الدرزية في رسالته المفتوحة إلى غولدا مائير رئيسة وزراء الصهاينة سابقاً والتي يقول فيها: «أقسم لك يا سيدتي قسماً عربياً... ولكي تنامي يا سيدتي مرتاحة البال اتبعي هذه النصائح بعد أن تحفظيها:

(١) تقول دائرة المعارف البستانية... إن من أجداد الدروز الحاليين عشرة ممن بايعوا الرسول (صلعم) بيعة الرضوان تحت الشجرة.

(٢) الانسيكلوبيديا العبرية نفسها تؤكّد وتقرِّر أن الدروز عرب أقحاح.

(٣) في نشرة داخلية سرية لمكتب مستشار رئيسة الوزراء صدرت عام ١٩٥٨ ورد في صفحة ٦ قول الدكتور حاييم بلانك: «لغة الدروز العربية على الإطلاق، ولا مجال للافتراض بأن أصل الدروز يختلف كثيراً عن أصل الناطقين بالعربية». ويضيف الدكتور بلانك: «يخطىء من يعتقد أن الدروز ليسوا عرباً، فالدروز هم قح العرب»[١٨].

ورداً على عروبة الدروز أصدرت وزارة المعارف والثقافة الاسرائيلية ثلاثة كتب بإشراف الدكتور الصهيوني جبرائيل بن دور هي: «التراث الشعبي الدرزي» و«القيم والتقاليد الدرزية» و«دروس في الآداب الدرزية»[١٩]. وضمن خطة إقامة الدويلات في المنطقة العربية عمدت الصهيونية بعد سقوط الهضبة السورية في أيدي القوات الصهيونية لطرح مشروع الدولة الدرزية، ولم يكن هذا الطرح الصهيوني بصدد إقامة الدويلات الطائفية في المشرق العربي جديداً، لكن أهميته تكمن بعيد الانتصار السياسي والعسكري الصهيوني على الأنظمة العربية، وإظهار القوة الصهيونية بأنها «قوة لا تُقهَر».

ونظراً لخطورة هذا المشروع لا بدّ من عرض تفاصيله بدقة، خطوة خطوة كما تمّت أحداثها وتطوراتها على ضوء الاهتمام الأميركي الصهيوني ورصد المبالغ الطائلة لتحقيقه. وتحت عنوان «مشروع الدولة الدرزية والدور الأميركي الامبريالي»[٢٠] تتوضّح حقيقة المخطط الصهيوني وخفاياه.

---

(١٨) أبو مصلح، غالب. الدورز في ظل الاحتلال الإسرائيلي. منشورات مكتبة العرفان، بيروت ١٩٧٥، ص ٢٣٩ ـ ٢٤١.

(١٩) ضو، بسام، «الدروز في معترك العروبة» (أصل مخطوط)، الصفحة ١١.

(٢٠) أبو مصلح، غالب. الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي. منشورات مكتبة العرفان. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧٥. ص ٢٤٧ ـ ٢٥٣.

«لم يكن العمل الصهيوني الدؤوب للإبقاء على تخلّف الدروز ثم تفتيت المجتمع العربي الدرزي وتمزيقه، وخلق التناقض بين الدروز وغيرهم من العرب، ثم تشويه تاريخ الدروز النضالي، إلاّ مقدّمة ضرورية لخلق كيان سياسي خاص بالدروز خاضع للصهيونية والامبريالية الأمريكية معاد للعرب يضمن استمرار السيطرة الصهيونية والهيمنة الأمريكية على المشرق العربي. والمشروع الصهيوني ـ الأميركي هذا لا يكتفي بخلق دولة درزية فقط، بل يشمل خلق دولة مسيحية، وأخرى علوية، وأخرى كردية، بغية القضاء على عروبة المشرق العربي. فبعد هزيمة حزيران، ألصق الكثيرون مسؤولية احتلال الهضبة السورية بالدروز، عازفين على الوتر الاسرائيلي الاستعماري ذاته، ومساهمين في تحضير المسرح لمؤامرة قديمة جديدة.

بدأ تنفيذ المؤامرة هذه بعد سقوط الهضبة السورية في أيدي القوات الاسرائيلية. «بتاريخ ١٦/١٠/١٩٦٧، اتصل كمال كنج هاتفياً من روما بكمال أبو لطيف (المحامي) إلى منزله في عيحا ـ راشيا، وطلب إليه أن يوافيه إلى روما لأمر هام... اعتذر أبو لطيف لأنه كان قادماً حديثاً من أمريكا اللاتينية حيث زار إخوته هناك، وأن الناس يأتون للسلام عليه، ووعده بالسفر بعد حوالي أسبوعين.

اتصل الكنج عدّة مرّات هاتفياً بأبي لطيف على رقم مكتبه أو منزله في بيروت يلحّ عليه بأن يحضر إلى روما. فتذرّع أبو لطيف بضيق الوقت لا سيما وأن السنة القضائية كانت في مطلعها، فظنّ الكنج أن نفقات السفر هي التي تعيقه، فقطع لأبي لطيف تذكرة سفر من روما، وأبلغت لشركة أليطاليا برقياً، وهذه اتصلت بأبي لطيف وأخبرته بالأمر. فعيّن أبو لطيف موعداً للسفر بعد أن اطلع على بطاقة سفره من بيروت إلى روما وبالعكس.

استقبل الكنج أبا لطيف في مطار روما، ثم انتقلا معاً إلى «بانسيون فرانسيسي»، في شارع «فينيتو» قرب متحف «بوركيزي» حيث حجزت غرفة لكمال أبي لطيف بينما كان الكنج يمكث في فندق أقل شأناً من البانسيون.

أقوال الكنج لأبي لطيف:

قال الكنج لأبي لطيف بأن اليهود منذ احتلّوا محافظة القنيطرة وهم يحاولون بشتى الطرق والوسائل التقرّب من الدروز في الجولان، وخاصة مع بيت كنج في مجدل

شمس، باعتباره البيت المتنفِّذ الأول في المنطقة. وكان أكثر وجهاء المنطقة سلبيّين من اليهود، مما حملهم على السعي لمعاملتهم أحسن معاملة بغية جذبهم نحوهم. وقد قام عدد من الضباط اليهود بزيارة كمال كنج في منزله وكذلك زاروا الشيخ سليمان كنج، ابن عمه.

وذات يوم حضر عدد من الضباط اليهود إلى منزل سليمان كنج، وتظاهروا بجهلهم اللغة الانكليزية، وطلب أحدهم «بلغة عربية مفكّكة» استدعاء من يتقن اللغة الانكليزية، ليترجم لهم. فاستدعي كمال كنج فرفض ثم توجه الضباط اليهود إلى منزله فاستقبلهم، وطلبوا إليه أن يتجاوب مع الحكم ويرضخ للأمر الواقع، لا سيما وأن اليهود لا يضمرون إلا كل خير للدروز؟ فاستجاب (ظاهرياً) شرط استشارة أقاربه. وتردَّد عدد آخر من الضباط، من نساء ورجال، لمجدل شمس. وكانوا يحلّون في دار الشيخ سليمان كنج ـ باعتباره ابن دار زعامة المنطقة وصاحب العباءة التقليدية ـ في كل مرة كانوا يجتمعون بكمال أيضاً، وكانوا يتظاهرون باللطف الجمّ.

كما بقيت مجدل شمس لا تخلو يومياً مدة شهر من عشرات الزائرين من دروز فلسطين. كما أن شيخ عقل الدروز في فلسطين «الشيخ أمين طريف» زارهم أكثر من مرة وأفهمهم بأنه أوصى موشى دايان خيراً بالدروز وأن «دايان» وعده بتنفيذ كافة مطاليب دروز الجولان».

وقام عدد من الوزراء بزيارة مجدل شمس أيضاً، منهم «موشى دايان» و«آلون»، وكان موشى دايان يتكلَّم العربية بطلاقة ويقبِّل أيدي بعض مشايخ دروز فلسطين على مرأى من دروز المجدل، وكان دوماً يرتدي لباس الميدان. ثم بدأ يقبل عليهم ضباط من المخابرات الاسرائيلية... بدأ ضباط المخابرات الاسرائيلية ببحث مشروع خطير.. ألا وهو إيجاد دولة درزية تمتد من محافظة السويداء في سوريا حتى البحر الأبيض المتوسط عند قرية خلدة، تضم دروز جبل العرب وبعض قرى الغوطة الدرزية، والجولان، فمنطقة قطنا، فقضاءي حاصبيا وراشيا، والشوف وقضاء عاليه وأن الغاية من ذلك فصل الدروز عن الإسلام لأنهم لا يمكن «أن يتعايشوا وإياهم» (هكذا)... وجعل كيان خاص للطائفة الدرزية مدعومة من عدة دول كبرى، ومن جارتها «اسرائيل» وغير ذلك من «المغريات»...

ركّز اليهود كثيراً على هذا الموضوع، حتى أنهم أخذوا يمارسون نوعاً من الضغط الممزوج باللين والحزم، الذي تتخلّله بعض الابتسامات. وجاهروا بأن هذا الموضوع هو الأساسي لاستمرار العلاقة الحسنة بين السلطة ودروز المنطقة، فإذا لم يكن المسؤولون إيجابيين، فالسلطة الاسرائيلية هي في حلٍّ من أي تدبير قد يتخذ في المنطقة المحتلة. . . إلخ. كان البعض يقولون ذلك ويأخذ آخرون الحديث فوراً، وينقلون السامعين من جو مكهرب إلى جو آخر فيه نوع من الاطمئنان. أي أنهم كانوا يستعملون طريقة «ضربة على الحافر وضربة على المسمار» حسب تعبير كمال كنج.

ويقول التقرير الذي رفعه كمال أبو لطيف إن بعض وجهاء المنطقة تظاهروا بقبول التعاون مع الاسرائيليين، واتفقوا على فضح هذا المخطّط عن طريق الاتصال بالجهات العربية المعنيّة.

وعندما أبلغت المخابرات الاسرائيلية بقبول بعض الوجهاء الدروز بالتعاون معهم سرّ اليهود لذلك كثيراً وأخذوا يكثرون من التردّد على مجدل شمس ويسدون الخدمات للناس وينفّذون المطالب بسرعة مذهلة. وبدأ تنفيذ المخطط إذ انتدب كمال كنج للاتصال بدروز سوريا ولبنان، بعد أن وضعت قوائم بأسماء الوجهاء الدروز الذين يمكن التعاون معهم وطريقة اصطيادهم. وأعطي كمال كنج حرية التصرّف ضمن المخطط، ولذلك ذهب إلى روما «بمهمة كعضو في لجنة اسرائيلية تدرس مع السلطات الإيطالية موضوع تصريف الفاكهة من اسرائيل، متّخذين من كون مجدل شمس بلدة غنية بالفواكه ذريعة لوجود كمال في اللجنة. كما أشاع كمال قبل مغادرته مجدل شمس بأنه سيداوي عينيه لدى أطباء في تل أبيب، وقد يضطرّ لعرضهما على اختصاصيين خارج اسرائيل».

وبذلك حضر كمال كنج إلى روما برفقة ضابط مخابرات اسرائيلي (من الشين بت)، تحت اسم «يعقوب». ويصف كمال أبو لطيف يعقوب هذا، فيقول إنه رجل متوسط القامة، أحدب، يتقن اللغة العربية. وكان كمال كنج قد اقترح الاتصال بكمال أبو لطيف وهو ضابط سابق في الجيش السوري، وقريب له. ووافقت المخابرات الاسرائيلية على ذلك بعد أن قامت بجمع المعلومات عنه.

ولذلك استدعي أبو لطيف إلى روما واجتمع مع كمال كنج الذي أخبره بالمخطط، واتفقا على إبلاغ الجهات العربية المعنيّة بالطريقة التالية:

١ ــ يقوم كمال أبو لطيف بإعلام كمال جنبلاط بالأمر، ليقوم بدوره بإعلام السلطات اللبنانية وغيرها من السلطات العربية التي يجد من المناسب إعلامها.

٢ ــ يقوم كمال أبو لطيف بعد أخذ موافقة جنبلاط بإعلام السلطات السورية.

وبعد أن عاد كمال أبو لطيف ونفَّذ ما اتفق عليه، طلب منه متابعة الاتصال مع المخابرات الاسرائيلية. فسافر مرة ثانية إلى روما واجتمع بيعقوب وكمال كنج، وكان أن قدَّم الكنج أبو لطيف إلى يعقوب بعد وصوله إلى روما بعدة أيام بذريعة أن الكنج يسعى إلى إقناع أبو لطيف بالتعاون، وأن أبا لطيف ما زال متردِّداً. ولذلك كانت الأيام الأولى من الزيارة الأولى إلى روما تقتصر على اجتماع أبو لطيف بالكنج فقط دون وجود يعقوب، بغية دراسة الأمر وطريقة فضح المخطط الاسرائيلي الاستعماري. وعند اجتماع أبو لطيف بيعقوب، تظاهر بعدم الاقتناع بإمكانية تنفيذ المخطط، واستمرَّ النقاش طويلاً بينهما ليستخلص أبو لطيف جميع المعلومات عن هذا المخطط، وكان أن اتضح له المخطط على الشكل التالي:

الإمارة الدرزية: أولاً: حدود الدولة الدرزية: تمتدّ هذه الدولة أو الإمارة الدرزية، من جبل الدروز إلى الشاطىء اللبناني محيطة باسرائيل، وتشمل محافظة القنيطرة، وقضاء قطنا، وضواحي دمشق (بعض قرى الغوطة الدرزية)، فقضاءي حاصبيا وراشيا، ثم الشوف وقضاء عاليه حتى خلدة، بما في ذلك بلدة الشويفات.

عاصمة الإمارة: ومن المقرَّر أن تكون السويداء أو بعقلين عاصمة هذه الإمارة، وذلك حسب أي من دروز لبنان أو سوريا يكونون أكثر تعاوناً مع اسرائيل.

علم الدولة: علم الدولة هو العلم ذات الألوان الخمسة الذي وضعته فرنسا للدولة الدرزية بعد تقسيمها لسوريا.

السكّان: يكون المسلمون السنّيون والشيعة في لبنان الجنوبي (المشمول في الإمارة)، وكذلك في حوران والبقاع الغربي، مخيَّرين بين البقاء كأقلية لا شأن لها

ضمن الإمارة الدرزية أو الرحيل. أما المسيحيون فلا ضير من بقائهم، ويمكن إشراكهم في الحكم كأقلية.

المقومات الاقتصادية: المقومات الاقتصادية للدولة أو للإمارة مضمونة من قبل اسرائيل بتعهدات أميركية. يصبح ميناء صور ـ بعد تطويره ـ الميناء التجاري للإمارة ويبقى ميناء صيدا لتصدير النفط.

رصدت أميركا مبلغ ٣٠ مليون دولار للبدء بتهيئة الأجواء لتنفيذ المخطط.

ثانيا: طريقة التنفيذ: ١ ـ تحت ستار مقاتلة الفدائيين الفلسطينيين، تقوم القوات الاسرائيلية باقتحام واحتلال المناطق التي يتواجد فيها الفدائيون. ثم تقوم قوات أخرى باحتلال جنوبي لبنان حتى صيدا. وتتوجه في الوقت ذاته قوات مدرَّعة اسرائيلية خارقة الجبهة السورية على محور درعا ـ ازرع ـ السويداء، وعلى محور القرى المتاخمة للحدود السورية الأردنية.

٢ ـ تقوم حركات «سلبية» ضد الجيش الاسرائيلي المحتل، فيشجِّعها اليهود سرّاً ولا يقمعونها بعنف، إلى أن تبلغ من القوة ما يكفي ظاهرياً لنشوب معارك بين الفريقين، يكون النصر فيها للدروز المحتلة مناطقهم.

٣ ـ في تلك الأثناء يكون الاتفاق قد تمَّ مع عدد من زعماء الدروز على الصمود في مناطقهم والمحافظة عليها، كي لا تعاد إلى سوريا ولبنان، تمهيداً لإنشاء كيان سياسي مؤلَّف من هذه المناطق «المحرَّرة» يتمتَّع باستقلال تام.

٤ ـ تتكفَّل أميركا بحماية هذا الكيان عن طريق اسرائيل، كما تتكفَّل أميركا بالاعتراف فوراً بهذا الكيان السياسي، وبأن تدفع الأمم المتحدة والدول الغربية السائرة في فلكها، للاعتراف به. وتكون اسرائيل بذلك قد كسبت «حزاماً واقياً لها» (حسب تعبير يعقوب)، يقيها شرّ الاعتداءات العربية، إن من الجيوش النظامية أو الفدائيين.

٥ ـ بعد إنشاء الدولة الدرزية، تقوم أميركا بالعمل لجعل لبنان وطناً قومياً مسيحياً، وتقيم دولة علوية في اللاذقية، ودولة كردية في شمال سورية تتعاطف فيها بعد مع حركة البرزاني، فتقلّص الجمهورية العربية السورية إلى سوريا الداخلية وتشلّ قدراتها.

ونفَّذ كمال أبو لطيف المهمة فتمّ إبلاغ كمال جنبلاط وشوكت شقير والسلطات اللبنانية والسورية، ونقلت المعلومات إلى الجمهورية العربية المتحدة (إلى عبد الناصر مباشرة) وكلَّف عبد الناصر الضابطين أكرم صفدي وهيثم الأيوبي، بنقل هذه المعلومات إلى السلطات العراقية، بغية حثّها على تكوين الجبهة الشرقية. ثم استدعي أبو لطيف إلى بغداد للاستفسار منه عن بعض التفصيلات. ونتيجة التحركات العسكرية العربية السريعة علمت اسرائيل بانكشاف المخطَّط وأجَّلت تنفيذه وقطع أبو لطيف اتصاله بالمخابرات الاسرائيلية خوفاً على سلامته. ومعلوم أن كمال كنج قد أُلقي القبض عليه وحكم بـ ٢٠٨ سنوات سجن، خُفِّضت إلى ٢٣ سنة ثم بادلته الجمهورية العربية السورية بأسرى من الطيارين الاسرائيليين. وبعد خروجه من السجن، اختار البقاء في بلدته في الهضبة السورية المحتلة، ولم تسمح السلطات الاسرائيلية «للزعامات الدرزية» في الأرض المحتلة، والمتعاونة معها بزيارته. فزاره وفد من لجنة المبادرة الدرزية على رأسه الشيخ فرهود قاسم فرهود، محيياً ومهنِّئاً.

من هنا يتوضَّح بكل جلاء أن عروبة الدروز لا تشوبها أية شائبة. ومهما حاول أعداؤهم أن ينالوا منهم ويشوِّهوا حقيقتهم، تبقى الحقائق التاريخية وتجاربهم في ميادين الحياة المختلفة، المعيار الأول والمقياس الوحيد للحكم عليهم. و«القومية الدرزية» (الخرافة) هي ذاتها «القومية اليهودية» التي قامت على أساسها دولة الاحتلال الصهيوني في فلسطين. فقومية الدروز هي القومية العربية ولن يرضوا عنها بديلاً. وهم، أينما كانوا في مناطق تواجدهم، يشربون من نبع واحد هو «التوحيد»، والتوحيد لا يدعو مطلقاً إلى التقسيم القائم على العنصرية والتمزق والتشتّت. فوحدتهم هي الوحدة العربية، وكذلك قوميتهم.

ويدرك الدروز إدراكاً واعياً أن «مشروع الدولة الدرزية» هو مشروع صهيوني استعماري، على أساسه قامت «إسرائيل» العنصرية التوسعية، واعترفت بها أميركا، ورئيسها ترومان، بعد سبع دقائق من إعلان قيامها. وأي كيان مشابه لها في المنطقة العربية، هو نسخة عنها، وطعنة للعرب والعروبة. كما أكد الاستاذ وليد جنبلاط، في محاضرة ألقاها بدعوة من «رابطة العمل الاجتماعي» في مقرها في بيروت (١٦٤)، في

معرض كلامه عن الطائفة الدرزية مؤكّداً «أننا طائفة وطنية عربية، تقدمية منذ فجر التاريخ، وهذا تاريخنا ولا نستطيع أن نتخلّى عن هذا المنطلق الأساسي». وعن الدور الوطني للطائفة قال: «لا يمكن النظر إلى دورها الوطني إلا من خلال كون الطائفة الدرزية من الإسلام والعرب في آن واحد» (*)(٢١). وبهذا المعنى أيضاً وجّه العقيد معمّر القذافي برقيته إلى الملوك والرؤساء في الدول العربية والإسلامية في أيلول ١٩٨٣ بمناسبة «ثورة الشوف» كما سمّاها، قائلاً: من العار أن يقف رؤساء وملوك الدول العربية والإسلامية متفرجين في حين تقوم الدول الغربية والصهيونية في حملة صليبية عاشرة لقتل عشيرة عربية أصيلة (الدروز) تدافع عن العروبة والإسلام في أرضها التاريخية. أيلول ١٩٨٣/ معمر القذافي.

(*) إن عرفانية كل مذهب من المذاهب الإسلامية هي واحدة في جوهرها. فالإسلام نزل صافياً كقطر السماء، وبات في أوعية مختلفة الألوان والأحجام، فقام المغرضون والقاصرون عن فهم الحقيقة وركزوا انتقاداتهم على شكل الوعاء ولونه، دون الاعتداد بمضمونه وجوهره، وزرعوا الفساد والإفساد بين أبناء المذاهب، وحتى بين أبناء المذهب الواحد، وبدأوا يتقاتلون على شكل الوعاء ولونه، دون الالتفات إلى جوهره ومضمونه.

فعلينا أن نؤمن بأن المذاهب الإسلامية مظاهر مختلفة لحقيقة واحدة؛ والإسلام الذي جمع علم الأولين والآخرين لا يمكن أن يحتويه مذهب من المذاهب مهما علا شأنه واتسع اجتهاده، ولا يجوز لنا أن نتعصّب للإسم والصفة، ونترك الجوهر الذي يوحّد بيننا جميعاً، ولا يعلم ذلك إلا العارفون...

هذا، وإن طائفة الموحدين الدروز التي تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، تؤمن بالكتاب وسنّة رسوله، وتقرّ بوجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج إلى بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً. وقد كان آباؤنا وأجدادنا ملتزمين بهذه الفرائض المقدّسة، ويعملون بموجبها؛ لكن طبيعة المجتمع الحربي التي عرفها الدروز فيما بعد، وحالة الاضطهادات التي تعرضوا لها، أوجدت عندهم ـ ككل المسلمين ـ نوعاً من التراخي في تطبيق هذه الفرائض ـ الواجبات.. ومن الطبيعي أن كل شواذ ليس قاعدة.

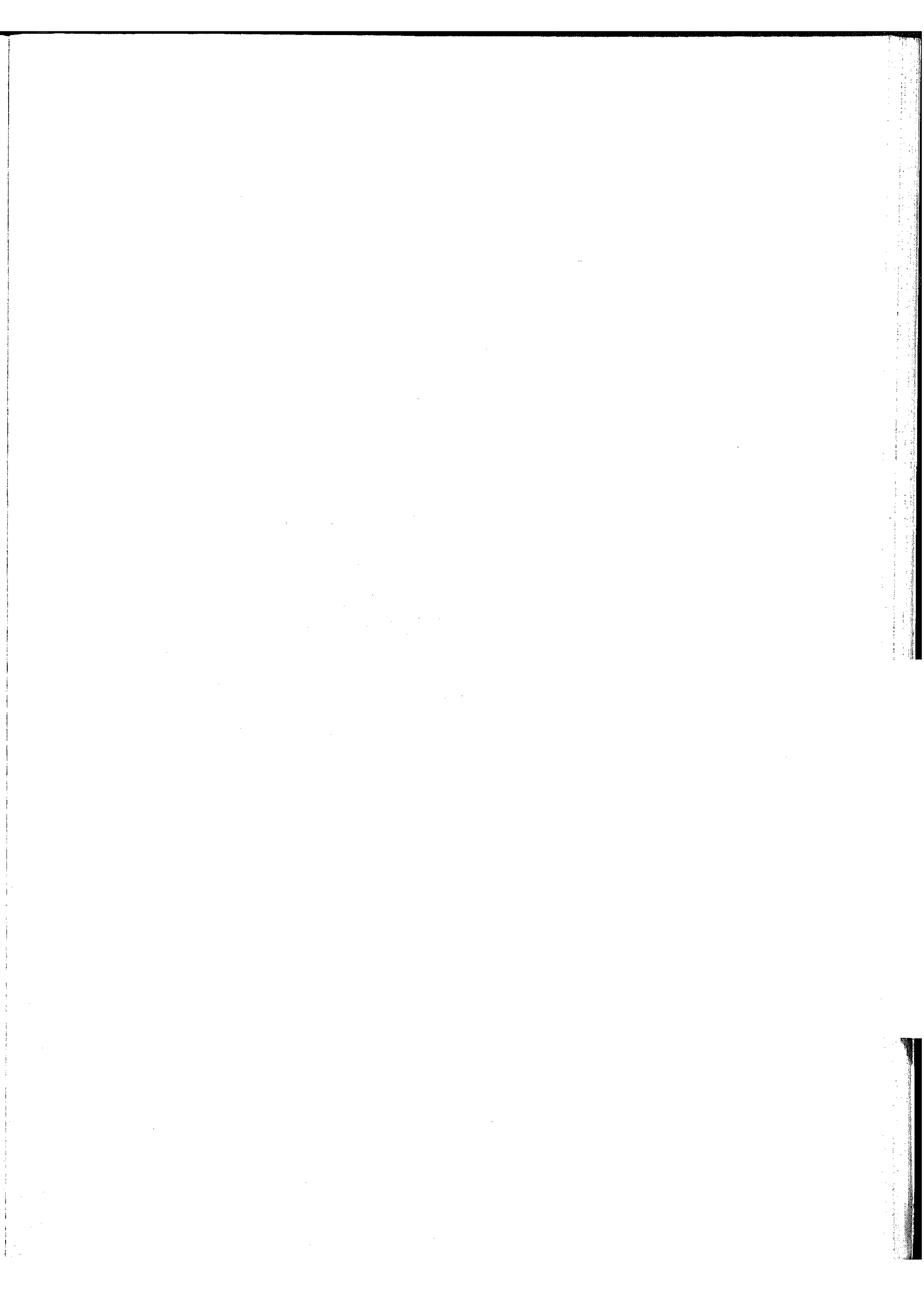
فعلينا إذن أن ننطلق بعقلية الرساليين الوحدويين من أجل توحيد المسلمين والوصول إلى جوامع مشتركة بينهم، ونسعى دائماً إلى التفتيش عن حسنات بعضنا البعض ونكوّن منها جسور اتصال ووحدة، ولا نفتش عن سيئات بعضنا وننبش قبور التاريخ، فتنفك عندئذ عرى وحدتنا وتفاهمنا وتصرعنا التحديات. ولنتّبع قوله تعالى:

«أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله ورسوله، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً». (من كلمة الشيخ مرسل نصر في طهران)

(٢١) «الأنباء» (جريدة ناطقة بلسان الحزب التقدمي الاشتراكي)، بيروت. العدد ١٤٠٠. الاثنين ١٥ شباط (فبراير) ١٩٨٢. ص ٨ ـ ٩.

البَاب الثَاني

الدّرُوز في لبْنَان: حَيَاتهُم السِيَاسيَّة وَالاقتصَاديَّة وَالعسْكريَّة



الفصل الاول

الأعيان والأسر الدرزية

إن التسمية التي أطلقت على «لبنان» ككيان سياسي، يتمتع بحدود جغرافية واضحة ومحددة، لم تكن قبل عام ١٩٢٠. وقبل هذا التاريخ، كان هذا «اللبنان» عبارة عن مقاطعات تتوزع بين منطقة جبل لبنان والشوف وولايات طرابلس ودمشق وعكا ثم صيدا وبيروت بعد إنشاء الولاية الأولى عام ١٦٦٠، والولاية الثانية عام ١٨٨٨. وكانت كل مقاطعة لا تخضع لحدود واضحة، بل كانت تضيق أحياناً وتتسع أحياناً أخرى حسب قوة الأمير أو الوالي، وتبعاً للظروف المحيطة بها.

إزاء هذا الوضع تبدو الكتابة في هذا الموضوع بحاجة لتحديد الإطار الجغرافي لكل من الفترات التاريخية المختلفة، وهنا تكمن الصعوبة في دقة التحديدات، حيث كانت هذه المقاطعات في حركة دائمة من التمدد والانقباض، والتقلص والانفلاش الجغرافي. لهذه الأسباب، وتلافياً للأخطاء «الجغرافية» في التحديد، آثرنا إطلاق تسمية المقاطعات اللبنانية على هذه المناطق دونما خروج عن إطارها التاريخي والاجتماعي والاقتصادي رغم الارتباط الوثيق لهذه العوامل بالناحية الجغرافية.

وفي الواقع، كان تاريخ الطائفة الدرزية في «لبنان»، حسب ما روته المصادر التاريخية بأقلام مؤرخين ينتسبون إلى مختلف الطوائف، كان هذا التاريخ تاريخ الأعيان والأسر المقاطعجية، ذات الألقاب المتعددة، التي اكتسبت وجودها وقوتها عبر «القاعدة الاقليمية»[1]، وهي عبارة عن القوة الاقتصادية التي مثلت، في نفس الوقت،

---

(١) CHEVALLIER, Dominique, «La Société du Mont-Liban à L'époque de la révolution industrielle en Europe. Paris, 1971, Page 87.

شوڤالييه، دومينيك، مجتمع جبل لبنان في عهد الثورة الصناعية في أوروبا، باريس ١٩٧١. ص ٨٧.

قوتها السياسية والاجتماعية. حيث أن القوة المادية لجماعة طائفية تقوم على تركيبة البنى الاجتماعية والدينية، وعلى عدد أعضائها وأهمية نشاطها الاقتصادي على حد قول دومينيك شوڤالييه[2]. هذه الأسر المقاطعجية الدرزية، والتي شكلت النسبة المهمة من سكان المنطقة، لم تصل في وقت واحد إلى المقاطعات اللبنانية. وقد كان وجودها نتيجة لهجرات مختلفة، كما اختلفت في أسبابها أيضاً.

فما هي هذه الأسر؟ من أين أتت؟ ومتى كان تاريخ قدومها؟ وأين كان تمركزها؟.

التنوخيون:

اختلف المؤرخون حول قدوم التنوخيين وتاريخ وصولهم إلى «لبنان». ولكن من المتفق عليه أنهم قدموا خلال الحكم العباسي. ويذكر ـ تحديداً ـ أن الأميرين أرسلان وأخيه منذر بن مالك كانا في طليعة العشائر العربية التي نفذت أوامر الخليفة العباسي بالتمركز في جبال بيروت الحالية والدفاع عن السواحل والمدن.

كان قرار الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور نابعاً من طبيعة الظروف التي عاشتها وواجهتها الخلافة السياسية في حركة من التمرد والثورة في الجبال اللبنانية من قبل جماعات تتمتع بالشدة والصلابة وعدم الولاء لها. وقد تمثل هذا التمرد بحركة المقدّم إلياس عام ٧٥٣ م وثورة المنيطرة بعدها سنة ٧٥٨ أو ٧٥٩. وهذا ما دفع العباسيين إلى التنبّه لوجود هذه الجماعات الثائرة، حيث شكل هذا الوجود نقطة ضعف كبيرة في الدولة. لذلك كان لا بد من إملاء الفراغ الذي أحدثه إجلاء السكان بعد إخماد هذه التمردات. فعمد الخليفة العباسي أبو جعفر إلى تشجيع القبائل العربية على الاستيطان في الجبال اللبنانية.

ويذكر بعض المؤرخين (إسماعيل حقي، محمد علي مكي إلخ...)[3]، إن

(٢) شوڤالييه، ص ٧٥. Chevallier, Dominique, op., Page 75.

(٣) مكي، محمد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٧، ص ٦٧ ـ ٦٨. وحقي، إسماعيل. «لبنان، مباحث علمية واجتماعية». الجزء الأول، تحقيق فؤاد إفرام البستاني المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٩٦.

القبيلة الأولى التي انتقلت إلى لبنان هي قبيلة التنوخيين، وذلك سنة ٧٦٣ م، وكان على رأسها الأمير أرسلان. وقد وقع الخيار على التنوخيين لأن قبائل لخمية كانت تقيم في البقاع، وهم من فصائلهم. كما يؤكد «حقي» ذلك قائلاً: «ومما لا خلاف فيه وعليه الإجماع أن التنوخيين مالأوا العباسيين فأحلّهم أبو جعفر المنصور سنة ٧٦٣ م غربي لبنان، وعوّل عليهم في صدّ غارات الروم وأهالي الجبل. وقد نزل الأمير أرسلان أحد رؤسائهم محلة رأس البيدر، وقطن الباقون أرباض بيروت وصيدا».

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القبيلة التي أثبتت عن كفاءة ومقدرة في القتال، استطاعت أن تحمي السواحل والجبال المشرفة على بيروت من غارات الموارنة (المردة) في الجبل. وخاضت المعارك الفاصلة مع هؤلاء، ولعل أشهرها معركة نهر الموت قرب انطلياس (سمي بهذا الاسم لكثرة الضحايا التي سقطت في هذه المعركة قدّرت بثلاثمائة قتيل من الفريقين)، «انتصر فيها الأميران (أرسلان ومنذر) وانكفت المردة من ساحل بيروت»[٤].

واستطاع هؤلاء الأمراء أن يقفوا حاجزاً قوياً في وجه المردة والبيزنطيين مما أجبر الدولة العباسية على أن تقرّهم في مقاطعاتهم[*] وتأمر لهم بالتواقيع.

ولقد اتخذ التنوخيون مقراً لهم في عبيه. كما شملت سيطرتهم منطقة المتن الحالي، عاليه، الغرب مع بعض التوسع في الشوف والشحار والجرد[٥]. وقد قيل للتنوخيين «أمراء الغرب» منذ اتخذوه دون غيره مقراً لهم. وهم أول من أسس إمارة

---

(٤) الشدياق، طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، منشورات الجامعة اللبنانية، المطبعة الكاثوليكية، الجزء الثاني، بيروت ١٩٧٠، ص ٤٩٦. ومحمد علي مكي، ص ٦٩.

(*) يقول المؤرخ فؤاد قازان أن أصول الإقطاعية «ترجع بشكلها الحالي، إلى العهد الذي فلتت فيه السلطة الفعلية، من أيدي الخلفاء العباسيين وأمست صورية ليس أكثر. وأخذت الإقطاعية صفة عسكرية في عهد السلجوقيين، ثم انتقلت إلى عهد سلاطين السلالة الأيوبية وكادت فيه أن تصبح وراثية. على أن انتقال السلطة إلى دولة المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٦) أعاد لها الصفة العسكرية السلجوقية بشكلها المتطور الكامل المعروف (قازان فؤاد، لبنان في محيطه العربي، منشورات دار الفارابي، بيروت ١٩٧٢، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

(٥) توفيق توما، الجزء الأول، ص ٤٠. Touma, Toufic, op., Tome I, Page 40.

وهنري غيز. تاريخ بيروت ولبنان، باريس ١٨٤٧، ج ١، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥. و«أوراق لبنانية». الجزء السادس حزيران ١٩٥٦، ص ٢٨٧.

عربية، حملت أسمهم فيما بعد، وهي الإمارة التنوخية التي استمرت حتى العهد العثماني، أي حوالي ثمانية قرون متواصلة[6]، على أثر انتصار العثمانيين على المماليك في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦، وكان التنوخيون إلى جانب المماليك حيث خسروا نفوذهم وإمارتهم وانتقلوا إلى المرتبة الثانية بعد أن حل محلهم المعنيون، وبدأت معالم الإمارة المعنية بالظهور.

كان الأمراء التنوخيون شجعاناً، غيورين على استقلالهم الداخلي لإمارتهم حيث كانوا يحافظون عليه تارة بالسلاح، وطوراً بالحنكة السياسية. وبفضلهم إجتازت البلاد عصور السيطرة الفاطمية والصليبية والمملوكية دون أن تفقد شخصيتها، ودون أن تنسى مهمتها ومصيرها في تاريخ الشرق[7].

ولهذه الأسباب كانت معاركها قاسية مع الأعداء البيزنطيين والمردة والصليبيين، كما كانت مفخرة تاريخهم في نفس الوقت. وبفضل هذه المآثر والأعمال المجيدة استطاعوا أن يحكموا إمارتهم مدة ثمانية قرون (من القرن الثامن حتى القرن السادس عشر).

وتعود كثير من الأسر الدرزية بنسبها إلى التنوخيين «حين كانت لكل فصيلة تنوخية نسبة خاصة تعرف بها. فبحتر بن علي بن الحسين أمير الغرب المتوفي سنة ٥٥٢ للهجرة قيل لأعقابه (البحتريون)، كما قيل لأعقاب القاضي عماد الدين حسن بن جمال الدين أبي الحسن بن أبي القاسم المنصور (آل القاضي) لأنه أول من تولى القضاء من الأمراء التنوخيين، وكما قيل لأعقاب الأمير علم الدين سليمان الرمطوني (آل علم الدين)»[8]. وكذلك آل أرسلان، وآل ناصر الدين هم من فروع الأسرة التنوخية. كما هي الحال فيما يتعلق بآل أبي اللمع الذين تمتد جذورهم إلى قبيلة أبي الفوارس ومنها لتنوخ.

---

(٦) مكي، محمد علي، المرجع السابق، ص ٦٩.

(٧) توما، توفيق، المرجع السابق، ص ٤٠.

(٨) آل ناصر الدين، أمين. «أوراق لبنانية» الجزء السادس، حزيران ١٩٥٦، ص ٢٨٨، من مقال (الأمراء آل تنوخ).

الأرسلانيـون:

هم فرع من فروع الأسرة التنوخية التي قدمت جبال «لبنان» في زمن الخليفة أبي جعفر المنصور. أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى الأمـير أرسلان بن الأمـير مالـك بن الأمير بركات المنذري.

وفي معرض ذلك يؤكد الأستاذ إبراهيم بك الأسـود قائـلاً: «حضر إلى القاضي (محسن بن حسين بن زيد الطائي متولي فصل دعاوي المسلمين في مدينة المعرّة) الأمـير منذر وأخوه الأمير أرسلان ولدا الأمير مالك بن الأمير بركـات المنذري، وطلبـا منه أن يكتب لهما وفيات آبائهم في رق ليحفظاه عندهما خـوفاً من حـوادث الأيام وتحفـظاً من السهـو والنسيان لأنهما قـد عزمـا على الـرحيل إلى جبـال بـيروت بـأمـر أمـير المؤمنـين المنصور»[9].

نزلوا أول أمرهم أرض وادي التيم، وانتقلوا منها إلى المغيثة الواقعة قرب منطقة ظهـر البيدر، وتفـرقوا بعـد ذلك في البـلاد. وتطرّق الأمـير شكيب أرسلان إلى ذلـك مؤكداً أن «مقدم هذه العشائر يبدأ من أيام أبي جعفر المنصور الخليفة العبـاسي الثاني. فهو الذي أمر الأرسلانيين بالرحيل إلى جبال بيروت الخالية وأقطعهم فيها الإقـطاعات وكتب لهم بهـا المناشـير. . . وجاء الأمـراء الأرسلانيـون إلى لبنان سنـة ١٤٢ هـ ٧٥٩ مسيحية، ثم تتابع الأمداد فجاء التنوخيون سنة ٨٢٠ م والمعنيون سنة ١١٢٠»[10].

وأكد الدكتور محمد كامل حسين هذا التـاريخ مشيـراً إلى أن «زعماء القبيلة همـا الأمير منذر بن مالك وأخيـه الأمير أرسـلان رحلا بمجمـوعهما سنـة ١٤٢ هـ إلى جبال لبنان بعد أن أقاموا عدة أيام في وادي التيم حيث كان ينزل بنو عمومتهم»[11]. لكنه لم يشر لا إلى اسم التنوخيين ولا إلى الأرسلانيين.

كان بينهم وبين المعنيين علاقـات زواج تعود إلى مـا قبل قـدومهم إلى «لبنان».

---

(٩) الأسود، إبراهيم، ذخائر لبنان، بيروت ١٩٧٠، ص ١٦٤.

(١٠) «الميثاق» الجزء الثاني عشر، ك١ ١٩٨٠، ص ٦١٧ - ٦١٨. وطنوس الشدياق، ج ٢ ص ٤٩٥.

(١١) محمد كامل حسين، طائفة الدروز، الطبعة الثانية ١٩٦٨، دار المعارف بمصر، ص ٨.

حيث اقترن الأمير معن الأيوبي الذي ينتسب إليه المعنيون بابنة الأمير النعمان التنوخي وتوطدت العلاقات بين الفريقين(١٢).

ويبدو أن التنوخيين ينتسبون إلى الأمير تنوخ «الملقب بالمنذر والذي توطن حصن سرحمور»(١٣)، كما ينتسب الأرسلانيون إلى الأمير أرسلان، أخ المنذر. وهنا يظهر التناقض عند الشدياق الذي يباعد في تاريخ مجيء كل من التنوخيين والإرسلانيين إلى لبنان مع العلم بأنهما جاءا في نفس التاريخ، ذاكراً ومؤكداً توطن المنذر (تنوخ) حصن سرحمور.

آل معن:

ينتسب المعنيون إلى الأمير معن بن أيوب من قبيلة عربية اسمها ربيعة. جاؤوا أول أمرهم إلى الفرات ثم تركوها إلى حلب ومنها إلى لبنان. نزلوا البقاع أولاً ثم المناطق المشرفة على الساحل بين أبناء عمومتهم من آل تنوخ عام ١١٢٠. لقد حلّوا فترة في ضيافة التنوخيين الذين كانوا يسيطرون على مساحات واسعة من الأراضي انطلاقاً من مقرهم الرئيسي في عبيه. وكان الأمراء التنوخيون قد قرروا اقطاع المعنيين بعض أراضيهم، فصعد الأمير بحتر التنوخي برفقة الأمير معن إلى المنطقة المرتفعة من عبيه وتدعى تلّة «المطيّر»، ووقف عليها وأشار الأمير التنوخي إلى المنطقة المقابلة لها قائلاً للمعني: «شوف» بمعنى «تطلّع»، وهي المنطقة التي نزل فيها المعنيون بعد ذلك وبنوا عاصمتهم بعقلين حيث برز اسم «الشوف» إلى الوجود(١٤)، بعد أن كان قفراً.

ويعود السبب في مجيئهم إلى لبنان، لهزيمتهم أمام الصليبيين في انطاكية على يد الملك الفرنسي بلدوين عام ١١١٩، وبأمر من طغتكين حيث لجأوا إليه في الديار الحلبية فأوعز لهم بالمضي إلى لبنان لصد غارات الإفرنج وحماية الساحل من

(١٢) أحمد الخالدي الصفدي، لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، منشورات الجامعة اللبنانية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٥١.

(١٣) الشدياق ج ١، ص ٢١٧. والجزء ٢، ص ٤٩٥.

(١٤) أرسلان، الأمير شكيب، «الميثاق» الجزء السادس، حزيران ١٩٨٠، ص ٣١٨ في مقاله بعنوان (النقد التاريخي وعروبة آل معروف).

أخطارهم[١٥] في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يخوضون صراعاً مريراً ضد أتابكة الموصل وحلب ودمشق، استقبل خلاله المعنيون من قبل التنوخيين استقبالاً حاراً[١٦]، لايمانهم بأنهم سيقفون صفاً واحداً ويداً واحدة في مواجهة الإفرنج وحلفائهم وسهلوا لهم إقامتهم لمساعدتهم في بناء البيوت حيث «آثر الأمير معن سكن الأقبية على المضارب فأرسل إليه الأمير بحتر أناساً بنوا له ولأصحابه أقبية يسكنونها ثم كثرت المباني واتسع العمران»[١٧]. بيد أن بعض المؤرخين يشك في درزية المعنيين. فالدكتور جاك كولان الفرنسي مثلاً أصدر حكمه «بمارونيتهم»، كذلك الحال مع الشهابيين، عندما قال في معرض كلامه عن الطوائف: «واستمرار بقايا الحزبيات داخل كل من هذه الطوائف لهو دليل آخر على الأصل الأثني المشترك، والعشائر لا تزال حتى أيامنا لدى الموارنة في المنطقة التي قطنوها قبل سواها (قاديشا). فعلى صعيد الطائفة بكاملها يسجل التاريخ حزبين كبيرين، هما المعنيون والشهابيون. وما يقال عن الموارنة يقال عن الدروز أيضاً: فهناك الجنبلاطيون واليزبكيون، وترتبط بكل من الفئتين مجموعة أحزاب محلية. ومن الأرجح أن الأمر كان كذلك لدى المتاولة»[١٨].

من المؤرخين أيضاً من شكّك في درزية الأمير فخر الدين قائلاً بأنه اعتنق المسيحية. وروى وستنفيلد: «أن الأمير فخر الدين لما تأكد من نهايته، أدار وجهه إلى الشرق ورسم علامة الصليب على صدره، فصاح السلطان بالجلّاد اقطعوا رأس هذا الكافر واكتبوا فوق رأسه: هذا رأس الكافر الثائر الأمير فخر الدين»[١٩]. كما يشير الأب الفرنسي هيلار دي بارنتون الكبوشي في كتابه «فرنسا الكاثوليكية في الشرق»، بأن الأمير فخر الدين تعمَّد على يدي الأب أدريان دي لابروس الكبوشي، وبأمر

(١٥) الشدياق، طنوس، المرجع السابق، الجزء ١، ص ٢٣٥.

(١٦) توفيق توما، الجزء ١، ص ٣٦ .Touma, Toufic, op., Page 36
والمحبي، محمد الأمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن ١١، القاهرة ١٢٨٤ هـ، الجزء ٣، ص ٢٧ ـ ٣٠.

(١٧) الأسود، إبراهيم، ذخائر لبنان، ص ٢٢٧.

(١٨) كولان، جاك. الحركة النقابية في لبنان ١٩١٩ ـ ١٩٤٦. بيروت ١٩٧٤. تعريب نبيل هادي، دار الفارابي، ص ٥٨.

(١٩) الأحدب، عزيز، فخر الدين مؤسس لبنان الحديث، طبعة ثانية، بيروت ١٩٧٤، ص ٣٨ ـ ٣٩.

بابوي عفاه من الواجبات التي تفرضها الكنيسة على المتنصر حديثاً خوفاً عليه من العثمانيين، فصار الأمير مسيحياً»[٢٠].

إن الدروز لم يجدوا كبير عناء في إثبات درزية الأمير فخر الدين، لأنه ولد من أبوين درزيين وأمضى حياته بين الدروز أميراً عليهم، وبقي درزياً حتى وفاته. وكانت «تهمة تنصّره» إحدى الوشايات التي أدت لإعدامه في حضرة صديقه السلطان مراد الرابع.

إن كثيراً من المؤرخين المسيحيين يؤكدون بوضوح درزية المعنيين دون أي التباس، كاسطفان الدويهي، وكمال الصليبي، وفيليب حتي، وهنري أبو خاطر وغيرهم. كما أن المؤرخ الإسلامي الكبير الذي عاصر المعنيين، المحبّي، يثبت بأنهم كانوا دروزاً[٢١]. كذلك الدكتور يوسف مزهر[٢٢] وغيرهم كثير.

بفضل هذه الأسرة، وابتداء من الأمير فخر الدين، وفي عهده، أصبح لبنان «كياناً سياسياً». كما بقيت سيطرة المعنيين في إمارتهم فترة مشابهة لأسلافهم التنوخيين، ابتداء من سنة ١١٢٠ حتى ١٦٩٧، تاريخ وفاة الأمير أحمد المعني، التي انتهت به سلالة آل معن[٢٣].

أما فيما يتعلق بالشهابيين، فإنهم كانوا على مذهب السنّة طوال فترة معاصرتهم للمعنيين. ولم يبدأوا بالتنصّر إلا منذ عام ١٧٥٤[٢٤]، وليس على صعيد العائلة ككل،

---

(٢٠) Le P. Hilaire de Barenton, «La France Catholique en orient durant les trois derniers siècles», Paris 1902, Page 158-164.

(٢١) المحبي، محمد الأمين بن فضل الله، المصدر السابق، ص ٢٦٦ - ٢٦٨.

(٢٢) مزهر، يوسف، المرجع السابق، الجزء ١، ص ٢٩٣.

(٢٣) والدويهي، تاريخ الأزمنة، ص ٣٨٢ .Touma, Toufic, op., Page 36
ويوسف مزهر، ج ١، ص ٤٠١.

(٢٤) يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «وفي سنة ١٧٥٤ تنصر الأمير علي حيدر، كما تنصر من أبناء الأمير ملحم: الأمير قاسم، والأمير سيد أحمد والأمير حيدر، وكذلك تنصر عدد كبير من الأمراء الشهابيين» (بدوي، عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، الجزء الثاني، بيروت ١٩٧٣ ص ٦٣١ - ٦٣٢).

ذلك بسبب النزاعات والصراعات التي كانت قائمة بين أمرائها. بالإضافة إلى انتمائهم لحزب واحد هو الحزب القيسي.

أبو نكد:

النكديون هم إحدى العشائر اللبنانية الدرزية التي تعود بنسبها إلى التغلبيين (بني تغلب). شاركوا في الفتوحات العربية حتى وصلوا معها إلى أفريقيا، وإلى المغرب تحديداً، حيث كان موطنهم الأصلي في جزيرة العرب. وصلوا لبنان في أواخر القرن الحادي عشر، ليتخذوا من بلدة برجا القديمة مركزاً لهم في إقليم الخروب، والتي بقيت تحت سيطرتهم حتى أواخر القرن التاسع عشر. انتقلوا منها إلى بعقلين سنة ١١٢٠، ثم إلى دير القمر، التي أصبحت قاعدة لسيطرتهم لفترة طويلة حتى أخرجوا منها عام ١٨٤٥.

شكلوا مع المعنيين والتنوخيين «حلفاً مقدساً»، خاصة في مرحلة الصراع مع الصليبيين، والدفاع عن الساحل والمناطق المحاذية له. كما كان لهم علاقات واتصالات مع الأسرة الشهابية أيضاً والتي أدت فيما بعد إلى شهرتهم الواسعة التي تميزت بها بين مثيلاتها من باقي العشائر.

ويعيد المؤرخ الكبير عارف النكدي في إحدى مخطوطاته عن أسرته[٢٥] أن عوامل الشهرة التي اكتسبتها تعود إلى أسباب شخصية أولاً ومكانية ثانياً. وكانت شجاعتهم وثراؤهم من العوامل الهامة التي قامت عليها دعامة زعامتهم وسلطتهم. أما الأسباب المكانية، التي زادت في شهرتهم ومكانتهم، فإنها تتمثل بدير القمر، مركز إقامتهم وقاعدة نفوذهم. وشكلت دير القمر دار حكمهم وقطب رحى السياسة اللبنانية، وسوق تجارة البلاد، ومركز الصناعة. وكان واديها وما يحيط به وبها من أملاك زراعية، مورد ثروة عظيمة. كانت موطناً جامعاً للإمارة والزراعة، والتجارة والصناعة، وهي العوامل الأربعة التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية.

والجدير بالذكر إن هذين العاملين شكلا فيما بعد الأسباب العميقة والجوهرية

(٢٥) النكدي، عارف. «أبو نكد» (مخطوط) ص ١ ـ ٣.

التي أدت لحبك الدسائس والمؤامرات ضدهم والتي توّجت بذبحهم في سنة ١٧٩٧ على يدي الأمير بشير الشهابي. كما شكلت الأساس الذي قامت عليه عملية طردهم وإخراجهم من دير القمر، القريبة لـ «بيت الدين» عاصمة الشهابي بشير.

شملت سيطرتهم مقاطعات واسعة امتدت من ثلث إقليم الخروب وقاعدته برجا، مروراً بالمناصف وقاعدتها دير القمر، وانتهاء بمنطقة الشحّار وقاعدتها عبيه..

واستناداً لذلك، لعب النكديون دوراً اقتصادياً مهماً حيث انعكست آثاره على مختلف المجالات الأخرى المتمثلة بالناحية السياسية والاجتماعية والحربية... ومن المحتمل أن منطقة «المناصف» أخذت اسمها هذا من مكانة النكديين، وموقعها المتوسط في الشوف، حيث كانت الأسرة النكدية تمثل حلقة متوسطة في السلسلة المقاطعجية الدرزية وسيطرتها على هذه المنطقة انطلاقاً من دير القمر.

آل تلحوق:

يعود آل تلحوق بنسبهم إلى إحدى القبائل العربية من «بني عزام» من عرب الجزيرة الفراتية[٢٦]. اتخذوا من وادي التيم مقراً لهم في أول الأمر، ثم انتقلوا منها إلى بيروت بعد خلافهم مع الشهابيين، ومنها إلى غرب كفرشيما حيث «دهمهم أمراء آل جمال الدين التنوخيين فقتل أفراد الأسرة ولم يبق منهم سوى أحمد الذي استقر في عيتات»[٢٧]. كانوا حلفاء المعنيين، حتى أن أحد زعمائهم (الشيخ محمد التلحوقي) عُيِّن نائباً للأمير حسين بن فخر الدين سنة ١٦١١ في سنجقية إربد وعجلون[٢٨]. كما وقفوا أيضاً إلى جانب الشهابيين في معركة عيندارة بقيادة زعيمهم محمد تلحوق وولده شاهين، حيث انتزع الأمير حيدر شهاب ولاية الغرب الأعلى من الأمير يوسف أرسلان لأنه يمني، وسلّمها إقطاعاً للشيخ محمد، وتولى المشيخة بعده ابنه شاهين.

كانوا دروزاً وتمسكوا بمذهبهم بعناد وصلابة بشخص زعيم الأسرة الشيخ

---

(٢٦) المعلوف، عيسى إسكندر. تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٦. ص ٩٢.

(٢٧) حسين، محمد كامل، طائفة الدروز، دار المعارف بمصر ١٩٦٢. ص ١٩.

(٢٨) المعلوف، عيسى إسكندر، المرجع السابق، ص ٩٢ - ٩٣.

حسين تلحوق، الملقب «بلسان الدروز»، حيث دعاه الأمير بشير الشهابي الثاني لاعتناق الدين المسيحي ونشره بين الدروز، فرفض الشيخ ذلك الطلب مما أدى إلى اعتقاله أربعة أيام، أطلق سراحه بعدها بتدخل من محمد علي باشا والي مصر. واليوم، يتخذ التلاحقة من عالية (الغرب) مقراً لهم بعد أن كانت سيطرتهم تشمل الغرب الأعلى، عيتات، بيصور، عاليه ورأس بيروت.

آل عبد الملك:

ينتسبون أيضاً إلى عرب الحجاز. وفدوا على لبنان مع الأمراء التنوخيين وسكنوا في الكنيسة من مقاطعة المناصف ثم انتقلوا إلى عاليه ثم إلى بتاتر وأقاموا فيها[29]. برزوا على مسرح الأحداث عندما اشترك زعيمهم جانبلاط إلى جانب الأمير حيدر شهاب أثناء المعركة التي حصلت مع محمود باشا أبو هرموش في غزير، بعد فرار الأمير حيدر من وجهه حيث هزم فيها وفرّ إلى الهرمل وبرفقته جانبلاط عبد الملك. وكان في عداد حلفائه في معركة عيندارة التي سجلت نصر القيسيين على اليمنيين، كوفىء بعدها جانبلاط بمقاطعة الجرد، وكتب له الأمير حيدر «بالأخ العزيز» وشيّخه عليها[30].

آل علم الدين:

هم أحد فروع الأسرة التنوخية. ينتسبون إلى زعيمهم علم الدين بن سليمان (الرمطوني)[31] بن غلاب بن علم الدين. تبرّأ من التنوخيين القيسيين ليصبح زعيم اليمنيين في لبنان ابتداء من سنة ١٣٠١[32].

أصبح منذ خروجه على القيسية من الدّ أعداء المعنيين والتنوخيين. حتى أن الأمير علي علم الدين اليمني وجّه ضربة كبرى لآل معن وقضى على الأسرة التنوخية في

---

(٢٩) الشدياق، طنوس، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٣٠) حسين، محمد كامل، المرجع السابق، ص ٢٢. وميشال شبلي، تاريخ لبنان ص ٧٨. ودومينيك شوڤالييه، المرجع السابق، ص ٨٨. طنوس الشدياق المرجع السابق، ص ١٧٩. وحيدر شهاب، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين. منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٩، ج ١، ص ١٤.

(٣١) آل ناصر الدين، أمين «أوراق لبنانية»، الجزء السادس، حزيران ١٩٥٦، ص ٢٨٨ (مقال الأمراء آل تنوخ).

(٣٢) حسين، محمد كامل، المرجع السابق، ص ٢٣. وطنوس الشدياق، ج ١، ص ١٢٥.

سنة ١٦٣٣ عندما «قبض على بعض مناصب أحزاب المعنيين وقتلهم وسلب أرزاقهم وانطلق إلى عبيه فدعاه الأمراء التنوخيون إلى الغداء عندهم في السراي التي تحت القرية. وبينما كانوا يأكلون وثب عليهم بجماعته وقتلهم وكانوا أربعة يحيى العاقل ومحمود وناصر الدين وسيف الدين ودهم حالاً أولادهم الصغار في البرج وقتلهم وكانوا ثلاثة. فانقطعت بهم السلالة التنوخية»[٣٣].

قضى الأمير حيدر الشهابي على آل علم الدين في موقعة عيندارة سنة ١٧١١[*].

العماديون:

ينتسبون إلى إحدى القبائل العربية التي كانت تسكن بجوار الموصل ثم رحلوا إلى الجبل الأعلى بجوار حلب وأقاموا في قرية اسمها مرطحوان، ومنها إلى قرية هناك تسمى تلّيتا. انتقلوا بعدها إلى مقاطعة العرقوب في لبنان وسكنوا في الزنبقية (قرب كفرنبرخ). أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى زعيمهم عماد الذي كان يسكن مدينة العمادية القريبة من الموصل. كان قدومهم إلى لبنان في زمن المعنيين. وعلى أثر المنازعات والخصومات التي حدثت بينهم وبين الجنبلاطيين حيث قتل من الأخيرين عدد كبير فروا بعدها إلى مزرعة الشوف، انتقل العماديون إلى عين وزيه (عين وزين قرب بتلون) ومنها إلى الباروك.

استطاع العماديون أن يلعبوا دوراً مهماً على مسرح الأحداث في النصف الثاني من القرن السابع عشر، حيث تمكن الشيخ سرحال العماد من تولي جبل الشوف عام ١٦٦٠ من قبل أحمد باشا الكبرلي بدلاً من الأمير أحمد المعني وأخيه الأمير قرقماز.

في هذا الوقت تجرأ على طلب يد أميرة معنية، من المرجح أنها أخت الأمير أحمد، لكن المعنيين لم يقبلوا. وبقيت هذه الحادثة تغلي في نفوسهم حتى عودة الأمير أحمد إلى الإمارة عام ١٦٦٤، فأمر بقتله وقتل جميع أقاربه ولم يبق منهم إلا رجل واحد

---

(٣٣) الشدياق، طنوس، ج ١، ص ١٢٥. وفيليب حتي، لبنان في التاريخ، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ وإبراهيم بك الأسود، ذخائر لبنان، ص ١٦٣.

(*) إن بعض المؤرّخين يسجّل ذكر معركة عيندارة سنة ١٧١٠.

استطاع الفرار إلى قرية كامد (كامد اللوز) في البقاع متنكراً وأخذ يرعى البقر هناك وسمّى نفسه بعيزق[٣٤]. ومن ذريته كثر عدد العماديين الذين لعبوا فيها بعد دوراً مهماً في القرن الثامن عشر واحتلوا المكانة الأولى على رأس الحزب اليزبكي ضد الجنبلاطيين، نسبة إلى أحد زعماء أسرتهم وهو يزبك بن العفيف الذي كان في عداد بطانة الأمير فخر الدين المعني الثاني، وبرفقة البعثة التي قدمت لبنان لتحرّي أحواله بعد لجوء المعني إلى أوروبا[٣٥].

آل القاضي:

هم فرع قديم من فروع الأسرة التنوخية. كان زعيمهم الشيخ قبلان، شيخ مشايخ الدروز. يتمتع بثروة عظيمة واحترام كبير. توفي ولده محمد ولم يبق له سوى ابنة واحدة تزوجها الشيخ علي جنبلاط. فانتقلت جميع أملاكه إليها بعد وفاته، وأصبح الشيخ علي وريثه الشرعي ومن أكبر الأغنياء في الإمارة.

ويقسم آل القاضي إلى ثلاثة فروع[٣٦] ابتداء من عهد التنوخيين إلى العهد الشهابي:

١ ـ القاضي التنوخي أي الذين كانوا قضاة على عهد الحكام التنوخيين وسكنوا قرية بيصور بين عبيه وعاليه.

٢ ـ القاضي المعني: أصحاب المختارة وجوارها وقد بادت ذريّتهم بعد أن سيطرت فترة من الزمن.

٣ ـ القاضي الشهابي، وهم اليوم من سكان قرية السمقانية. قتل منهم عدد من القضاة بدسائس من الأمير بشير الشهابي الثاني وسعاية منه بعد أن لمس نفوذهم وتأثيرهم في إمارته[٣٧].

---

(٣٤) الشدياق، طنوس، المرجع السابق، ج ١، ص ١٥٩.

(٣٥) مزهر، يوسف. المرجع السابق، الجزء ١، ص ٢٩١.

(٣٦) هشي، سليم، المراسلات الاجتماعية والاقتصادية في جبل لبنان خلال ثلاثة قرون، الجزء ١، بيروت ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠، ص ٢٠.

(٣٧) أشار إلى ذلك الشيخ حليم تقي الدين، رئيس المحكمة الاستئنافية العليا الدرزية في كتابه «قضاء الموحدين الدروز»، بيروت ١٩٧٩، ص ١٣ ـ ٢٣.

آل أبي اللمع:

هم «إحدى الأسر الدرزية التي تعود بأصلها إلى قبيلة بني الفوارس التنوخية العربية»[٣٨]. كانوا «مقدّمين» في منطقة المتن، إلا أن معركة عيندارة ١٧١١ دفعت بهم لرتبة «الأمراء» بعد أن أبدوا شجاعة فائقة فيها ضد اليمنيين، وآل علم الدين خاصة، «أمّرهم» على أثرها الأمير حيدر الشهابي. ومما يذكر إنه «بعد انقضاء القتال دخل رجل على المقدم حسين اللمعي ولقبه بالمقدم على عادته، فانتضى سيفه وقتله قائلاً له: أقتل ثلاثة أمراء وتناديني بالمقدم، يريد أن يسمى أميراً»[٣٩][*].

بيد أن علاقتهم بالشهابيين لم تقف عند هذا الحد، بل تجاوزته مؤكدة صدق الولاء والانتماء لهم، بالتخلي عن درزيتهم واعتناق المسيحية، والمارونية تحديداً، بعد أن تخلى الشهابيون عن مذهبهم السني واعتنقوا الدين المسيحي[٤٠].

آل جنبلاط:

ينتسب الجنبلاطيون إلى جانبولاد[*] الكردي الأيوبي من الأكراد الأيوبيين[٤١].

---

(٣٨) مزهر، يوسف، المرجع السابق، الجزء ١، ص ٤٠٨.

(٣٩) مزهر، يوسف، المرجع السابق، الجزء ١، ص ٤٠٨.

(*) يذكر الاستاذ يوسف أبو شقرا في «حركاته» (ص ١٦٦) في معرض كلامه عن موقعة عيندارا وآل أبي اللمع أنه ممن اشتهروا في هذه الواقعة الهائلة المقدم مراد اللمعي من طائفة الدروز. فحينما رجع القيسيون إلى الباروك حيّاه الأمير الشهابي الحاكم بقوله: لا شلّت يداك يا مقدم مراد. فاستشاط المقدم المذكور غضباً واستل حسامه قائلاً: «إن من يقطع أربعة عشر رأساً من أمراء آل علم الدين، كيف يقال له يا مقدم! فقال له الأمير: دمت سالماً يا أمير مراد».

(٤٠) شوفالييه، دومينيك، مرجع سابق. ص ٨٨. وشبلي، ميشال. تاريخ لبنان، ص ٧٨ (بالفرنسية).

(*) يقول الأستاذ كمال جنبلاط أن «جانبولاد هو الاسم الكردي لعائلتنا» (هذه وصيتي. ص ٤٠). ويشير الأب بولس قرألي في كتابه «علي باشا جانبولاد والي حلب» (ص ٥٤) إلى أن آل جانبولاد لم يكونوا أكراداً، بل عرباً من سلالة العباسيين، بدليل تصريح وتوقيع علي باشا جانبولاد نفسه على مشروع المعاهدة مع توسكانا سنة ١٦٠٧، حيث ورد فيه ما يلي: «إننا قابلون بكل ما دوّن في هذا العقد، فيوثق بعهدنا. خادم الله حاكم سورية علي بن أحمد جانبولاد من سلالة عباس رضي الله عنه». ولعلّ المخطوطة الزيّوكية التي نشرها المؤرخ العراقي محمود عمر محفوظ في كتابه «إمارة بهدينان» (د. سليم هشي «العائلة الجنبلاطية» ص ١٨) تشير أيضاً إلى عروبة آل جنبلاط. وقد ذكر هذا الموضوع أيضاً الأستاذ محمد خليل الباشا في مقال له نشر في «نشرة المقتطفات» (للمكتب الدائم للمؤسسات الدرزية) بتاريخ ١٨ تشرين الثاني ١٩٨٦ ص ٦.

(٤١) الشدياق، طنوس، مرجع سابق، الجزء ١، ص ١٣٧.

كانوا يحكمون شمال سوريا ومدينة حلب. كما كانـوا في مرتبـة «الباشـاوات». لكننا لا نعلم تاريخ اعتناقهم المذهب الدرزي كبقية بعض الأسر الدرزية الأخرى.

لقد حلّوا أول أمرهم في مزرعة الشـوف لاجئين في مغـارة صغيرة بعـد هزيمتهم أمام الجيش العثماني الذي قدّر بحوالي ٣٠٠,٠٠٠ جندي بقيادة الصدر الأعظم نفسه في عام ١٦٠٧. وهكذا وجد علي جانبولاد نفسه لاجئاً في مـزرعة الشـوف مع عـائلته الصغيرة، وأصبح أعزلاً مجرداً من كـل شيء[٤٢]. إلا أن «الشديـاق» يحدد عـام ١٦٣٠ تـاريخ قـدومهم إلى لبنان وإلى بـيروت تحديـداً لما بينهم وبـين آل معن من الصـداقـة والوداد[٤٣].

يتـوضـح من ذلـك، إن لجـوءهم إلى «لبنـان» كـان إبـان العهـد المعني، حيث استقبلوا استقبالاً حاراً من قبل الأمير فخر الدين الثاني، كما منح علي لقب شيـخ[٤٤]. «وفي عام ١٦٣١، أنزل المعني جان بولاد (جنبلاط) بن سعيد وولده ربـاحـاً (جد أسرة جنبلاط الدرزية الشهيرة في لبنان) الملتجئين إليه في مزرعة الشوف مكرماً مثـواهما وقـد قـدما إليـه من حلب لما بينهـما من المصافـاة القديمـة، وأرسله الأمير مـع خمسـين نفـراً للمحـافظة عـلى قلعة شقيف تـيرون (بوفـور Beaufort) فبقي فيها نحـو سنتـين يـرد مهاجمات الأمير طربيه بن علي الحـارثي أمير اللجـون وضواحيهـا، وغيره من المعتـدين على ولايات المعني في تلك الجهات»[٤٥].

والجدير بـالذكـر، أن الألقاب والمـراتب كانت من السلع الأكـثر رواجاً في ظـل الحكم القـائم على الفسـاد والرشـوة وسوء الإدارة، والـربح فـوق العـادة. وليس من

---

(٤٢) Jumblat, Kamal, Pour le Liban, Edition stock , Paris 1978, Page 63-64.

كمال جنبلاط، من أجل لبنان (هذه وصيّتي). باريس ١٩٧٨، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(٤٣) الشدياق، طنوس، مرجع سابق، ص ١٤١. بينما الأب بولس قرألي يحدد عام ١٦٠٧ موعـد قدومهم إلى لبنان (قرألي، علي باشا جنبلاط والي حلب، المجلة البطريركية ك١ ١٩٣٦ ص ٢٠ ـ ٢٣) (عن أبو صـالح ومكارم).

(٤٤) Hichi, Salim Hassan. La famille des Jumblatt du V11e siècle à nos jours. Beyrouth 1973, Page 57-58.

هشي، سليم، العائلة الجنبلاطية، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٤٥) المعلوف، عيسى اسكندر، المرجع السابق، ص ١٩٧. والشدياق، طنوس، المرجع السابق، ص ١٤١.

الممكن أبـداً أن يمنح لقب «البـاشـا» دون أي ثمن، ولأي كـان. كـذلـك فيـما يتعلق بمختلف الألقـاب الأخرى في السلّم الهـرمي التراتبي للدولـة. كـما يصعب الاحتفـاظ باللقب والمرتبة إن لم تكن مرتكزة على قاعدة اقتصادية واسعة تتخذ منها سنداً وأسـاساً للسيـطرة السياسيـة والاجتماعيـة إلخ.. وعنـدما تفقـد هذه القـاعدة مـبرر وجودهـا، ستنعكس بشكل طبيعي على النواحي الأخرى، لتصل إلى ما وصـل إليه الجنبـلاطيون بعـد هزيمتهم، فجُـرِّدوا من مقاطعـاتهم (الاقتصاديـة) وسلطتهم (السياسيـة) وضعف نفـوذهم الباشـوي، إلى أن قبلوا بلقب «شيخ» في ظـل الإمارة المعنيـة. ومن خـلالهـا عـادوا لتبوؤ المـركز المهم الـذي شغلوه في تاريـخ الإمـارة المعنيـة والشهـابيـة، مـروراً بالمتصرفية إلى الانتداب حتى لبنان اليوم.

ويعـود ذلك إلى الـزواج الذي تم في «لبنـان» بين الشيـخ علي جنبـلاط والإبنـة الوحيدة للشيخ قبلان القاضي، بعد أن انتقلت بوفاته جميع أمـلاكه إلى ابنتـه ومنها إلى زوجها، فأصبح شيخ مشايخهم ومن أغنى أغنياء الـدروز وأبرز زعيم فيهم بعـد الأمير الحاكم[٤٦]. وانطلاقـاً من هذه الـثروة والغنى، ونقاء سـيرته «فقـد اكتسب الشيخ عـلي جنبلاط شهرة في التزهّد الديني بحيث بات ينسب إليـه عدد من المعجـزات»[٤٧]. بعد فترة بسيطة من وفاة الشيخ قبلان القاضي نقل الشيخ علي سكنه من مـزرعة الشـوف، إلى المختارة القريبة منها. ثم بنى داراً كبـيرة في بعذران وانتقـل إليها، ولا تـزال قائمـة حتى اليوم.

هذا التأثير والنفوذ الكبير للشيخ عـلي جنبلاط، والـذي فرض من خـلاله وزنـاً سيـاسياً مميـزاً، ليس فقط بين أبنـاء الطائفـة الدرزيـة فحسب، بـل تعـدّاهـا ليشمـل الطوائف الأخرى المتعايشة معها، كان سبباً بالغاً في إحداث شرح عـامودي استهـدف الدروز وتجاوزهم إلى غيرهم عندما استطاع الأمـير ملحم الشهابي[٤٨] أن يـزرع الشقاق

---

(٤٦) سلمان، توفيق. أضواء على تاريخ مذهب التوحيد، بيروت ١٩٦٣، ص ١٧٦.

(٤٧) جنبلاط، كمال. هذه وصيتي، مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، باريس ١٩٧٨، ص ٤١.

(٤٨) Touma, Toufic. op., Page 84. et Jawad Boulos. «les peuples et les civilisations du proche-orient», Tome 5, Paris 1968, Page 121.

جـواد بولس، شعـوب وحضارات الشرق الأدنى، الجـزء ٥ بـاريس ١٩٦٨، ص ١٢١ وتـوفيق سلمان، المرجع السابق، ص ١٧٨.

والانقسام بين زعماء الطائفة، مؤدّياً إلى بروز الحزب اليزبكي بزعامة الشيخ عبد السلام العماد، والحزب الجنبلاطي بزعامة الشيخ علي جنبلاط. بعد أن ساوم آل نكد في إبرازهم انداداً للجنبلاطيين، لكنه فشل نظراً لوفاقهم مع الشيخ علي.

بيد أن هذا الانشقاق وإن كان درزياً في الظاهر، إلا أنه شمل مختلف أبناء الطوائف الأخرى(٤٩) ليأخذ الطابع «الغرضي» الذي «لم يكن يظهر إلا في فترة بروز التوحّد المقاطعجي داخل العائلة المسيطرة من جهة، والتنافس المقاطعجي الشديد من زعيم عائلة أخرى من جهة ثانية. فينقسم الفلاحون والقوى المقاطعجية الحليفة تبعاً لذلك التنافس بين زعيمين لا أكثر»(٥٠). وعلى هذا الأساس كان بروز اليزبكية الممثلة بالشيخ عبد السلام العماد، والجنبلاطية الممثلة بالشيخ علي جنبلاط، بمعنى بروز الصراع بين هذين المقاطعجيين مع ما يتبع كل منهما من فلاحين وأسر مقاطعجية أخرى.

وجميع زعماء العائلة الجنبلاطية ابتداء من تاريخها في لبنان حتى اليوم، تذكرهم صفحات التاريخ المشرقة بصورتها القيادية الوطنية والعربية، مسطّرة أروع أمثولة في القرن العشرين باستشهاد زعيمها الكبير كمال جنبلاط في ١٦ آذار ١٩٧٧، كرمز نضالي وإنساني على الصعيد اللبناني والعربي والدولي، فانتقلت الأمانة إلى نجله الوحيد وليد، الذي أثبت جدارة عالية في تحمّل المسؤوليات الجسام.

أبو علوان والعيد. ومقدّمو آل مزهر في حمانا:

بالإضافة لتلك الأسر المقاطعجية الدرزية، فقد لعبت عائلتا أبو علوان والعيد دوراً مهماً أيضاً على الصعيد الاقتصادي والسياسي انطلاقاً من علاقة التحالف والصراع التي كانت تطبع الإمارة بطابعها الخاص. فقد كانت «الباروك» خاضعة

---

(٤٩) Jumblatt, Kamal, op, Page 69. Touma, Toufic, op., Page 78-79. et Jawad Boulos, op, Page 95 et 122.

كمال جنبلاط، ص ٦٩. توفيق توما، ص ٧٨ ـ ٧٩. وجواد بولس ص ٩٥ و١٢٢.

(٥٠) ضاهر، مسعود، الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧ ـ ١٨٦١، منشورات معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨١. ص ٤٠٨.

لسيطرة «أبو علوان». أما آل العيد فقد كانت «عين زحلتا» مركز إقامتهم ومنطقة نفوذهم. وكانت الأسرتان في رتبة «المشايخ» بينما مقدّمو آل مزهر كانوا في حمانا.

الأسر الأخرى غير الدرزية:

إلى جانب الأسر الدرزية المذكورة سابقاً، كانت هناك أسر أخرى تنتمي إلى الطائفتين المسيحية والإسلامية، والتي لم تخرج عن إطار الصراع والتحالف ضمن حدود الإمارة عبر مرحلة تاريخية طويلة. حيث كان منها الأمراء والمقدمون والمشايخ والعامة، كما عرفتها الأسر الدرزية في تعاملها اليومي مع بعضها البعض أو على صعيد معاملاتها مع الحكام. نذكر منها على سبيل المثال: آل الخازن في منطقة كسروان. إلا حبيش في غزير. آل الدحداح في فتوح كسروان. آل الضاهر في الزاوية. آل العازار في الكورة (أسر مسيحية في رتبة المشايخ). ومشايخ آل حمادة (الشيعة) في جبّة المنيطرة. كما كان هناك مقدّمو بني الصّواف إلخ... وتواجد في أوقات مختلفة، أمراء آل حرفوش وأمراء آل فريخ في البقاع، وأمراء آل شهاب في وادي التيم (قبل تسلّمهم الإمارة) وأمراء آل سيفا الأكراد في عكار، وأمراء آل عساف التركمان من بيروت إلى جبيل. ومعظم هذه العائلات، إن لم تكن جميعها، خضعت لفترة طويلة من الزمن لحكم المعنيين وسلطتهم[٥١].

من خلال هذا العرض السريع لتاريخ هذه العائلات المقاطعجية نرى بأن جميعها كانت عبارة عن جماعات اكتسبت شهرتها عن طريق مزايا اتصفت بها لتجعل منها فيما بعد السيد المطلق على الأرض التي وجدت فوقها أو منحت لها، تنطلق خلالها لتلعب الدور السياسي والعسكري والاجتماعي، ضمن حدود المقاطعة أولاً، والإمارة ثانياً، وكثيراً ما تعدّت حدود الإمارة إلى مناطق أخرى بفضل قوتها ونفوذها وسيطرتها.

والجدير بالذكر، إن جميع مناطق التواجد هذه، لم تحددها الأسر التي قدمت

---

(٥١) هشي، سليم حسن. المراسلات الاجتماعية والاقتصادية في جبل لبنان خلال ثلاثة قرون، الجزء الأول، بيروت ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠. ص ١٥ ـ ١٦.
وحقي، إسماعيل، «لبنان، مباحث علمية واجتماعية» الجزء الأول، تحقيق أسد رستم وفؤاد إفرام البستاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٩، ص ٣٤١.

إليها أو زعماؤها، كمقر ومركز إقامة لها. بل كان ذلك نتيجة الظروف التي أملت عليهم بسد الفراغ السكاني الذي كان ناتجاً عن عوامل متعددة، نظراً لكثافة السكان في المدن اللبنانية، ووعورة الطرق الجبلية وكثرة الغابات التي تغطي هذه الجبال والصعوبة في الوصول إليها، حيث كانت بمثابة الحصون التي يصعب اختراقها بسهولة من قبل الأعداء. وهكذا عرفت هذه الجبال بعض القبائل الوافدة إليها من العاصي خصوصاً، وعرفتها المردة التي أرسلت لمقاتلة الأمويين، والتي خاضت معارك مختلفة مع غيرها من القبائل، كانت معركة نهر الموت أكبرها وأشهرها.

هذا التمركز السكاني لم يكن صدفة أبداً. حيث كان له سمات أساسية طبعت جميع القبائل بطابع متشابه ومشترك. وكان من أبرز سماته: ١ ـ ثبات في الأرض ـ ٢ ـ وثبات في السيطرة (بمختلف أشكالها). هذه السمات حملت معها الانغلاق القبلي، والطائفي الانعزالي (بمعنى انعزالية القبيلة في سكنها المنعزل عن سكن القبائل الأخرى). كما حملت معها إنغلاقاً عشائرياً يساهم في تماسك العائلة المقاطعجية متخذاً وجهاً سياسياً بارزاً، وكل قبيلة تعمل بما يلائم مصلحتها الخاصة.

هذا الانغلاق القبلي العشائري كان يكمن في داخله انغلاق اجتماعي واقتصادي صمد فترة طويلة من الزمن، إلا أنه كسر أمام تغلغل التجار ولصالحهم في الفترة التي لعب فيها النفوذ الأوروبي دوره الكبير متخذاً من الامتيازات الأجنبية مع العثمانيين مرتكزاً للعلاقة التجارية التي اتخذت فيما بعد وجوهاً عديدة لتحقيق أهداف محددة، اخترق فيها هؤلاء التجار حدود المقاطعات ليمثلوا صلة الوصل بين الداخل والخارج (أوروبا خصوصاً) عن طريق بعض المرافىء، وعلى رأسها مرفأ بيروت. إذ أن الوجه التجاري كان واضحاً في التركيبة اللبنانية حتى أن فخر الدين المعني الثاني اتخذ من صيدا مركزاً تجارياً هاماً لإمارته.

والملاحظ أن هذا التمركز السكاني لم يكن ثابتاً بدليل التوسع الذي كان يحدث عبر شكلين اثنين: ١ ـ هزيمة عسكرية لطرف ـ ٢ ـ ودعم خارجي لطرف آخر. وعلى هذا الأساس كانت التغيرات بين مرحلة وأخرى من مراحل الحروب والفتح وتبعاً لاختلاف السيطرة الآتية عبر قوة جديدة.

الفصل الثاني

الدروز في الميدان العسكري
قبل الفتح العثماني

شكلت هجمات الصليبيين على بلاد الشرق خطراً كبيراً هدّدت معه شعوب المنطقة بأجمعها. بالإضافة لبعض جماعات الداخل التي مثّلت سنداً مهماً للفرنجة وتسهيل مهماتهم الحربية في المنطقة. فكان من الضروري عرقلة مساعيهم وتقدمهم منعاً لتحقيق هدفهم المعلن في «تحرير الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين». وكان للمناطق المحاذية للساحل دورها المهم حيث كان سكانها من محترفي الحرب والقتال بالنظر إلى طبيعة أرضهم الجبلية وتمرسهم في الفنون العسكرية البرية.

ولم ينطلق التنوخيون، والموحدون الدروز عامة، في تصدّيهم للصليبيين وحلفائهم، من منطلق الحفاظ على حدود إمارتهم أو مقاطعاتهم فحسب، بل كانوا يدركون جيداً أن الغزوات الجديدة تمثل خطراً جدياً على العرب ككل، وعلى المقدسات بشكل خاص. ومن واجبهم الأولي النابع من عقيدتهم، ضرورة التصدي والاستماتة في الدفاع عن الأرض التي يعيشون فيها والتي تمثل جزءاً من حياتهم لا ينفصل عنها.

من هنا، كان لا بد من الوقوف في وجه الزحف الصليبي الذي يستهدف كل ما على أرض الشرق من وجود. وكانت المعارك التي أثبتوا خلالها جدارتهم وكفاءتهم، الدليل القاطع على مصداقية تعاملهم مع الأرض والشعب الذي إليه ينتمون، في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي ينخره سوس التفكك السياسي والضعف العسكري في وجه الهجوم الصليبي الموحد أوروبياً.

وعندما بدأت جموع الزحف الفرنجي تصل لبنان، «أمكن الموارنة أن يمدّوهم بثلاثين ألف نبّال، أجمع الفرنجة على الإعجاب بشجاعتهم ومهارتهم، على حد قول الدكتور فؤاد إفرام البستاني»[1]. وتصدّى لهم التنوخيون ـ والدروز عامة ـ عند حدود إمارتهم بقيادة أميرهم عضد الدولة التنوخي عند نهر الكلب في سنة ١١٠٠ م. لكن القائد الصليبي بلدوين استطاع اختراق الحاجز متابعاً طريقه إلى القدس[2].

ورغم فشلهم في إيقاف زحف الفرنجة، فقد عاود التنوخيون عرقلة مسيرة القائد الصليبي ريمون دي تولوز، وفي نفس المكان الذي تصدّوا فيه لبلدوين على نهر الكلب. ورغم الشجاعة التي أبدوها في التحدي فإنهم تراجعوا إلى بيروت وتحصنوا فيها. وعندما سمع حاكم دمشق شمس الملك دقاق بهذه الشجاعة قدّر للأمير التنوخي عمله وكافأه بإمارة صيدا إضافة إلى ولايته في بيروت والغرب، وطلب منه تحصين المدينتين تحسباً للمستقبل[3].

إزاء ذلك، وضع الصليبيون أمام أعينهم ضرورة السيطرة على مختلف المواقع التي تضمن لهم وجوداً أميناً في الشرق. فكانت مدن الساحل نقطة بارزة على خارطة الغزو والاحتلال لضمان حرية مواصلاتهم مع أوروبا، كما كانت بيروت هدف التحرك ومحور الاهتمام.

لهذا ضرب الصليبيون حصاراً من البر والبحر حولها، بقيادة بلدوين الصليبي الفرنسي. بيد أن الدروز[4] صمدوا في وجه القوات الغازية صموداً بطولياً وقف أمامه

---

(١) جاء ذلك في محاضرة عن مار مارون في ٢١ حزيران سنة ١٩٤٨، نشرت في النشرة المزدوجة لمحاضرات دار الندوة، السنة الثانية، النشرتان ٥ ـ ٦ (بيروت) ٢١ حزيران ١٩٤٨، ص ١٦٧ ـ ١٦٩. وذكرها الدكتوران مصطفى الخالدي وعمر فروخ في كتابهما: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الطبعة الخامسة بيروت ١٩٧٣، المكتبة العصرية، ص ٢٨.

(٢) حيدر الشهابي. الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان. نشر نعوم مغبغب (القاهرة، مطبعة السلام، ١٩٠٠) ج ١، ص ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٣) ابن القلانسي. ذيل تاريخ دمشق، بيروت، نشر الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ والسجل الأرسلاني (في الروض الشقيق) ص ١٩٩.

(٤) يذكر الأستاذ إبراهيم بك الأسود في كتابه ذخائر لبنان (ص ١١٢) أن الأمير الدرزي الذي تصدى للفرنجة في حصار بيروت سنة ١١١٠ هو شجاع الدولة الأرسلاني وجماعة من ذوي قرباه. بينما يذكر المؤرخ ابن =

عاجزاً عن فتحها والسيطرة عليها، وأجبر على الاستعانة بقوات إضافية من الشمال والجنوب. فتجمعت قوات الشمال في جبيل، وقوات الجنوب في مرج الغازية وزحف الفريقان في يوم واحد على مقاطعة الغرب القريبة من بيروت، والتي تشكل مقر الدروز ومركزهم الأساسي، فنهبوه واحرقوه وقتلوا وأسروا كل من وجدوه من الناس ولم ينج من أهله سوى الغائبين والمختبئين. ثم «تقدمت جيوش الفرنجة إلى بيروت وضيِّقت عليها الحصار بمساندة المراكب الجنوبية ثم اقتحمتها بعد حوالي شهرين من الحصار فنكَّلت بالأهالي وقتلت وأسرت عدداً من الأمراء التنوخيين ضربت أعناقهم وبينهم الأمير عضد الدولة نفسه»[٥]. كان ذلك في سنة ١١١٠.

ومن الجدير بالذكر، إن هذه الموقعة سجّلت «انقطاع سلالة بني فوارس التنوخية والتي كانت أشرف القبائل جميعها وأكثرها رجالاً وأعظمها سطوة»[٦]. كما دفعت منطقة الغرب ثمناً غالياً لموقفها العدائي الكبير ضد الصليبيين حيث «أصبحت قاعاً صفصفاً لا يسمع فيها إلا البكاء والعويل»[٧]. لكن الدكتور فيليب حتي عندما تعرض لهذه الموقعة لم يشر مطلقاً إلى مقاومة التنوخيين ولا للمجزرة التي ارتكبها «أجداده» الصليبيون بحق دروز الغرب الذين كانوا المدافعين الحقيقيين عن بيروت[٨]. وسبب ذلك، على ما يبدو، لأنه كان من طينة «شعب قوي الشكيمة ومحارب شجاع والذي أمدّ الصليبيين بأدلاء كانوا بأمسّ الحاجة إليهم» على حد تعبيره، ويعني بذلك الموارنة[٩].

موقعة عين التينة سنة ١١٥١ م:

بعد المجزرة التي ارتكبها الصليبيون بحق تنوخيي الغرب، لم يقف التنوخيون

= القلانسي (ص ١٦٧ - ١٦٨) والسجل الأرسلاني (ص ١٨٦ - ١٨٧) أن الأمير عضد الدولة التنوخي هو الذي تصدى للفرنجة في هذه الموقعة.

(٥) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ١٦٩ - ١٧١. والسجل الأرسلاني (في الروض الشقيق) ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٦) إبراهيم بك الأسود، ذخائر لبنان. بيروت ١٩٧٠، ص ١١٣ - ١٣٧.

(٧) طنوس الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، الجزء الأول، بيروت مكتبة الوفاء ١٩٥٤، ص ٢٩٥.

(٨) و(٩) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ١٩٧٨، ص ٣٥٠ و٣٤٧.

بعدها مكتوفي الأيدي. بل عقدوا العزم على إعادة تعمير إمارتهم في ظل الأمير مجد الدولة. إلا أنه سقط أيضاً في أرض المعركة في برج البراجنة ضد الصليبيين.

لكن الموقعة الكبرى التي سجل فيها دروز الغرب نصرهم الكبير على الفرنجة كانت في موقعة عين التينة على نهر الغدير جنوب بيروت عام ١١٥١ م، بقيادة الأمير بحتر بن عضد الدولة الملقب بناهض الدين أبي العشائر، ملحقاً بالصليبيين وقائدهم غي دوبريت عدداً كبيراً من القتلى فيما انهزم الباقون إلى بيروت[١٠].

بعد هذه الهزيمة، توجس الفرنجة خيفة من قوة التنوخيين بعد أن تابع الأمير زهر الدولة كرامة بن بحتر التنوخي سياسة الجهاد ضدهم موقعاً بهم خسائر كبيرة. وعندما وجد الصليبيون أنهم عاجزون عن النيل من هذه القوة، وفي موقعهم الاستراتيجي قرب بيروت، قرروا اللجوء إلى الحيلة للقضاء عليهم. وكانت وفاة الأمير كرامة سنة ١١٧٤ المناسبة الملائمة لتنفيذ سياستهم، حيث بدأ حاكم بيروت الصليبي بالتقرب من أولاد الأمير بحتر متودداً وملاطفاً حتى اطمأنوا إليه. «فهادنهم واستدرجهم إلى أن اجتمعوا الثلاثة الكبار معه في الصيد وأما حجى فكان طفلاً صغيراً منقطع عند أمه في الحصن، وتكرر اجتماعهم معه في الصيد وهو يعطيهم ويحسن إليهم وكان معه في المرة الثالثة ولده فعزمهم في عرسه. فلما كان وقت العرس نزلوا الثلاثة إلى بيروت فأنزلهم صاحب بيروت في بستان ظاهر البلد واعتذر إليهم بنزولهم برّا البلد بما اجتمع فيه من طوايف الفرنج لوليمة العرس وزاد في إكرامهم ولما دخل الليل سالهم الحضور إلى مجلس خاص قد هيّء لهم وللملوك الفرنج فدخلوا الثلاثة إلى القلعة معهم نفر قليل فكان آخر العهد بهم وركب صاحب بيروت بمن عنده من جموع الفرنج في صبحة تلك الليلة وطلعوا إلى الحصن وكان خالياً من الرجال فهرب من كان به وبينهم أم حجى وولدها حجى فنهبت الفرنج الحصن وهدموه وألقوا حجارته في الوادي ولا أبقوا له أثراً وأحرقوا القرايا وأسروا من تخلّف عن الهرب...»[١١].

---

(١٠) السجل الأرسلاني (في الروض الشقيق)، ص ١٨٧.

(١١) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، المطبعة الكاثوليكية. تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان صليبي. بيروت ١٩٦٩، ص ٤٥.

ثم عاد دروز الغرب ثانية لتعمير منطقتهم ومتابعة جهادهم ضد الفرنج. وكأن جميع هذه المجازر والنكبات التي حلّت بهم على أيدي الصليبيين، لم تزدهم إلا إصراراً وعزماً على المضي في قتالهم حتى النهاية. وبرز في هذه الفترة على مسرح الأحداث في العالم الإسلامي قائد كبير هو صلاح الدين الأيوبي، سيطر على مصر ثم دمشق واتخذها قاعدة انطلاق في قتاله ضد الصليبيين. وعندما كانت سنة ١١٨٧ م وجّه الضربة القاضية للنفوذ الفرنجي في بيت المقدس وأوقع بهم هزيمة كبرى في حطين أدت إلى إنهيار مملكتهم في القدس ومعظم معاقلهم الأخرى. وفي الوقت الذي تابع فيه صلاح الدين مسيرته لاحتلال بيروت، لاقاه الأمير جمال الدين حجى التنوخي إلى قرية خلدة على رأس وفد من الدروز مرحباً بقدومه وسار معه لحصار المدينة. «فلما فتح السلطان بيروت لمس بيده رأس حجى وقال له: هذا قد أخذنا ثأرك من الفرنج. طيّب قلبك. أنت مستمر مكان أبيك وأخوتك وكتب له منشور يقرّه على ولايته»[١٢]، دون أن تتبع مدينة بيروت لنفوذه وسلطته، وهي الولاية التي سبق للتنوخيين أن شغلوا سيطرتها فترة طويلة وقدموا في سبيلها ضحايا كثر. وقد اختلف المؤرخون في تحديد أسباب هذا التصرف الذي أدى بالسلطان صلاح الدين إلى أن يوليها لأحد أمرائه الكبار من غير الدروز، وهو عز الدين أسامة بن منقذ[*].

والجدير بالذكر، أن عز الدين أسامة سلّم بيروت للفرنج دون أي قتال عندما سمع باستيلاء الصليبيين على صيدا، «فخرج من بيروت بجماعته وأهله فلاموه الناس على ذلك وعنّفوه، لما حصروا الفرنج حصن تمنين (تبنين) وسألوا صاحبه في تسليم الحصن بالأمان فقال بعض من فيه لصاحبه:

سلّم الحصن ما عليك ملامة	لا يلام الذي يروم السلامة
فعطاء الحصن من غير حرب	سنّةٌ سنّها ببيروت سامة»[١٣]

(١٢) صالح بن يحيى التنوخي، المصدر السابق، ص ٤٥ - ٤٦.

(*) يذكر المؤرخ صالح بن يحيى التنوخي في حاشية كتابه (تاريخ بيروت ص ٢٠) أن عز الدين أسامة هو غير مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن منقذ الكناني الشهير صاحب الديوان وكتاب الاعتبار الذي توفي في سنة ١١٨٨.

(١٣) صالح بن يحيى التنوخي، المصدر السابق، ص ٢١ - ٢٢.

ويضيف الدكتور عباس أبو صالح في كتابه[١٤] بيتاً آخر على البيتين الأولين، مظهراً النقمة والاستياء والملامة قائلاً:

لعن الله كل من باع ذا البيع وأخزى بخزيه من سامه.

هنا تجدر الإشارة إلى أن التنوخيين كانوا يدافعون عن مقاطعاتهم دفاع الأبطال وقدّموا عدداً كبيراً من خيرة أمرائهم، كما تحمَّلوا من التخريب والهدم والتنكيل ما لا يوصف، بينما نرى أن المدينة التي كلّفت دروز الغرب مئات الضحايا، وهدم حصونهم وبيوتهم، سلِّمت من قبل الأمير عز الدين أسامة إلى الفرنج بدون قتال ودون مقاومة.

موقعة عيتات ١٢٥٥ م:

في هذه الفترة كان التنافس على أشدّه بين المماليك والأيوبيين. وعادت سياسة الصراع الداخلي بين قوى العالم الإسلامي إلى البروز، وشكَّلت الإمارة التنوخية المحور الأساسي لهذه الخلافات، في الوقت الذي استمر فيه الخطر الصليبي مهدداً بلاد الشرق. وكان كل من القوتين (الأيوبية والمملوكية) تحاول جاهدة استمالة الأمراء التنوخيين إلى جانبها، نظراً للموقع الاستراتيجي الذي كانت تتمتع به الإمارة من ناحية ولشدّة بأس وشجاعة أبنائها الدروز من ناحية أخرى.

«وعلى الرغم من الاتفاق الذي جرى بين المماليك والأيوبيين خلال هذه الحقبة، والذي قضى بإعطاء بلاد الشام إلى الملك الناصر الأيوبي وإعطاء مصر للمماليك، فإن محاولة سلطان المماليك الاتصال ببعض الأمراء التنوخيين أدى إلى استياء الملك الناصر في دمشق فعزم على الاقتصاص من دروز الغرب»[١٥]. وزحفت جيوشه بمساعدة ولاة بعلبك والبقاع حتى التقوا بالأمراء التنوخيين في قرية عيتات من قرى الغرب فاقتتلا هناك اقتتالاً شديداً كان الفوز فيه للتنوخيين حيث «إن الأمير زين الدين (صالح بن

---

(١٤) أبو صالح ومكارم. تاريخ الموحدين الدروز السياسي، بيروت ١٩٨٠، ص ١٠٩.
(١٥) أبو صالح ومكارم، المرجع السابق، ص ١١١.

علي بن بحتر التنوخي المكنّى بأبي الجيش) كان سبب كسرتهم وله في هذه الكاينة شهرة كبيرة»[16].

لكن السيطرة الأيوبية لم تدم بعد ذلك طويلاً على دمشق، حيث هاجمتها قبائل المغول (التتار) واستولت عليها. وعين كتبغا نائباً عليها من قبل هولاكو.

ومن المعروف، أنه في عام ١٢٥٨، دمّرت معالم الحضارة العربية في بغداد على يد هولاكو المغولي. ومما يذكر أن مياه نهر دجلة بقيت لمدة أيام ثلاثة، مصبوغة باللون الأسود، من جراء حبر المخطوطات التي قذفت في النهر بعد نهبها وإتلافها. وبتدمير معالم هذه الحضارة «سقطت بغداد، وبسقوطها زال السؤدد العربي وانتهى تاريخ الخلافة العربية الحقيقية»[17]. وتاريخ المغول حافل بالدم والإجرام حيث نشروا الرعب أينما حلّوا. وحين فتح جنكيزخان بخارى وقف خطيباً قائلاً عن نفسه: «أنا آفة من الله أرسلت للناس قصاصاً على معاصيهم». حتى أن المؤرخ ابن الأثير الذي عاصر حوادثهم وإجرامهم قال بأن «فرائصه ترتعد عند سرد هذه الأهوال وأنه يتمنى لو أن أمه لم تلده»[18].

إزاء ذلك، كان لا بد للتنوخيين من اتخاذ موقف من هذه القوى خاصة وأنها أصبحت قريبة من حدود إمارتهم، ولا بد من تلافي شرورها التي عرفتها جميع المناطق التي وطئتها أقدامها. لهذا «وفد عليهم (المغول) سنة ١٢٥٩ الأمير جمال الدين حجى بن محمد والأمير زين الدين بن علي في دمشق، حيث أبديا الطاعة لكتبغا نائب هولاكو فيها. ولما بلغهما خبر قدوم المظفر بالعساكر المصرية اشتَوَرا وحصل بينهما اتفاق على أن يتوجه زين الدين إلى العسكر المصري ويقيم جمال الدين عند التتار بدمشق ليكون أي من انتصر من الفريقين كان أحداهما معه فيسد خلّة رفيقه وخلّة البلاد قصداً بذلك إصلاح الحال»[19].

(١٦) صالح بن يحيى التنوخي، المصدر السابق، ص ٥٨ ـ ٥٩.
(١٧) فيليب حتي، تاريخ العرب، الجزء الثاني، دار الكشاف، بيروت ١٩٥٠ ص ٥٨٠.
(١٨) فيليب حتي، المرجع السابق، ص ٥٧٩.
(١٩) صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص ٥٩ ـ ٦٠.

وعندما وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين في «عين جالوت» الشهيرة سنة ١٢٦٠، إنهزم فيها المغول بعد أن سجّل الأمير زين الدين التنوخي نقطة بارزة في قتاله إلى جانب المماليك و«أعجبهم برميه وصاروا يقدموا له النشاب من تراكيشهم» (جعبهم)[٢٠]. وهكذا نجت الإمارة التنوخية بفضل حكمة أمرائها وشجاعتهم بعد أن سجلت موقعة «عين جالوت» علامة مميزة في تاريخ العرب ككل. حيث أعادت الثقة بالإسلام على حد قول سيفان Sivan، كما مثّلت الجهاد المقدس ضد أعداء ديانتهم[٢١]، محققين أعظم انتصار ضد أخطر أعداء الإنسانية جمعاء.

ورغم الثقة التي أولاها المماليك لتنوخيي الغرب وأقرارهم على مقاطعاتهم، إلا أن الظاهر بيبرس سرعان ما بدّل موقفه مشككاً بهم على أثر الوشايات التي حُملت إليه ضدهم، فكانت مكافأة امرائهم بعد «عين جالوت»، باعتقال من وقفوا إلى جانبه وأبلوا البلاء الحسن ضد المغول فألقى القبض عليهم (جمال الدين حجى الثاني، وأخيه سعد الدين خضر والأمير زين الدين صالح) وسجنهم. زين الدين في سجن مصر، وجمال الدين في سجن الكرك، وسعد الدين في سجن عجلون. وقرر الظاهر بيبرس الإبقاء على سجن هؤلاء الأمراء حتى يتمكن من احتلال المدن الساحلية من أيدي الصليبيين.

وفعلاً ظل هؤلاء في السجن حتى وفاة بيبرس. وقد وضع المماليك ثقتهم بأمير تنوخي آخر هو قطب الدين السعدي. ولكن بعض أمراء التنوخيين قتلوه حوالي سنة ١٢٧٧ فأدّى ذلك إلى انتقام شامل من التنوخيين، إذ جرد المماليك حملة قاسية على الغرب فنهبت وقتلت لمدة سبعة أيام، وسبت النساء والأطفال وباعوهم في أسواق الرقيق انتقاماً. وبعد وفاة بيبرس عادت الدولة المملوكية فعفت عن الأمراء الثلاثة المسجونين وأمرت بإعادة السبي حيثما وجد[٢٢].

---

(٢٠) صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص ٦٠.

(٢١) SIVAN, Emmanuel. «L'Islam et la croisade» Paris 1968, P. 166-167.
سيفان أمانويل، الإسلام والصليبية، باريس ١٩٦٨، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٢٢) صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص ٦٣ - ٦٤. ومحمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي حتى الفتح العثماني، بيروت دار النهار للنشر ١٩٧٧، ص ٢١٦.

وما إن أطل عام ١٢٩١ حتى تمكن المماليك بقيادة السلطان أشرف خليل، من طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشرق. كما لعب الدروز دورهم الكبير في ذلك وهذا ما أشار إليه الدكتور كمال سليمان الصليبي قائلاً: «إن الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين اقتصر على الدول السنّية المتعاقبة على بلاد الشام وعلى حلفائهم من الباطنية في وادي التيم والدروز في جبل بيروت»(٢٣).

المماليك ودروز الجرد وكسروان عام ١٣٠٥:

اختلف المؤرخون فيما يتعلق «بالعصاة والمتمردين» الذين خرجوا عن سلطة المماليك السنّية، في منطقة الجرد وكسروان. واستعمل المماليك الضغط والإرهاب، وأحياناً التنكيل بأتباع المذاهب الإسلامية الباقية، حتى أنهم تميزوا بالتشدّد في محاربة المذاهب الإسلامية غير السنّية على حد قول الأستاذ محمد علي مكي(٢٤).

من المؤرخين، من قال بأن سكان الجرد وكسروان كانوا من الشيعة (مكي)، وبعضهم ذكر أنهم دروز في الجرد، وسكان كسروان من الموارنة وهم على اتفاق تام مع الدروز (كالدبس(*) مثلاً). وقال الأب لامنس اليسوعي أن أهل الجرد وكسروان هم من الدروز والمتاولة وبعض النصيرية. أما المؤرخ الكبير المقريزي(٢٥)، وهو بعلبكي الأصل، فإنه أورد عن أخبار هذه الحملة بأن أقوش الأفرم «توجه من دمشق لغزو الدرزية أهل جبال كسروان». بينما يشير الدكتور أبو صالح قائلاً: «إذ على الرغم من وجود بعض الموحدين الدروز يومذاك في بعض قرى «الرافضة»، أي الشيعة في كسروان، فإن المناطق الدرزية الرئيسية بقيت خارج نطاق الحملة»(٢٦). ويذكر الدكتور يوسف مزهر(٢٧) وبصورة تفصيلية نقلاً عن المؤرِّخين الكبيرين حمزة بن إسباط العاليهي

---

(٢٣) الصليبي، كمال سليمان، منطلق تاريخ لبنان، منشورات كارفان نيويورك - بيروت ١٩٧٩، ص ١٢٣.

(٢٤) مكي، محمد علي، المرجع السابق، ص ٢١٧.

(*) سويد، العقيد ياسين، التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ١٣٩.

(٢٥) المقريزي، تقي الدين أحمد. كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: تحقيق مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٩، ج ١، القسم الثالث، ص ٩٠٢ - ٩٠٣.

(٢٦) أبو صالح ومكارم، المرجع السابق، ص ١١٦.

(٢٧) مزهر، يوسف، تاريخ لبنان العام، الجزء الأول، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

وعندما وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين في «عين جالوت» الشهيرة سنة ١٢٦٠، إنهزم فيها المغول بعد أن سجّل الأمير زين الدين التنوخي نقطة بارزة في قتاله إلى جانب المماليك و«أعجبهم برميه وصاروا يقدموا له النشاب من تراكيشهم» (جعبهم)[٢٠]. وهكذا نجت الإمارة التنوخية بفضل حكمة أمرائها وشجاعتهم بعد أن سجلت موقعة «عين جالوت» علامة مميزة في تاريخ العرب ككل. حيث أعادت الثقة بالإسلام على حد قول سيفان Sivan، كما مثّلت الجهاد المقدس ضد أعداء ديانتهم[٢١]، محققين أعظم انتصار ضد أخطر أعداء الإنسانية جمعاء.

ورغم الثقة التي أولاها المماليك لتنوخيي الغرب وأقرارهم على مقاطعاتهم، إلا أن الظاهر بيبرس سرعان ما بدّل موقفه مشككاً بهم على أثر الوشايات التي حُملت إليه ضدهم، فكانت مكافأة امرائهم بعد «عين جالوت»، باعتقال من وقفوا إلى جانبه وأبلوا البلاء الحسن ضد المغول فألقى القبض عليهم (جمال الدين حجى الثاني، وأخيه سعد الدين خضر والأمير زين الدين صالح) وسجنهم. زين الدين في سجن مصر، وجمال الدين في سجن الكرك، وسعد الدين في سجن عجلون. وقرر الظاهر بيبرس الإبقاء على سجن هؤلاء الأمراء حتى يتمكن من احتلال المدن الساحلية من أيدي الصليبيين.

وفعلاً ظل هؤلاء في السجن حتى وفاة بيبرس. وقد وضع المماليك ثقتهم بأمير تنوخي آخر هو قطب الدين السعدي. ولكن بعض أمراء التنوخيين قتلوه حوالي سنة ١٢٧٧ فأدّى ذلك إلى انتقام شامل من التنوخيين، إذ جرد المماليك حملة قاسية على الغرب فنهبت وقتلت لمدة سبعة أيام، وسبت النساء والأطفال وباعوهم في أسواق الرقيق انتقاماً. وبعد وفاة بيبرس عادت الدولة المملوكية فعفت عن الأمراء الثلاثة المسجونين وأمرت بإعادة السبي حيثما وجد[٢٢].

---

(٢٠) صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص ٦٠.

(٢١) SIVAN, Emmanuel. «L'Islam et la croisade» Paris 1968, P. 166-167.
سيفان أمانويل، الإسلام والصليبية، باريس ١٩٦٨، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٢٢) صالح بن يحيى، المصدر السابق، ص ٦٣ - ٦٤. ومحمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي حتى الفتح العثماني، بيروت دار النهار للنشر ١٩٧٧، ص ٢١٦.

المذاهب الإسلامية غير السنّية»[٢٩]، وعندما كان الدروز يعودون بأصلهم إلى الشيعة التي «وجب محاربتهم بسبب فساد نيّتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم» حسب فتوى ابن تيمية، بالإضافة إلى عصيانهم وتمردهم على السلطة المملوكية وأراد المماليك تأديبهم وإخضاعهم، فلا مجال إذن لتحريض التنوخيين عليهم ـ وفيهم أبناء مذهبهم أيضاً ـ خاصة وأن المماليك لم يقطعوا منطقة كسروان للأمراء التنوخيين، وما لبثوا أن جرّدوا الأمراء البحتريين من إقطاعاتهم التقليدية عندما قاموا بمسح جديد للأراضي السلطانية في بلاد الشام سنة ١٣١٣، أي في عهد الناصر وعوّضوا عليهم مناطق جديدة، مما أدى إلى استياء أمراء الدروز، والاتصال بنائب السلطنة حيث استثنى هؤلاء الأمراء من هذه التغيرات فيما بعد[٣٠].

إن إتهام التنوخيين وتحميلهم مسؤولية المجازر التي ارتكبها المماليك بحق أهالي الجرد وكسروان، هي نوع من الافتراء الذي يحمل ملامح من التعصب الديني ـ وإن كان عن غير قصد ـ في الوقت الذي أثبت فيه التنوخيون أن همهم الوحيد رص الصفوف والإنصراف إلى ما يضمن وحدة العالم الإسلامي في وجه المطامع والأخطار الخارجية، خاصة وإن الصليبيين ـ رغم هزيمتهم ـ ظلّوا يتشوّقون للعودة إلى الشرق وإعادة سيطرتهم ونفوذهم.

موقعة الناعمة ١٤١٣:

حاول الفرنجة مرات عديدة مهاجمة السواحل اللبنانية وخاصة بيروت بعد طردهم من بلاد الشرق. كما بقي التنوخيون يقومون بمهمتهم خير قيام. وفي سنة ١٣٢٣ حصلت معركة في بيروت بين الإفرنج وواليها عز الدين البيسري وأمراء عرمون حيث جرح فيها بعض الأمراء، وانتصر الإفرنج، مما أدى إلى سجن الأمراء التنوخيين من قبل أمير الأمراء بدمشق. وفي سنة ١٣٨٢، عندما «قدم الإفرنج بسفنهم إلى بيروت فخرجوا إلى المدينة وحدثت فيها موقعة كان النصر فيها لهم. فلما رأى الأمير سيف الدين يحيى (التنوخي) شرذمة منهم عند خرائب القلعة القديمة هجم

(٢٩) مكي، محمد علي، المرجع السابق، ص ٢١٧.
(٣٠) أبو صالح ومكارم، المرجع السابق، ص ١١٧ نقلاً عن صالح بن يحيى، ص ٩١ ـ ٩٢.

بجامعته عليهم واندفع على صاحب العلم منهم فتناولوه برماحهم فكبابه جواده ثم نهض وكرّ على صاحب العلم فأسقط العلم من يده. فلما شهد الإفرنج سقوط علمهم فرّوا منهزمين إلى البحر يطلبون العودة إلى سفنهم وقد غرق بعضهم في الماء عند الإزدحام طلباً للنجاة»[٣١].

كما سجلوا على الإفرنج نصراً ساحقاً في موقعة الناعمة قرب الدامور سنة ١٤١٣ بعد أن عاث هؤلاء فساداً وقتلاً وأسراً، هزموا على أثرها هزيمة منكرة على يد الأمير سيف الدين التنوخي أيضاً[٣٢].

هذا ولم يقتصر عملهم العسكري في الداخل فقط، بل شاركوا أيضاً إلى جانب سلاطين المماليك في الخارج واشتركوا في حرب المماليك ضد تيمورلنك سنة ١٤٠٠. كما ساعدوهم أيضاً في حملتهم على جزيرة قبرص والتي انتهت باحتلالها عام ١٤٢٥. حتى أن المؤرخ صالح بن يحيى نفسه، صاحب تاريخ بيروت، كان في عداد هذه الحملة[٣٣]. (*)

---

(٣١) الأسود، إبراهيم بك، المرجع السابق، ص ١٥٧ و١٥٩.

(٣٢) الأسود، إبراهيم بك، المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٣٣) أبو صالح ومكارم، المرجع السابق، ص ١٢١ نقلاً عن صالح بن يحيى ص ٢١٩ ـ ٢٣٠، وابن إسباط. تاريخ ابن إسباط، ص ١٦٤ و١٧٦.

(*) الدروز كانوا ثورة لم تخمد نارها منذ وجودهم ضد الظلم، وقد عبّر المؤرخ الدكتور عمر فرّوخ عن واقع الدروز بقوله: «التاريخ في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي هو تاريخ الدروز منذ خمسمائة عام ولم يترك الدروز التاريخ في القرنين التاسع عشر والعشرين» (الأطرش، فؤاد يوسف. الموحدون الدروز تهم وتاريخ وحقائق. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٨١. ص ٢٥٨).

الفصل الثالث

الدروز في ظل العثمانيين

لم ينفرد التنوخيون الدروز وحدهم في مقاتلة الصليبيين، بل كان للأسر الدرزية الأخرى دورها أيضاً بالمساهمة في أعباء القتال ضد الفرنجة، حتى قبل مجيئهم إلى لبنان، كما هي الحال مع آل معن الذين هزموا أمام بلدوين الصليبي في انطاكية، فطلب منهم حاكم دمشق، طغتكين، الذهاب إلى لبنان، لإملاء الفراغ العسكري بعد النكبة التي تعرض لها التنوخيون عام ١١١٠ - «وكان ممن قدموا إلى لبنان خلال هذه الفترة - وللغاية نفسها - بعض العائلات الدرزية العريقة كآل نكد، وآل تلحوق الذين كانوا حلفاء المعنيين والتنوخيين فشكلوا مجتمعين «حلفاً مقدساً» ضد الصليبيين في لبنان»[1]. هذا وقد اشترك المعنيون أيضاً إلى جانب الشهابيين بقيادة أميرهم عبد الله بن سيف الدين المعني في قتال الفرنجة سنة ١٢١٨ في معركة مرج الخيام[2] في جنوب لبنان، إنهزم فيها الصليبيون هزيمة منكرة. كما وقفوا أيضاً إلى جانب التنوخيين في حروبهم مع الفرنجة، وذلك في موقعة الدامور سنة ١٤١٣[*]، وأوقعوا الخسائر الفادحة في صفوف الغزاة. ورغم ذلك، بقي التنوخيون يتبوؤون المركز الأول بين جميع الأسر الدرزية على رأس الإمارة التي استمدت منهم اسمها، حتى كانت موقعة

---

(١) أبو صالح ومكارم، المرجع السابق، ص ١٢٩ - ١٣٠ نقلاً عن طنوس الشدياق ج ١، ص ١٨٦ - ١٩٥.

(٢) تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، تحقيق سليم هشي، ص ٣٤. والعقيد ياسين سويد، التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، الجزء الأول، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ١٢٥.

(*) يذكر العقيد سويد (ص ١٢٦) تاريخ معركة الدامور سنة ١٤١٤ نقلاً عن تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد امرائهم، ص ٤١ - ٤٢.

مرج دابق شمالي حلب في ٢٤ آب ١٥١٦ بين العثمانيين والمماليك «وكانت المفتاح الذهبي الذي فتح به السلطان سليم بلاد الشام»[٣]، والتي مثّلت مرحلة زوال الإمارة التنوخية لتبرز الإمارة المعنية مكانها على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية والتي توافقت مع هزيمة المماليك والقضاء على دولتهم.

وكان انحياز التنوخيين إلى جانب المماليك السبب الأول الذي دفع بهزيمتهم سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وبالتالي زوال إمارتهم التي تربعوا فوقها أكثر من ثمانية قرون، لصالح الذين وقفوا لجانب العثمانيين، وعلى رأسهم المعنيين وجمال الدين اليمني[٤] من الغرب. ومنذ ذلك الحين «تضاءل نفوذ التنوخيين وتلألأ نجم المعنيين»[٥]، بعد أن خلع. السلطان سليم على الأمير فخر الدين الأول[**] لقب «سلطان البر» بعد خطبته الشهيرة «وأقرّ سائر الأمراء اللبنانيين معه على إقطاعهم وسمح لهم بممارسة استقلالهم وامتيازاتهم التي كانوا يمارسونها في حكم المماليك»[٦].

من هنا يبدو أن العثمانيين أبقوا على النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في عهد المماليك، حيث كان شعارهم واضحاً في هذا المجال «فرض الطاعة عليهم وجباية الميري منهم». لذلك عمد العثمانيون إلى تكريس سيطرة العائلات اللبنانية على مقاطعاتهم مقابل الولاء لهم، دون إحداث أي تغيير جذري فيها. بمعنى أن السيطرة العثمانية كانت تقتضي عاملين أساسيين: الاعتراف بسلطتهم أولاً وجباية الضرائب ثانياً. وعلى هذا الأساس كانت العلاقة بين «الحاكم والمحكوم».

لكن الجدير بالذكر أن العثمانيين كانوا بحاجة إلى العائلات اللبنانية كما كانت هذه الأخيرة بحاجة إلى السلطة الجديدة لتستمد منها قوتها. وليس صحيحاً ما يشاع

---

(٣) سويد، العقيد ياسين، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٤) يذكر الدكتور فيليب حتي (لبنان في التاريخ ص ٤٣٧) اسم «جمال الدين التنوخي الملقب باليمني تفرقة له عن سائر التنوخيين الذين كانوا ينتمون إلى الحزب القيسي».

(٥) مزهر، يوسف، تاريخ لبنان العام، بيروت، الجزء الأول، ص ٢٥٩.

(**) يشير بعض المؤرخين إلى أن «فخر الدين الأول» لم يكن أكثر من لقب ولا وجود لشخصية تحمل هذا الاسم.

(٦) حتي، فيليب. لبنان في التاريخ، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٨، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

بأن العثمانيين بشخص سلطانهم سليم أقرّوا المعنيين على مقاطعاتهم وقدّموهم على سائر الأمراء اللبنانيين، لأن السلطان العثماني أعجب بخطبة الأمير فخر الدين الأول، ولا كرامة «سواد عيون» المعنيين. فالخطبة كانت بحد ذاتها إعلان ولاء للعثمانيين ومن صلب مبدئهم وشعارهم الذي لم يُخلّوا يوماً بتنفيذه. هذا بالإضافة إلى اشتراك الأمير فخر الدين الأول في مرج دابق، في مقدمة جيش الغزالي وخاير بك، دون أن يحدد أحد من المؤرخين عدد هذا الجيش الذي كان بأمرة الأمير المعني.

ولو لم يكن كذلك، لما كانت عملية مقتل الأمير فخر الدين الأول «ظلماً وخيانة»[٧] بظروف غامضة بعد أن نقم عليه والي دمشق سنة ١٥٤٤ عندما لمس بأن سياسة المعني خرجت عن إطار السيطرة العثمانية، وكانت خرقاً لمبدئهم وشعارهم. فهم معه طالما هو معهم وفق مصلحتهم، لا مصلحته ومصلحة شعبه ـ وإن توافقت بعض الأحيان ـ وعندما يخرج عن هذا الإطار، يصبح في عداد المطلوبين «لعدالتهم وطاعتهم».

وكان من الطبيعي أن ثبات هذه العائلات في أرضها، حمل معه ثباتاً في سيطرتها، بمختلف أشكالها، حتى العائلية منها. كما اتسمت بسمات خاصة انعكست على مجرى حياتها ككل. فالولاء يتّسم في كثير من الأحيان بالضعف والتبعية، ولم يتجاهل العثمانيون ذلك أبداً. ومن هذا المنطلق كانوا يشجعون الخلافات بين المقاطعجيين أنفسهم، ولم يحدّدوا مطلقاً حدود المقاطعة لأي أمير وكذلك سلطته، وذلك من أجل استمرارية الخلاف والخصام بينهم وأضعافهم، حتى إذا بلغ أحدهم مرحلة القوة التي تهدد وجودهم واحتلالهم عمدوا إلى تجريد الحملات عليه، لإرجاعه للطاعة من ناحية أو التخلص منه من ناحية أخرى، كما كانت الحال مع الأمير فخر الدين الثاني.

وجاء الاعتراف العثماني بزعامة الأمراء المعنيين وترئيسهم على سائر الأمراء اللبنانيين و«بحق أبنائهم من بعدهم فيها بحيث تنتقل السلطة من أمير معني إلى أمير معني دون أن يكون لغيرهم من الأمراء الوطنيين يد في الحكم الأعلى»[٨]، جاء ذلك

(٧) حتي، فيليب. المرجع السابق، ص ٤٥٣.

(٨) مزهر، يوسف. المرجع السابق، ص ٢٥٩.

لأحداث الخصومات والانقسامات بين هؤلاء الأمراء وبقاء النير العثماني فوق رقابهم مجتمعين، وهذا ما أدى فيما بعد إلى العداوة التي تأصلت بين المعنيين من ناحية وآل سيفا وآل فريخ من ناحية ثانية. وكانت حادثة عكار عام ١٥٨٤ إحدى علاماتها البارزة، حيث نرى بوضوح أن السلطة التي اعترفت بزعامة المعنيين ومنحتهم المنصب الأول في لبنان، هي ذاتها التي وقفت إلى جانب أعدائهم، وجرّدت الجيوش لتقضي على ما يزيد عن ستين ألفاً من دروز الشوف.

نكبة الشوف ١٥٨٤:

إن بذور العداء التي زرعها العثمانيون بين الأمراء اللبنانيين سرعان ما جنى الشوف ثمارها سنة ١٥٨٤. إذ في هذا العام كانت إحدى القوافل العثمانية تنقل الضرائب من مصر إلى الأستانة براً (لأن الأسطول العثماني كان قد مني بهزيمة ساحقة في معركة ليبانت Lépante أمام الأسطول النمساوي سنة ١٥٧١)، فسطا عليها اللصوص في منطقة عكار الخاضعة لسيطرة الأمير يوسف سيفا[٩]. اتفق هذا الأخير مع الأمير منصور الفريخ صاحب البقاع والجليل ونابلس واتهموا المعنيين بإيواء اللصوص. صدّق العثمانيون التهمة مع أنها باطلة وأرادوا انتهاز الفرصة لإذلال المعنيين والبطش بهم. فأوعزوا إلى إبراهيم باشا والي مصر بجمع العساكر والتوجه إلى لبنان بعد أن «وعده السلطان مراد الثالث أن يزوجه ابنته إذا هو ظفر بقرقماز المعني ودوّخ بلاده»[١٠].

توجّه إبراهيم باشا بجحافله إلى لبنان، وعندما وصل إلى عين صوفر، استدعى إليه عقّال الدروز ووجهاءهم. ولما حضروا، غدر بهم وقتل منهم نحو ستمائة رجل، كما اعتقل من زعماء الدروز الأمير محمد جمال الدين الإرسلاني، والأمير منذر التنوخي[١١] ثم أمر عساكره بنهب البلاد وقتل العباد، «فقتل من الناس، على ما

---

(٩) الدويهي، اسطفان. تاريخ الأزمنة، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٠، ص ٢٨٤.

(١٠) مزهر، يوسف، المرجع السابق، ص ٢٦٠.

(١١) فيليب حتي، المرجع السابق، ص ٤٥٣. ويوسف مزهر، المرجع السابق، ص ٢٦١ نقلاً عن ابن إسباط والدويهي، المرجع السابق، ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

روي، ستين ألف رجل»[١٢]. التجأ الأمير قرقماز بعياله إلى مغارة شقيف تيرون بالقرب من نيحا ومات فيها.

والجدير بالذكر، أن هذه الحملة قتلت ونهبت وقطعت الأشجار وحرقت الزرع ولم تترك البلاد إلا وهي قاع صفصف. وهذا ما حدا بالمؤرخ ماريتي لأن يقول: «ومن فظائع إبراهيم باشا إنه استدعى حاكم دير القمر فحضر إليه مع ثلاثمأية من رجاله فاعتقلهم وسلخ جلد الحاكم وهو حيّ وقطع رؤوس رجاله الثلاثمأية وأرسلها هدية للسلطان وأصبح صهره فيما بعد»[١٣].

وبعد مقتل زوجها قرقماز، خافت الأميرة نسب التنوخية على ولديها فخر الدين الثاني ويونس، من بطش العثمانيين، فأحضرت ـ على ما يروى ـ أحد أخصائها من مشايخ بني هرموش وطلبت منه أن يتوارى بهما في مكان أمين. وكان للشيخ الهرموشي قريب في عاليه من مشايخ بني مصلح يعرف دروز برمانا وبواسطتهم تعرّف على الشدياق سركيس الخازن في انطلياس وذهب إليه بالأميرين فخر الدين ويونس. فاستأجر الخازن قرية بلّونة من أعمال كسروان من امرأة شيعية اسمها «غضيّة الأبيض» وانتقل إليها مع الأميرين وكانت القرية محاطة بالأشجار الكثيفة وبعيدة عن الطريق العام. وبعد ست سنوات على الاختباء، كان قد رحل إبراهيم باشا عن لبنان، وبلغ فخر الدين سن الرشد، فسلّمه الخازني مع أخيه لخالهما سيف الدين التنوخي الذي درّب فخر الدين على السياسة وتدرّج يونس في فنون الحرب، وبرع كل منهما في فنّه. ثم جمع التنوخي أكابر البلاد وأعيانها في سهل السمقانية وألقوا إلى فخر الدين مقاليد الإمارة في الشوف وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، ولكن همته العالية واخلاقه السامية ومطامعه الكبيرة جعلت منه فيما بعد أحد كبار مشاهير الشرق[١٤](*).

(١٢) فيليب حتي، ص ٤٥٣ نقلاً عن الدويهي ص ١٧٨ ـ ١٧٩. حيدر شهاب، الغرر الحسان، ص ٦١٨ ـ ٦١٩.

(١٣) مزهر، يوسف، المرجع السابق ص ٢٦١. وعيسى اسكندر المعلوف. تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، بيروت ١٩٦٦ المطبعة الكاثوليكية، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(١٤) مزهر، يوسف، المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(*) اختلف المؤرخون حول رواية اختباء الأميرين فخر الدين الثاني ويونس، فمنهم من ذكر أن المدبر الحاج كيوان نعمة ضو من دير القمر هو الذي اهتم بأمر إخفائهما، بينما يقول الدكتور يوسف مزهر (ص ٢٦٤)

فخر الدين أمير جبل الدروز (جبل ابن معن):

ولد في بعقلين (حاضرة الشوف السويجاني أو جبل ابن معن أو جبل الدروز وهي مقر الإمارة المعنية) سنة ١٥٧٢. أبوه الأمير قرقماز بن فخر الدين الأول، ووالدته الأميرة نسب التنوخية وأخت الأمير سيف الدين التنوخي.

لقد خبر بنفسه ظلم العثمانيين وغدرهم، كما انطبعت صورة أبيه وجدّه في ذاكرته وحفرت فيها هدف التخلص من سيطرة بني عثمان وحلفائهم في الداخل. وفي الوقت الذي تسلّم فيه مقاليد الحكم عام ١٥٩٠، اتخذ من سياسة أسلافه نهجاً ثابتاً في مناهضة العثمانيين للوصول إلى هدفه في الحرية والاستقلال الناجز. وقد عبّر عن ذلك بوضوح في ردّه على الفرنسيين عندما عرضت عليه الحكومة الفرنسية في عهد الملك لويس الثالث عشر ابن هنري الرابع أن يزور باريس، أثناء وجوده في أوروبا عام ١٦١٧، وتبرّعت أيضاً للتوسط لدى السلطان مراد الرابع للعفو عنه. فرفض هذا العرض الشخصي وفضّل أن يعود إلى بلاده ليطالب بالحرية والاستقلال. وكان قد ردّ على دعوة المملكة الفرنسية بكتاب لطيف قال فيه: «ما ثرت ولا أثور على العثمانيين ليُشفع بي عند سلطانهم بل لأحقق لبلادي السيادة والحرية والاستقلال الناجز»[١٥]. وبالمقابل لقد وضع نصب عينيه هدفاً لا يقل أهمية عن هدفه الأول، والذي يشكل الخطوة الرئيسية على طريق تحقيقه، وهو ضرورة القضاء على الأعداء الألدّاء لأسرته آل سيفا وآل فريخ، وسبب الكارثة التي حلّت بالشوف وقتل من جرائها والده قرقماز. بالإضافة إلى بناء دولة حديثة مستقلة مرتكزة إلى وحدة وطنية صادقة وسليمة.

بعد هذه المرحلة، مرحلة الصراع بين فخر الدين والعثمانيين، استغل البعض

= نقلاً عن تاريخ الشيخ شيبان الخازن المخطوط في دير سيدة بكركي (الوارد اسمه في كتاب المعلوف ص ٥٠) إن رجلاً من بيت أبو هرموش هو الذي «وقعت به والدتهم على إخفاء الأولاد». ومنهم من رأى بأن لا صحة لرواية الأمير فخر الدين عند آل الخازن حيث لم يرد ذكرها عند أي مؤرخ معاصر لفخر الدين وإنما هي من وضع آل الخازن في القرن التاسع عشر كما أشار المؤرخ كمال الصليبي مثلاً (ص ٩٠ ـ ٩٥)، وكذلك ابن إسباط واسطفان الدويهي الخ...

(١٥) تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، تحقيق الدكتور سليم هشي، منشورات المديرية العامة للآثار، قسم الدراسات التاريخية مخطوط رقم ٦٤٦٨، بيروت ١٩٧١، ص ٦٠.

هـدف المعني التحرري الاستقـلالي ليعطيـه طابعـاً بعيداً عن الحقيقـة والواقـع. ذلك عندما وُصف بأنه عمل لإقامة «أمة لبنانية» أو «قومية لبنانية»؛ حتى أن فـولناي volney الفرنسي يطلق على الدروز لقب «أمة»، كما يطلق على فخـر الدين لقب زعيم وحـاكم «الأمـة» «Chef et gouverneur de la nation»[16]. وليس من الصدفـة أن تـطلق هـذه التسميات في الوقت الـذي شكّل فيـه نظام الملل العثـماني منفذاً مهـماً للنفوذ الأوروبي مـدّعياً حمـاية الأقليـات الدينيـة، حيث أعطيت كـل «ملّة» أو «أقلية» مفهـوم «الأمـة» و«الشعب»، ولم تكن هذه المفاهيم بعيدة أبداً عن أهـداف الاستعمار وسيـاسته، حيث شكّلت هذه «الأمم» و«الشعوب» قاعدة ومـرتكزاً دخـل من خلالهـا لتحقيق مخططاتـه الاستعـمارية. ومن هـذا المنـطلق كتب لامـرتـين في كتـابـه «رحلة إلى الشرق»: «إن الشعب الماروني يشكل شعباً على حـدة في الشرق. نكاد نقـول جاليـة أوروبية رميت مصادفة في وسط الصحراء. إنها جالية مكوّنة تماماً، يمكن أن تكون لأوروبـا على تلك الشواطىء الجميلة»[17].

كما أن نابوليون بونابرت ساهم بدوره في هذا المجال عند قيامه بحملتـه الشهيرة على الشرق، وعمل جاهداً لاستـمالة الـدروز إلى جانبـه في عهد الأميـر بشير الشهـابي الثاني، أثناء حصاره لعكا. ومن المعروف أن بونـابرت أرسـل للأمـير هديـة ثمينة هي عبارة عن سيف مذهّب، وكتاباً أطلق فيه على الدروز تسمية «الأمـة»، ومما جـاء فيه: «هزمت جيوشه (الجزار) ودمّرتها بكاملها وأجبرته على الاعتزال في عكـا وانصرفت منذ أول أمس إلى إحكام تطويقه فيها. وقد أسرعت لإطلاعك على ما تقدم لعلمي بما فيه لـك من دواعي السرور والارتياح. فـإن انتصاراتي هـذه قد قضت عـلى طغيان رجـل وحشي كان شراً على الجنس البشري وعلى **الأمة** الدرزية الشجاعة. وفي نيتي أن أحقق استقلال **الأمة الدرزية**، وأخفف عنها الجزية المفروضة عليها، وأعيد إليها مرفأ بيروت

(١٦) Volney, voyage en Egypte et en Syrie, Paris, Monton & co LAHAYE, 1959, Page 230.
فولناي، رحلة في مصر وسوريا، باريس ١٩٥٩، ص ٢٣٠.

(١٧) كوثراني، وجيه. الاتجاهات الاجتماعيـة والسياسيـة في جبل لبنـان والمشرق العربي ١٨٦٠ - ١٩٢٠. معهـد الإنماء العربي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٦، ص ٤٤ - ٥٥.

والمدن الأخرى التي هي بحاجة إليها لتؤمن حرية تجارتها وإتساعها. . . إلخ»(*).

إنطلق فخر الدين من منطلق وطني خالص لتثبيت دعائم حكمه وتقوية سلطته، وتصرّف بحنكة سياسية بالغة أثبت خلالها أنه أكبر أمير في الامبراطورية العثمانية، والرائد الأول للوحدة الوطنية السليمة. جمع حوله رجالاً من مختلف الطوائف اللبنانية حسب ما يعرف اليوم بـ «مجلس شورى»، بعيداً عن الانفراد برأيه، يلجأ في الأوقات الحرجة إلى استشارة أمه ومساعديه، وبنوع من الديمقراطية الحقيقية الهادفة لإنقاذ مواطنيه من نير العثمانيين وظلمهم. وقد عبّر الدكتور عادل إسماعيل عن هذا المجلس بقوله: كان مجلس شوراه يؤلف عادة (بالإضافة إلى أمه «السيدة نسب» التي كانت معينه الأول وصاحبة الفضل الأكبر في نجاحه نظراً لما اشتهرت به من حكمة ورجاحة عقل)، من مجموعة الأعيان في البلاد الذين كان يختارهم لمعاونته، مستنداً في اختياره لهم على الكفاءة والفعالية وصوابية الرأي دون النظر إلى الأصل أو الطائفة أو المذهب، وكان في الشؤون الخطيرة، وخاصة في حالة الحرب، لا يأخذ قراراً دون الرجوع إليهم والاتفاق معهم(١٨). وقد عرف من أعضاء هذا المجلس (عام ١٦١٣): «أخوه الأمير يونس، وأمراء الغرب والشحار التنوخيون، والخازنيون أصحاب كسروان، والحاج كيوان مدبره الخاص، ومشايخ المقاطعات الأربع وغيرهم»(١٩).

كان من أبرز شخصيات السلطنة العثمانية على حد قول الدكتور حتي. كما كانت سياسته الداخلية ترتكز على دعائم ثلاث: الأمن، والإزدهار الاقتصادي، والتسامح الديني، أو عدم الاعتراف بالطائفية(٢٠). فقد ترفّع عن كل ما يمّت للطائفية

(*) الخوري، إميل، إسماعيل، عادل. السياسة الدولية في الشرق العربي. بيروت. دار النشر للسياسة والتاريخ، ١٩٦٠. ج ١، ص ١٢٢. كذلك وصف هنري غيز الشيخ بشير جنبلاط بأنه زعيم الأمة الدرزية (هنري غيز، «بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن» ترجمة مارون عبود. ج ٢. بيروت ١٩٤٩ ص ٥٧).

(١٨) Ismail, Adel. L'histoire du Liban, Tome I, Paris 1955, Page 58-59.

عادل إسماعيل، تاريخ لبنان، الجزء ١، باريس ١٩٥٥، ص ٥٨ ـ ٥٩.

(١٩) الخالدي، أحمد. تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٩، ص ١٧.

(٢٠) حتي، فيليب، المرجع السابق، ص ٤٥٤ و٤٥٦.

والإقليمية والعشائرية بصلة. كما «لم يعرف لبنان في عهده داء إسمه الطائفية، والطائفية منه براء»[٢١].

كان أميراً حكيماً سبّاقاً إلى العدالة الاجتماعية والأخوة والمساواة. وليس مستبعداً إن نادى بها الغرب، من خلاله، بعد مئات السنين. شمل برعايته مختلف الطوائف دون تمييز بين واحد منهم وآخر إلا بقدر محبته وإيمانه وعمله في سبيل الاستقلال والحرية. فلقد تمثل المسلمون من مستشاريه بمؤرخه الخالدي الصفدي، وحسين اليازجي، ومصطفى الشلبي. وكان أبو نادر، أو صافي وإبراهيم الخازن من مستشاريه الموارنة، وإسحق كارو(*) Isaac Caro، وإبراهيم ناحمياس Ibrahim Nahmyas من اليهود[٢٢]. كما لعبت أمه الأميرة نسب الدور المهم في نشاطه السياسي، ومثلت المستشار الأول والمرجع الحكيم في كل أموره وقضاياه.

وخلاصة القول، إنه في ظل فخر الدين، ألّف السنّة والدروز والموارنة والشيعة والكاثوليك واليهود، شعباً واحداً، يعيش معاً جنباً إلى جنب بروح من التضامن الأخوي والاحترام المتبادل[٢٣].

وعلى هذه القاعدة كان بناؤه للجيش الوطني الذي «كان يتألف من اللبنانيين، خاصة من عنصريهم الكبيرين الماروني والدرزي. وذكر الخالدي والدويهي أن بين صفوف هذا الجيش فرقتين من شيعيي الجنوب والبقاع. وبعد سنة ١٦٢٧ التي استولى فيها الأمير على طرابلس والكورة نرى في جانبه فرقة أخرى من الملكيين (الروم الأرثوذكس). أما السنّيون من أهالي صيدا وبيروت وطرابلس والمقاطعات الأخرى فكان لهم مكانة لا تنكر في صفوف هذا الجيش. وكانت هذه الفرق تحارب تحت ألوية أمرائها ومقدميها ومشايخها ويخضع قوادها لأوامر القيادة العامة التي كان يتولاها الأمير

---

(٢١) الأحدب، عزيز. فخر الدين مؤسس لبنان الحديث، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٤، ص ٣٧.

(٢٢) عادل إسماعيل، المرجع السابق، ص ٥٨. Ismail, Adel. op., Page 58.

(٢٣) (puget de saint Pierre. histoire des druses, peuple du Liban, Paris 1763, Page 66.

بيجيه دي سان بيير، تاريخ الدروز، شعب لبنان، باريس ١٧٦٣، ص ٦٦.

أو ابنـه علي وأحيـاناً أخـوه الأمير يـونس. وفي آخر عهـده جعل فخـر الدين أبـا نادر الخازن قائداً عاماً لجيشه»[٢٤].

وفي الوقت الذي عمل فيه العثمانيون عـلى تشجيع الخصـومات وإثـارة النعرات بين اللبنانيين عن طريق خلق «القيسية واليمنية»[*] التي حملهـا الأتراك سـلاحاً فعـالاً، وأذكوا بنارهـا جميع الـطوائف، عمد إلى التقـرب من اليمنيين بـزواجه من ابنـة الأمير جمال الدين الأرسلاني التي ولدت له ابنه البكـر علي، مما عزز مكـانته السيـاسية بـين الأمراء المحليين بمصاهرتـه زعماء الحـزب اليمني في البلاد، مستميـلاً حزبهم، وأصبح صلة الوصل بين القيسيين الذين كان ينتمي إليهم، وبـين اليمنيين خصـوم أجداده في الماضي. وفي الواقع أن هذه المصاهرة كانت لها أبعاد سياسية هامة وضرورية فيما يتعلق بنهجه الهادف للخلاص من ظلـم الأتراك ونيرهم الاحتلالي. ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، حيث تصاهر أيضاً مع الأعداء من آل سيفا، مظهراً براعـة سياسيـة حكيمة في هذه الخطوة ليعزل آل فريخ عن مساندة السيفيين لهم، ويـوجه لهم ضربتـه الموفقـة في سنة ١٥٩٣، والتي تمثلت بإعدام الأمير منصور الفريـخ على يـد صديق فخـر الدين، مراد باشا القبوجي والي دمشق، والذي أصبح فيما بعد صدراً أعظم. ثم تابع ضربتـه بالقضاء على قرقـماز ابن الأمير منصـور الفريـخ في بوارش في البقـاع، بمساعـدة الأمير موسى بن الحرفوش حاكم بعلبك، «فقتل قرقماز على يد هذا الأخير عـام ١٥٩٤»[٢٥]، وسلّم البقـاع لحلفائـه آل حرفـوش. ولم يَـكْتَفِ الأمير المعني بـذلك بـل حالف الأسر الأخرى ودعا أنصاره وحلفاءه للاقتداء به والتقرب من اليمنيين لمواجهة الخطر العثماني الـذي كان في عـز قوتـه واتساعـه. أصاب فخـر الدين بـالسهم الـذي صرع بـه ابن الفريخ، وهو الأول بين سهـامه السيـاسية، أهـدافاً عـديدة، كـان لها شـأن خطير في مشروعه الكبير، وفي حياته، ثـأر لأبيه وذويـه، وتخلص من عدو قـدير، وأضعف ابن سيفا عدوه الآخر، الذي بدأ نجمه بالأفول. ثم تابع سياسته بتـوجيه الضربـة للأمـير يوسف سيفا في سنة ١٥٩٨، عندما كان العثـمانيون منشغلين بحـروبهم في المجر ومـع

(٢٤) مزهر، يوسف. المرجع السابق، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(*) جاء اسمه في كتاب عيسى اسكندر المعلوف (ص ١١٣) دون ذكر اسم عائلته.

(٢٥) المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج ٤، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

الشاه عباس ملك العجم. وانتصر عليه واستولى على كسروان وبيروت ثم أرجعهما إليه بعد أن توسط الأمير محمد الأرسلاني، وحتى لا يغضب حلفاؤه الأرسلانيون. و«في هذه السنة، كتب المعني «الأخ العزيز» إلى أبي صقر إبراهيم وإلى شقيقه أبي صافي رباح الخازنيين فصارا شيخين حسب العادة في كتابة الحاكم للرعية»[٢٦].

رغم هذه السماحة التي تحلى بها فخر الدين، إلا أن يوسف سيفا لم يتخلّ عن عداوته وحقده. فأرسل في سنة ١٦٠٠ الشيخين قانصوه ويوسف حمادة الشيعيين فقتلا مقدّمي جاج الأربعة لأنهم كانوا حلفاء المعني، وولى الحماديين مقاطعة جبيل مكافأة لهم على ذلك، وهذا ما أدى إلى ازدياد العداء بين الفريقين حتى كانت سنة ١٦٠٥ التي حدثت فيها معركة جونيه هزم على أثرها يوسف سيفا هزيمة منكرة، وولى فخر الدين أبا نادر الخازن حكم كسروان والشيخ يوسف المسلماني(*) حكم غزير والأمير منذر التنوخي نسيبه ولاية بيروت.

لم تكن مقاطعة الشوف لترضي الطموح الكبير لأمير كفخر الدين. فكان لا بد من استخدام السيف بيد، والعطاء باليد الأخرى. ومن خلالها بلغت سلطته ونفوذه ما بلغته من الاتساع حتى شملت سنجقيات وولايات متعدّدة بالإضافة للمقاطعات اللبنانية. فبالسيف والقوة، استطاع توحيد المقاطعات وإخضاعها لسلطانه. أما الولايات والسنجقيات فقد كانت الرشوة طريقه في الحصول عليها، لأنها كانت ككل السلع المعروضة في أسواق الآستانة، بالمزاد العلني، ومن يدفع أكثر، يحصل على ما يريد من دكاكين السلاطين والولاة من بني عثمان. فكان «يشتري ضمائر موظفي الدولة، أولئك الذين كانوا جميعهم، من الوزير الأعظم إلى أقل آغا، عرضة للبيع، ولا يهمّهم إلا الثمن»[٢٧]. بعد ذلك، كانت الضربات المؤلمة التي وجهها فخر الدين

---

(٢٦) عيسى اسكندر المعلوف، المرجع السابق، ص ٦٦، ويوسف مزهر، ص ٢٦٩.

(*) قال الأستاذ سليمان بك أبو عز الدين في رسالة إلى الأمير شكيب أرسلان بتاريخ ١١ تشرين الأول سنة ١٩٣٠، ص ٧ (موجودة في مكتبة المرحوم عارف النكدي): «لم أعثر على انقسام دروز لبنان أو الدروز عموماً إلى قيسية ويمنية قبل الفتح العثماني».

(٢٧) سويد، العقيد ياسين. التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية، الجزء ١، ص ١٧٤ نقلاً عن Lammens. La syrie, précis historique, Tome 2 , Page 86.

لخصومه، انطلاقاً من المركز الحربي الممتاز لبلاده في الشوف، بمثابة الشعلة التي ألفتت أنظار العثمانيين وحرّكت الحقد والضغينة في قلوبهم وتوجسوا خيفة من توسّع المعني وقوته ودهائه السياسي.

في هذا الوقت، كان علي باشا جانبولاد قد أعلن عصيانه في مملكته كلّس، قرب حلب، ضد بني عثمان. فانتهز فخر الدين ذلك ليعلن تحالفه مع خصوم السلطنة وفي مقدمتهم جانبولاد. كما كانت أوروبا، وتوسكانا خاصة، تتطلع للشرق بنفس العين التي تطلعت بها إليه عندما هاجمته «صليبياً»، طامعة في بسط سيطرتها عليه والتجارة معه، وتحقق حلمها في الوقت الذي نجحت فيه بعقد اتفاق مع جانبولاد أمّن لها وضعاً جديداً في هذه البلاد. لكن الهزيمة التي مني بها الجانبولاديون أمام جحافل السلطنة، أدّت إلى خسارة حليف قوي لفخر الدين المعني، ودفعته لإقامة معاهدة مع توسكانا يستطيع من خلالها أن يصمد في وجه العثمانيين، أعدائه الألدّاء على الصعيد الخارجي.

وانطلاقاً من ذلك، «عقد المعني معاهدة تجارية مع فردينان الأول دوق توسكانا من آل مديسيس (الطبيب) في سنة ١٦٠٨»[٢٨].

وفي السنة التالية، أي ١٦٠٩، جدّد علاقاته بصورة أوثق مع توسكانا عندما عقد معاهدة تجارية حربية مع الدوق قوزما الثاني ابن فرديناند، فجمع فيها بين الاقتصاد والحرب، محققاً شهرة فائقة وجرأة وشجاعة كبيرتين، لأنها دخلت في باب التحدي المباشر مع السلطان العثماني، إذ أن مثل هذه المعاهدات كانت من حق الدول وحدها. وعندما كان فخر الدين، أحد حكام السلطنة، وتابعاً لنفوذها وسلطانها، كان اقدامه على مثل هذه الخطوة بمثابة الإنذار الخطير الذي اخترق حدود الإمارة المعنية ليدق آذان السلطان ملفتاً نظره إلى الخطورة الكامنة في الإقدام على هذا التحدي الذي تجاوز شخصية السلطان نفسه إلى السلطنة ككل.

يضاف إلى ذلك، أن المعني إنحاز إلى جانب علي باشا جانبولاد في تمرده وعصيانه وثورته التي كلفت العثمانيين غالياً قبل إخمادها. وكان قد نجح في إزاحة

---

(٢٨) المعلوف، عيسى اسكندر، المرجع السابق، ص ٩٠.

العقبة الداخلية التي كانت تقف حجر عثرة أمام تحقيق مشروعه الكبير، والمتمثلة بتحالف آل سيفا وآل فريخ. وجاء وجود أحمد باشا الحافظ، عدو فخر الدين اللدود، على رأس ولاية دمشق، الورقة الرابحة في يد السلطنة للاقتصاص من الأمير المعني، بعد أن «توفي صديقه الصدر الأعظم مراد باشا في تموز ١٦١١، وحزن عليه الأمير فخر الدين كثيراً، وتولى نصوح باشا مكانه منصب الصدارة، وكان معادياً له وموالياً للحافظ وابن سيفا»[٢٩].

وبالرغم من الأموال والهدايا التي أرسلها إليه الأمير فخر الدين، إلا أنه أصرّ على قتاله بتحريض من أحمد باشا الحافظ: كما فشلت جميع الوساطات الأخرى بما فيها وساطة الوفد الذي أرسله إلى الحافظ من «مشايخ صفد وصيدا وبيروت بينهم الشيخ أحمد الخالدي مؤلف (تاريخه)[*]، مصحوبين برسائل إلى الحافظ والقواد (الباشوات) وقاضي الشام وعلمائها ليصلحوا ذات البين فتخاذلوا وعادوا بالفشل. وقال لهم الحافظ: «المعني مراده الصلح ولكن لو ملأ هذه الخيمة ذهباً لا يمكن ذلك ما لم يَدُسْ على هذا البساط وحق نعمة السلطان لئن جاء إلى هنا لأقررنّ عليه بلاده وأنعم عليه بما لم يحصل لأحد من قبله»[٣٠]. وكان الأمير فخر الدين يدرك غدر الولاة وألاعيبهم، كما تيّقن أن الأمر خطير جداً وهم مصمّمون على التخلص منه والقضاء عليه، ولهذا لم يقابل الحافظ.

وكانت حملته ضد المعني سنة ١٦١٣، التي دفعت بالأمير فخر الدين للسفر إلى توسكانا تاركاً أمور الحكم في يد أمه الأميرة نسب وأخيه يونس، لا كما يشير بيجيه دي سان بيير والعقيد ياسين سويد[٣١] بأنه سلّم ولده علي مقاليد الأمور، ذلك لأن هذا الأخير كان في عكا يومها.

---

(٢٩) المعلوف، عيسى اسكندر. المرجع السابق، ص ٩٣.

(*) جاء في تاريخ الخالدي: «جاء رجل يسمى مخائيل من قرايب الشيخ يوسف المسلماني» مما يدل أن المذكور مسيحي ولعله ماروني. (يوسف مزهر، ص ٢٦٩) وعيسى اسكندر المعلوف، ص ٧٠ و٧١ و٧٤.

(٣٠) المعلوف، ص ١٠٤.

(٣١) بيجيه دي سان بيير، الدولة الدرزية، ترجمة حافظ أبو مصلح، بيروت ١٩٦٧، ص ٦٠ والعقيد سويد المرجع السابق، ص ١٥٨ و٢٠٢ و٢٧٥.

ومن الجدير بالذكر، أن الشهابيين الذين ارتبطوا بالمعنيين منذ وجودهم في لبنان، وتصاهروا معهم، كانوا بقوة كبيرة، في صفوف الحملة إلى جانب والي دمشق أحمد باشا الحافظ، ووجهوا لرجال فخر الدين ضربة ساحقة على جسر المجامع. وذكر المعلوف أنه «عندما وصلت العساكر إلى بلاد الشام رحل الحافظ إلى المفقر في تلك المرحلة وسار إليه الأمراء يونس الحرفوشي حاكم بعلبك والبقاع وأحمد وعلي الشهابيان حاكما وادي التيم فقابلوه وهو في المعسكر»[٣٢]. بينما يتناقض المعلوف مع نفسه عندما يذكر في مكان آخر[٣٣] بأن الأمير علي الشهابي كان إلى جانب المعنيين أثناء حملة والي دمشق الحافظ عام ١٦١٣، كما يؤكد ذلك العقيد سويد[٣٤]. إلا أن أحد الأمراء الشهابيين يقول بأنه «في سنة ١٦١٣ انضم الأمير أحمد الشهابي إلى أحمد باشا الحافظ والي دمشق، حيث جمع ماله من الرجال وقدم على الحافظ وانضم إليه وجعل يقدم للوزير الخدمة تلو الخدمة فانسرّ (فسرّ) الوزير غاية السرور وكتب الأمير أحمد إلى الأمير يونس الحرفوش بالقدوم إلى دمشق والدخول في طاعة الحافظ ذاكراً له وفرة العساكر وشدّة الاهتمام الحاصل لزوال آل معن»[٣٥] ذاكراً موقعة جسر المجامع والقضاء على رجال الأمير فخر الدين فيها، كما أمر بنقل عاصمته من بعقلين إلى دير القمر.

وهكذا جاء لجوء فخر الدين إلى أوروبا تحقيقاً للحلم الذي راود أحفاد الصليبيين فترة طويلة. ورغم الجهود المتواصلة التي بذلت في هذا السبيل، إلا أنها ووجهت بعزيمة المعني وإرادته القوية ورفضه لمشاريعهم المتعددة الأساليب والأهداف. وكان تقاعسهم عن نجدته في الأوقات العصيبة، وليد هذا الرفض ونتيجة له، وفشل بالتالي في الحصول على الإمدادات العسكرية اللازمة لمواجهة العثمانيين والوقوف في وجههم.

إلا أن هذا الفشل لم يثنه أبداً عن معاينة جميع مظاهر الحضارة الأوروبية عن

---

(٣٢) المعلوف، عيسى اسكندر. المرجع نفسه، ص ١٠٢.

(٣٣) المعلوف، ص ٧٤.

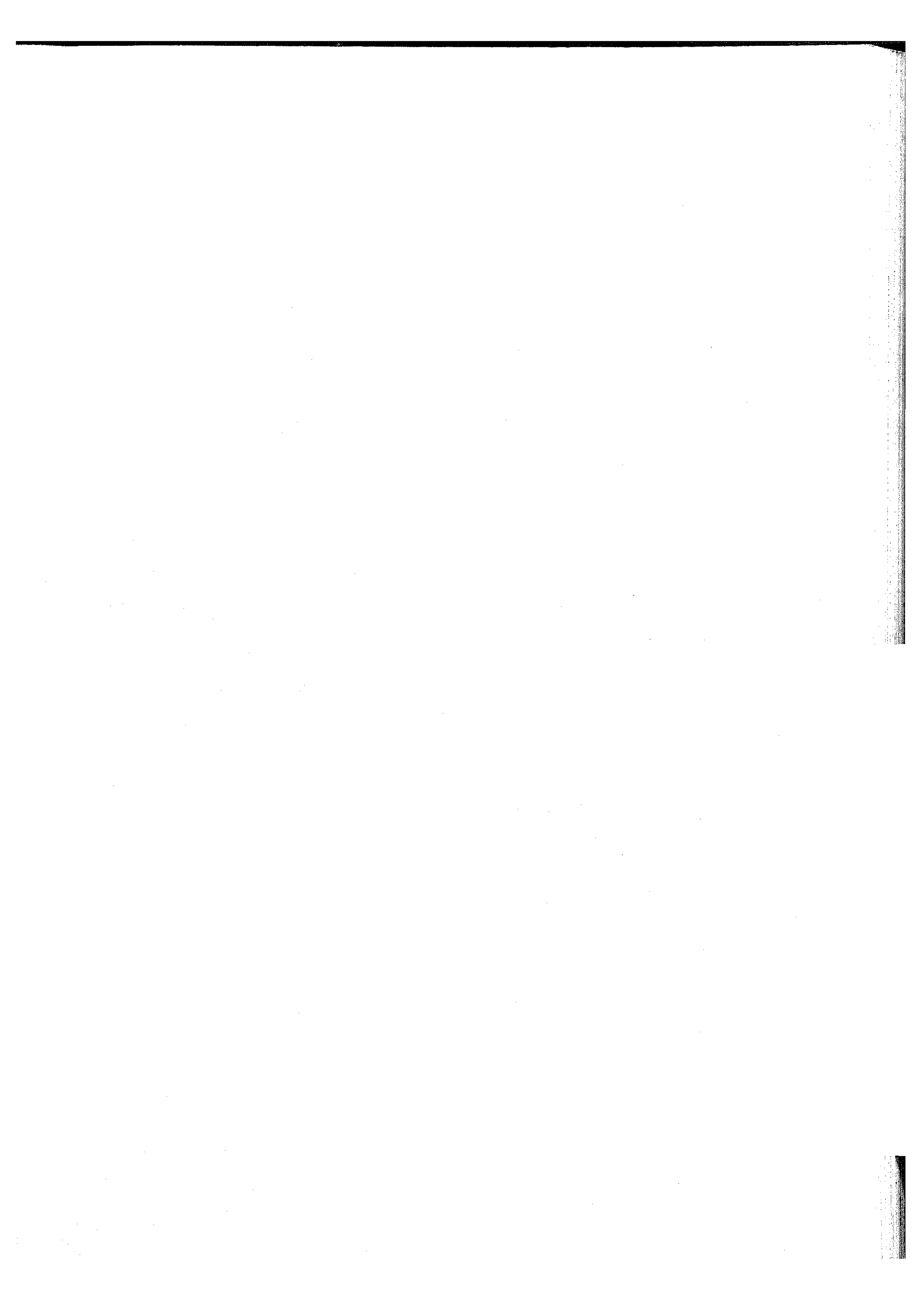
(٣٤) سويد، العقيد ياسين، المرجع نفسه، ص ١٥٨.

(٣٥) تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، تحقيق الدكتور سليم هشي، بيروت ١٩٧١، ص ٥٠ ـ ٥١.

كتب، في الوقت الذي شهدت فيه إيطاليا بالتحديد ولادة النهضة الحضارية بمختلف وجوهها وصورها. وكان بارعاً في تجاوز فشله العسكري (على الصعيد الأوروبي) ومثبتاً جدارته وأهليته للقيادة العسكرية والسياسية والحضارية مجتمعة، تجسّدت في إنجازاته على هذه الصعد بعد عودته من أوروبا عام ١٦١٨، حتى فترة اعتقاله سنة ١٦٣٣، وليس ضرورياً إعادة تسجيل هذه الإنجازات حيث تطرقت إليها مصادر ومؤلفات عديدة، كان منها مؤلَّف مؤرخه الشيخ أحمد الخالدي، وتاريخ المعلوف والأب قرألي وماريتي وغيرها كثير.

إلا أن الجدير تسجيله، هو موقف فخر الدين المقاوم للغرب الصليبي ومشاريعه في الوقت الذي كان فيه لاجئاً. ولا يقل موقفه هذا بطولة ورجولة عن موقف أجداده وبني قومه الدروز المناهض للصليبيين يوم أتوا بلاد الشرق غزاة فاتحين. لقد سجل في الواقع صفحة مشرقة في تاريخ الشرق تضاف إلى الصفحات التي سطرتها دماء الدروز، ورسمتها شفرات سيوفهم في وجه صليبيي القرون الوسطى، مكرساً بموقفه هذا انتماء بني قومه إلى العرب الأقحاح، ومحطماً خرافة الفرنجة ودسيستهم الصليبية.

إنه التشبّث الصادق بالأصالة العربية، ومعاداة متأصلة وراسخة لمخططات الغربيين وسياستهم الاستعمارية الاستيطانية. وقد أثبت ذلك كثير من المؤرخين كان المقريزي ومحمد كرد علي في مقدمتهم.



الفصل الرابع

التركيز الأوروبي على فخر الدين

رغم الهزيمة الكبرى التي مني بها الصليبيون في بلاد الشرق، وبصورة خاصة في معركة حطين سنة ١١٨٧، والتي حملت معها رحيلهم المخزي إلى البلاد التي ودّعتهم غزاة واستقبلهم مهزومين خائبين، يجرون ذيول الخيبة المريرة وحسرة العودة للديار المقدسة في الفرصة المناسبة. . . رغم ذلك، بقيت صورة الشرق وكنوزه وموقعه علامة بارزة لا تفارق مخيلتهم، كما طبعته في مخيلات أبنائهم وأحفادهم من بعدهم. وبقيت أسباب الحملات وعواملها محور الاهتمام البالغ لجميع تحركاتهم.

ومن الجدير بالذكر، إن هؤلاء الصليبيين الذين خبروا كثيراً من المعارك مع الموحدين الدروز في مختلف مناطق تواجدهم، جعلوا هذه المواقع تحفر في ذاكرة الفرنجة وأبنائهم وأحفادهم، سجلات حافلة بـ «وصايا صليبية» تضع الموحدين على رأس القائمة التي سجّلت فيها أسماء الأعداء والأولويات المستوجبة للتنفيذ. وظنّ الصليبيون الجدد، أن الأمير فخر الدين المعني وحركته المناوئة للعثمانيين الذين يذلّون صليبيي القرن السادس عشر والسابع عشر في عقر دارهم، ظنوا بأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة التي يستطاع من خلالها إعادة الشرق إلى صليبيّتهم والتخلص من «شرور السيطرة الإسلامية»، بعد أن دقّ العثمانيون أبواب فيينا في الدخول إلى أوروبا. هذا في الوقت الذي كانت تتردد فيه الدعوة لحرب صليبية جديدة في البلاطات الأوروبية، مثّلت فيه البابوية وتوسكانا وإسبانيا والبرتغال، بالإضافة إلى فرنسا وبريطانيا، المحرّك والدافع في هذا الاتجاه. بيد أن الدوافع الاقتصادية والسياسية ـ والمذهبية علناً ـ كانت تكمن وراى كل تحرك غربي في هذه الدعوة الجديدة.

وإن أخذ هذا التحرك طابعاً جديداً في الدعوة الصليبية، إلا أن «العين» الغربية كانت تستند في نظرتها إلى الشرق، لنفس المقومات والأسس التي انطلقت منها حملات أسلافهم. وليس مستغرباً أن ترفع البابوية ذاتها لواء الدعوة الجديدة ـ القديمة لتشكل حلفاً من الدول الأوروبية ذاتها التي شاركت سابقاً في الاعداد والتنفيذ لبسط نفوذها وسيطرتها على الشرق بحجج مختلفة.

على هذا الأساس بدأ الأخطبوط الصليبي الجديد في التحرك وبمختلف الوسائل. وجاء الحلف الجنبلاطي ـ المعني في الشرق ضد العثمانيين بمثابة الثغرة التي تسلّلت منها القوى الغربية في العمل لما تصبو إليه، مدّعية دعم الحلف المعادي للسلطنة لفتح الطريق أمام توسكانا والبابوية إلى بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس. وكان من الطبيعي، بعد النكبة التي مني بها علي جنبلاط حليف فخر الدين على أيدي العثمانيين في حلب أن يحوّل دوق توسكانا، فرديناند الأول، اهتمامه ونشاطه باتجاه الإمارة المعنية. ومثّلت رسالته إلى الأمير فخر الدين في ٢٢ ك٢ ١٦٠٧[١]، الخطوة التمهيدية الهامة على هذا الطريق، توّجتها معاهدة توسكانا فيما بعد، والتي أعطي فرديناند بموجبها حرية التجارة في الشرق مع حماية رعاياه وتسهيل مهماتهم التي تعدّت الناحية التجارية لتشمل نواحٍ أخرى ضمن الخطة الأوروبية المرسومة بتخطيط ودقة متناهيتين.

ويعتبر فرديناند الأول من أهمّ حكّام توسكانا من آل مدتشي (الطبيب) (١٥٨٧ ـ ١٦٠٩). «كان اليد اليمنى للبابا غريغوريوس الثالث عشر في مشاريعه السياسية والدينية. ولما توفي أخوه فرنسيس غراندوق توسكانا بلا عقب رأى أن يتبوّأ عرش أجداده مكانه فينفسح له المجال للعمل في مشاريعه الشرقية... وكان فرديناند يحلم بكسر شوكة الأتراك ونزع الأراضي المقدَّسة من أيديهم واحتلال قبرص ودمشق وما وراء ذلك من التوسع في النفوذ والمعاملات التجارية»[٢]. كما أنه كان «كاردينالاً

---

(١) قرألي، بولس. الأمير فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان ودولة توسكانا (١٦٠٥ ـ ١٦٣٥)، الجزء الثاني رومية ١٩٣٨، ص ١٦٦.

(٢) مزهر، يوسف. المرجع السابق، ص ٢٧٥.

قبل أن يتولّى الحكم»[3]، مما خلق لديه قناعة تامة بأن مهمته الأساسية، وواجبه الأولي، الاهتمام بإعادة مجد الصليبية إلى سابق عهدها في مواجهة المسلمين. كما كان يولي النشاط الاقتصادي المكانة الأولى في حياته، حيث أنشأ ميناء ليفورنو، وهو المرفأ الأول الذي حطَّ فيه فخر الدين رحاله سنة ١٦١٣، ملتجئاً إليه ومستنجداً به وبحلفائه. وكان الوجه العلني للمعاهدة مع الأمير المعني ينطلق أساساً من هذا الاعتبار، دون غيره. ومن الممكن أن علاقة فخر الدين مع فرنسا تعود إلى فرديناند ذاته حيث كان يحتلّ مكانة مرموقة في البلاط الفرنسي بعد أن تزوَّج هنري الرابع من ماري دي مدتشي في عام ١٦٠١، والتي لعبت دوراً هاماً في توجيه سياسة فرنسا بعد أن صرع زوجها في سنة ١٦١٠، كما غصَّ البلاط الفرنسي بالتوسكانيين. وشكَّلت هذه العلاقة مع فخر الدين المعني منفذاً حاول منه الغربيون استخدام العامل الديني كسلاح يقف إلى جانب سلاحهم الاقتصادي المضمون باتفاق مكتوب بين الجانبين. كما استغلوا سياسة فخر الدين في العطف على المسيحيين، محاولين تنصيره ابتداء من سنة ١٦٠٩، واستخدامه في الوقوف إلى جانبهم للوصول إلى بيت المقدس في محاولتهم الصليبية الجديدة. وقد أخذ البابا بولس الخامس (Paul V) هذا الأمر على عاتقه في رسالته إلى الأمير المعني، المؤرَّخة في ١٦ كانون الثاني عام ١٦٠٩[4]، بالاتفاق مع القوى الأوروبية ضد الدولة العثمانية. وتضمَّنت هذه الرسالة «نوعاً من الدعوة الموجَّهة إلى فخر الدين للتحوّل إلى المسيحية»[5]. وجاءت مناسبة فراره إلى أوروبا عام ١٦١٣ من وجه أحمد باشا الحافظ، بمثابة المدخل المهم الذي تسلَّلوا عبره لوضع فخر الدين تحت الأمر الواقع. وهذا ما حدا بملك اسبانيا أن يعرض عليه «ولاية تضاهي في اتساعها الولاية التي أعطاها له سلطان المسلمين» شرط أن يعتنق المسيحية. وكان جواب الأمير مقتضباً: «ما جينا لا كرامة دين ولا كرامة حكم أو حكومة، إنما جئنا للحماية»[6]. هذا الموقف الجريء، بالإضافة إلى وقفته الأخرى عندما أراد نسف نفسه

---

(٣) نوار، عبد العزيز سليمان. وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧ - ١٩٢٠. بيروت ١٩٧٤. ص ٤١.

(٤) مزهر، يوسف، المرجع السابق، ٢٧٨ - ٢٧٩. وقرألي. الجزء ٢، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٥) نوار، عبد العزيز سليمان، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٦) الخالدي، أحمد، المصدر السابق، ص ٢٣٦. ومحمد كرد علي، خطط الشام، الجزء الثاني، ص ٢٦٥.

مع أسرته في المركب تخلّصاً من القيود الثقيلة التي رزح تحتها، حيث أصبح ورقة ابتزاز في يد هذه القوى الأوروبية ضد السلطنة، كل ذلك أدّى إلى إفشال خطتها وعزفها عن مساعدته فيما بعد، إلا بما يحفظ لها ماء الوجه.

إنه الإدراك الواعي بأن السيطرة الصليبية على بيت المقدس، هي بحد ذاتها تخلّص من احتلال تركي والوقوع في شرك سيطرة أخرى أقسى وأشد، كما تكمن فيها عوامل القضاء على النزعة التحررية الاستقلالية التي عمل لها طويلاً ضد السلطنة العثمانية وهي في أوج عظمتها وقوتها. لهذا السبب وزّع علاقاته على دول أوروبية عديدة ولم يحصرها في واحدة، لأن حصرها يعني التبعية لها والوقوع في شرك مخططاتها منفِّذاً لكل ما يطلب إليه دون استطاعته على التلكؤ أو الرفض.

وهكذا مثّل فخر الدين بسياسته الدولية موقف السلطان وموقعه أيضاً في تعامله مع الدول الأوروبية، على صعيد المعاهدات والعلاقات الثنائية، ممثِّلاً بخطوته الجريئة هذه خرقاً لقانون السلطنة، وتجاوزاً لدوره وسلطته كحاكم تابع لها. وقبل ذلك، كان قد طبّق سياسة التسامح الديني على الصعيد العملي في أرجاء إمارته، مكرِّساً المساواة بين جميع رعاياه اللبنانيين دون تفريق أو تمييز بين درزي ومسلم ومسيحي ويهودي، في الوقت الذي كان فيه التعصب المذهبي سنّة عثمانية حرمت بموجبها غير المسلم من جميع الحقوق والامتيازات الممنوحة للمسلمين، وعدَّته من «أهل الذمّة». بينما «أصبح الذمّي» في عهد فخر الدين، خلافاً لما كانت عليه الحال في باقي أرجاء الامبراطورية العثمانية، مساوياً في الحقوق والواجبات للمسلم أياً كان مذهبه، فهو، مثله، يقاتل دفاعاً عن الأرض والوطن ويدفع الضريبة بدل الجزية»[٧].

نجح فخر الدين نجاحاً باهراً في دبلوماسيته هذه، مع رعاياه ومع الأجانب، مما أثار مخاوف السلطان وولاته، وكان سبباً في النقمة عليه والاقتصاص منه. هذا من جهة، أما من جهة أخرى فقد كان لسياسته الداخلية والخارجية هذه تأثيرها على

(٧) سويد، العقيد ياسين، المرجع السابق، ص ١٦٦.

أوروبا التي حاولت تجييرها لمصلحتها البعيدة عن أهداف المعني وطموحاته. ولهذا عمدت الدول الأوروبية إلى تحقيق مطامعها في الشرق عبر سياسة مرنة، سرعان ما كشف أبعادها الأمير فخر الدين، كي تصيب أهدافاً عديدة بحجر واحد من خلال استخدام الأمير المعني أداة الوصول إلى ما تبغي إليه.

لقد اعتقدت بأن فخر الدين نسي تاريخ آبائه وأجداده في مقارعة الصليبيين، لتجسِّد من خلاله «خرافة» انتسابه وبني قومه إلى الكونت درو Dreux، وتصل عبره وبمساعدته لإعادة بسط نفوذها وسيطرتها على الشرق، وعلى الأماكن المقدَّسة بصورة خاصة. إلا أنه كان ظاهرة شاذة في السلطنة العثمانية.

إزاء ذلك، كانت الدول الأوروبية بزعامة البابا، تعمل على نقل خطتها الدقيقة والمدروسة في إخضاع بيت المقدس، إلى حيِّز التنفيذ بالتعاون مع حليف داخلي قوي عدو للسلطنة، فوجدت ضالّتها في الأمير فخر الدين الذي خيَّب ظنّها وأبطل مشاريعها، فاستنكفت عن مساعدته ودعمه.

بعد فشلها في استمالته وتجيير تمرّده لصالحها، يبدو أنها ساهمت ـ وإن بطريقة مباشرة أم غير مباشرة ـ بتلفيق التهم والتجريح به، ناسبين له القول «بأن فخر الدين أراد أن يعيد مملكة أورشليم الصليبية»[٨]. وقد أشير إلى شيء من هذا القبيل عندما ألبسوا فخر الدين ثوباً لم يفكِّر يوماً في ارتدائه، وقيل عنه أقوالاً من المؤكَّد أنه لم يقلها. كما يشار إلى سفارة المطران جرجس مارون أسقف قبرص وقاصد البطريرك يوحنا مخلوف عندما كلِّف بتوقيع معاهدة ضد الأتراك مع توسكانا. وذكر الدكتور يوسف مزهر ذلك قائلاً بأن «المطران جرجس مارون كان حاملاً في صدره مشروعاً خطيراً (مخالفاً للرسالتين اللتين حمَّله إياهما البطريرك إلى الغراندوق قوزما الثاني وإلى والدته الغراندوقة ماريا كريستينا) عرضه على الكرسي الرسولي وشرحه في تقرير خطي قدَّمه إلى الغراندوق وملخصه: «إن الأمير (فخر الدين) اجتمع بالبطريرك أثناء زيارة هذا الأخير الرعائية على مقربة من صيدا وصور، وقال بأنه سمع بسلطة البابا على

(٨) قرألي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٥٤.

الأمراء المسيحيين فإذا كان لـه رغبة في استخـلاص الأراضي المقدسـة فهو مستعـد أن يناصره بكل قواه»[٩].

ومن المؤكَّد أن الدول الأوروبيـة، بزعـامة البـابا، كـانت مصمِّمة عـلى تجديـد الحملات الصليبية على الشرق. وأكد السفير ليونشيني لـلأمير فخـر الدين «أن رغبـة الأمراء المسيحيين في استرجاع الأراضي المقدسة غير ناجمـة عن طمع في التـوسع، بـل جلّ مرامهم أن يسهِّلوا عـلى الحجاج المسيحيـين زيارة الأمـاكن المقدسـة، كما أكَّـد له رغبـة الغرانـدوق أن يراه يـوماً ملكـاً عـلى سـوريـا، كـاسـراً شـوكـة الامـبراطـوريـة العثمانية»[١٠].

وبصورة أوضح، وبكثير من الدس والتجـريح، يكتب الأب قـرألي بأن الأمـير فخر الدين «أبدى استعداده عند لجوئه إلى توسكانا أن يقود بنفسه الحملة التي يجهِّـزها الأمراء المسيحيون، فيحتل أورشليم وطرابلس ويسلِّمها إليهم، كذلك دمشق»[١١].

إلا أن قرألي ذاته، سرعان ما يتناقض مع نفسه عندما ذكر بأن الغراندوق قوزما الثاني بن فرديناند الأول الذي كان توفي عام ١٦٠٩، بعد أن أرسل بعثة تحرَّت أحوال الأمير في بلاده ـ بعثة سانتي ومـاشنجي ـ عرض، فـي ١٤ نيسـان ١٦١٤، على الأمـير من جـديد المشروع الـذي سبق وعـرضـه والـده عليـه وهـو الاستيـلاء عـلى الأراضي المقدسة، فاعتذر الأمير بلباقة «لأن الوقت اللازم للحملة أصبح ضيِّقاً، وجلّ مـا يفكِّر فيه الآن هو الركوب وحده إلى لبنان لتخليص بعض ذويه ومقتنياتـه وتشجيع رعـاياه، وعاد مندوبو الغراندوق في اليوم التالي ليكرِّروا العرض على الأمير فكرَّر الأمير الجواب نفسه معتذراً عن القبول بالمشروع، وظلَّ الأمير يتهرَّب من القبول بـالمشروع طيلة مدة إقامته بتوسكانا»[١٢].

من هنـا يتبينَّ بكـل وضوح، أن رفض الأمـير فخر الـدين لهـذا العـرض، كـما رفض محاولة سلطان اسبانيا بإقناعه لتغيير مذهبه وإقطاعه إحدى الـولايات في أوروبـا،

---

(٩) يوسف مزهر، الجزء الأول، ص ٢٨١.

(١٠) قرألي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٣.

(١١) قرألي، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٨٩.

(١٢) قرألي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢١٧.

كان الدافع الأساس إلى إهمال وجوده في توسكانا حتى اضطر أخيراً إلى بيع حلى زوجته لكي يعيش، كما حاولوا بالتالي منعه من مغادرة البلاد خشية أن ينقل إلى السلطنة أسرار دوقيّتهم[13] مما حدا به إلى التهديد بنسف نفسه وأسرته في المركب في عرض البحر، إن لم يسمح له بالعودة إلى بلاده.

وكان لا بدّ إزاء هذا الفشل الذي لقيته أوروبا، وعلى رأسها توسكانا، (بسبب غاياتها وأهدافها السياسية والاقتصادية) من تبرير هذا الفشل، فعمدت بلسان أحد «موظفيها المخلصين»، ماريتي الإيطالي، بإلقاء تبعة هذا المشروع على العامة والجهّال من الأوروبيين، وعبّر عن ذلك بقوله «بأن فكرة احتلال بيت المقدس لم تكن سوى وسيلة لإقناع بلاط روما لتأييد غايات توسكانا السياسية والاقتصادية، وتهدئة شعور الجهّال الذين ربما يرون بأن المبالغ التي تصرف لإرضاء أمير تختلف ديانته عن ديانتهم ليست إلا تبذيراً». ويضيف قائلاً: «بعد هذا التوضيح، سنكفّ عن الكلام عن هذا الموضوع الذي خلقه خيال العامة وتداوله من يجهل أمور مجلس الوزراء، والذي لم يكذّبه هذا المجلس لغايات سياسية»[14].

ارتباط بعض الأسر المسيحية بالبابوية والغرب:

في هذا الإطار، يبدو من الضروري التركيز على بعض الحقائق التاريخية من خلال الدراسة الواعية، العميقة والجدية، للتاريخ اللبناني. إذ أن الواقع يشير بكل صدق إلى الفضل الأكبر للدروز في وصول مسيحيي لبنان ـ والموارنة خاصة ـ إلى ما وصلوا إليه على كل الصعد: الاقتصادية، العسكرية، الاجتماعية، الثقافية والدينية، ولو مورست ضدهم الضغوط التي كان يعيشها المسيحيون في مناطق أخرى من السلطنة العثمانية، لما توصلوا إلى ما يتمتّعون به من امتيازات. لكن سياسة التسامح الدرزي معهم انقلبت في النهاية على مستقبل لبنان ككل، متجاوزاً الطائفة الدرزية إلى جميع الطوائف الأخرى في أرضه.

ومع الإقرار بحاجة الدروز إلى اليد الزراعية في تلك الفترة، إلّا أنهم لم يكتفوا

(13) الخالدي، أحمد، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(14) سويد، العقيد ياسين، المرجع السابق، ص ١٨٣ نقلاً عن «ماريتي» ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

Volney (ص ٢٢١) شرح بشكل وافٍ دور هذه المدرسة وفعالية خرِّيجيها في مختلف المجالات. وأسهم بعض هؤلاء بعد رجوعهم في تأسيس المدارس النظامية في القرى، اشتهر من بينها مدرسة عين ورقة، التي أُنشئت سنة ١٧٨٩ والمتوافقة مع تاريخ الثورة الفرنسية.

ومن المتفق عليه، أن فخر الدين الثاني كان منارة حضارية في ليل عثماني مظلم مثّل فيه دخول أول مطبعة إلى الشرق العربي نقطة الحضارة والمنطلق الهام لتحطيم الكثير من حواجز الجهل العثمانية. تلك هي مطبعة دير قزحيا سنة ١٦١٠، أقدم مطبعة دخلت لبنان، لا بل إلى الشرق الأدنى كله. لهذا كله، يعتبر الأمير فخر الدين المعني الثاني «حامل مشعل الحرية والاستقلال، ومنفِّذ فكرة الوحدة الوطنية في بلادنا»[١٦]. لقد زرع الروح الوطنية الصادقة في نفوس اللبنانيين من مختلف الطوائف بدل روح التعصّب المذهبي، وكان جيشه الوطني ثمرة هذا الجهد المخلص بينما كان عسكر «الحوَّالة لدى الأمير بشير الثاني الشهابي جميعهم مسيحيين ولا درزي واحد فيهم»[١٧]. وعلى أساس المواطنية الحقّة والصحيحة، بعيداً عن الحزبية الضيِّقة والطائفية البغيضة، حارب شيعيو بلاد بشارة وجبيل تحت رايته الوطنية في معركة نهر الكلب سنة ١٥٩٨، كما قاتلوا إلى جانبه سنة ١٦٢٣ في معركة عنجر ضد بني مذهبهم من آل حرفوش.

لكن هذه الوطنية والحرية الدينية التي عاشتها الإمارة المعنية، وما وصل إليه فخر الدين في علاقاته مع الغرب، ومع البابوية وتوسكانا خاصة، دفعت ببعض الأسر المسيحية لاستغلال هذا الوضع والاستفادة منه إلى أقصى حد، وذلك عن طريق ولائها للأمير المعني من ناحية، وارتباطها بالبابوية والقوى الأوروبية من ناحية ثانية. وكان لأسرة آل الخازن الدور البالغ على هذا الطريق، إن كان ذلك في ظل فخر الدين

= منها، لتنظيم الطائفة المارونية وجعلها قوة متماسكة» (ضاهر. الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية. معهد الإنماء العربي. بيروت ١٩٨١. ص ١٠٩). وكمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٤٠ ـ ٤١.

(١٦) الخوري، منير، صيدا عبر حقب التاريخ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٦، ص ١٨٤.

(١٧) أبو شقرا، يوسف. الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية، بيروت ١٩٥٢، ص ٢٦.

بتأمين الحماية للمسيحيين الهاربين من بطش الولاة العثمانيين وأمراء المقاطعات (خاصة في الشمال)، ولا بتأمين قيامهم بالأعمال الزراعية في الإقطاعات التي كانت بمعظمها تحت سيطرة المقاطعجيين الدروز، ولا بإفساح المجال لممارسة عاداتهم الدينية بحرية تامة، وتقديم المساحات الواسعة من أراضيهم لبناء الكنائس والأديرة، بل فوق كل ذلك، لقد لعب الدروز ـ والمعنيون خاصة ـ الدور الأول والأساسي بمساعدتهم ثقافياً عن طريق الاهتمام بهم وتشجيعهم لتلقّي العلم وبناء المدارس. وكانت للأمير فخر الدين الثاني المساهمة الكبرى في ذلك عندما قام بإرسال البعثات العلمية من الشباب الموارنة إلى «المدرسة المارونية في روما»(*) حيث نبغ منهم عدد كبير قدَّموا للعلم خدمات جلّى، ولعبوا الدور الأساسي في إرساء دعائم النهضة الثقافية، بين صفوف الطائفة المارونية بصورة خاصة، وتثقيف أفرادها ونشر العلم بينهم بعد عودتهم، وبنائهم لكثير من المدارس. هذا بالإضافة للدور الذي لعبوه على الصعيد العالمي فيما يتعلَّق بجمع المخطوطات النفيسة وتأليف الكتب أو ترجمتها وخاصة إلى اللغة العربية. وعلى صعيد آخر، لقد شكَّل هذا المعهد (المعهد الماروني في روما) قاعدة انطلاق لتخريج أدوات، أُهِّلت لكي تلعب دوراً فعَّالاً في عملية التبشير المسيحي في الشرق عبر جميع الوسائل ومختلف الأساليب «لنصرنة» الطوائف ـ خاصة في لبنان ـ عن طريق بعض هؤلاء «الرسل» ورفاقهم الغربيين. ونذكر من هؤلاء المتخرِّجين على سبيل المثال: جبرائيل الصهيوني، ابراهيم الحاقلاني، جورج عميرة، سركيس رزّي، حنا الحصروني، نصر الله شلق، اسحق شدراوي، بيار مخلوف (ضومط)، أنطونيوس الصهيوني، جورج مارون، إيلي الحاج حنا، جاك قمر، ميشال سعادة، سيمون طولاوي، سركيس الجمري، جوزف عيساوي البني وغيرهم(١٥)(*). كما أن ڤولناي

(*) تأسس المعهد الماروني في روما سنة ١٥٨٥ على يد البابا غريغوريوس الثالث عشر:

(RAPHAEL, Pierre. le rôle du collège Maronite romain dans L'orientalisme au XV11e et XV111e siècle. Beyrouth 1950, Page 53).

بيار راڤاييل، دور المعهد الماروني الروماني في الاستشراق في القرنين السابع عشر والثامن عشر. منشورات جامعة القديس يوسف. بيروت ١٩٥٠، ص ٥٣.

(١٥) راڤاييل. المرجع السابق، ص ٧٣ ـ ١١٩. Raphael Pierre, op., Page 73-199.

(*) يقول الدكتور مسعود ضاهر أن «الهدف من إنشاء هذه المدرسة إعداد الكادرات اللازمة، ولا سيما الدينية =

وإصلاحاته الاقتصادية، أم بعد إعدامه، لتنمو هذه الأسرة بشكل واسع، وتتربّع من خلال علاقاتها الأوروبية فوق منصب القنصلية الفرنسية لحوالي قرن من الزمن. وعندما كانت فرنسا هي السبّاقة بين الأوروبيين في عقد معاهدات مع العثمانيين ابتداء من سنة ١٥٣٥ (بين السلطان سليمان القانوني والملك الفرنسي فرنسوا الأول)، والتي حصلت بموجبها على امتيازات تجارية واسعة، تخطّتها فيما بعد لتدخل من خلالها إلى الشرق، ولبنان تحديداً، مدّعية بأنها صاحبة الحق الأول في حماية المسيحيين في الدولة العثمانية، والكاثوليك منهم بوجه خاص... جاء مرسوم الملك لويس الرابع عشر في الثامن والعشرين من نيسان ١٦٤٩[١٨]، ليكرِّس هذه العلاقة رسمياً واضعاً الطائفة المسيحية في لبنان تحت الحماية الفرنسية[*].

ومن المؤكّد أن هذه العلاقة لم تقتصر فقط على الناحية المذهبية التي شكّلت الوجه العلني للطرفين، بل اتخذت من الناحية الاقتصادية (والتجارية منها خاصة) أساساً ومرتكزاً لتنعكس سياسياً على عملية الارتباط الوثيق بفرنسا والبابوية. كما كان الجانبان يركّزان في الارتباط بينهما على المفصل المتمثّل بالقضايا الأكثر حساسية واستغلالها للوصول إلى هدفهما.

وجاءت الرسالة التي بعث بها الشيخ أبو نوفل الخازن إلى الكرسي الرسولي في سنة ١٦٧٥ لمساعدته في الحصول على منصب قنصل فرنسا في صيدا وبيروت[١٩] لتؤكّد بما لا يقبل الشك هذه الارتباطات السياسية والمذهبية لمثل هذه الأسر المسيحية (المكرّمة في الإمارة المعنية) بكل من فرنسا والبابوية. وقد حثّ أبو نوفل الخازن في رسالته هذه، الكرسي الرسولي على وضع يده على القدس الشريف لكي «يعمّ الفرج والخير هذه الجوانب وليس على الله شيء عسير» بالتعاون مع السلاطين المؤمنين (ملوك وأمراء أوروبا المسيحيين) في الوقت الذي يطلب فيه من البابا التدخل مع سلطان

---

(١٨) نوار، عبد العزيز سليمان. وثائق أساسية... ص ٨٤ - ٨٦.

(*) انظر نص هذا المرسوم في الملحق.

(١٩) نوار، عبد العزيز سليمان، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧ - ١٩٢٠، جامعة بيروت العربية، بيروت ١٩٧٤، ص ٨٧ - ٨٩ نقلاً عن نسيب وهيبة الخازن والأب بولس مسعد الحلبي اللبناني: الأصول التاريخية في لبنان. المجلد الأول. الجزء الثالث ١٩٥٦، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

فرنسا المسيحي لينعم عليه بمنصب القنصلية، متعهِّداً بحماية التجار والرهبان ورفع أي ضرر عنهم من الحكّام وغيرهم(*).

والجدير بالذكر، أن القوى الأوروبية ـ وفرنسا خاصة ـ «عزَّزت نفوذها في بلاد الشرق وصادقت السلاطين حفاظاً على مصالحها لا على مصالح المسيحيين ولكن سعي فرنسا إلى النفوذ وحفاظها عليه مرَّا دون ريب عبر الحفاظ على مصالح الموارنة، أتباع رومية وتعاليمها الأقدمين»(٢٠).

من هنا يتوضَّح أن فرنسا لم تعتمد فقط على آل الخازن، بل كانت الطائفة المسيحية والموارنة على الأخص، محور اهتمامها ونشاطها على جميع الأصعدة، حيث عيِّن موارنة آخرون بدلاً من آل الخازن منهم غندور السعد من عين تراز كبير معاوني الأمير يوسف(**) في منصب القنصلية أيضاً.

وقبل أن ننتقل إلى الفصل الآخر المتعلِّق بوضع الموحّدين الدروز في ظل الإمارة الشهابية، لا بد من تسجيل بعض الملاحظات الهامة، حيث نستطيع القول إنه منذ العام ١٦١٣ ـ والذي يسجِّل تاريخ الحملة العثمانية بقيادة والي دمشق أحمد الحافظ باشا، ضد الأمير فخر الدين ـ كان هناك تصميم واهتمام كبيرين بضرورة القضاء، ليس فقط على الأمير المعني كشخص، بل على النزعة الوطنية التحررية التوحيدية في هذه البقعة، حيث كان فخر الدين رمزها وعنوانها البارز. وهذا ما عبَّر عنه الأمير أحمد الشهابي في رسالته إلى الأمير يونس الحرفوش عندما دعاه لمناصرة الحافظ مشيراً إلى «شدّة الاهتمام الحاصل لزوال آل معن»(*). ولو قُدِّر النجاح لحركة الأمير فخر الدين، لعرفت بلاد الشام منذ ذلك التاريخ نوعاً من الوحدة التي سقط كثير من الضحايا في

(*) انظر نص هذه الرسالة في الملحق.

(٢٠) أبو خاطر، هنري، من وحي تاريخ الموارنة. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٧٧ ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(**) كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، بيروت ١٩٦٧، ص ٤١ ـ ٤٢. مسعود ضاهر. الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية، بيروت، معهد الانماء العربي، ١٩٨١، ص ١٨٩. ووردت أيضاً في كتاب «تاريخ حوادث الشام ولبنان» أو تاريخ ميخائيل الدمشقي. تحقيق غسان سبانو. دار قتيبة. دمشق ١٩٨١. ص ٨٩.

(*) تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، تحقيق سليم هشي، بيروت ١٩٧١. ص ٥٠ ـ ٥١.

الله البيِّنات. جميع هذه الفتاوى وما رافقها من حملات إبادة بحق هذه الطائفة لم تكن إلا نتيجة التعصب الأعمى المناقض لجوهر كل دين من الأديان، تشكِّل جميعها سلسلة مترابطة الحلقات تعود بجذورها إلى الخلاف الشيعي السنّي بين الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان. وبما أن المماليك وعلماءهم، وكذلك العثمانيين وعلماءهم، ينتسبون إلى المذهب السنّي، فليس من شك إذن في أن يلاقي الموحّدون الدروز الذين يعودون بجذورهم إلى الشيعة، ما لاقوه من التهم والاضطهادات والتصفيات.

فبناء على فتوى الإمام «ابن تيمية» هاجم المماليك بحملاتهم الكبرى منطقة كسروان التي كان يتواجد فيها الدروز تواجداً كبيراً، حيث كانت النتيجة إبادة الآلاف من الموحّدين. وقد اعتمدت هذه الفتوى على العداء المتأصِّل مذهبياً في نفوس المماليك الذين يدّعون الحفاظ على الدين، معتبرين أنفسهم حماته الوحيدين - بينما جميع ممارساتهم تفوح منها رائحة الدم والإجرام والفساد والانحلال - ولهذا حلَّ قتالهم بسبب «فساد نيّتهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم»(*).

هذا ولم يكن حال الدروز مع العثمانيين بأفضل منها عند المماليك. فبناء على فتوى المفتي الأكبر من بني عثمان، أعدم الأمير فخر الدين المعني الثاني مع أسرته في الآستانة - باستثناء ولده الصغير حسين - على يد صديقه السلطان مراد الرابع سنة ١٦٣٥. وقد اعتمدت فتوى الإمام الأكبر على اتهام فخر الدين بالكفر والارتداد عن الإسلام، تماماً كفتوى «ابن تيمية»، ولذلك أصبح قتله حلالاً.

وبناء على فتوى «العلماء» السنّة ارتكب العثمانيون المذبحة الرهيبة ضد الشيعة على يد السلطان سليم. وفي هذا الإطار، قال الدكتور ساطع الحصري[٢٢]: «كان السلطان العثماني يتمتَّع بسلطات مطلقة لا يحدّها أي حدّ. ونظرياً كانت أحكامه تبدو مقيَّدة بأحكام الشريعة الإسلامية إلا أن رجال الدين قلَّما كانوا يتأخرون عن إيجاد الأحكام وإصدار الفتاوى التي تخدم مآرب السلاطين وتضفي على أوامرهم وتصرفاتهم

(*) Hichi, Selim Hassan. La communauté des Ismailites de l'époque Des Mamaliques à nos jours. Beyrouth 1972, Page 54.

هشي، سليم حسن. الطائفة الإسماعيلية من عهد المماليك حتى أيامنا هذه. بيروت ١٩٧٢. ص ٥٤.

(٢٢) الحصري، ساطع. الولايات العربية والدولة العثمانية. ص ٣٢ - ٣٤.

سبيلها ـ وما زال ـ في وقت لاحق. ولكن اعتقال فخر الدين سنة ١٦٣٣ أثناء حملة الكجك، وإعدامه مع أسرته (باستثناء ولده الصغير حسين) سنة ١٦٣٥، أثّر تأثيراً بالغاً على هذه الخطوة وساهم بشكل كبير في تسعير الصراع القيسي اليمني، بما يضمن مزيداً من الانقسامات الداخلية والتفكك والضعف، لتبقى سيطرة العثمانيين مستمرة أقوى وأشدّ.

ورغم الفترة الزمنية التي عاشتها الإمارة المعنية بعد إعدام فخر الدين، حتى تاريخ زوالها عام ١٦٩٧، إلا أنها تعتبر مرحلة انحطاط وضعف بالنظر إلى مثيلتها في عهد المعني الثاني، كما تعتبر مرحلة تمهيدية وتحضيرية لانتقالها إلى الأسرة الشهابية. ولا بدّ من الإشارة إلى أن سنة ١٦٣٣ لم تكن سنة شؤم على المعنيين فقط، بل وعلى الدروز اللبنانيين بشكل عام. وبصورة أخصّ، فقد قضي فيها على الأسرة التنوخية على يد الأمير علي علم الدين اليمني، عندما سار على خطة العباسيين في القضاء على أعدائهم الأمويين، وهو على مأدبتهم في عبيه[٢١].

دور بعض «العلماء» السنّة في تصفية الموحّدين الدروز:

كان بعض «علماء» السنّة يحتلّون المراكز المرموقة في دولة المماليك ودولة بني عثمان. وكان لكلماتهم وفتاويهم تأثير هائل على السلاطين والولاة، كما كان لها انعكاس سيّىء على كثير من الطوائف ضمن أراضي الدولة المملوكية والعثمانية. وقد بدأ الخلاف واضحاً بين الموحّدين الدروز ـ المدافعين الأساسيين عن الحقيقة ـ وبين أولئك الذين يتخذون الدين مطيّة وألعوبة لتحقيق المآرب الشخصية والمصالح الخاصة. وكان لا بدّ من اتساع الهوّة بين هؤلاء وأولئك. وقد نجحوا جزئياً في ذلك لكونهم يمتلكون جهازاً قمعياً مسيطراً وفعّالاً يضمنون بواسطته تحقيق أهدافهم. وأصبحت المخططات للقضاء على الدروز بفتاوى «العلماء» السنّة، سنّة متبعة و«مقدّسة» في عهد المماليك وإمامهم «ابن تيمية» مروراً «بعلماء» بني عثمان، وكأن هدف إبادة الدروز أصبح إحدى آيات

---

(٢١) Toufic Touma, Paysans et Institutions féodales Chez les druses et les Maronites du Liban... Tome 1, Page 62.

وإبراهيم بك الأسود، ذخائر لبنان، صفحة ١٦٣. وفيليب حتي، لبنان في التاريخ، ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩. والشدياق، أخبار الأعيان من ١١٤ ـ ١١٥ وحيدر أحمد شهاب، ص ٧١٩.

صفة «الشرعية». ويضيف الدكتور الحصري قائلاً: «كان السلطان سليم أول سلطان عثماني يوجِّه قواته ضد المسلمين»[٢٣]. «وقام بانقلاب على والده بايزيد التقي الملقَّب بالولي، ووجَّه فتوحاته ضد الدولة الإسلامية»[٢٤]. كما أنه حصل على فتوى «تجيز إبادة الشيعة فقضى عليهم في مملكته. كما أنه حاربهم في بلاد فارس (إيران)».

كما أشار أمين الريحاني[٢٥] إلى ذلك قائلاً: «باشر هذا السلطان العثماني فتوحاته بقتل أربعين ألفاً من الشيعة في الأناضول». وكذلك قتل الأمير فخر الدين المعني الثاني على يد السلطان مراد الرابع بفتوى المفتي الأكبر. هذا ولم يكن باقي السلاطين بأقل حقد وكراهية من هذين السلطانين خاصة عندما ندرك بأن معظم السلاطين العثمانيين ماتوا قتلاً. ومن أصل ٣٦ سلطاناً قتل منهم ٢٧ سلطاناً، منهم من قتل أباه، ومنهم من قتل ابنه في سبيل العرش. وليس من المستغرب بعدها أن يقدم أمثال هؤلاء على تجريد الحملات للقتل وسفك الدماء، وبيدهم زمام الأمور ـ دينياً ودنيوياً ـ .

لكن الملفت للنظر أن من يدّعي الخلافة، وأمير المؤمنين، ويدّعي التمسّك بالشريعة ومبادىء الدين الإسلامي، ويعتبر نفسه قيِّماً عليه، يظن بأنه يحتفظ بمفتاح الجنّة بمفرده، وبأنه موكل وممثّل لله على الأرض في محاكمة البشر ـ تماماً كما ادّعى جنكيزخان المغولي في خراسان ـ خاصة عندما يجد بجانبه من يدعمه بحملات عسكرية لتنفيذ أمر أو فتوى صدرت عنه. ولكن الواضح أن هذه الطبقة من «العلماء» القيِّمة على الدين، لم يكن همّها سوى القتل والدم وإرضاء نزوات الولاة والسلاطين، وهذا مناقض لجوهر الدين الإسلامي. لقد أدركوا أن فتاويهم والمتاجرة باسم الدين هي التجارة الأكثر ربحاً بالنسبة لهم في ظلّ هكذا حكم. وليس من الغريب أبداً أن تتاجر هذه الطبقة من «العلماء» بالطوائف الأخرى وحتى طائفتها، خاصة عندما تجدها تتعامل مع الدين معاملة صادقة بعيداً عن الغش والرياء. وطبيعي أن يكون نصيب الموحّدين الدروز كبيراً عند هؤلاء «العلماء».

(٢٣) الحصري، ساطع، المرجع السابق، ص ٤٠.
(٢٤) الحصري، ساطع، المرجع السابق، ص ٤٥.
(٢٥) الريحاني، أمين. «النكبات»، ص ١١١.

الفصل الخامس

الدروز في ظل الإمارة الشهابية

بعد أن بلغ الدروز شأناً كبيراً في مختلف الميادين في لبنان، وقويوا لدرجة أقلقت أعداءهم الكثر، خاصة وأنهم كانوا أحراراً لا يقبلون الذل والعبودية، ولا الخضوع لأي أجنبي مهما كانت هويته، عاملين على أن يكون لهم استقلالهم المطلق ضمن حدود الحق والكرامة الوطنية والتسامح والأخوّة، مطبّقين قبل الثورة الفرنسية شعاراتها الثلاثة: حرية ـ أخوّة ـ مساواة. . .

وبعد أن فشلت جميع محاولات العثمانيين والأوروبيين في الوصول إلى أهدافهم، بجعل الدروز مطية في أيديهم وأداة يحرّكونها متى يشاؤون، عملوا جهدهم للقضاء على هذه الطائفة وتطلّعاتها في الاستقلال والحرية والعدالة.

وبمجيء الشهابيين على رأس الإمارة بدل المعنيين، تلاقت الأهداف العثمانية ـ الأوروبية، ومثّل هذا «القاسم المشترك» الحلقة المركزية في مخطّط تحجيم الدروز والقضاء عليهم كقوة اقتصادية وسياسية بالدرجة الأولى لتؤثّر لاحقاً حتى على الناحية العددية لهم. منذ تلك الفترة فقد «لبنان» نزعته الاستقلالية واتبع الطريق الآخر المناقض تماماً للحرية وبمعدل ١٨٠ درجة، وبأهداف مختلفة تماماً، حيث انتقل «لبنان» من رفض أيّة قوة أو احتلال أجنبي إلى قبول أيّة قوة أجنبية تعمل على إبقاء الشهابيين الأمراء متربّعين، على صدر الطوائف الأخرى وعلى صدر الشعب كله الذي تقع على كاهله وحده عملية الضرائب وجبايتها، ضمن أسلوب الابتزاز وممارسة سلطة القمع بأبشع صورها، وذلك من خلال الشكل الهرمي للسلطنة العثمانية وانعكاس ذلك على الأمراء الشهابيين كأسرة حاكمة، انطلقت من المفصل الاقتصادي وأحكمت قبضتها

عليه. حيث أن «العامة» كانوا يتحمّلون جميع الأعباء: من الضرائب إلى العمل في أراضي الإقطاع، إلى الخدمة العسكرية والاشتراك في الحرب إلخ... خاصة بعد أن «منح الإقطاع الحكومي «الولاة» حق استخدام قوة مسلّحة كافية لجمع الضرائب تأتمر بأمره، كما تتمتّع بنوع من الاستقلال في أرضه وفلاحيه... فتارة كان يستخدمها في حل نزاع نشب بينه وبين جيرانه الإقطاعيين إذا رغب في توسيع أملاكه على حساب أملاكهم، وطوراً يستخدمها لنجدة رئيسه إذا وقع في مشكلة مشابهة»[1].

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أن السيطرة الإقطاعية على القوى الفلاحية (أو العامة)، كانت واحدة بالنظر إلى الشكل والأسلوب، وإن اختلفت من الناحية الزمنية (أي زمن السيطرة)، حيث أن أسلوب الاستغلال والقمع لهذه القوى كان قائماً على «المساواة» في المعاملة، ولم يعرف التمييز الطائفي، إذ لا طائفية في القمع والاستغلال. «حتى أن الملتزمين الموارنة... كانوا أشبه برؤساء عصابات لا يهمهم إلا مصالحهم واسترضاء ممثلي الدولة، فلا يتورّعون عن إنزال الضيم ببطاركتهم ومطارنتهم وكهنتهم ورهبانهم وأبناء طائفتهم»[2].

من جهة أخرى تبقى الفروقات قائمة بين هؤلاء «الملتزمين» للإقطاعات، حيث كان «الوالي والأمير والشيخ، هم أصحاب «مقاطعات» عثمانية، يختلفون أهمية باختلاف أهمية عدد المقاطعات التابعة لكل منهم. فهم جميعاً جزء من «جهاز» الدولة العثمانية، الذي يتحكّم فيه على الدوام «صراع داخلي» يتمحور حول حدود «الالتزام» ومدى اتساعه من حيث حجم الضريبة، ووزن النفوذ، والامتداد الجغرافي»[3].

من هنا يمكننا القول إن «تصفية» الأسرة المعنية، على يد العثمانيين، والموافقة على مجيء الشهابيين، كان بمثابة الخطوة التمهيدية، أو «الضوء الأخضر» لإكمال المخطط التصفوي بحق الأسر الدرزية الأخرى، حيث كان للشهابيين الأمراء الدور البارز فيه وصولاً لغاية مشتركة ضمن جدول العثمانيين والأوروبيين معاً. لهذا لم يقتصر

---

(١) عوض، عبد العزيز محمد. الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، القاهرة ١٩٦٩. ص ٢٢٥.

(٢) الصليبي، كمال. ملف «النهار» ١٩٧٠. ص ١١.

(٣) كوثراني، وجيه. الاتجاهات... مرجع سابق، ص ٢٠.

الويل الشهابي على الدروز فحسب، بل تجاوزهم ليشمل مختلف الطوائف اللبنانية والموارنة على الأخص. وزرعت سياستهم سموم التفرقة والحقد في النفوس، تمخّضت عنها فيما بعد سلسلة من المجازر والمذابح الطائفية بإذكاء نارها من قبل الدول الأوروبية والعثمانيين استمراراً للتفرقة والمزيد من الضعف والتفكك، لتسهل السيطرة بالتالي على الوضع تمهيداً «للحماية» المقنّعة بشتى أنواع الزيف والخداع.

وهكذا قضى التعصّب الشهابي على سياسة الأخوّة والعدالة والمساواة، التي سادت لقرون متوالية جميع الطوائف اللبنانية في ظل المعنيين. وبعد أن مثّل الدروز العامل الأول والأساس في ترسيخ أركان دولة خارجة عن كل رضوخ لأي مستعمر أو محتل، فإن الحكم الشهابي يعتبر المسؤول الأول عمّا وصل إليه الدروز أولاً في لبنان، بعد أن قضي على الكثير من نفوذهم وقوتهم الاقتصادية ـ بتجريدهم من الإقطاعات ومصادرة الأموال ـ مما أثّر مباشرة على وضعهم السياسي، وصولاً إلى عملية «التنصير» التي استهدفتهم اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ودينياً وعددياً أخيراً. كما يعتبر الحكم الشهابي من ناحية أخرى المسؤول الأكبر عن انهيار «لبنان» ككيان سياسي واقتصادي واجتماعي بانتهاجه للسياسة المعادية للشعب تنفيذاً لمخططات مرسومة في روما وفرساي وغيرها من العواصم الغربية، مروراً بالآستانة، أثّرت بمجملها على المصلحة الوطنية الأساسية، والمقوِّمات الضرورية للشعب والوطن. وما زلنا حتى اليوم، في الربع الأخير من القرن العشرين، نحصد ثمار هذه المخططات المزروعة في التربة الشهابية الخصبة.

أصل الشهابيين:

الشهابيون من الأمراء العرب. ينتسبون إلى مالك بن الحارث الملقَّب بشهاب من قبيلة بني مخزوم من بني قريش السنّة. قدموا من الحجاز إلى حوران خلال الفتح العربي، ثم انتقلوا من حوران إلى وادي التيم بعد انضمامهم إلى صلاح الدين الأيوبي على أثر الخلاف بينه وبين نور الدين زنكي، بقيادة الأمير منقذ سنة ١١٧٣. خاضوا معارك ناجحة ضدّ الصليبيين فهنّأهم نور الدين زنكي وصالحهم. وبعد الانتصارات التي أحرزها صلاح الدين، أقرّهم على إقطاعاتهم في حاصبيا وراشيا وجواريهما.

يعتقد البعض بأن الشهابيين كانوا دروزاً، أو اعتنقوا المذهب الدرزي[٤]. لكن الحقيقة أنهم كانوا سنّة، وتنصّروا فيما بعد[٥]. «غير أن الإمارة التي انتهت إليهم خضعت في الأكثر للإقطاعية الدرزية»[٦].

في عام ١٦٩٧، توفي الأمير أحمد المعني دون عقب، وانتهت بموته الأسرة المعنية سياسياً واقتصادياً، كما انتهت كسلالة أيضاً[٧]، وصل الشهابيون على الأثر إلى سدّة السلطة على رأس الإمارة المعنية (رغم وجود الأمير حسين ابن الأمير فخر الدين الثاني في الآستانة).

بعد ذلك، اجتمع زعماء الأسر المقاطعجية من مشايخ ومقدّمين وأمراء في مرج السمقانية (بين المختارة وبعقلين)، «بعد أن أذن لهم الباب العالي بالاجتماع»[٨] وأعلنوا اتفاقهم على انتقال الحكم إلى الأسرة الشهابية بشخص الأمير بشير الأول، ابن أخت الأمير أحمد المعني، ورفعوا الأمر للسلطان، حيث أصدر فرمانه (بعد استشارة الأمير حسين المعني) بتولية الأمير حيدر الشهابي، ابن بنت أحمد المعني، لأنه أحقّ من ابن الأخت، على أن يكون بشير الأول وصياً عليه ريثما يبلغ حيدر سن الرشد[٩].

من ناحية أخرى، لم تكن السلطنة العثمانية تعير اهتمامها لعمليات الانتخاب بين الأسر المقاطعجية إلا من خلال مصلحتها قبل أيّة مصلحة أخرى. كما كان جلّ

---

(٤) بدوي، عبد الرحمن. مذاهب الإسلاميين. الجزء ٢. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٤. ص ٦٣٢.

(٥) Adel Ismail, Documents diplomatiques et consulaires, Tome 7, P 375

الصليبي، كمال. تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٦٧. ص ١٢. وأبو خاطر، هنري. من وحي تاريخ الموارنة. المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٧٧، ص ١٣٤.

(٦) الصليبي، كمال. المرجع السابق، ص ٣٢.

(٧) Jawad Boulos, Les peuples et les civilisations du proche orient, Tome 5 Page 120. Et Gabriel Ankiri, Le règne de Béchir 2 , Imprimerie slim., Beyrouth, sans date, Page 6.

غبريال انقيري. عهد بشير الثاني. مطبعة سليم. ص ٦

(٨) حقي، إسماعيل. لبنان مباحث علمية واجتماعية، الجزء الأول. منشورات الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٦٩ (تقديم فؤاد افرام البستاني)، ص ٣٤٠.

(٩) حيدر أحمد شهاب. لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، بيروت ١٩٦٩. ج ١. ص ٥. وطنوس الشدياق، ص ٣١١.

همّها أن تتولّى شؤون الحكم أسرة قوية تستطيع ضبط الأمن والنظام في الإمارة من ناحية، وإعلان ولائها وتقديم الضرائب المتوجّبة عليها في الموعد المحدَّد من ناحية ثانية وفق شعارها ومبدئها «فرض الطاعة عليهم وجباية الميري منهم».

وهكذا يتوضَّح أن الدولة العثمانية «كانت المقرّر الأساسي والوحيد في اختيار الأمير الحاكم والأسرة التي ينتسب إليها. وهذا لا يعني انحيازاً عثمانياً كاملاً ونهائياً للأسرة الشهابية وتدعيم سيطرتها السياسية على العائلات المقاطعجية الأخرى، إلا بمقدار ما تثبت تلك الأسرة مدى قدرتها على فرض سيطرتها وتأمين الموارد الضريبية اللازمة للخزينة والولاة»[١٠].

ومن أجل استمرارية سيطرتها وسلطتها، عمدت السلطنة، إلى تسعير الصراع القيسي - اليمني بين الأسر المقاطعجية اللبنانية، حيث كان لهذا الصراع الأثر الأول والأكبر في انتقال الإمارة من الدروز إلى السنّة، أي من آل معن إلى آل شهاب. ولم يكن بين العائلات الدرزية يومها، في رتبة الأمراء سوى الأرسلانيين وآل علم الدين (بالإضافة إلى الأمير حسين المعني في الآستانة الذي رفض التخلّي عن خدمة السلطان العثماني هناك). لكن هاتين العائلتين كانتا من الحزب اليمني ضد القيسيين - والمعنيون والشهابيون منهم طبعاً - مما أبعدهما عن تسلّم مقاليد الإمارة خلفاً لآل معن.

والمرجّح - رغم أولوية القرار العثماني - أنه لو كان هناك أسرة درزية قيسية برتبة الأمراء، لما انتقلت الإمارة إلى الشهابيين السنّة عام ١٦٩٧، رغم معاناة العثمانيين من النزعة التحررية الدرزية التي كلّفتهم كثيراً، وإصرارهم على التخلّص من جميع معارضيهم. خاصة وأن السلطنة كانت تدرك تماماً قوة الأسر المقاطعجية الدرزية ونفوذها حيث كانت تتولّى مهمة انتخاب وإيصال الأمير الشهابي إلى الحكم، ابتداء من بشير الأول وانتهاء ببشير الثاني عام ١٨٤٠. كما تؤكّد ذلك جميع العرائض والوثائق الموقّعة بأسماء هذه الأسر المؤثرة والنافذة. بالإضافة إلى أن اجتماعات الانتخاب كانت تجري ضمن الأراضي الخاضعة لسيطرة هذه العائلات المقاطعجية ذاتها، كالسمقانية ودير القمر والباروك إلخ . . .

---

(١٠) ضاهر، مسعود، الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية، منشورات معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٨١. ص ٤٦.

كانت فترة حكم الأمير بشير الأول (١٦٩٧ ـ ١٧٠٦) بمثابة الخطوة التمهيدية التي كرَّست الأسرة الشهابية كأسرة حاكمة، بعد التجربة ـ الامتحان التي أخضعت لها في ظل الحكم العثماني، بالإضافة للدور الذي قام به العثمانيون في تشجيع الخلافات بين الأمير بشير والأمير حيدر، خاصة بعد أن بلغ حيدر سن الرشد، ولم يرضَ الوصي بالتنازل وتسليم مقاليد الإمارة، كما لم تعمد السلطنة إلى إجباره على ذلك احتراماً لفرمانها السلطاني القاضي بتسليم حيدر زمام أمور الحكم عندما يبلغ رشده، لأنها كانت تنطلق من نقطة الحفاظ على مصلحتها أولاً وقبل كل شيء ولو أدّى هذا الأمر إلى إفناء وإبادة المتخاصمين. ورغم استشارتها للأمير حسين المعني وهو في حضرة السلطان حول أولوية الحكم في الإمارة المعنية، مرتئياً تولية الأمير حيدر انطلاقاً من أحقّيّته، فإن العثمانيين أكَّدوا عبر ممارستهم هذه بأن العامل الأخلاقي لا قيمة له في التاريخ، وليس في السياسة عواطف دائمة بل هناك مصالح دائمة.

هذه السياسة التي انتهجها العثمانيون عمَّقت الخلافات والحساسيات بين أمراء الأسرة الشهابية نفسها، وبالأخص عندما مرَّ العام ١٧٠٣ (عام بلوغ الأمير حيدر سن الرشد وتسلّم الإمارة) ولم تظهر في الأفق الشهابي أيّة بادرة أو إشارة تؤكِّد عزم الأمير بشير على تنفيذ الفرمان العثماني بتولية حيدر. بل سارع الأمير بشير الأول إلى تمتين وتوثيق علاقاته على الصعيد الداخلي والخارجي، بعد أن وجَّه ضربة مؤلمة لعصيان جبل عامل بقيادة مشرف بن علي الصغير، وأكَّد القنصل الفرنسي في صيدا، (أستل Estelle) في تقريره إلى حكومته في ٢ أيار ١٧٠٤، موضحاً أن «الأمير بشير يجبي ضرائبه بمقدرة فائقة وله شخصية مميَّزة، ويقيم مع الفرنسيين علاقات وثيقة وهو صديق لهم»[11]. كل ذلك أدَّى فيما بعد إلى التصفيات الجسدية لحسم الصراع الشهابي على السلطة، وكان بشير الأول، أول ضحاياها.

لم يقتصر الأمر في الخلاف على الأمراء الشهابيين أنفسهم، إذ كان الولاة العثمانيون وبخاصة والي صيدا ووالي دمشق، ينخرطون كلياً في هذا الصراع ـ باسم السلطنة ـ كل منهما إلى جانب أحد الفريقين، لإحداث المزيد من الانقسامات والصدامات وابتزاز الأموال والهدايا.

(١١) ضاهر، مسعود. المرجع السابق. ص ٥٥ نقلاً عن Adel Ismail, Documents... Tome I. Page 56.

وجاءت تصفية الأمير بشير الأول على يد أنصار الأمير حيدر، لتعمِّق الخلافات بين الأجنحة المتصارعة انطلاقاً من الضربة السياسية والعسكرية لجناح الأمير المقتول. لكن تولّي الأمير الشاب شؤون الحكم، أدّى إلى عصيان جبل عامل ثانية ضد الأمير حيدر، الأمر الذي أدّى إلى معركة النبطية سنة ١٧٠٦، وإخضاع آل علي الصغير وإعادتهم للسيطرة الشهابية في ظل محمود أبي هرموش من قبل الأمير حيدر. وهكذا أصبح محمود أبو هرموش (الدرزي) متولّياً وجابياً للضرائب من منطقة شيعية، لصالح السلطة الشهابية (السنّية) ومثيلتها الدولة العثمانية.

انطلاقاً من هذه البقعة، برز المشروع السياسي الطائفي لأبي هرموش لإعادة الإمارة إلى سابق عهدها الدرزي. وكان للعلاقة التي أقامها مع والي صيدا، أثرها الكبير الذي دفع به إلى الباشوية واستحصاله على ولاية الشوف بدلاً من الأمير حيدر، مدعوماً بجيش عثماني كبير. ودعم خطوته على الصعيد الداخلي بزواجه من أسرة آل علم الدين، زعيمة الحزب اليمني. وهكذا أصبح وجهاً لوجه مع الإمارة، مما نتج عنه فرز جديد للمعسكرات على صعيد العائلات المقاطعجية داخل الإمارة الشوفية.

وعندما بدأ الزحف «الهرموشي» باتجاه مركز الإمارة في دير القمر، فرَّ الأمير حيدر بقيسيّيه، إلى كسروان، وإلى غزير تحديداً. لحقت به قوات اليمنية وأوقعت به هزيمة منكرة فرَّ على أثرها إلى الهرمل برفقة الكثير من القيادات الدرزية التي رفضت الوقوف إلى جانب الباشا أبي هرموش انطلاقاً من اعتبارات متعدِّدة، اقتصادية وسياسية (مما يثبت بأن الصراع كان سياسياً وليس طائفياً). بعد ذلك عمد اليمنيون إلى التنكيل بأتباع الأمير حيدر والقيسيين عموماً، حتى ضجَّت البلاد من سياستهم وأعمالهم، وكثرت المراسلات للأمير الشهابي للعودة والتصدّي. فكانت حمانا (المتن) نقطة التجمع والانطلاق القيسي للمواجهة اليمنية في موقعة عيندارة ١٧١١.

حسمت هذه الموقعة، المفاجئة لليمنيين، عملية الصراع، وأعطت الشهابيين شرعية حكمهم، بقضائهم على الحزب اليمني و«إبادة» آل علم الدين وعودة الواليين العثمانيين (والي صيدا ووالي دمشق) من حيث أتيا دون أن يتمكّنا من المشاركة فيها نظراً لعنصر المباغتة من قبل القيسيين. كما مثَّلت هذه الموقعة أيضاً مرحلة التبدّل الطائفي بين أسرتين مقاطعجيتين.

وكان لأسرة «أبي اللمع» الدرزية الدور الفعّال فيها. وعلى أيدي أحد مقدّميها، المقدّم حسين اللمعي، قضي على ثلاثة أمراء من آل علم الدين، ونفّذ الإعدام بحق أربعة منهم في الباروك على يد الأمير حيدر، كما وقع الباشا أبو هرموش نفسه في الأسر، ولم يقتل احتراماً للقب الباشوية، بينما قطعت أذنيه ولسانه وجدع أنفه حتى يقطع عليه طريق التفكير بالعودة للحكم، فاقداً بالتالي دوره السياسي، لأن الوالي يجب أن لا يكون ذي عاهة.

انخرطت معظم الأسر المقاطعجية ومن مختلف الطوائف [١٢] في هذا الصراع الذي لم يكن أبداً صراعاً طائفياً، إذ كانت معظم العائلات الدرزية المقاطعجية إلى جانب الأمير حيدر السنّي ضد محمود أبي هرموش الدرزي ومشروعه السياسي. لقد انطلقت هذه الاعتبارات من منطلقات اقتصادية أولاً بالنظر إلى وضع الباشا إبي هرموش، ومن اعتبارات سياسية في الناحية الأخرى تتمثّل بتعميق جذور الصراع القيسي ـ اليمني في هذا العصر، وانتماء الهرموش إلى اليمنية.

نتائج معركة عيندارة:

كان لهذه الموقعة نتائج هامة على صعيد الطائفة الدرزية عبر الأسر المقاطعجية. إذ أن هذه المعركة تمخضت عن نتائج سياسية واقتصادية هامة كان لها انعكاسات كبرى، ساهمت في تغيير الوجه المقاطعجي في الجبل [١٣]، وخلقت على المسرح السياسي والاقتصادي عائلات جديدة.

على الصعيد الدرزي، ضعف الوزن السياسي والاقتصادي لبعض العائلات (كآل أرسلان) لوقوفها إلى جانب أبي هرموش، بتجريدها من بعض المقاطعات، كما قضي فيها على أسرة علم الدين بتصفية زعمائها تصفية جسدية، ووجّهت ضربة ساحقة لليمنيين، كانت سبباً في هجرتهم إلى حوران وتأسيس «جبل الدروز». بينما يذكر الدكتور جاك كولان بأن الدروز اضطروا بعد عام ١٨٦٠ للانكفاء بالشوف،

(١٢) Adel Ismail, Documents... Tome I. Page 94-95.

(١٣) الانسيكلوبيديا الإسلامية، ص ٦٥١. Encyclopédie de l'Islam, Tome 2., Page 651.

ومنه شرعوا بحركة هجرة واسعة إلى حوران وإلى ما أصبح يسمّى جبل الدروز(١٤).
بينما يؤكد كثير من المؤرّخين أن تأسيس جبل الدروز كان على أثر انتصار القيسيين في عيندارة ١٧١١ وهزيمة اليمنيين، لجأوا بعدها إلى حوران(١٥)، وأن «أول من سكن جبل حوران من الدروز هو حمدان الحمدان وأخوه، وهما أصلاً من قرية كفرا الواقعة بالقرب من عيناب ـ الغرب. وقد هاجر الأخوان قريتهما بسبب المنازعات وربما بسبب النزاع القيسي ـ اليمني بين الدروز. والمشهود أن بني الحمدان كانوا ينتمون إلى الحزب اليمني وأن القيسيين أحرقوا قريتهم (كفرا) اثر انتصارهم على الحزب اليمني في موقعة عيندارة»(١٦).

ساهمت هذه المعركة أيضاً بإضعاف وزن الدروز السياسي والاقتصادي والعددي رغم بروز عائلات منهم (كآل جنبلاط الذين لم يكن لهم وجود سياسي (بمعنى حكم) قبل هذه المعركة في منطقة الشوف) وترفيع آل أبي اللمع من رتبة مقدّمين إلى رتبة أمراء (أمراء السيف) مكافأة لهم على شجاعتهم وبأسهم وولائهم لحيدر الشهابي حيث تزوّج منهم وزوّجهم (صاهرهم سياسياً بعد أن أمّرهم، إذ لم يكن الزواج جائزاً إلا حسب المراتب والطبقات).

من ناحية أخرى خطّط الأمير حيدر لإضعاف الأسر المقاطعجية الواحدة تلو الأخرى، حيث أدركت هذه العائلات سياسته هذه وبالأخص بعد أن ادّعى بميراث الشيخ قبلان القاضي بعد وفاته.

الأمير حيدر الشهابي وميراث الشيخ قبلان القاضي:

كان الشيخ قبلان القاضي (أبو محمد) يمثّل وزناً سياسياً واجتماعياً كبيراً، ليس على صعيد الطائفة الدرزية فحسب، بل وفي الإمارة الشهابية كلها. وانطلاقاً من هذه

(١٤) Jacques Couland, Le mouvement Cyndical au Liban 1919 - 1946 Paris 1970, Page 51.
جاك كولان. الحركة النقابية في لبنان. باريس ١٩٧٠ ص ٥١. تعريب نبيل هادي، ص ٥٦.

(١٥) فيليب حتي، مرجع سابق، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١. سعيد الصغير، بنو معروف (الدروز) في التاريخ، ص ٥٢. Dominque Chevalier, op,p 14. والجنرال أندريا، ثورة الدروز وتمرد دمشق، ترجمة حافظ أبو مصلح. بيروت ١٩٧١، ص ٤٨، إلخ...

(١٦) عباس أبو صالح وسامي مكارم، تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي، بيروت ١٩٨٠، ص ١٩٥.

القاعدة الاقتصادية كان يفرض موقفاً سياسياً ويتحكّم به في كثير من الأحيان، استناداً إلى المبدأ الأساسي «من يملك السلطة الاقتصادية يملك السلطة السياسية» بالنظر إلى العلاقة القائمة بين الاقتصاد والسياسة. ولم يكن الأمير حيدر شهاب يجهل هذه القوة وتأثيرها، ولولا ذلك، لما عمد بعد وفاة الشيخ قبلان دون وارث ذكر (لأن ولده محمد كان قد توفي صغيراً)، إلى تزوير وثائق تخوّله وضع يده على ميراث الشيخ المتوفي. إلا أن بعض المؤرّخين ذكر بأن الشيخ قبلان القاضي هو الذي أوصى «بكل» أو «بنصف» أملاكه وثروته إلى الأمير حيدر. بيد أن الواقع مختلف تماماً، إذ كان الشيخ قبلان أحد مشايخ الدروز الكبار، وله المكانة السياسية والاجتماعية والدينية بينهم. وليس من الممكن أن يحرم ابنته الوحيدة المتزوّجة من الشيخ علي جنبلاط، من ميراثه، ويوصي به للأمير حيدر السنّي. ومن المستحيل أن يقدم شيخ درزي، بمكانة الشيخ قبلان على مثل هذا العمل المخالف لعقيدة التوحيد، وهو التقي الورع والمشهود له بذلك. وهذا ما أدّى فيما بعد إلى نقمة الدروز على الأمير حيدر وإعلان الشيخ علي جنبلاط شيخ مشايخهم والمطالبة بأحقّية زوجته بميراث والدها.

الأمير حيدر وميراث الأمير فخر الدين المعني الثاني:

لم يقف الأمير حيدر عند هذا الحد، إذ في عام ١٧٢٣، وبعد القضاء على الأمير فخر الدين المعني الثاني في الآستانة بثمان وثمانين سنة، ادّعى الأمير حيدر الشهابي بأنه الوريث الشرعي للأمير فخر الدين، بعد أن عرف برصيده المجمّد في أحد مصارف فلورنسا (جبل الرحمة). خوّل مجمع الكرادلة في مدينة رومية بشخص القس يوسف السمعاني، مطالبة المصرف المذكور بالميراث على أن يحصل على ثلث المال هذا، مقابل حصول الأمير حيدر على الثلثين. وإمعاناً في التضليل، فإنه دوّن توقيعه باسم «الفقير الأمير حيدر ابن معن أمير الدروز في بلاد فونيقي في جبل لبنان»، في الوقت الذي يثبت فيه فرمان سلطاني بانتسابه للأسرة الشهابية، كما يؤكد أعيان البلاد وعاميّيها انتقال الإمارة من الأسرة المعنية (الدرزية) إلى الأسرة الشهابية (السنّية) عام ١٦٩٧، وفي اجتماع عام في السمقانية بإذن من السلطان العثماني نفسه[١٧].

---

(١٧) هشي سليم. المراسلات الاجتماعية والاقتصادية لزعماء جبل لبنان خلال ثلاثة قرون (١٦٠٠ ـ ١٩٠٠)، =

ولم يكن الأمير حيدر وحده في هذا المضمار، على الصعيد الشهابي، بل أصبح نهجه هذا سنّة متّبعة في وضع مماثل، تماماً كما فعل الأمير بشير الشهابي الثاني بعد وفاة الأمير اسماعيل أرسلان، وكان سبباً في صراع البشيرين[18].

الدروز في عهد الأمير ملحم شهاب:

بعد وفاة الأمير حيدر سنة ١٧٣٢، تولّى الإمارة بعده ابنه الأمير ملحم. تابع سياسة والده على أكمل وجه، وساهم في تثبيت المداميك الهامّة في البناء الشهابي، منطلقاً من النقطة التي توقّف عندها والده. ومهما حاولنا إعطاءه من المواصفات، فإننا لن نجد وصفاً دقيقاً كالوصف الآتي من «أهل البيت» على لسان المؤرّخ حيدر أحمد شهاب قائلاً بأن «الأمير ملحم شهاب كان قتّالاً... وأرمى الفتن بين مشايخ البلاد»[19].

ولا بدّ هنا في هذا المجال من الإشارة إلى النشاط الذي أبداه الفرنسيون والبابوية عن طريق القناصل مع الأمراء الشهابيين للضغط على موارنة لبنان من أجل الانصياع وطاعة البابوية. وقد نجحوا في ذلك مع الأمير ملحم، كما نجحوا مع والده من قبل، ولم يقتصر الأمر على التعهدات والوعود الشفوية، بل تعدّاها إلى التطبيق العملي على صعيد واقع الإمارة ككل. ولاقى المرسلون الأجانب ورجال الدين المرتبطون بفرنسا والمنفّذون لإرادتها في تحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية، مجالاً رحباً للعمل في هذا الحقل على ضوء الأبعاد المرسومة في مخطط «تنصير» طوائف المنطقة في ظل هكذا حكم،واستغلالها في المشاريع التي تكفل مصلحة فرنسا والبابوية. وقد أشار الدكتور عادل اسماعيل في وثائقه الدبلوماسية والقنصلية، إلى هذه السياسة الخطيرة، خاصة وأنها من عمل السياسة الفرنسية ذاتها[20].

= بيروت ١٩٧٩ - ١٩٨٠. الجزء الأول ص ٦٤، ونوّار، عبد العزيز سليمان. وثائق أساسية في تاريخ لبنان الحديث، بيروت ١٩٧٤. ص ٩٢ - ٩٧.

(١٨) أبو شقرا، يوسف. الحركات في لبنان. بيروت، ١٩٥٢، ص ١١ - ١٣.

(١٩) حيدر أحمد شهاب «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين». الجزء ١. منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٩. ص ٢٨.

(٢٠) Adel Ismail, Documents... Tome I, Page 276-277.

اتخذ المرسلون الأجانب والمبشّرون من «لبنان الإمارة» في عهد الأمير ملحم، مرتكزاً هاماً في الشرق العربي. كما ركّز الفرنسيون بنوع خاص على «الموارنة» الذين راسلهم نابوليون بونابرت أثناء حملته على الشرق لأنهم على حدّ تعبيره «فرنسيون من زمن يتخطّى الزمن»[٢١]، كما عرفوا أيضاً لقب «وردة بين الأشواك» و«الموارنة أجمل زهور الشرق»[٢٢]، انطلاقاً من خطتهم وأهدافهم المستندة لنفس الاعتبارات التوسكانية أيام فخر الدين. واستناداً إلى ذلك، رفعت «الجبهة اللبنانية» (المارونية)، مذكرتها إلى المبعوث الفرنسي «كوف دي مورڤيل» (خلال الحرب الأهلية في لبنان ابتداء من ١٩٧٥) تؤكّد فيها أن «الموارنة هم حديقة طيور نادرة في الشرق يخشى عليها من الفناء إن لم تحاط بالحماية والعناية الفائقة».

ولم يتغافل القنصل الفرنسي في صيدا (غريمو Grimaud) عن تهنئة الأمير ملحم يوم تولّي الإمارة مكان أبيه. ولم يقتصر الأمر على التهنئة فقط، بل أرفق معها طلباً يتمنّى عليه فيه الاستمرار بالسياسة التي كان ينتهجها والده تجاه الآباء المرسلين من يسوعيين وكبوشيين وآباء الأرض المقدسة، ليستمرّوا في القيام بدورهم الذي كانوا يمارسونه في عهد الأمير حيدر. وقد أكّد الأمير ملحم برسالته المطوّلة رداً على رسالة القنصل، متعهّداً حماية الفرنسيين المقيمين داخل حدود إمارته في الجبل، وكذلك المرسلين الأجانب والسهر على راحة التجار الفرنسيين[٢٣]. من هنا يبدو واضحاً أن الهمّ الأكبر للفرنسيين كان يتمثّل «بإيجاد ركيزة بشرية واقتصادية لمصالحهم المادية والمعنوية»[٢٤]، من خلال الموارنة، انطلاقاً من الإمارة الشهابية. وبالفعل، توثّقت عرى الصداقة بين الأمير ملحم والأمّة الفرنسية حيث «لم يدّخر جهداً لتعزيز هذه الصداقة بين الإمارة والفرنسيين»[٢٥]، والتي انتهت أخيراً «بتشجيعه لأولاده بالتخلّي عن المذهب السنّي (وهو المسلم المؤمن)، وسمح لهم بأن يتنصّروا عام ١٧٥٤[*] بعد

(٢١) أبو خاطر، هنري، من وحي تاريخ الموارنة. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٧٧، ص ١٢٣.

(٢٢) Adel Ismail, Documents.. Tome I, Page 141-142.

(٢٣) Adel Ismail, Documents.. Tome 2, Page 71-77.

(٢٤) ضاهر، مسعود. الجذور التاريخية... مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٢٥) Adel Ismail, Documents.. Tome I, Page 276-277.

(*) يؤكد هذا التاريخ أيضاً منصور الحتّوني، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية. بيروت ١٨٥٥. ص ١٧٥. كما يذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي أيضاً.

أن تأثّر باختلال التوازن بين الطوائف في أيامه، وأصبح الدروز أقلية في مناطقهم، بينما كان الموارنة يزدادون قوة على قوة»[٢٦]. إلا أن القنصل الفرنسي «هنري غيز» يؤكد بأن الأمير ملحم قد تعمّد أيضاً على يد البطريرك ميخائيل فاضل[٢٧].

جميع هذه الخطوات التي قام بها الأمير ملحم، لم تخرج مطلقاً عن سياسته فيما يتعلّق بالدروز. إذ عمل بكل ما في وسعه لزرع الشقاق بين زعماء الأسر المقاطعجية الدرزية على ضوء قوتهم ونفوذهم وسيطرتهم، ونجح مشروعه في هذا المجال عندما استطاع إضعاف هذه العائلات عن طريق الانقسام والتفكك بين زعمائهم، وكان بروز الحزب الجنبلاطي بزعامة الشيخ علي جنبلاط، والحزب اليزبكي بزعامة الشيخ عبد السلام العماد[٢٨] (نسبة إلى الشيخ يزبك بن العفيف) وعن طريق هذا الانقسام كان يعمد إلى تأجيج نار الخلاف والحساسيات بينهما لإحداث الضعف والتفكك في صفوفهما.

بدأ هذا الانقسام الدرزي بسعاية الأمير ملحم وسياسته القائمة على الفتنة. إلا أنه لم يكن صراعاً تناحرياً، بل كان صراعاً من أجل التفرّد بالسيطرة والنفوذ على الطائفة الدرزية، عندما بدأ الاستعمار يعطي الصيغ الطائفية للزعماء المقاطعجيين، ولم تشذّ الأسرة النكدية عن هذه القاعدة التي بقيت بعيدة عن الانتماء العلني لهذا الصراع، بينما انخرطت فيه بشكل أو بآخر في شتى مراحله وتطوراته. وهو ما أطلق عليه اسم «الغرضية» التي شملت مختلف العائلات والطوائف اللبنانية الأخرى. إذ أن النكديين كانوا يطمحون إلى الزعامة شأنهم شأن الأسر الدرزية المقاطعجية الكبيرة، التي تزعّمت كل منها حزباً أطلق عليه اسمها، كما برز ما يعرف «بالحزب النكدي» الذي كان يمثّل «بيضة القبّان» حسب ما أشيع في تلك الفترة. ومن المسلّم به أن

---

(٢٦) الصليبي، كمال. تاريخ لبنان الحديث، بيروت ١٩٦٧. ص ٤٠. وحيدر شهاب. ص ٤٩ ـ ٥٠ والشدياق. ص ٣٤. و Jawad Boulos, op. Page 122 (Tome 5)

(٢٧) Henri Guys. Relation d'un séjour... Tome II, Page 153 et Toufic Touma, op., Tome 2, Page 445.

(٢٨) سلمان، توفيق، أضواء على تاريخ مذهب التوحيد، بيروت ١٩٦٣. ص ١٧٨. و Toufic touma, op., Tome I, Page 84.

«بيضة القبّان» لا يمكن أن تبقى حيادية، ولهذا كان انخراط النكديين في الصراع جزءاً لا يتجزّأ من عملية السيطرة والنفوذ والتزعّم. «وكان مع الجنبلاطيين من الموارنة آل الخازن مثلاً والأمير منصور الشهابي، أخ الأمير ملحم، بينما كان مع اليزبكيين من الموارنة آل حبيش والدحداح، ومن الدروز آل عماد وتلحوق وعبد الملك»(٢٩).

لم يقف الأمر عند هذا الحد، حيث لم يقتصر الخلاف الجنبلاطي اليزبكي على الطوائف عامة، بل كانت سياسة الانقسام ترمي إلى إحداث المزيد من التفسّخ والتفكّك، حتى أصبحت العائلة الواحدة تنقسم بدورها إلى فريقين يقف كل منهما إلى جانب أحد الحزبين ضد الحزب الآخر. وقد أشار إلى ذلك الأمير شكيب أرسلان في رسالته المؤرّخة بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٩٣٨ إلى أحد أصدقائه (سعيد سعد الدين خالد) بعد الخلاف الذي حصل بسبب الوزارة بين حكمت جنبلاط والأمير مجيد أرسلان، مما أدّى إلى فقدان الدروز منصب الوزارة، وقد اقترح الأمير شكيب أرسلان «تعيين رشيد جنبلاط لأسباب وجيهة أولها: إنه بشخصيته مقتدر جدير بالمنصب، الثاني لأنه وإن كان من عائلة جنبلاط فلا يوجد له أعداء في عائلتنا ولا في اليزبكية، بل اليزبكية يميلون إليه وهم يحسبونه في الشوف يزبكياً، لأن فرع الشيخ نجم من آل جنبلاط هو ضد فرع الشيخ بشير، فيزبكية الشوف يعدّون فرع الشيخ نجم منهم»(٣٠).

ولا بدّ هنا من الإشارة، إلى أن هذا الانقسام اليزبكي الجنبلاطي رغم شموله جميع الطوائف اللبنانية، إلا أنه وقف عند حدود المقاطعات اللبنانية وحدها ولم يتعدّاها إلى المناطق الأخرى كما هي الحال فيما يتعلّق بالصراع القيسي ـ اليمني. وتفرّع عن هذا الانقسام انقسامات أخرى كانت جميعها تصبّ في مصبّ هذا النزاع وتخدم أهدافه، كما حصل بشأن الخلاف الشقراوي ـ الصمدي (بين عائلتي أبو شقرا وعبد

(٢٩) كمال الصليبي، مرجع سابق، ص ٣٩ ـ ٤٠. ويوسف مزهر، مرجع سابق، الجزء ١، ص ٤١٦ و Toufic Touma, op, Tome I, Page 78-79.

(٣٠) الأمير شكيب أرسلان في مقاله بعنوان «أني لا أرى موافقاً حرمان الدروز من نظارة» «أوراق لبنانية» لصاحبها يوسف إبراهيم يزبك، الجزء الخامس، نوار ١٩٥٦ ص ٢٢٦. كذلك يوسف أبو شقرا، الحركات في لبنان، بيروت ١٩٥٢، ص ٨٧.

الصمد في بلدة عماطور ـ الشوف) والذي أدَّى إلى صدامات بين العائلتين سقط على أثرها ثمانية عشر قتيلاً واثنا وعشرون جريحاً[٣١]. أو خلاف الأعور ـ هلال (في قرنايل من أعمال المتن) إلخ . . .

إن الأمير ملحم كان محترفاً في إثارة الفتن وخطط الانقسام. وهو الذي «فرض ضريبة جديدة على كل شخص قرشاً واحداً، فرفضها أهل البلاد في اجتماع عقدوه في عين الشوف بجوار السمقانية واضطروه لإلغائها فألقى العداء بين النكدية والعمادية. وفي سنة ١٧٥١ أوقع الفتنة بين النكديين فأضعفهم وأخرجهم من دير القمر، فنزحوا إلى حاصبيا ثم عاد الشيخ كليب (نكد) إلى دير القمر، والشيخ خطار (نكد) إلى المناصف، ونكاية بالدروز اعتنق الأمير ملحم وبعض أقربائه الدين المسيحي، فمهَّد هذا العمل الطريق لبعث الضغائن وإثارة الفتن بين الطائفتين المتصافيتين. وقد عزا البعض هذا العمل لغايات سياسية إذ أن المارونيين أصبحوا أوسع ملكاً وأكثر عدداً وتحميهم فرنسا»[٣٢].

هذا التحول الخطير في ميزان القوى لصالح الموارنة في القرن الثامن عشر وإحلالهم محل الدروز في السيطرة السياسية، أدَّى إلى أفول نجم الدروز. «لكنهم على الرغم من تفوّق الموارنة المتزايد عليهم، ظلّوا قوّة لا يستهان بها في البلاد. لذلك حرص الشهابيون الموارنة إلى وقت طويل على الظهور بمظهر الدروز»[٣٣].

كما يوضح أبو شقرا في «حركاته» عملية «احتلال الموارنة لجنوب ووسط لبنان وإثراء المسيحيين»[٣٤]، مما أدَّى إلى الإخلال بالميزان الطائفي في الإمارة.

الدروز في عهد الأمير يوسف شهاب:

وفي عام ١٧٧٠ «تنازل الأمير منصور عن الحكم وخلفه الأمير يوسف، الماروني المذهب، وبدأ عهد الشهابيين النصارى»[٣٥] وذلك في اجتماع وطني عام عقد في

(٣١) دومينيك شوفالييه، ص ٧٩ .Dominique chevalier, op, Page 79

(٣٢) الصغير، سعيد. بنو معروف (الدروز) في التاريخ. ص ٥٣.

(٣٣) الصليبي، كمال. مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣٤) أبو شقرا، يوسف. مرجع سابق. ص ٣٢.

(٣٥) الصليبي، كمال. مرجع سابق، ص ٤٠.

الباروك سنة ١٧٧٠، أعلن من خلاله أميراً على الجبل[٣٦]. لهذا يعتبر الأمير يوسف أول أمير شهابي ماروني على إمارة الجبل ابتداء من عام ١٧٧٠.

أكمل هذا الأمير سياسة أسلافه فيما يتعلّق بالطائفة الدرزية لإضعافها والقضاء عليها، بالرغم من الدعم الذي لقيه من زعمائها طوال فترة حكمه. ويجب علينا أن لا نستغرب هذا النهج علماً بأن الأمير يوسف كان يعمل كل ما في وسعه من أجل الاحتفاظ بكرسي الإمارة، ولهذا عمد سنة ١٧٧٩ إلى قتل أخويه بنفسه (سيد أحمد وأفندي)[٣٧] لأنهما كانا ينازعانه الحكم ويعتبران أنهما أحق به منه. «كما قتل أيضاً خاله الأمير اسماعيل ومدبّر خاله أيضاً وهو أيوب مطر»[٣٨]. و«وضع يده على إقطاع جميع الأمراء واستورد ما يرد منها سنة ١٧٧٦»[٣٩].

وعلى الرغم من وقوف الأعيان الدروز إلى جانبه، وكانوا سبباً في إيصاله إلى سدّة الإمارة، فإنه بدأ منذ ١٧٧٤، بمجافاة أصحابه هؤلاء مبتدئاً بالجنبلاطيين حيث «ثقّل على قرى الشيخ علي جنبلاط التي في البقاع نكاية بأخيه لأنه (علي جنبلاط) كان من أعظم أحزابه». وفي سنة ١٧٧٦، «وجّه لبيت أبي اللمع طائفة «اللاوند» إلى بيروت ليقهرهم، ويقودهم إلى طاعته ودفع المال الأميري حيث تمرّدوا وعصوا، فأحرقوا (اللاوند) المكلّس والجديدة والدكوانة التابعين إقطاع بيت أبي اللمع. . . وصادف جماعة من بعض أهالي الشوف فقتلهم وفعلوا فعالاً رديّة»[٤٠]. ولم تنجُ الأسرة النكدية من بطشه، حيث وجّه لها ضربة كبرى أجبرتها على النزوح إلى منطقة جبل عامل. ولكن النفوذ الذي كان يتمتّع به سعد الخوري مدبّر الأمير يوسف (كان سعد الخوري المدبّر والمخطّط لسياسة الأمير يوسف وأنه حاكم الإمارة الفعلي. مسعود

---

(٣٦) Jawad Boulos, op. Page 122-123. Gabriel Ankiri, op.Page 8-Toufic Touma, Tome I, Page 94- Michel chibli, op. Page 91.

(٣٧) حيدر شهاب. لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، بيروت ١٩٦٩، ص ١٢٨. وتاريخ الأمراء الشهابيين بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم، ص ١٣٩ ـ ١٤١. وتاريخ حوادث الشام ولبنان أو تاريخ ميخائيل الدمشقي. مؤلف مجهول. دمشق دار قتيبة ١٩٨١، ص ١٦٣.

(٣٨) تاريخ حوادث الشام ولبنان، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٣٩) حيدر شهاب، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٦.

(٤٠) حيدر شهاب، ج ١، ص ١٢٠.

ضاهر، الجذور. . . ص ١٩٩)، هذا النفوذ فرض على الشيخ كليب النكدي أن يرسل إليه كتاباً يطلب منه فيه التدخل مع الأمير يوسف للحصول على العفو والرضى، فأجيب إلى طلبه «نكاية بأخويه سيد أحمد وأفندي وبالجنبلاطيين»[٤١]. كما عمد الأمير يوسف لتقوية بعض العائلات الدرزية لتقف ندّاً للبعض الآخر على طريق تفتيت قوتها وإضعافها، وهي السياسة نفسها التي انتهجها الأمير بشير فيما بعد. ونجح بها نجاحاً كبيراً. والمعروف أن مشايخ النكديين «خدموا عند الأمير يوسف حينما كان حاكماً وجعل نظره عليهم وقدَّمهم عنده حتى صاروا من خواصه يسمع شورهم وكلامهم نافذ. والأمير قصد بذلك لتصغير جنبلاط بنوع خصوصي»[٤٢].

وكان لآل القاضي نصيبهم أيضاً من بطش الأمير يوسف، حيث أقدم على فقء أعين الشيخ محمد القاضي وقطع لسانه لأنه كان من أبرز زعماء حركة التمرّد والعصيان ضده[٤٣].

إن سياسة الأمير يوسف كانت تنطلق من تعصب مذهبي واضح، ضد الطائفة الدرزية بكل ما تمثله من قوة ونفوذ. كما ترتكز أيضاً على العامل السلطوي المتمثل بتفرّده بالحكم واحتفاظه بكرسي الإمارة دون منازع. ولم يدّخر جهداً في اتباع جميع الطرق والأساليب لانتزاع مراكز النفوذ من أيدي الدروز. ولهذا «كانت مرحلة حكمه وأولاده ومدبريهم من أكثر المراحل أهمية في ازدياد أملاك الرهبانية المارونية وتوسّعها داخل المناطق اللبنانية. . . وازداد نفوذ الكنيسة المارونية وأديرتها وهيمنتها الاقتصادية والسياسية على أتباعها. وقدم الأمير يوسف شهاب الكثير من الوقفيّات والهبات لهذه الكنيسة مع إعفاء شبه كامل من الضرائب، فخرجت مع نهاية حكمه في مطالع القرن التاسع عشر كإحدى القوى الأكثر غنى ونفوذ إلخ. . .»[٤٤].

وكانت الضرائب التي فرضها هذا الأمير من أكبر العوامل التي سببت النقمة عليه. حتى توصل أخيراً إلى أن «وضع رسماً على الشاشيات أي العمامات، الذي سمّاه

---

(٤١) حيدر شهاب، ج ١، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٤٢) تاريخ حوادث الشام ولبنان، مرجع سابق، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٤٣) توفيق توما. الجزء ١، ص ٩٦. Toufic Touma, op, Tome I, Page 96

(٤٤) ضاهر، مسعود. الجذور التاريخية. . . مرجع سابق، ص ١٣٠ و١٨٩.

العـامة قـرش الشاشـة، وذلك انتقـاماً من الـدروز لشدّة كـرهه لهم ولأن أكـثر لابسي الشاشيات كـانوا دروزاً. فـاعترض عـلى هذا الأمـر شيخ مشـايخ عقـال الدروز كـافة الشيـخ يوسف عـربيد أبو شقرا من عماطـور وحضر عنده في سراي ديـر القمـر حيث جرت بينهما المحاورة والمداولة بهذا الشأن فلم يرتـدع الأمير بـل أصرّ على رأيـه متهدداً الشيخ بقوله: «البلاد لا تسع يوسفين» فأجابه الشيخ «فليرحل المتضـايق» أو (المزروك يرحل» وخـرج مغضباً. فـالتقاه في سـاحة الـدير غنـدور الخوري، كتخـداي (مدبّـر) الأمـير، فقال لـه: أبلغت منك الجسـارة يـا حضرة الشيـخ حتى قلت لسعـادة الأمـير (فليرحل المتضايق) تالله لأحمينّ فرن دير القمر بشاشات العقّال. فانتهره الشيخ يوسف قائلاً: والله العـظيم لتكسير رأسـك ورأس سيّدك يـوسف شهاب بهـذه العصا أسهـل جداً من إحماء فرن دير القمر بشاشات عقال الـدروز. ولكن لأفعلن وأفعلن! ومضى وبـات تلك الليلة في بعقلـين غير أنـه ما نـزل في فراشـه حتى كتب إلي جميـع الأنحـاء وصرف الرسل كلًا إلى ناحية. أما نص الكتاب فهو كما يأتي:

أخواننا أبناء الطاعة!

يقتضي حضـوركم في النهار الفـلاني إلى مرج بعقلين بـالأسلحة الكـاملة والمؤن والذخائر الوافرة لأمر يحبه الله»[٤٥].

وبعد أن لمس الأمير خطورة إصراره على قـراره، وعلم بالحشـودات الدرزيـة في مرج بعقلين لمهاجمة دير القمـر، تدّخـل النكديـون وأقنعوا الأمـير بوجـوب التخلي عن عناده، فأذعن لهم، وأعادوا المياه إلى مجاريها بينه وبين الشيـخ يوسف أبي شقـرا. لكن فترة الوداد والمعـاملة الحسنة لم تستمـر طويـلاً بينهما لأن الشيـخ عندمـا ركن إليه «دسّ الأمير له سماً في طعام قدّمه له ولأحد رجاله من ذوي قرباه وهو الشيخ خـطار نجم نمر

(٤٥) أبو شقرا، يوسف. الحركات... مرجع سابق. ١٦٦ - ١٦٧.
ويذكر هذه الحادثة كثير من المؤرخين أيضاً: حيدر شهاب، لبنـان في عهد الأمـراء الشهابيـين. ج ١، ص ٤٠ و١٢٧. وميشال شبلي، تاريخ لبنان، ص ٨٣ و١٣٣ (بالفرنسية) طنوس الشدياق، أخبار الأعيـان في جبل لبنان. ج ١. ص ١٥٢. توفيق سلمان ص ١٩٩.

أبو شقرا فقضي عليهما مسمومين فكان فقد الشيخ يوسف فاجعة أكبرها أهل البلاد. وصحت منهم الهمم للشغب عليه والعمل على عزله»[٤٦].

عاث الأمير يوسف في الجبل فساداً وظلماً. وأرهق الشعب بالضرائب إرضاء لسيّده الجزار في عكا. مما أدى إلى نقمة كبيرة عليه حملته على اعتزال الحكم عام ١٧٨٨، مفسحة المجال أمام الأمير بشير الشهابي الثاني الذي لقّب «بالكبير»[*] كي يتسلّم زمام الحكم مكانه. وقد لعب الدروز، الدينيون والدنيويون، دوراً بالغاً وأساسياً في عملية عزل الأمير يوسف والاتيان بالأمير بشير حاكماً على الجبل. وكان للشيخ حسين ماضي من العبادية (شيخ عقل الدروز)، الدور المهم والمؤثر، كما كان للشيخ بشير جنبلاط والشيخ عبد السلام العماد دوراً مماثلاً في ذلك، حيث كانا من الزعماء السياسيين الكبار.

وقد أشار الشيخ «صالح عبد الخالق» إلى هذه العملية مؤكداً دور الشيخ حسين ماضي إزاء الأمير يوسف الشهابي، وموضحاً المهمة الصعبة التي نفذها الشيخ حسين مع الجزار في عكا بصدد العزل.

ففي مقال بعنوان: «علم تاريخي من أعلام الدروز واجه الجزّار بجرأة أوقفت بطشه»[٤٧] قال الشيخ عبد الخالق: لا يخفى على أحد أن الدور الأول في تولية الحكام وعزلهم كان الزعماء «الدروز» فيه الحد الفاصل، فاتفق هؤلاء الزعماء يوماً على اجتماع يعقدونه في أواسط البلاد ليسهل الوصول إليه (إشارة إلى وصول الشيخ حسين ماضي من العبادية)، فاختاروا أن يكون اجتماعهم في «نبع الصفاء»، والغاية من ذلك تعريف «أحمد باشا الجزار» والي عكا بما تنطوي عليه أعمال الأمير «يوسف الشهابي» من سوء تصرّف في البلاد عامة.

فأرسل الزعماء رسولاً للمرحوم الشيخ «حسين ماضي» لحضور الاجتماع فلبّى

(٤٦) يوسف أبو شقرا. الحركات في لبنان. ص ١٦٨. وتوفيق سلمان، أضواء على تاريخ مذهب التوحيد. بيروت ١٩٦٣. ص ١٨١.

(٤٧) مجلة «الأنباء» (الناطقة بلسان الحزب التقدمي الاشتراكي في لبنان)، العدد ١٣١٣ الاثنين ١٦ حزيران ١٩٨٠، ص ١٤.

الشيخ الطلب، إلا أنه وصل متأخراً لسبب «ما» فاستماحهم عذراً مقبولاً، فقال له الزعماء: لقد طال الوقت وتأخرتم حضرتكم، فلقد اتفقنا جميعاً على أن نرفع «عريضة» إلى والي عكا لنعرفه سوء تصرّف الأمير «يوسف» وأخطاءه، وأنه لن يصلح للحكم في البلاد، وهذه هي «العريضة» وقد وقّعناها كلنا وتركنا لحضرتكم المقام الأول للتوقيع، إلا إننا تداولنا في مَنْ يأخذها للجزار.

وكانت ميزة ذلك السفاح أنه في أكثر الأوقات يفاجىء من يدخل عليه بالسؤال الآتي: هل أنا عادل أم ظالم؟ فإن أجابه المخاطب أنت عادل قتله، وإن أجابه أنت ظالم قتله أيضاً.

فعندها أطرق الشيخ قليلاً، ورفع رأسه وأخذ العريضة ووقّعها وقال، إن شاء الله تعالى لن أقبل أن يأخذها إلى «عكا» أحد غيري، فأجابه الزعماء لا نقبل أن تضحي بشخصكم الفاضل أمام هذا السفاح، فأجابهم الشيخ بكل سكينة وتواضع، لقد قررت أن أذهب بنفسي، فالروح عاجز أن يمسّها بأذى، والجسم يفعل فيه ما يشاء.

وهكذا شاءت الأقدار، فسار ذلك الشيخ الوقور على بركة الله إلى أن وصل مدينة عكا وطرق باب الجزار فأذن له بالدخول، فدخل وسلم ولم يكن يعرفه من قبل، ورفع العريضة إليه، فأخذها وقرأها وعرف مضمونها، ولم يظهر الجزار ما في نفسه، لأنه كان يميل إلى الأمير «يوسف»، إنما بادره بالسؤال قائلاً:

– يا شيخنا، هل أنا عادل أم ظالم؟ فأجابه الشيخ بكل جرأة وإقدام، لا أنت عادل ولا ظالم، إنما من قبل الأعمال تأتي المصائب، فأكثر هذا الشعب قد أهمل واجباته الدينية فسلط الله عليه حاكماً مثلك، وما أنت بين يديه تعالى يوم الحساب إلا عبد ضعيف.

فعندما أدرك الجزار ما للشيخ من قوة في اليقين وجرأة على الحكام مهما تجبّروا، فوقف بخشوع واحترام وقال: أهلاً وسهلاً بالجليل الطاهر، فإنني سأنفذ كل ما تطلبونه مني، وطلب من الشيخ أن يتريّث قليلاً، وأمر بعض حاشيته فإذا به يأتيه بكيس مليء بالنقود الذهبية ورفعه إلى الشيخ قائلاً، هذا لحضرتكم تصرّفوا به كما

تشاؤون، فأجابه الشيخ بكل جرأة: أنا لن آكل إلا من أتعابي. فقال له الجزار: أنفقه في سبيل الخير. فأجابه: إن الدولة بحاجة إلى هذه النقود وهي أحق بها. فعندها أمر الجزار له بجبّة من الصوف، فقال له الشيخ: أنا لا ألبس إلا من نسيج يدي. فزادت دهشته في ذلك الجليل الوقور وقال له: يا شيخي أتقبل مني هذه الهدية الأخيرة، وقدّم له مصحف القرآن الكريم، فأجابه: بكل اعتزاز، نعم أقبلها فهذا كتاب الله العزيز. وكانت مقابلة الشيخ للجزار هي السبب الأكبر لعزل الأمير «يوسف الشهابي» وتولية الأمير بشير عمر(*) الشهابي، وذلك في سنة ألف ومايتين واثنين للهجرة. وعاد الشيخ منفذاً تلك المهمة الشاقة غير آبه بالحكام الظالمين، لا تأخذه في الحق لومة لائم، موفور الكرامة، ثابت اليقين، والله يؤيد بنصره من يشاء».

ويعتبر الشيخ حسين ماضي من المراجع الروحية الكبرى لدى الطائفة الدرزية ويحتل المكانة المرموقة عند العقال الدروز. كما يتناقل المشايخ في سهراتهم الدينية قضية مواجهة الشيخ حسين للجزار في عكا بشأن مظالم الأمير يوسف الشهابي. كما كان لمقتل الشيخ يوسف عربيد أبي شقرا (شيخ ذلك العصر الروحاني) والشيخ أحمد دبّوس (مدبّر الشيخ عبد السلام العماد)، على يدي الأمير يوسف الشهابي، وهما «من أفضل رجال ذلك العصر ورعاً، وأعلاهم في أعين الجمهور شأناً، فضلاً عن سمله عيون عدد عديد من أقربائه ظلماً وعدواناً، وضربه على اللبنانيين الضرائب الفاحشة»[48]، الأثر الكبير في النقمة عليه وعزله.

كل ذلك، كان من العوامل الهامة التي أدت لإحلال الأمير بشير مكانه بسعاية الشيخ بشير جنبلاط وعبد السلام العماد اللذين ودّعاه في جونيه إلى عكا قائلين له: «إذهب فهذا ثأر يوسف أبي شقرا وأحمد دبّوس، حيث أعدم شنقاً مع مدبّره الشيخ سعد الخوري على يد الجزار»[49].

(*) لم يكن الأمير بشير «كبيراً» إلا في عمالته للغرب ومخططاته الاستعمارية، وتآمره على كل سياسة وطنية قائمة على الحرية والعدالة والأخوّة والمساواة.

(٤٨) يوسف أبو شقرا، الحركات في لبنان، مطبعة الاتحاد. بيروت ١٩٥٢، ص ١.

(٤٩) يوسف أبو شقرا، المرجع السابق. ص ١٠٣.

الدروز في عهد الأمير بشير الثاني:

ولد الأمير بشير في غزير سنة ١٧٦٧، يوم كان والده الأمير قاسم متسلّماً على تلك المقاطعة من قبل الأمير يوسف. ويذكر البعض «أن الأمير قاسم اعتنق الدين المسيحي سنة ١٧٦٤(*) على يدي المطران يوسف اسطفان، الذي صار فيما بعد بطريركاً، وولد ابناه حسن وبشير مسيحيين مارونيين»[٥٠]. ويعقب الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك على ذلك قائلاً: «من المؤكد الذي لا شك فيه أن الأمير بشير مات مسيحياً ودفن مسيحياً. . . ولكن الذي يهمّنا من ذلك هو: دينه يوم كان حاكماً»[٥١]. ورغم الغموض الذي يعتري هذه الفترة فيما يتعلق بدين الأمير بشير فإن بعض الباحثين يذهب بعيداً في «مارونيّة» هذا الأمير ـ بصورة كيفية ـ دون أي دليل أو برهان على هذه المارونية «إبّان وجوده حاكماً على الإمارة في ظل الدولة العثمانية السنّية، حتى يصل الحال بالأستاذ سليم خطار الدحداح إلى القول بأن الأمير بشير الثاني كان «درّة الشهابيين وفخر الموارنة»[٥٢]، لكن الواقع أن اعتناق الشهابيين للديانة المسيحية كانت كلها «عملاً سياسياً»، وليس دين الأمير بشير فقط على حد قول الاستاذ توفيق توما[٥٣]، حملت أبعاداً تجاوزت بمخاطرها كل الطوائف اللبنانية، وأثرت بشكل خاص على الدروز باعتبارهم القوّة الأساسية المتحكّمة بمقوّمات الإمارة.

وليس خافياً على أحد بأن كبار المقاطعجيين الدروز وزعمائهم السياسيين، هم الذين أوصلوا الأمير بشير حاكماً على الإمارة بعد الاستياء والنقمة التي قامت في وجه الأمير يوسف نتيجة سياسته ونهجه، في الوقت الذي كان فيه الأمير بشير «لا يملك من حطام هذه الدنيا إلا حماراً وجملاً». وكان الشيخ بشير جنبلاط من أقوى زعماء الدروز

(*) بعد الأمير يوسف، تولى الحكم الأمير بشير قاسم الشهابي. أما بشير عمر الشهابي فهو بشير الثالث.

(*) يقول الصليبي (ص ٤٨) أن الأمير قاسم تنصّر سنة ١٧٦٧. بينما يحدد شوفالييه (٩٤ ـ ٩٥) عام ١٧٦٠.

(٥٠) «أوراق لبنانية». الجزء السادس. حزيران ١٩٥٦. ص ٢٤٩ و١٥٨ (لحد خاطر والخوري يوسف أبو صعب).

(٥١) «أوراق لبنانية»، المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(٥٢) هنري أبو خاطر، من وحي تاريخ الموارنة. بيروت ١٩٧٧. ص ١٣٤ و١٣٩.

(٥٣) توفيق توما. الجزء ٢. ص ٤٤٥. Toufic Touma, op., Tome 2. Page 445.

وأكثرهم نفوذاً في تلك الفترة، حيث كان الأمير بشير لا يستطيع القيام بأي عمل إلا بموافقة الشيخ الجنبلاطي، حتى أن الأستاذ يوسف أبو شقرا يذكر في «حركاته» أن الأمير الشهابي كان يرسل بكل ما يأتيه من عكا من الرسائل إلى الشيخ في قصر المختارة فيفضّها ثم يرسلها إلى الأمير الشهابي للإطلاع عليها. وهنا تكمن قوة الشيخ ونفوذه.

وبالرغم من الدعم الدرزي الكامل للأمير بشير، إلا إنه كان استمراراً لأسلافه، مخلصاً وأميناً لسياستهم[٥٤]، حيث «اتبع سياسة معادية للدروز ساهمت في زرع بذور التفرقة بين الدروز والموارنة»[٥٥]، انطلاقاً من جبل لبنان الذي كان «يعتبر القلعة الطبيعية الكبيرة القائمة بين العالم الشرقي والغربي»[٥٦].

وكان المسيحيون يشعرون بأهمية السلطة الدرزية، في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يعملون في الأراضي الخاضعة لسيطرة المقاطعجيين الدروز. لكنهم «كانوا يتحيّنون الفرص المؤاتية لرفع نير الدروز عنهم وهؤلاء كانوا يواصلون تأهباتهم لحفظ سلطتهم بالقوّة وردّ هجوم محكوميهم»[٥٧].

لم تقتصر أهمية جبل لبنان على موقعه الطبيعي فقط، بل كانت مميزاته من جميع النواحي، نقطة الثقل الأساسية في تركيز المستعمرين الأوروبيين ـ خاصة الفرنسيين والانكليز ـ وإعطائها الاهتمام الكبير. واستفادوا من موقعه الاستراتيجي لإثارة الخلافات الطائفية هناك، ولممارسة تأثير سياسي، عن هذا الطريق، على الباب العالي[٥٨]. كما «اتجهت الأطماع الفرنسية نحو سوريا وجبل لبنان لما يشكلان من أهمية حيوية بالنسبة لمستقبل المصالح الفرنسية في البحر المتوسط. . .» وهذا ما عبر عنه

---

(٥٤) Dominique chevalier, op., Page 91-92. et Gabriel Ankiri op., Page 12.

(٥٥) العقيقي، انطوان ضاهر. ثورة وفتنة في لبنان. بيروت ١٩٣٩. ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٥٦) زين، نور الدين زين. الصراع الدولي في الشرق الأوسط، دار النهار للنشر. بيروت ١٩٧٧. الطبعة الثانية. ص ١٤ ـ ١٥.

(٥٧) الخازن، فيليب وفريد. مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان. المجلد الثاني. مطبعة الصبر. جونيه ١٩١١. ص ٩٩.

(٥٨) د. شوفالييه، ص ٢٨٧. Dominique Chevalier, op., Page 287.

جورج ليغ، وهو وزير سابق للبحرية الفرنسية في تصريحه قائلاً بأن «محور السياسة الفرنسية قائم في البحر المتوسط» وأضاف «إن أحد قطبي هذا المحور قائم في المغرب أي في تونس ومراكش، والآخر في المشرق عبر سوريا ولبنان اللذين يشكلان أحد الميادين المفضلة للنشاط الفرنسي، نظراً لمصالحنا الاقتصادية، ولنفوذنا المعنوي فيهما»[٥٩]. وقد أكد على هذه الأهمية موفد البطريرك الماروني في مذكرة تضمنت آراءه قدّمها للسيد بورجوا Bourgeois، عام ١٩٢٠، حوّلت عن طريق الجنرال غورو إلى إدارة الشؤون السياسية والتجارية، موضحاً فيها أنه «يجب أن يبقى لبنان معقل النفوذ الفرنسي في الشرق وكلما كان قوياً وقابلاً للحياة، رسّخت فرنسا مكانتها في كامل سوريا»[٦٠]. وانطلاقاً من ذلك، ركزت أوروبا سيطرتها على قلعة سوريا الحقيقية المتمثلة بجبل لبنان، وعندما يكون السكان الذين يقطنون جبل لبنان مسالمين، تكون التحركات التي يمكنها تعكير صفو الأجزاء الأخرى من سورية، غير ذات أهمية سياسية ومحلية محضة، وباستطاعة الأتراك دائماً السيطرة على هذه التحركات، ولكن إذا تحرك جبل لبنان فانتفاضاته تزعزع المقاطعات الملتصقة به في الشمال والجنوب، وفي حال كانت هذه الثورات سببها الأتراك وموجّهة ضدّهم، فثورات سورية كلها تتجه الاتجاه نفسه[٦١]. وعند وصول الأمراء الشهابيين إلى سدّة الحكم، والأمير بشير الثاني خصوصاً، تلاقت الأهداف الأوروبية مع الأهداف العثمانية التي كانت تستند لقاعدة «فرّق تسد». وكان جبل لبنان نقطة التلاقي هذه عبر الطوائف المتواجدة فوق أرضه لزعزعة كيانه وتحقيقاً للسياسة الخبيثة التي أوضحها وزير الخارجية الفرنسية آنذاك بقوله: «والحزب التركي القديم النازع دائماً إلى سياسة العنف والخداع وسفك الدماء يحلم بإبادة الدروز بواسطة الموارنة وبالعكس»[٦٢].

ووجدت هذه السياسة تربة خصبة في الأمراء الشهابيين بلغت ذروتها في عهد بشير الثاني والتي سبّبت الفتن الدموية بين الطائفتين بدءاً من عام نفيه في ١٨٤٠.

---

(٥٩) مسعود ضاهر. تاريخ لبنان الاجتماعي. دار الفارابي بيروت ١٩٧٤. ص ٢٠.

(٦٠) وجيه كوثراني. بلاد الشام. . معهد الانماء العربي، بيروت ١٩٨٠. ص ٣٤٣.

(٦١) Adel Ismail, Documents . Tome 7, Page 84-85.

(٦٢) انطوان ضاهر العقيقي. ثورة وفتنة في لبنان. المرجع السابق، ص ٦.

ورغم «طائفية» هذا الصراع إلا أنه لم يكن خلافاً دينياً، تدخّل فيه الأوروبيون والعثمانيون ولعلهم كانوا يودّون التخلص من الفئتين معاً. «ففي سوريا آفتان هما الدروز والمسيحيون، فكلما ذبح أحدهما الآخر، استفاد الباب العالي، يقول أحمد باشا والي دمشق ومشير فيلق الأقطار العربية»(٦٣).

وكما كان الأمير يوسف محباً للسلطة والجاه، فقد كان «تلميذه» الأمير بشير نسخة عنه أيضاً، وطبّق الأساليب المشابهة لأساليب سلفه مع أمراء الأسرة الشهابية التي ينتمي إليها. ومن خلال دراسته بعمق ندرك صحة الاستنتاج الذي طلع به شاهد العيان صاحب «تاريخ حوادث الشام ولبنان» واصفاً الأمير بشير بأنه «عديم الوفاء ولا أمان له ولا يركن به. . . يحب السلطة والمال ويرغب جمع المال بأي نوع اتفق له. وزاد أموال الميري عن المعتاد»(٦٤). وكما أقدم الأمير يوسف على إعماء أخويه وقتلهما، كذلك فعل الأمير بشير مع أبناء الأمير يوسف (حسين وسعد الدين وسليم) عندما أعماهم بغضة وافتراء في عام ١٨٠٧ بشيش حديد(٦٥).

ولم يقف الأمير بشير عند هذا الحد، حيث اتخذ سياسة «تحطيم الرؤوس» قاعدة لحكمه ونهجاً سار عليه طوال وجوده على رأس الإمارة. فقضى على نحو تسعة وستين مقاطعجياً بينهم حوالي خمسة عشر أميراً من الشهابيين. ولكن قساوته وبشاعة جرائمه تمثلت بتعذيب الأمراء عباس وسلمان وفارس شهاب سنة ١٨٢٤ حيث «حاشهم الأمير (بشير) في أوضة ثم مساء أرسل لهم بلوكباشي وجماعته كتّفوهم وأعموا أعينهم بشيش حديد محمي بالنار ثم بعد عماهم ما شفي قلب الأمير بشير منهم بل أمر بقطع ألسنتهم أيضاً. وهذه انعدّت قساوة وحشية. لأن القتل أهون من هذا العذاب. فبعدما قطعوا ألسنتهم طلب ينظر ذلك فجابوهم له في صحن فوجد منهم لسان قصير قطعه ما هو كامل. فتخلّق على البلوكباشي وأمره بأن صاحب هذا اللسان يقطعه مليح. ثم باتوا ليلتهم تلك بالسجن وثاني يوم أخذوهم لبيوتهم وهم عميان خرسان»(٦٦).

(٦٣) هنري أبو خاطر. من وحي تاريخ الموارنة. المرجع السابق. ص ١٣٣.
(٦٤) تاريخ حوادث الشام ولبنان، مرجع سابق، ص ١٣٠ و١٥٤.
(٦٥) تاريخ حوادث الشام ولبنان، مرجع سابق، ص ١٢٨ و١٣٠.
(٦٦) تاريخ حوادث الشام ولبنان، مرجع سابق، ص ١٤٥.

ومنذ وصوله إلى الحكم، عمل الأمير بشير على «مركزة السلطة» والضرب بيد من حديد على التسلّط المقاطعجي في حدود إمارته. ولأن المقاطعجيين الدروز كانوا يمثلون القوة الأساسية والنفوذ الواسع ـ وعلى رأسهم الشيخ بشير جنبلاط ـ في وجهه كحاكم أول ـ بصورة اسمية ـ لا يملك الحد الأدنى من مقومات المواجهة والصراع، فلجأ إلى استغلال الفرص المناسبة لتوجيه الضربات الموجعة لزعماء العائلات المقاطعجية من ناحية، وتحريض بعضها على البعض الآخر من ناحية أخرى بهدف إضعافها وخلق العداء التناحري بينها، وصولاً للتحكم بها وإخضاعها على طريق «مركزية السلطة». وكان لبعض العائلات الدرزية دورها المهم في توجيه الضربات المؤثرة والقاضية في بعض الأحيان لعائلات أخرى درزية، لمصلحة الأمير الحاكم، وأضعافاً لدورها هي، في الوقت الذي كانت تمثل «العصا الغليظة»، والتي انقلبت ضدها فيما بعد.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الأسرة الجنبلاطية، كانت تقف على رأس العائلات المقاطعجية، ومن أبرزها محلياً في الجبل والتي وجدت في ضعف السلطة المركزية عصرها الذهبي، فراحت تنشىء الأحلاف ساعية «إلى تأييد أمير شهابي معزول شعبياً وفقير مادياً حتى يبقى تحت نفوذهم طيلة حكمه وإلا خذلوه وناصروا غيره»[٦٧].

ولم يكن الإتيان ببشير الشهابي الثاني إلا حلقة من هذا المخطط، حيث أن «الشيخ بشير جنبلاط كان يحلم بتولي حكم لبنان»[٦٨]. في هذا الوقت كانت الطائفة الدرزية بجنبلاطيّيها ويزبكيّيها، كلها كتلة واحدة ويداً واحدة، تأتمر بأوامر الشيخ الجنبلاطي الملقب بعامود السماء «تقوم إذا قام وتقعد إذا قعد»[٦٩]. ولا بد أن قوة الشيخ جنبلاط ونفوذه هذا كان هاجساً مخيفاً يثقل صدر الأمير الشهابي، وهذا ما دفع القنصل الفرنسي «هنري غيز» إلى القول «لم يكن الأمير يعين مأموراً أو يعزل موظفاً

---

(٦٧) مسعود ضاهر في مقال بعنوان «صراع المركزية داخل النظام المقاطعجي اللبناني» مجلة «دراسات عربية» السنة الثالثة عشرة (الأعداد ٣، ٤، ٥، ٦، ٧)، ١٩٧٧، ص ١٠٩.

(٦٨) يوسف أبو شقرا، الحركات... مرجع سابق، ص ١٥.

(٦٩) يوسف أبو شقرا، الحركات... مرجع سابق. ص ٤.

إلا بأمر الشيخ أيضاً»[٧٠]. وليس من المعقول أن يرضى أمير كبشير الشاني ببقائه أسيراً لأوامر الشيخ الجنبلاطي وسياسته، وكان لا بد له من التفكير في التخلص من وصايته، فقضى على معظم خصومه ومناوئيه بسيف الجنبلاطي ودعمه ومساندته. وهكذا «كان مخططه (الأمير بشير) لمركزة حكمه في إمارة الجبل مربّع الزوايا أو بالأحرى على أربع مراحل متصلة ووثيقة الحلقات: المرحلة الأولى، القضاء على المقاطعجيين الذين لا يسبب القضاء عليهم أي تحالف ضد الأمير وأعوانه. المرحلة الثانية، تشجيع الأمير بشير للمقاطعجيين الصغار ضد الأسر المقاطعجية الكبيرة. المرحلة الثالثة، تفتيت ثروة الأمراء الشهابيين والحد من أطماعهم في الإمارة. المرحلة الرابعة، ضرب العائلة الجنبلاطية والقضاء على آخر العقبات أمام المركزية»[٧١]. وانطلاقاً من ذلك، وجّه الأمير بشير ضربة محكمة للقوّة الدرزية الكبرى التي كانت تحيط به كالطوق حول إمارته، تلك القوة المتمثلة بالعائلة النكدية، بعد أن أوغر صدر الشيخ الجنبلاطي ضدها «وقام بتدبير أوراق مزوّرة صادرة عن مشايخ النكديين تتضمن مخططاً للفتك بزعماء الجنبلاطيين. وفور انكشافها دعا الأمير بشير الشيخ الجنبلاطي للقضاء على هؤلاء «الخونة». فتمت المجزرة في ٢٣ شباط ١٧٩٧ في سراي[*] دير القمر بالذات»[٧٢]. «وكانت ساعة مرعبة، حيث قتل أحد عشر نفراً (من النكديين) بإهانة وأرموهم في بير معروف بدير القمر، وبقي نفرين ما حضروا وأولادهم في بيوتهم»[٧٣]. وقد وصف الكولونيل الانكليزي تشرشل هذه الواقعة بأنها «كانت دليلاً على الغدر»[٧٤].

---

(٧٠) هنري غيز. بيروت ولبنان خلال قرن ونصف القرن. ترجمة مارون عبود. بيروت دار المكشوف. ١٩٤٩. الجزء ٢. ص ٥٧.

(٧١) مسعود ضاهر. «دراسات عربية» المرجع السابق. ص ١١٢ - ١١٦.

(*) هي السراي التي قتل فيها الأمير يوسف بعض أقاربه الأدنين. كما أن الأمير بشير اغتال في قاعتها بعض المشايخ النكديين ورمى برؤوسهم في سوق الدير زيادة في الإرهاب. (أوراق لبنانية.) الجزء السادس. حزيران ١٩٥٦. ص ٢٦٧).

(٧٢) مسعود ضاهر، دراسات عربية. ص ١١٢. و Michel chibli, op. Page 201.

(٧٣) تاريخ حوادث الشام ولبنان، مرجع سابق، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٧٤) عارف النكدي. مخطوطة (أبو نكد). ص ٥.

وبقضائه على النكديين «تخلّص الأمير من أكبر عائلة مقاطعجية متحكّمة في قاعدة حكمه دير القمر بالذات. إذ كان المشايخ النكديون يسيطرون على إقليمي دير القمر والمناصف، أي الإقليمين اللذين يحيطان بالأمير وحاشيته وجنده من جميع الجهات. وبالقضاء عليهم تحرَّر الأمير من كابوس ثقيل وبدأ يسيطر فعلياً على الأراضي التي يقطنها مع بعض المناطق المجاورة»[٧٥]. كما أن حصة الشيخ بشير وأخاه حسن جنبلاط كبيرة كانت من هذه المناطق. وكذلك عائلة «العقيلي» التي «اشترت» بعض أراضي النكديين المتبقية (عن حصة المشايخ الجنبلاطيين)، «فتمّ بذلك دمار آل نكد سياسياً واقتصادياً ولم يعد لهم أي وزن فعلي في سياسة الجبل»[٧٦].

والجدير بالذكر، أن تركيز الأمير الشهابي على دير القمر، كقاعدة اقتصادية وسياسية درزية، كان ينطلق من خلال ضرورة ضبطها والسيطرة عليها بما يتوافق مع المصلحة الشهابية. عندها لم يعد من المستغرب أنه «في أيام الأمير بشير جلا عن الدير آل شنيف إلى عين أوزيه، وآل السعدي والمصفي إلى كفرنبرخ لخلاف شجر بينهم وبين آل نكد»[٧٧]. وكانت عملية إفراغ الدير من سكانها الدروز هدفاً شهابياً مهماً تمَّ تحقيقه بصورة نهائية بعد أحداث ١٨٦٠، حيث يذكر أبو شقرا قائلاً: «بعد سنة ١٨٦٠ جلا عن الدير كل من كان فيها من الدروز نذكر منهم العيال التالية: علي صالح، بوعلي يونس (عماطور)، أبو ناصر الدين (بطمة)، الخبيص (كفرنبرخ)، غنّام (كفرحيم)، نجّار (بعقلين)، أبو ضرغم (دميت)»[٧٨].

بعد ذلك، عمد الأمير الشهابي إلى إيقاد شهوة الانفراد بالسيطرة المقاطعجية في نفوس آل أبي علوان (الذين هم أكثر عدداً والأقل سيطرة) ضد آل عماد في الباروك القريبة من دير القمر وبيت الدين، مما أدّى إلى مصادرة أراضي العماديين ـ بدعم الأمير بشير لآل أبي علوان ـ ورحيلهم إلى البقاع.

---

(٧٥) مسعود ضاهر، «دراسات عربية». ص ١١٢.

(٧٦) يوسف أبو شقرا. الحركات في لبنان. ص ٦ ـ ٧. ورستم باز. مذكرات رستم باز. الطبعة الثانية. نشر فؤاد إفرام البستاني. المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٨، ص ١٠ ـ ١٣. وسليم هشي. «العائلة الجنبلاطية» ص ٧١ (بالفرنسية).

(٧٧) يوسف أبو شقرا. الحركات... ص ٦٧.

(٧٨) يوسف أبو شقرا. الحركات... نفس الصفحة.

وجاءت حملة نابوليون بونابرت على عكا لتعيد اللحمة إلى العائلات الدرزية بفضل الشيخ بشير جنبلاط، حيث اجتمعوا في عبيه (في مقر الأمير السيد عبد الله التنوخي) وقرّروا مقاومة نابوليون وحليفه الشهابي لأنهم لمسوا خطورة المخطط القاضي برحيلهم إلى حوران أو الجبل الأعلى قرب حلب، وأجبر الأمير بشير شهاب فيما بعد على عقد اتفاق وثيق مع سدني سميث الانكليزي نظراً لقوة الشيخ بشير[٧٩]

لكن الخطوة الأكثر أهمية، أو التي توازي في أهميتها تصفية العائلات الدرزية هي ما أقدم عليه الأمير بشير بشأن بلدة «بيت الدين» حيث كانت «بيت دين الدروز، وهي قرية حقيرة سكانها جميعهم دروز عقّال وهي قريبة لدير القمر»[٨٠]. بينما تحدّد الكاتبة السوفياتية سيميليا نسكايا، أنه «في بداية القرن التاسع عشر اشترى(!!!) الأمير بشير شهاب قرية بيت الدين من الشيخ أبي علي بيت الديني وبنى فيها قصراً له ومنازل للشركاء الذين يعملون في أرضه»[٨١]. إلا أن شاهد العيان، صاحب «تاريخ حوادث الشام ولبنان»، يصوّر الواقع تصويراً حياً مستخدماً تعبير «مناكدة الأمير بشير لدروز بيت الدين» والذي يحمل كثيراً من الدلالات المعبِّرة عن جوهر سياسة الأمير الشهابي ونهجه تجاه الدروز، حيث يقول: «... إن الأمير بشير انفرد بالأحكام وأنشأ مظالم كثيرة لكي يرضي الجزّار ويجمع لنفسه أيضاً. وبدأ ينشىء عمار سرايا بتدّين وصار يناكد الدروز ساكنين القرية المذكورة ويشتري منهم أراضي وبيوت. ومع إطالة الأيام فرغت من الدروز وصارت ملكاً للأمير تماماً»[٨٢].

من هنا يتبيَّن بكل وضوح أن «بيت الدين» تحتل مكانة مماثلة لخلوات البيّاضة، كما يدلّ عليها اسمها. ومما لا شك فيه أن عملية «الشراء» هذه، خاصة من أمير حاكم كبشير، لأرض قرية «كبيت الدين»، لا يمكن أن تتم برضى عقّالها، وذلك بسبب المكانة الهامة التي تحتلّها مثل هذه الأماكن وقدسيّتها في نفوس مشايخها الأجاويد

(٧٩) سليم هشي. «العائلة الجنبلاطية». ص ٧٢ (بالفرنسية).
(٨٠) تاريخ حوادث الشام ولبنان، مرجع سابق. ص ٩١.
(٨١) سيميليا نسكايا. الحركات الفلاحية في لبنان. تعريب عدنان جاموس. دار الفارابي بيروت. ودار الجماهير دمشق. كانون أول ١٩٧٢. حاشية الصفحة ٣٨.
(٨٢) تاريخ حوادث الشام ولبنان. مرجع سابق. ص ٩٦.

وعموم أبناء الطائفة. وفي هذا الإطار تؤكّد «نسكايا» أن الأمير بشير «كان يشجِّع على شراء أراضي الدروز والاستيلاء عليها من قبل المسيحيين الأغنياء والكنيسة المارونية. . . كما كان يشجِّع انتقال الفلاحين الموارنة إلى الأراضي الحرّة في وسط لبنان»[83]. وليس هناك من تعبير أصحّ من «المناكدة» التي عبَّرت عن هذه السياسة الخبيثة للأمير الشهابي الذي كان يرمي بسهمه على أهداف عديدة برمية واحدة، من خلال تركيزه على «بيت الدين»، لتشمل بتأثيرها مختلف النواحي (الاقتصادية، والدينية والسياسية إلخ . . .). ورغم استطاعة الأمير بشير الشهابي بناء قصره في بيت الدين عام ١٨٠٦، إلا أنه عجز عن إيجاد وسيلة لإيصال المياه إليه، كما عجز عنها مستشاروه وحاشيته. لكن رجلاً درزياً اسمه حسن حمزة والملقَّب بـ «أخوت شانيه» (قرية من قرى عاليه في الغرب) هو الذي أشار على الأمير بشير بفكرة جرّ مياه نبع الصفا إلى بيت الدين، بقوله ما معناه «فليحفر كل واحد قبره» مما دفع بالأمير الشهابي إلى تسخير الآلاف من البشر في حفر القناة التي تصل هذا النبع ببيت الدين. فإذا كان «المجنون» من الدروز يأتي بمثل ما أتى به «أخوت شانيه»، لا يستغرب إن شنّت الحملات المنظّمة ضد عقّال الدروز، وأبناء هذه الطائفة ككل.

وعلى صعيد آخر، وجّه الأمير بشير ضربة كبرى لآل باز، «عندما استقدم الشهابي إليه جرجس باز (أبو ناصيف، مدبر أولاد الأمير يوسف)، إلى قصر الأمير ملحم حيدر في دير القمر وقتله غدراً سنة ١٨٠٧»[84]. ثم قضى على أخيه عبد الأحد باز في جبيل. وسجّل بهذه الضربة انتصاراً ساحقاً على عدو خطير كان يقف بوجهه، كما كان يمثّل وزناً سياسياً واقتصادياً كبيراً، ذلك عندما أصبح منصب المدبر «من أخطر المناصب في أواخر القرن الثامن عشر. وبلغ نفوذ أحد هؤلاء المدبّرين أنه قد أرسل كتاباً للبابا سنة ١٧٩٣ يطلب فيه مرسوماً لتثبيت بطريرك الموارنة مار ميخائيل فاضل بعد انتخابه»[85].

---

(٨٣) سيميليا نسكايا، المرجع السابق. ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٨٤) رستم باز، مذكرات رستم باز. ص ٩. وملحم قربان. تاريخ لبنان السياسي الحديث. بيروت ١٩٧٨، الجزء ١. ص ٤١.

(٨٥) عبد العزيز نوار. وثائق أساسية. . . مرجع سابق. ص ١٥٣.

كان يدرك الأمير الشهابي مدى قوّة ونفوذ آل باز المدبّرين، وخاصة جرجس (أبو ناصيف) وفي الوقت الذي أظهر فيه الأمير بشير ميله وعطفه على الفرنسيين (خاصة منذ حملة نابوليون على عكا سنة ١٧٩٩)، وكان مخلصاً لهم ولسياستهم، باذلاً نشاطه لتحقيق ما يتلاءم مع مصلحتهم، كان جرجس باز، في المقابل، قد بلغ من النفوذ ما أخاف الأمير الشهابي فعلاً، حيث «حظي هذا الإنسان على عز وجاه ما سبق لغيره قبل وبعد. . . وصار المتكلِّم في أمور البلاد جميعها. وكل مادة مع أمير وشيخ وخلافهم تحصل فترفع إليه أولاً والذي يقوله يصير. غير أن الأمير بشير كان بحال من القهر من عدم اعتبار الشيخ له ولا سيما بمداخلته بما لا يخصّه. . . وعلى كل حال الذي يريده الشيخ يصير، وصار بيده الحل والربط. والأمير له الاسم فقط في حكمه»[٨٦].

لكن هذا النفوذ لم يأت بالطبع من لا شيء. بل كان ذلك جزءاً أساسياً في مخطط السياسة الاستعمارية الأوروبية، التي كانت تقدم الدعم اللازم للمدبّرين في الإمارة. وبفضل هذا الدعم بلغت سلطتهم وقوتهم ما بلغته حتى أصبحت تشكّل هاجساً في نفس الأمير الشهابي الأول على رأس الإمارة، وكانت من الأسباب الهامة التي أدّت به إلى توجيه ضربته لهم. من هنا يتبيّنُ علاقة آل باز بالمخططات الاستعمارية البريطانية وسياستها في الشرق. وهذا ما دفع الدكتور ضاهر إلى القول: «ليس صدفة على الإطلاق أن يرافق فشل الحملة الانكليزية على مصر القضاء على المدبّرين الموارنة الأقوياء أي أسرة آل باز قتلاً على يد الأمير بشير الثاني عام ١٨٠٧ وبتحريض مباشر من الأسرة الجنبلاطية»[٨٧].

أما الدكتور عادل اسماعيل فإنه يؤكِّد من خلال «الوثائق الدبلوماسية والقنصلية» على أن آل باز كانوا على علاقة وثيقة بالانكليز[٨٨].

غير أن هذه العلاقة، لم تقتصر على ما يبدو على انكلترا وحدها، بل كانت العلاقة أمتن وأوثق أيضاً في الداخل مع الكنيسة المارونية ورجال الدين، والتي كانت

---

(٨٦) تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٨٧) مسعود ضاهر. الجذور التاريخية. . . مرجع سابق. ص ٢٠٩.

(٨٨) Adel Ismail. Documents diplomatiques… Tome 4. Page 113.

تقدّم دعماً هائلاً للمدبّرين المسيحيين، وتتقوّى من خلالهم عبر قيامهم بتوجيهاتها وتنفيذ أوامرها في المواقع المؤثرة والحسّاسة من الجبل. وليس من المعقول أن تمرّ عملية تصفية آل باز بسهولة على الكنيسة ورجال الدين. ولهذا نرى أن البطريرك الماروني يوسف تيّان قد اعتكف في مقرّه بقنّوبين احتجاجاً على مقتل آل باز في جبيل[٨٩]. ولا شك أن الدول الأوروبية كانت تستند إلى الاكليروس الماروني في تنفيذ الكثير من مشاريعها في الشرق، لشمولية تأثيرهم من ناحية، وصلتهم مع المدبّرين المسيحيين من ناحية أخرى. من هنا، ركّزت التقارير الفرنسية على الأهمية التي كان يوليها الاكليروس الماروني الأعلى لدور المدبّرين في السيطرة على الإمارة الشهابية[٩٠].

بالإضافة لذلك، فقد وجّه الأمير بشير ضربة قوية أيضاً للرعديّين (آل رعد) في منطقة سير الضنية، ولم تنج الأسر الأخرى من سياسته هذه، حيث كان للأرسلانيين وآل تلحوق وعبد الملك نصيبهم أيضاً، ذلك عندما عمد إلى اتباع الأسلوب الذي انتهجه مع العماديين وأبي علوان في الباروك، بتحريضهم ضد بعضهم البعض، كما كان يحرِّض زعماء العائلة الواحدة ضد بعضهم ليعيدهم لطاعته والتحكّم بهم وصولاً لتجريدهم من مقاطعاتهم ومناصبهم[٩١].

في هذا الوقت كان الموارنة، وبصورة متوازية، يستغلّون الخصومات القائمة بين أعيان الدروز لتقوية وضعهم في المقاطعات الخاضعة للسيطرة الدرزية. كما عملوا على زيادة عددهم من ناحية أخرى ليأخذوا موقعاً يسمح لهم من خلاله منافسة الدروز[٩٢]، وهذا ما عمله له الأمير بشير طوال فترة حكمه، بصمت أحياناً، وعلانية أحياناً أخرى، من أجل «التفوّق الماروني» في الجبل وتمركزه بقوة. وساعدت حركة النزوح المارونية إلى المناطق الدرزية، وزيادة عددهم، في الخصومات الطائفية[٩٣].

(٨٩) Adel Ismail. Documents... Tome 4. Page 233.

(٩٠) Adel Ismail. Documents... Tome 2. Page 242 et 383. Adel Ismail... Tome 4. Page 112 et 148.

(٩١) شوفالييه ص ٩٧ - ١٠١. Dominique Chevalier. op., Page 97-101.

(٩٢) شوفالييه س ١٢ - ١٣. Dominique Chevalier. op., Page 12-13.

(٩٣) شوفالييه ص ٧٤. Dominique Chevalier. op., Page 74.

لكن الأهم، أن الأمير بشير لم يُبْقِ مقاومته للطائفة الدرزية محصورة في الناحية السياسية والاقتصادية، بل الأخطر من ذلك، فإنه عمد أيضاً إلى المقاومة «الدينية» عبر ضرب الطائفة من الداخل وشقّها، نظراً لما تمثّله هذه القوة الكامنة في الدروز من أهمية، ولإدراكه من ناحية ثانية، صلابة مواقف جميع شيوخ العقل وتأثيرهم، حيث كانوا يناصبونه العداء ويقفوا حجر عثرة في طريقه لإضعاف الطائفة الدرزية. «فعمد إلى ضربها عبر إيجاد شيخي عقل للطائفة وشقّهم دينياً كما انشقوا سياسياً. وكان الشيخ أحمد أمين الدين آخر شيخ عقل فرد للطائفة الدرزية»[٩٤].

وإمعاناً في التحدّي للتقاليد الدينية للطائفة الدرزية، فقد عمد الأمير بشير - مع الأمير يوسف من قبل - على التدخل في الشؤون القضائية للطائفة الدرزية، بتقسيم قاضوية المذهب - على غرار مشيخة العقل - حتى أنهما تجرَّآ (الأميران يوسف وبشير) على (طرح) تعيين قاضٍ سنّي في هيئة قضاة الطائفة الدرزية[٩٥] لكن ذلك لم يحصل.

لهذا نصَّب الأمير بشير أيضاً الشيخ أحمد تقي الدين قاضياً في الوقت الذي كان فيه الأمير محمد القاضي (١٨٢٣ - ١٨٥٤) أيضاً يتولّى أمور القضاء، وقد وجّه إليه كتاباً ينعم عليه فيه بمنصب القاضي. ونصُّ الكتاب مثبت في كتاب (قضاء الموحّدين الدروز، للشيخ حليم تقي الدين. بيروت ١٩٧٩، ص ١٨)، ويظهر أنه نوع من الانقسام كما حصل في مشيخة العقل[٩٦].

من هنا يتوضَّح بجلاء أن السياسة الشهابية إزاء الطائفة الدرزية كانت عبارة عن سلسلة ذات حلقات مترابطة، وكل أمير شهابي يمثّل حلقة هامة فيها، يكمل ما وقف عنده سلفه، متبعاً نفس الأسلوب في كثير من الأحيان. هذا ولم يُستثنَ أي جانب من الجوانب التي ترتكز إليها الطائفة، ليصل الوقت الذي تجد فيه نفسها

---

(٩٤) توفيق سلمان. أضواء على تاريخ مذهب التوحيد. بيروت ١٩٦٣، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٩٥) Toufic Touma, op., Tome 2. Page 476.

وعيسى اسكندر المعلوف. دواني القطوف. . . ص ٢٥٩.

(٩٦) حليم تقي الدين. قضاء الموحدين الدروز. بيروت ١٩٧٩. ص ١٧ - ١٨. وأيضاً توفيق سلمان، المرجع السابق. ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

ضعيفة مفكّكة على أثر ما واجهته من جميع نواحيها. وقد تمثّلت معظم الضربات في التركيز على المفاصل الهامة دون تمييز بين جانب وآخر، ليبقى الهدف الأساسي متمثّلاً بإضعاف الطائفة وتحجيمها من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعددية أخيراً، وبالتالي القضاء على وجودها كمركز قوة يهدّد الأمراء والإمارة ككل.

وكما لجأ الأمير يوسف إلى قتل الشيخ يوسف عربيد أبي شقرا (شيخ عقل الطائفة في ذلك العصر)، كذلك لجأ الأمير بشير للتخلّص من القضاة الدروز حيث قضي على «القاضي الأمير محمد بن عبد اللطيف التنوخي الذي قتله الجزار في عكا بسعاية الأمير بشير الذي كان يخاف القاضي الداهية ويخشى أن يستطيع القاضي بدهائه وبسط نفوذه، عزل الشهابي، واسترداد الولاية التي كانت للأمراء التنوخيين أجداد القاضي محمد». وتابع سياسته بالقضاء أيضاً «على القاضي الأمير شرف الدين ابن القاضي الأمير محمد التنوخي، حيث كان نافذ الكلمة، مهيباً، وقتل غيلة سنة ١٨١٩ بسعاية الأمير بشير»[٩٧].

ولم يكن حظ النساء الدرزيات اللواتي تسنّى لهن القيام بالأعباء السياسية، مخالفاً لحظ الرجال من أبناء الطائفة، حيث كانت سياسة الأمير بشير تعتمد على «تحطيم الرؤوس» دون تمييز بين رجل وامرأة، طالما يمارسون السياسة في ظل الإمارة، دون أن ترق ممارستها في كثير من الأحيان لمخطط الأمير الشهابي وسياسته الخبيثة.

ونظراً للدور السياسي الذي لعبته السيدة حبوس أرسلان، بعد وفاة زوجها عباس أرسلان، في عهد الأمير بشير، فإنه دبّر لها كميناً أودى بحياتها، وكانت من القليلات اللواتي كنّ يرسلن ويتلقّين الرسائل من الأمراء، وخاصة الشهابيين[٩٨].

إلا أن الأستاذ عمر رضا كحالة يقول في كتابه (أعلام النساء) نقلاً عن الزركلي في كتابه «الاعلام»، وزينب فواز في كتابها «الدر المنثور»، إن «حبوس بنت الأمير

---

(٩٧) حليم تقي الدين. قضاء الموحدين الدروز. ص ١٦.

(٩٨) Toufic Touma, op., Tome 2, Page 458.

أيضاً تاريخ حوادث الشام ولبنان. مرجع سابق. ص ١٥٨ - ١٦٠. ومحمود خليل صعب. قصص ومشاهد من جبل لبنان: منشورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء. بيروت ١٩٨٠. ص ٣٥ - ٤٥.

بشير بن محمد الشهابي، أميرة كانت سديدة الرأي عالية الهمّة كريمة اليد والنفس ولدت في الشويفات بلبنان سنة ١١٨٢ هـ. فكانت تجالس الرجال ويقدّرون فيها عقلها ورأيها وفصاحتها فأقامها والدها سنة ١٢٠٨ هـ حاكمة على مقاطعة الغرب فأدارت الحكم بحكمة وحزم. . . وماتت فجأة على الأثر. وقيل إنها اغتيلت وذلك سنة ١٢٠٤ هـ»[٩٩]. والواقع، أن هذه الأميرة الدرزية تولّت حكم مقاطعة الغرب بعد وفاة زوجها عباس أرسلان، وليس صحيحاً أن «والدها» الأمير بشير الشهابي(!!!) هو الذي «أقامها حاكمة على مقاطعة الغرب». وفي هذا الكلام طمس «لعائلتها» الأرسلانية من ناحية وتجنٍّ عن «درزيّتها» من ناحية أخرى.

وقد «اتصفت سنوات حكم بشير الشهابي الثاني ببعض التغييرات في حياة لبنان السياسية انعكست بدورها على الحركة الشعبية»[١٠٠]. وكانت السياسة الضريبية التي انتهجها الشهابي عاملاً من العوامل المهمة لإبقائه على كرسي الحكم من ناحية وإرضاء لأطماع الولاة، كما أدّت من جهة أخرى إلى إرهاق الشعب وتكبيله بالضرائب.

ويشير «ڤولناي» إلى أن هذه الضريبة التي كانت تسمّى بالميري، كانت تفرض على الأشجار المثمرة، والكرمة والقطن والحبوب[١٠١]. إلا أنها لم تعرف موسماً ثابتاً في عهد الأمير بشير الشهابي الثاني نظراً للضغوط التي كان يمارسها عليه الجزار والي عكا، ولم يكن أمامه من وسيلة أخرى غير المال، ليرضي بها مطامع هذا الوالي. وعندما نعلم أن بشير الثاني عُزل سبع مرّات عن الحكم، ندرك تماماً أن رجوعه إليه لم يكن إلا عن طريق رشوة الولاة بالأموال والهدايا، التي ستقع على عاتق الشعب الذي أحسّ بثقل هذه الأعباء، فانتفض بعاميّاته التي قمعت بعنف ووحشية نظراً لأهميتها وأبعادها، والذي أدّى إلى ضعف الإمارة وانخفاض في مداخيلها لأن هذا القمع «بطبيعته العسكرية والسياسية والاجتماعية بالذات، كان قمعاً لقوى الانتاج الحقيقية التي

---

(٩٩) عمر رضا كحالة. اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام. ج ١. المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٠. ص ١٩٩.

(١٠٠) سيميليا نسكايا. الحركات الفلاحية في لبنان. ص ٦٦.

(١٠١) Volney. Voyage en Egypte et en syrie pendant les années 1783 1784, 1785. Paris 1959. Tome I, Page 454.

بإضعافها يكون إضعاف موارد الإمارة وبالتالي عجزها عن تسديد ما تعهّدت للآستانة من الضرائب، مما يؤدي إلى عجز الأمير الحاكم واستبداله»[١٠٢]. وهكـ مثّلت «عاميّة لحفد» سنة ١٨٢٠، و«عاميّة انطلياس» سنة ١٨٢١، الظواهر البارزة التعبير عن النقمة الشعبية ضد الأمير وسياسته الضريبية، والتي اختزلت نهجه تجاه ك القضايا المتعلّقة بالحكم. هذه السياسة هي التي أجبرته على الفرار، ليس من و العثمانيين - كما فعل الأمير فخر الدين - بل من وجه الشعب الذي أرهقه بالضرائ الفادحة من أجل مصلحته الشخصية، وبعد أن حوّل البلاد إلى حمّام من الـ والإرهاب، وبرزت جبهة معادية له كان الشيخ بشير جنبلاط القوة الأساسية فيها.

وقد لعب الزعماء المقاطعجيون - ومنهم دروز - دوراً مهماً في قمع هذه التمرّدا العاميّة التي رفضت «إلا أن تدفع مالاً واحداً فقط». هذه المساهمة الدرزية في القم كانت تنطلق أساساً من خوفها أن تمتدّ «الحركة العاميّة» إلى المناطق الدرزية أيضـ فشاركت في قمعها خارج أرضها تلافياً لما قد يحصل في المستقبل ضمن مناطق سيطر ونفوذها. «إن هذه العاميّات (مع عاميّة طانيوس شاهين)، بالرغم من تفكّكها وضي رقعتها، قد أحدثت ذعراً في صفوف الإقطاعيين من مختلف المناطق والطوائف وأقلقت السلطنة العثمانية، خوفاً من أن يتجدّد اندلاعها بصورة أشمل وأكثر تنظيـ فأعدّوا بإيعاز وتشجيع من الدول الاستعمارية الأوروبية لفتنة ١٨٦٠ الطائفية بهد تحطيم الحركة الفلاحية»[١٠٣].

وكان فرار الأمير بشير إلى مصر في تلك الفترة العامل الأساسي في إقامة الاتفا السرّي(*) بينه وبين محمد علي باشا الذي كان يضع نصب عينيه السيطرة على سور في سبيل إنشاء دولة عربية واحدة. هذا الاتفاق كان دعماً قوياً للأمير بشير الشها تحقيقاً لمشروعه الكبير في القضاء على الشيخ بشير جنبلاط والتخلّص من وصاية ونفوذه وقوته، حيث لم يبق أمامه إلا هذه العقبة الهامة التي كانت حجر عثرة في طري نحو «المركزية». والجدير بالذكر، أنه عندما غادر الشهابي مصر في أواخر عام ١٨٢٢

---

(١٠٢) مسعود ضاهر. مجلة «دراسات عربية» المرجع السابق. ص ١١٧.
(١٠٣) نضال الحزب الشيوعي اللبناني من خلال وثائقه. الجزء الأول. بيروت ١٩٧١. ص ١٥٢.

ودَّعه محمد علي بقوله: «سنلتقي مرّة ثانية... وسيكون لقاؤنا في سوريا»[104]. كما يؤكِّد هنري غيز، قنصل فرنسا في بيروت في رسالة منه إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ أيار (١٨٢٧)، استعداد محمد علي باشا لغزو بلاد الشام، معلناً، في هذه الرسالة، أن أمير الدروز (الأمير بشير الشهابي) سيكون إلى جانب محمد علي في حملته هذه[105].

وهكذا كان صراع البشيرين صراع حياة أو موت، حيث كان كل منهما يخطِّط للقضاء على الآخر والانفراد بالسلطة. وهذا يعني أن معركة المركزية كانت حتمية في جميع الحالات فرضتها ظروف التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للبنان تلك الفترة.

إلا أن هذا الصراع، وإن كان له وجه طائفي، فإنه في الحقيقة بعيد كل البعد عن الطائفية، لأنه يخفي في داخله أبعاداً تتمحور حولها جميع مقومات الحكم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بالإضافة إلى أن كل قوة من هاتين القوتين ضمَّت في صفوفها قوى من مختلف الطوائف في كل أنحاء الإمارة بمشاركة قوى خارجية متعدِّدة أيضاً. وعندما بقي الشيخ بشير جنبلاط وحده خصماً سياسياً عنيداً للأمير الشهابي، كان لا بدّ من الإقدام على الخطوة الهامة المتعلِّقة بالقضاء على الشيخ الجنبلاطي بعد ترسيخ التحالف السرّي بين الأمير بشير ومحمد علي. وبرز الصراع العلني بين البشيرين، بعد عودة الأمير الشهابي من مصر. كما بدأ الناس يردِّدون: «إن الجبل لا يتّسع لبشيرين». ورغم المصالحة بينهما، إلا أن الأمير كان مصرّاً على الخلاص من هذا الخصم العنيد، وقرَّر الشهابي فرض مبلغ خيالي على الشيخ

---

(١٠٤) إميل خوري وعادل إسماعيل. السياسة الدولية في الشرق العربي. دار النشر للسياسة والتاريخ. بيروت ١٩٦٠. الجزء الثاني. ص ٥٩.

(*) يذكر الأمير حيدر أحمد الشهابي أن محمد علي بعد أن استقبل الأمير بشير في مجلسه، صرف جميع الحاضرين واستبقى الأمير «وأسرّ إليه جميع ما يرغبه منه في جبل لبنان، من الخدمة عند الحاجة، لأنه كان عازماً على تملك بلاد الشام بالسيف» حيدر أحمد شهاب. تاريخه. مصر. مطبعة السلام. ج ٣. ص ١٠٠١.

(١٠٥) Adel Ismail. Documents… Tome 5. Page 116.

الجنبلاطي بلغ حوالي مليون قرش، ضمن مرحلة الابتزاز الاقتصادي على طريق تصفية الشيخ بشير نهائياً[١٠٦].

وقد اشتدَّ نار الخلاف بينهما على أثر وفاة الأمير اسماعيل أرسلان دون عقب تاركاً وراءه ثروة كبيرة «فقام الأمير بشير بتزوير صك وصيّة لنفسه عن لسانه ووضع يده على تلك الأملاك الطويلة العريضة الممتدّة من جلّ الدامور إلى سهل انطلياس غير قابل للشيخ (بشير جنبلاط) شفاعة بورثة المتوفي أو توسّطاً لأعصابه (الورثة الأقربون) بمصالحتهم على قسم من التركة المذكورة مما أوغر عليه صدر الشيخ بشير جنبلاط»[١٠٧].

وهكذا جرَّد الأمير الشهابي جيشه ووضع جميع إمكانياته في المعركة الحاسمة، بدعم ومساعدة محمد علي باشا، وهذا ما أجبر الشيخ على الهزيمة حيث أعدم في عكا عام ١٨٢٥. لكن إزاحة الشيخ بشير جنبلاط «لم تكن ضربة شخصية أو عائلية فحسب. عبر بشير جنبلاط أصابت الضربة أعيان الدروز وفلاحيهم. فالأراضي التي انتزعت فريضتها من مشايخ الدروز، انتزع استغلال قسم منها من الفلاحين أيضاً»[١٠٨].

كما أن «شوفالييه» يشير إلى أن غنى الشيخ بشير جنبلاط ومكانته فرضت عليه أن يكون زعيم الطائفة الدرزية الأول في سوريا كلها[١٠٩].

«إن بشير جنبلاط، ومن خلاله الدروز، لم يكن مثل غيره من أعيان العائلات المارونية، زعيماً محلياً يقتصر نفوذه على الشوف أو المتن والبقاع. فقد كان من نتائج السكن الدرزي في المشرق أن امتدَّت الزعامة الجنبلاطية إلى دروز حوران وحلب، مما وسّع دائرة فاعليته «نحو الداخل السوري». لذا كان لا بدّ في سبيل إضعاف دوره من

---

(١٠٦) مسعود ضاهر. «دراسات عربية» ص ١٢١ نقلاً عن: سليم هشي «العائلة الجنبلاطية» (بالفرنسية) ص ١٠٩. وسليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سوريا، ص ٤٣.

(١٠٧) يوسف أبو شقرا. الحركات في لبنان. بيروت ١٩٥٢. ص ١١ - ١٣.

(١٠٨) وضاح شرارة. في أصول لبنان الطائفي. دار الطليعة. بيروت ١٩٧٥. الطبعة الأولى. ص ٥٠.

(١٠٩) شوفالييه، ص ٩٩. Dominique Chevalier, op., Page 99.

أن يطال في دائرة فاعليته ونفوذه، وينال من العلاقة التي تربط الجبل، من خلال الدروز، بالداخل السوري»[110].

ليس من المستغرب أن تشمل سيطرة الشيخ الجنبلاطي وزعامته دروز حوران وحلب، كما لو فكّر بإقامة دولة درزية كبرى تضم الدروز كلهم حسب تعبير أبو شقرا في «حركاته»، وهم الذين يعودون بجذورهم إلى دروز لبنان، خاصة وأنهم تركوه بعد معركة عيندارة عام ١٧١١، ليؤسّسوا ما عرف فيما بعد «بجبل الدروز». وتمثّل عملية ضرب العلاقة «بين الجبل، من خلال الدروز، والداخل السوري» نقطة مهمّة جداً في مخطّط التحالف الشهابي مع الغرب وخاصة فرنسا التي انتدبت بعد حوالي مئة سنة من تصفية بشير جنبلاط، على سوريا ولبنان، حيث سلخت بعض المقاطعات من سوريا لتضمّها إلى «لبنان الكبير» موجدة الفواصل والحدود «القانونية» بين «الدولتين». وهكذا أرسى بشير الشهابي من حيث لا يدري ولا يحدس، أسس ما أصبح إيديولوجية رسمية للبنان الاستقلال. فالايديولوجية الرسمية تقدّم في بشير بطلاً «لبنانياً» وطنياً، وآخر بناة الأوطان، قبل قرار غورو. لكن الاستعراض السريع السابق يبرز «لبنانية» أكيدة ولكن عبر «مارونية» أساسية، فالبطل الشهابي هو بطل الإعمار الماروني لوسط الجبل وجنوبه، وهو بطل تصفية النفوذ الدرزي المقابل للنفوذ الماروني، وهو بطل إضعاف العلاقة بين الجبل والداخل السوري، وهو أخيراً بطل دولة «ضريبية» لا دولة إنتاجية»[111]، حتى أن ثروته بلغت في عام ١٨٤٠، ثمانية آلاف وثلاثماية وسبعين كيساً يحتوي كل منها على خمس مائة قرش (٥٠٠ قرش)[112].

تصفية الشيخ بشير جنبلاط ودور النكديين:

عندما أعدم الشيخ بشير جنبلاط في عكا، كان الأمير بشير الشهابي قد أوعز للشيخ حمود النكدي باتخاذ المختارة مقرّاً له مكان الشيخ الجنبلاطي، حيث وقف النكديون إلى جانب الأمير بشير انتقاماً من الشيخ بشير جنبلاط، وردّاً على «المجزرة»

(١١٠) وضاح شرارة. المرجع السابق. ص ٥١.

(١١١) وضاح شرارة. المرجع السابق. ص ٥٢.

(١١٢) توفيق توما، ج ٢. ص ٤٦٧. Toufic Touma. op., Tome 2. Page 467.

التي ارتكبت بحق الأسرة النكدية عام ١٧٩٧ في دير القمر. والجدير بالذكر، أنه في اليوم الذي أعدم فيه الشيخ بشير جنبلاط (الملقَّب بعامود السماء) في عكا، شعر النكديون بانتصارهم وعبَّروا عن فرحتهم بشخص «الشيخ حمود» الذي وقف أمام جمع من أنصاره في المختارة قائلاً لهم: تطلَّعوا، هل هبطت السماء؟ وعندما دهش الناس من كلامه قال: «فاليوم زال عامودها»، مشيراً إلى إعدام الشيخ بشير (عامود السماء). وكثيراً ما نسمع من المسنّين اليوم المثل العامي القائل «مثل الدجاج بيفرحوا بعزا (مأتم) بعضهن». وفي هذا القول نجد العامل «الغرضي» محتلاً لمركز الصدارة في هذا الصراع المقاطعجي، في الوقت الذي أعلن فيه النكديون «بعدهم» عن «الغرضية».

من ناحية أخرى، كما نجح الأمير بشير في إبعاد الجنبلاطيين والقضاء على زعيمهم، فإنه نجح أيضاً بإبعاد النكديين ـ رغم بقائهم في دير القمر ـ عن القاعدة الأساسية في دير القمر، بعد أن جعل مقرّهم في المختارة على أثر هزيمة الشيخ الجنبلاطي وإعدامه عام ١٨٢٥، مثبتاً هزيمة آل نكد أيضاً، بصورة خاصة عندما أرسل لهم ما معناه: إذا ذهب إليكم أي شخص من دير القمر لطلب حاجة، يجب أن تصرفوه، لأن المرجع الوحيد له هو في دير القمر التابعة لنا. ويعتبر هذا التاريخ نقطة بارزة في حياة الدروز، خصوصاً الجنبلاطيين، وعلى الأخص النكديين، لأنه يمثّل بداية تاريخ الإجلاء النكدي عن قاعدة سيطرتهم في دير القمر بإقطاعهم أراضٍ أخرى كانت تحت سيطرة العائلة الجنبلاطية.

كما تجدر الإشارة إلى أن بعض المؤرِّخين صوَّر هذه المرحلة تصويراً يحمل الكثير من الحقيقة والواقع، مشيراً إلى أنها مرحلة صراع بين التيار الوطني ممثَّلاً بالشيخ الجنبلاطي، والتيار الموالي للسياسة الاستعمارية الأوروبية ممثَّلاً بالأمير بشير. ولهذا أطلق الأستاذ يوسف ابراهيم يزبك على الشيخ بشير جنبلاط اسم «الشهيد». عندها لا نجد هناك تعبيراً أصحّ من «العميل» يطلق على الأمير الشهابي الذي «كان طاغية مستبدّاً من مدرسة محمد علي باشا»[113] والمنفِّذ الأول ـ عكس والي مصر ـ لمخططات القوى الاستعمارية الأوروبية في الشرق انطلاقاً من جبل لبنان.

---

(١١٣) توفيق توما، ج ٢ ص ٤٢١. Toufic Touma. op., Tome 2. Page 421.

بعد هذا الانتصار، جاء دور محمد علي باشا والي مصر، لتجريد حملته على سوريا، بقيادة ولده ابراهيم باشا، الذي «اعتبره الموارنة صديقاً لهم خاصة بعد أن عرفوا أن الأمير بشير هو حليفه، بينما وقف الدروز موقف المعارض، واعتبروه خصماً إلى جانب الأمير بشير والموارنة»[١١٤]. هذا في الوقت الذي كان فيه محمد علي على يقين بأن «شعب لبنان سوف يمدّه بعساكر ينظّم منها جيشاً كبيراً»[١١٥]. وقد وفى الأمير بشير بوعده لأنه كان بحاجة ماسة إلى قوة والي مصر، حيث كان ضمانة أساسية لاستمرار الأمير الشهابي وبقائه على سدّة الحكم في الجبل. وقد استغلّ الأمير بشير الدعم المصري ليزرع في البلاد بذور الصراع الطائفي ويرهق المواطنين بالضرائب الباهظة، في الوقت الذي عانى فيه السكان الجبليون من ظلم الجيش المدعوم شهابياً، حيث إن الاحتلال المصري حمل معه اضطهاداً، وتجنيداً عسكرياً إلزامياً، ومصادرة الأراضي والحيوانات، كما عرف أشدّ أنواع القهر الذي تمثّل بأعمال السخرة، وهذا منافٍ لتقاليد الدروز وعاداتهم، مما أدّى في النهاية إلى اللقاء الذي «تمّ بين ممثلي الدروز والروم والموارنة الذين اجتمعوا في ماري الياس انطلياس عام ١٨٤٠، حيث أقسموا على مقاومة مسخّري الطبقات الكادحة بشير الشهابي وإبراهيم باشا»[١١٦]. (وكان قد سبقه اجتماع عقد في خلوات «جرنايا» قرب دير القمر). ويعتبر هذا التاريخ عام «الوحدة الوطنية» ضد ابراهيم باشا وحليفه بشير. كما أن هذا التصاعد في المدّ الشعبي الاجتماعي (١٨٤٠ ـ ١٨٥٨)، أدّى بالدول الأوروبية الغربية والعثمانيين والزعماء المقاطعجيين على الصعيد الداخلي، إلى استخدام السلاح الطائفي، لامتصاص النقمة الشعبية المتزايدة ضد المستغلين الأسياد مما نتج عنه ما يعرف بالفتن الطائفية في لبنان (بين الدروز والموارنة) وهي فتن ١٨٤١، ١٨٤٥، ١٨٦٠.

والجدير بالذكر، أن الدول الأوروبية وتركيا وقفت ضد «مشروع محمد علي الذي يرمي إلى إقامة دولة عربية مستقلّة عن الامبراطورية العثمانية، كما كانت تقف

(١١٤) كمال الصليبي. مرجع سابق. ص ٥٨.
(١١٥) إميل خوري وعادل إسماعيل. مرجع سابق. ص ٧.
(١١٦) عفيف فرّاج دراسات يسارية في الفكر اليميني. دار الطليعة. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧٠. ص ٢٣ ـ ٢٤) يقول بأن الاجتماع عقد في خلوة درزية.

دائماً ضد أي مشروع وحدوي عربي لا بدّ وأن يتناقض ومصالحها الاستعمارية في هذا الشرق الممزَّق، ولم تفعل ذلك كرهاً بمحمد علي نفسه، وإنما كي لا يجد العرب أنفسهم أقوياء في دولة واحدة بقيادة زعيم قوي مثل محمد علي»[١١٧].

هذا الموقف كان نابعاً من خطورة المشروع الكبير الذي يهدِّد الدول الأوروبية وتركيا مجتمعين، خاصة وأنه يهدف إلى تأسيس دولة عربية واحدة، عبَّر عنها ابراهيم باشا نفسه عندما سئل، أثناء حصاره لعكا، إلى أين سيصل بفتوحه؟ فأجاب: «إلى حدود البلاد التي لا يتكلَّم فيها الناس ويتفاهمون باللسان العربي»[١١٨]. كما أن القنصل البريطاني «باركر» كان أكثر وضوحاً عندما رأى عام ١٨٣٢ أن جيش محمد علي «بدأ فعلاً مهمة تحرير الشعوب العربية وتوحيدها في امبراطورية عربية»[١١٩].

فقد حرصت الدول الأوروبية على ضرورة وضع حدّ لتهديد مصالحها وامتيازاتها في هذه المنطقة وخارجها نظراً للموقع الاستراتيجي الذي تتمتّع به كصلة وصل بين القارات الثلاث آسيا وأوروبا وافريقيا، فعمدت إلى عقد مؤتمر دولي في لندن عام ١٨٤٠، هدَّدت على أثره والي مصر بالانسحاب من سوريا، وحدَّدت له موعداً لتنفيذ قرارها. وكان من الطبيعي بعد انسحابه أن ينتهي حكم حليفه الأمير بشير حيث نُفي إلى مالطة. ثم مات سنة ١٨٥٠ في اسطنبول.

لم يكن انسحاب محمد علي من سوريا هزيمة له فقط، بل كان هزيمة عربية أيضاً لما كان يحمله مشروعه الوحدوي العربي الكبير من أبعاد قومية توحِّد الأمة الممزّقة وتفصلها «عن امبراطورية عثمانية لا تشدّها إليها أية صلة جغرافية أو تاريخية أو لغوية أو اجتماعية ولا رابطة تضمّها إليها إلا رابطة الدين»[١٢٠].

---

(١١٧) ياسين سويد. مجلة «الفكر الاستراتيجي العربي» (تصدر عن معهد الانماء العربي) بيروت العدد الثالث. كانون ثاني ١٩٨٢، ص ٢٣٥. بمقال عنوانه: «البعد الاستراتيجي لحملة محمد علي على بلاد الشام».

(١١٨) إميل خوري وعادل إسماعيل. مرجع سابق. ص ٦٠.

(١١٩) جوزف حجار. أوروبا ومصير الشرق العربي. ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة. مراجعة حسن فخر. المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٦. ص ٥٨.

(١٢٠) إميل خوري وعادل إسماعيل. مرجع سابق. ص ٦٠.

والأخطر من ذلك، أن هذا الخوف الأوروبي من الخطوة المصرية حمل معه تدخلاً فاضحاً في الشؤون الداخلية، ليس فقط في لبنان بل على صعيد السلطنة العثمانية ككل، لتشكّل فيها بعد جزءاً هاماً من المشاكل الدولية التي عرفت «بالمسألة الشرقية» في الوقت الذي أصبحت فيه السلطنة «رجلاً مريضاً» غير قابل للشفاء أو «جثة متقدّمة في الاهتراء» على حدّ قول كارل ماركس.

أما على الصعيد الداخلي فقد أوجدت الدول الأوروبية الخمس المجتمعة في لندن (روسيا، انكلترا، النمسا، بروسيا والدولة العثمانية) نظاماً جديداً اقترحه الداهية النمساوي «مترنيخ»، مهندس التقسيمات الدولية، قضى بإيجاد أول مشروع طائفي بالمفهوم السياسي في لبنان عرف بالقائمقاميتين (قائمقامية نصرانية في الشمال، وقائمقامية درزية في الجنوب). هذا البروز لدويلات الطوائف في لبنان، حمل معه تبدلاً من طائفي اجتماعي إلى أنظمة طائفية، كرّست «قانونياً» وبصورة دولية أيضاً. هذا النظام كان المقدمة الأساسية لنظام آخر قام على أنقاضه في عام ١٨٦١، عرف بنظام المتصرفية، مكرّساً «مسيحية» المتصرّف من ناحية والرضى الأوروبي على تعيينه تركياً من رعايا السلطنة، بعد الفتنة المشؤومة بين الدروز والموارنة والمعروفة في لبنان باسم «سنة الستين».

إن هذه الفتنة كانت ويلاً على الطوائف المتخاصمة التي لم تستفد منها شيئاً بل «كانت مسوقة إليها من قبل الأجانب أصحاب الغايات.. كما أن الدول الأجنبية كانت تتغاضى عن مصادر هذه الفتن وتجمع على مطالبة الدولة بالإصلاح. وهي إنما تعني بالإصلاح المحافظة على العناصر المسيحية وحقوقها»[١٢١]. وخير دليل على التدخل الأجنبي في إذكاء فتنة ١٨٦٠، هو ما ذكره كمال جنبلاط بقوله أنه أثناء زيارة كان يقوم بها برفقة الدكتور أسد رستم إلى دير عين سعادة في انطلياس، قال له الدكتور رستم عند وصولهما أمام إحدى غرف الدير: هنا في هذه الغرفة، اتفق المطران طوبيا (عون) مع قنصل فرنسا على تدبير فتنة الستين[*].

(١٢١) محمد جميل بيهم. فلسفة التاريخ العثماني. الكتاب الثاني. بيروت ١٩٥٤. ص ٩٩.

(*) راجع: كمال جنبلاط «حقيقة الثورة اللبنانية». هامش الصفحة ٧٥.

مخطَّط «التنصير» الدرزي ومخاطره:

إن هـذا المخطَّط كـان حلقـة أسـاسيـة من السلسلة الاستعـمارية الخطيرة التي استهدفت إخضاع الشرق العربي لسيطرة الغرب، بإحكام الطوق عليه وجعله منطقة نفوذ لسياسته ومطامعه. ولم تتوان الدول الأوروبية بعد خيبتها في الحروب الصليبية عن تنفيذ مخططاتها، فأرادت استبدال «السيف» بسلاح أشدّ خطورة. وهكذا جرَّدت على المسلمين في الشرق حرباً صليبية هادئة، عن طريق حركة التبشير النصرانية، «فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات، وفرَّقت المبشّرين في العالم. وتبنَّت هذه الدول حركة التبشير لمآربها السياسية والاقتصادية»(١٢٢).

وكان لنظام الملل والامتيازات العثماني دوره الكبير في نشاط هؤلاء المبشّرين. كما شكَّلت المعاهدات الدولية مع السلطنة. والامتيازات السياسية والطائفية، الطوق الذي أحكم حول عنق تركيا. «وكانت السلطنة، على غرورها بنفسها، كريمة في عقد هذه المعاهدات ومنح هذه الامتيازات دون نظر إلى المستقبل البعيد... إلى أن وجدت نفسها فيما بعد، أمام معاهدات وامتيازات كانت قد تقيَّدت بها إبَّان قوتها السابقة، ثم تحوَّلت إلى سلاسل وأغلال طوَّقت عنقها ويديها؛ وجدت نفسها أنها ليست عاجزة عن التخلّص منها فحسب، بل ما إن ضعفت عزائمها واسترخت قواها، حتى فرضت عليها الدول الأوروبية معاهدات وامتيازات أخرى أثقل من سابقاتها، وأشدّ تقييداً لحريتها. فإذا بالدولة التي كانت تحسب نفسها بالأمس مرجع العالم، وتتوهَّم أن هذه العقود التي كانت تعقدها منحة وسماحة تصبح كدودة الحرير في شرنقة من عمل يدها ما إن اكتملت حتى جعلتها سجينة لا تستطيع حراكاً»(١٢٣).

وهكذا تحوَّلت أراضي السلطنة ـ ولبنان على الأخصّ ـ إلى ساحة يتنافس فيها المبشّرون، كلٌّ يعرض بضاعته، المتعدِّدة الأنواع، حتى برز الصراع واضحاً بينهم على أثر تعصّب كل منهم «لبضاعته»، فكان «اليسوعيون» الموالون لفرنسا يمثِّلون القوّة

(١٢٢) مصطفى خالدي وعمر فرّوخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية. المطبعة العصرية بيروت ـ صيدا. الطبعة الخامسة ١٩٧٣. ص ١١٥.

(١٢٣) محمد جميل بيهم. فلسفة التاريخ العثماني. المرجع السابق. ص ٨٨.

الهامّة ضد «البروتستانت» الموالين للانكليز والأميركيين. «ولإيقاف نفوذ الانكليز وحملة مبشّريهم (البروتستانت)، بدأ الفرنسيون ورجال الدين الموارنة يذكون نار التعصب الديني في طائفتهم بإحراق الكتب الدينية التي يصدرها البروتستانت باللغة العربية أمام الملأ، كما حدث في دير القمر لأول مرّة. وقد أدّى هذا الأمر إلى عزلة الموارنة وجعلهم جبهة مقابلة لبقية سكّان لبنان، وبالتالي إلى إذكاء نار العداوة بينهم وبين الدروز»(١٢٤).

والواقع أن هذا الصراع بين هذه القوى لم يكن صراعاً دينياً أبداً، حتى ولو كان انتماء قطبي هذا الصراع لمذاهب وأديان مختلفة. إذ أن هذه المعركة هي معركة في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية تعود بجذورها إلى محور التنافس الاستعماري من أجل مطامع كل دولة من هذه الدول المتصارعة على النفوذ والاستغلال. حتى «أن التبشير اتخذه الكثيرون آلة للتجارة والسياسة»(١٢٥)، بعيداً عن المهمة الظاهرية التي تستّر بها لإخفاء الأهداف الجوهرية الأخرى غير المباشرة، بمعنى استعباد الغرب للشرق. وقد أوضح المبشّرون اليسوعيون في إحدى كلماتهم أن الإدارة الفرنسية في العلويين (وفي غير بلاد العلويين) «يجب أن تكون تتمة للاحتلال الصليبي»(١٢٦).

هذا ولم يقتصر التبشير على الأجانب فقط، وإنما كان لعدد كبير في «الداخل» دور هام لا يقلّ أهمية عن دور المبشّرين الأوروبيين والأميركيين. ويعتبر الأمراء الشهابيون ـ وبشير خاصة ـ من المبشّرين الأول ـ سرّاً وعلناً ـ في هذا المضمار؛ لأنهم وفّروا على الغربيين كثيراً من الجهود التي كان من الممكن أن ترهقهم وتثقل كاهلهم، واضعين أنفسهم في تصرّفهم، ومنفّذين سياستهم بإخلاص ونشاط. إذ أن هؤلاء المبشّرين «كانوا طلائع لمطامع الاستعمار، الذي هو شرٌّ معدٍ ينتقل بين البلاد ولا يفرّق بين الجنسيات. . . كما كانوا في الوقت نفسه «عيون الغرب وآذانه وأصابعه أيضاً»(١٢٧).

(١٢٤) رياض فاخوري. لبنان تحت الرماد. دار الوقائع. بيروت ١٩٧٨. ص ١٧ ـ ١٨.

(١٢٥) خالدي وفروخ. المرجع السابق. ص ٣٥.

(١٢٦) خالدي وفروخ. المرجع السابق. ص ٣٨ نقلاً عن:
Les Jesuites en Syrie 1831-1931, 12 parties en 2 volumes, Paris 1931.

(١٢٧) خالدي وفروخ. المرجع السابق. ص ٢٥.

لكن الفارق بين الاثنين، هو أن الشهابيين مارسوا عملية التبشير دون ارتـدائهم «لثوب الرهبنة» الذي تـزيًا بـه المبشّرون الأجانب، وأبلوا البـلاء الحسن في تحقيق كثير من الأهداف على هذا الطريق.

ومن المعلوم إن عائلة «أبي اللمع» الدرزية، اعتنقت المارونية في عهد الشهابيين أنفسهم الذين كانوا يعاملون هؤلاء الأمراء معاملة متميّزة ويفضلونهم على باقي الأمراء الآخرين، كالارسلانيين مثلاً، كما يدل على ذلك كثير من المراسلات التي تثبت بشكل واضح أولويـة مكانـة الأمراء اللمعيـين وتفضيلهم(١٢٨). هذه السيـاسة الشهـابية مـع اللمعيين كانت تنطلق أساساً من وزنهم (اللمعيين) السيـاسي والاقتصادي، وموقعهم بين الأسر الدرزية.

إن هذا المخطط الغربي الرهيب كان محكاً أساسياً وامتحاناً قاسياً خضع له دروز لبنان في عهد الشهابيين. ولقـد حاولت فـرنسا والفـاتيكان تحقيق هـذا الحلم منذ زمن بعيد، جرّبت حظها مع الأمير فخر الدين المعني يوم التجأ إلى أوروبـا هربـاً من بطش العثمانيين. لكن فشل المحاولات مع الأمير المعني، لم يلغ الفكرة من رؤوس المخططين الأوروبيين، كما سعوا بكل وسـائلهم لإيجاد الـركيزة التي يمكن أن تستنـد إليها فـرنسا خاصة، وتنشب مخالبها بصورة أكثر جذرية، ليس في لبنـان فحسب، وإنما في المنـطقة العربية بكـاملها، متخـذة من لبنان منفـذاً ومنطلقـاً. وقد وجـدت ضالتهـا في الأمراء الشهابيين، والأمير بشير الثاني على الأخص.

وقد نجحت أوروبا، والفرنسيون خاصة، في تنصير الشهابيـين السنّة، والعمـل من خلالهم على تنصير الطوائف الأخـرى وخاصـة الدروز، في الـوقت الذي كـان فيه الأمـير بشير يـدرك قوتهم ونفـوذهـم كقـوة أولى ومؤثـرة عـلى الإمـارة، كـما كـان أحـد «ضحايا» هـذه القوة التي تـربّع بفضلهـا على كـرسي الحكم، وهو الفقـير المعدم رغم انتسابه لرتبة الأمراء. وقد كان للمدبرين المسيحيين نشاط كبير واهتـمام بالـغ في تنصير الأمراء الشهابيين وعائلات أخرى بمساعدة الأمراء أنفسهم نظراً لما كان يتمتع به هؤلاء المدبرون من نفوذ وحماية وسلطة، كالمدبر سعد الخوري صالح مثلاً(١٢٩). ومن المعروف

---

(١٢٨) Toufic Touma, op., Tome 2, Beyrouth 1972. Page 454-456.

(١٢٩) مسعود ضاهر. الجذور. . . مرجع سابق. ص ١٣٠ و١٨٩. وكمال الصليبي. تاريخ لبنان الحديث. ص ٣٤ وأيضاً. Adel Ismail·Documents.. Tome 2. Page 313-324 et 361.

أن والده غندور الخوري تولى منصب القنصلية الفرنسية في بيروت[١٣٠]، كما تولّتها من قبل أسرة آل الخازن المارونية. وليس من المعقول أن يكون ذلك بمعزل عن شروط محددة تدخل في صلب المخططات الهادفة «لنصرنة» طوائف لبنان خاصة، حيث عبّر المبشرون عن ذلك بوضوح بقولهم: «لقد وجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى»[١٣١].

إن الأمير بشير شارك شخصياً بمخطط تنصير الدروز وقد دعا إليه «الشيخ حسين تلحوق وطلب منه اعتناق الدين المسيحي ونشره بين الدروز فرفض، فما كان من الأمير بشير إلا أن اعتقله، فأرسل الدروز عريضة إلى محمد علي باشا والي مصر، فطلب محمد علي من الأمير بشير بعذله عن ذلك فأطلق سراحه بعد أربعة أيام من اعتقاله. كما استغل الأمير بشير جيش إبراهيم باشا المصري للقضاء على الدروز بعد رفضهم الانصياع لرغباته»[١٣٢].

نجح مخطط «التنصير» أيضاً باستمالة قسم من عائلة أبي شقرا (في مزرعة الشوف خصوصاً)، اعتنق المارونية تحديداً، بينما بقي القسم الآخر - والذي يمثل الأغلبيّة - متمسكاً بدرزيته، وممثلاً على الصعيد الروحي والسياسي وزناً كبيراً يحسب حسابه في المخططات التي استهدفت الطائفة الدرزية. وقد تطرقنا من قبل للشيخ يوسف عربيد أبي شقرا (شيخ عقل الطائفة في زمن الأمير يوسف شهاب) عندما تحدّى الأمير الشهابي يوسف، وأحرز ضده نصراً دينياً وسياسياً لا يقدّر بثمن. كما شكلوا فريقاً في صراع مشابه لليزبكية والجنبلاطية، وهو الصراع الشقراوي - الصمدي. ويمثل الشيخ محمد أبو شقرا اليوم (شيخ عقل الدروز في لبنان)، المرجع الروحي الأول للطائفة الدرزية في لبنان، كما يمثل وزناً كبيراً في المعادلات اللبنانية.

كان للعقال مشايخ الدروز، اليد الطولى في إفشال هذا المخطط «التنصيري» نظراً لأبعاده الخطيرة والتي لا تقل أهمية عن المذابح والمجازر التي ارتكبت بحقهم منذ

---

(١٣٠) تاريخ حوادث الشام ولبنان. مرجع سابق. ص ٨٩.

(١٣١) خالدي وفروخ. مرجع سابق. ص ٥٩.

(١٣٢) فؤاد الأطرش. الدروز. مؤامرات وتاريخ وحقائق. بيروت ١٩٧٤. ص ٥٨.

ظهور الدعوة. وهذا الأسلوب الذي اتبعه الأمير بشير لتنصير الدروز كان ذكياً جداً، ينم عن حنكة سياسية ومقدرة كبيرة ووعي واسع لقوة الدروز وتأثيرهم حيث كان متأكداً أن قوتهم العسكرية ـ تقف حجر عثرة في طريق مخططه المرسوم ـ أوروبياً ـ بدقة، إن أراد تنفيذه بقوة السلاح، فعمد إلى الأسلوب السياسي «السلمي» إيهاماً لهم «بعدالة الغرب» وتخلّصاً من جور العثمانيين واستبدادهم. ويعود الفضل الأكبر لكبار عقال الدروز بشكل عام، وللشيخ حسين ماضي بشكل خاص (شيخ عقل ذلك العصر)، في ترسيخ جذور الطائفة الدرزية في لبنان والتأكيد على أصالة الانتماء لمذهب التوحيد وتعميق تأثيره في نفوسهم.

إلا أن نهاية الأمير بشير لم تكن نهاية لمخطط التبشير والتنصير حيث لم يترك الأوروبيون وسيلة إلا واستخدموها من أجل نجاح مشروعهم في المنطقة العربية كلها. وهكذا سخّر المبشرون الطب في سبيل غايات رخيصة، كقولهم: «حيث تجد بشراً تجد آلاماً، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب فهنالك فرصة مناسبة للتبشير». وهكذا اتخذ المبشرون الطب ستاراً يقتربون تحته من المرضى»[١٣٣].

كما كان هؤلاء المبشرون ينتهزون أية فرصة مناسبة ليبثّوا فيها سمومهم التي تجاوزت حدود المدن، لتدخل الأرياف الفقيرة ظناً بأنها أخصب وأفضل. وكانت القرى الدرزية هدفاً هاماً للتبشير على طريق «التنصير» الدرزي. وكانت بلدة «عبيه» قرب عاليه (ومقر التنوخيين) مركزاً أساسياً لهذا المخطط، وبؤرة النشاط التعليمي (للمبشرين الأمريكيين البروتستانت) حيث «أنشأوا مدرسة لتخريج المعلمين والواعظين (المبشرين) عام ١٨٤٣ وجعلوها برئاسة الدكتور كارنيليوس ڤان ديك (Carnilius van Duck). وفي كانون ثاني ١٨٥٩، أسس البروتستانت الأمريكيون في عبيه أيضاً مدرسة للبنات... وبعد أن فتحت الجمعية التبشيرية بضع مدارس (في لبنان) لأطفال الدروز نحو عام ١٨٧٥ اضطرت إلى التخلي عنها أمام حزم الحكومة العثمانية وسهرها»[١٣٤].

(١٣٣) خالدي وفروخ. مرجع سابق. ص ٥٩.

(١٣٤) خالدي وفروخ. مرجع سابق. ص ٨٠ و٩٤ ـ ٩٥ و١١٢ و١١٦.

ولم يقتصر «التبشير التنصيري» في القرى الدرزية على المدارس وحدها، بل بلغت «الوقاحة التبشيرية» حداً لا يمكن تصوّره حين لم يتأخر المبشرون عن عرض بضاعتهم في التبشير حتى في المآتم، والميت لا يزال بين أهله. فقد «ذهب المبشران كلهون Calhoun وجسّب Jessup، يعزّيان بوفاة شاب درزي. فما إن استقر بكلهون المقام حتى قال: «ما رأيت جسداً ميتاً لأخ لي في الإنسانية إلا ملئت اشمئزازاً، بل ملئت بغضاً. أجل ملئت ببغض الخطيئة التي أتت بالموت إلى هذا العالم وكانت سبب أحزاننا واضطرابنا وآلامنا. فلمَ لا نمقت الخطيئة إذن ثم نحب ذلك الذي لم يعرف الخطيئة، ولكنه ذاق الموت في سبيل كل إنسان آخر؟» يقصد كلهون إنه يكره الميت، إذا كان غير مسيحي، إذ أنه يموت وهو مملوء بالخطيئة. أما الميت المسيحي فإن المسيح يكون قد حمل عنه خطاياه لما مات فداء عن البشر، كما يقول النصارى»[١٣٥].

ونظراً لأهمية المخطط التنصيري هذا، فقد عمد المبشرون اليسوعيون لاتخاذ بلدة غزير الكسروانية منطلقاً للتبشير (وهي مسقط رأس بشير شهاب الثاني)، بينما كان منافسوهم قد اختاروا بلدة «عبيه» الدرزية (عاصمة التنوخيين) مقرهم للغاية عينها. وتلاقت أهداف المبشرين (على اختلافهم) فيما يتعلق بلبنان في اتخاذه نقطة انطلاق أساسية لنفوذ دولهم في الشرق. «فعلى أثر الصدامات التي حدثت بين الأهلين والمصريين في لبنان، بسبب الضرائب، وجمع السلاح، والتجنيد الإجباري، فقد نجح القنصل البريطاني ريتشارد وود في حمل البطريرك الماروني يوسف حبيش للوقوف بجانب الأتراك ضد الأمير الشهابي والمصريين لقاء دعم إمارة مارونية تتمتع باستقلال ذاتي»[١٣٦].

ويعتبر الأب هنري لامنس اليسوعي، الذي كان يدرس في الجامعة اليسوعية في بيروت (جامعة القديس يوسف) أحد العناوين البارزة في المخطط التنصيري، وهو «صاحب نظرية «لبنان الملجأ» لطائفة واحدة بطبيعة الحال»[١٣٧]، هي الطائفة المارونية. وبالفعل، كان هذا المخطط خطيراً جداً ـ وما زال ـ على اللبنانيين. لأنه لم يجرّب

(١٣٥) خالدي وفروخ. مرجع سابق. ص ٤٩ نقلاً عن Jessup et Calhoun
(١٣٦) كمال الصليبي. تاريخ لبنان الحديث. الطبعة الرابعة. ص ٧٠.
(١٣٧) عفيف فراج. دراسات يسارية... مرجع سابق. ص ٢٨.

النفوس فقط، بل انعكست آثاره على المقومات الأساسية التي يرتكز عليها الشعب والوطن والمؤسسات. كما لا يقل خطورة عن «نظام الملل» العثماني ومساوئه. لقد كان بالفعل نظام السوس الذي نخر جسد اللبنانيين ببطىء، مهدداً الجسم كله بالدمار والفناء. ويأتي كلام اللورد شافتسوري ليختصر بصورة أوضح جميع تفاصيل المخطط «التنصيري» الاستعماري قائلاً: «يأتي المبشر ثم التاجر وفي أثرهما البارجة الحربية»[١٣٨].

الوثائق تثبت الحقائق:

هذه إحدى الوثائق التي تؤكد بما لا يقبل الشك عدداً كبيراً من الحقائق الهامة والتي يرتكز إليها تاريخ لبنان الحالي، حيث تبرز بوضوح دور الدول الأوروبية في تكوين طبقة من البرجوازيين في جبل لبنان، ومن خلاله تطل «المسألة الشرقية» بوجهها المعروف. كما توضح عملية التطور في العلاقات السلعية ـ النقدية.

هذه الوثيقة[*] أرسلها أحد البرجوازيين ـ التجار المسيحيين، بشارة نصر الله إلى قنصل دولة المسكوب روسيا للتوسط لدى الأمير بشير شهاب حول «حجز أرزاق» خاصة بالشيخ عباس نكد، ورسالة قنصل روسيا، قسطنطين باسيلي إلى الأمير الشهابي بهذا الشأن. وهذا نص الرسالتين:

قسطنطين باسيلي قنصلوس دولة المسكوب الأفخم أدام الله عز بقاه

غب تقبيل أياديكم والدعا بدوام بقاكم المعروض ليس منا في شريف علمكم إنه لنا عند جناب الشيخ عباس نكد مبلغ ثمانية وأربعين ألف غرش وكسور شركة فيما بيننا وبين عمنا الخواجة إبراهيم مشاقة بدير القمر وبين الأخ الخواجة يعقوب أبيلا في بيروت كل منا بحق الثلث وقد استرهنا تحت هذا المبلغ محلات ملك جناب الشيخ المذكور بموجب حجة شرعية معلّم عليها جناب قاضي ومفتي بيروت ومنطوق الحجة المذكورة أن المحلات المرقومة تبقى بيدنا ونأخذ غلالها من أصل مالنا. فنحن قد وكلنا أحدنا الخواجة إبراهيم مشاقة بهذه الرهنية وأنه يستلم الغلال وكلما جهز شيء يعرفنا عنه. تعرفة خاطرنا به وهكذا قد تمّ والخواجة مشاقة وضع يده على المحلات لأجل

---

(١٣٨) الدكتور أسعد رزّوق. الصهيونية وحقوق الإنسان العربي. ص ١٣٩.

(*) تنشر هذه الوثيقة لأول مرّة.

أخذ الغلال فمن مرة أكم يوم حضر لنا تعريف منه أنه جاهز لنا وإلى الخواجة يعقوب أبيلا زيت مبلغ أربعة عشر قنطار بالتقريب وطلب خاطرنا بشانهم فنحن جاوبناه أنه يودّو لنا الزيت المذكور لدير القمر ليد الخواجة إلياس صوصة وعرفنا الخواجة صوصة المذكور أنه يستلم لنا الزيت المرقوم ويباشر في طبخه صابون ويشتري ما يلزم لذلك من قلو وحطب وخلافه وقد استورد هذا الزيت ووضعه في المصبنة والآن حضر لنا منه كتاب يخبرنا أن الخواجة إبراهيم دوماني أحضر أمر من سعادة الأمير الأفخم بأن هذا الزيت يحجز له بدعواه إن له دراهم عند جناب الشيخ عباس أبو نكد وقد حجز الزيت حقنا مع أنه كل الشرايع العرفية والمدنيّة ماله حق لا أحد يأخذ من غلة الأرزاق المرهونة عندنا إلا لحين نحن نستوفي مالنا حكم الحجة التي بيدنا وإن يكن له دين عند الراهن ومعلوم سعادتكم بواسطة حجزة الزيت يحصل لنا ضرر عظيم بسبب توقيف طبخ الصابون ويتلف وما نحن مشترينه لهذه المصلحة وعبدكم أنه لولا الشيخ المذكور كان حايط شريف علمه الحجة التي بيدنا فلم كان سمح بإعطاء أمر إلى الخواجة دوماني حسبما ذكر ومن حيث الحالة هذه ونحن من جملة خدمكم ومن يلوذ بسعادتكم اقتضى تقديم هذه الأعراض لديكم الذي به نسترحم من مكارمكم تحرروا لسعادة الأمير الأفخم بأن يأمر الخواجة إبراهيم دوماني يرفع قارشه عن الزيت حقنا وعن غلّة الأرزاق المذكورة المرهونة عندنا حكم منطوق الحجة التي بيدنا والأمر أمركم أفندم في ١٨ ك١ سنة ١٨٤٠.

بشارة نصر الله

رسالة قسطنطين باسيلي إلى الأمير بشير:

الجناب المهاب فسيح الرحاب سعادة الأمير بشير قاسم المعظم أدام بقاه

تقدم لنا هذه الأعراض من الخواجا بشارة نصر الله غب إطلاع سعادتكم على مضمونه نرجوكم إجراء ذلك بوجه الحق الشرعي حسبما هو دأب سعادتكم وأدام بقاكم.

قسطنطين باسيلي مسكوب دولة روسيا

في ١٩ ك١ سنة ١٨٤٠

مكان الختم

من خلال هذه الوثيقة تبرز «المسألة الشرقية» بصورتها الواضحة. تلك المسألة التي ورد مصطلحها (مصطلح المسألة الشرقية) لأول مرة في أثناء انعقاد مؤتمر ڤيرونا (Verona) سنة ١٨٢٢ «ليشمل المشكلات الدولية التي كان ينطوي عليها انحلال الامبراطورية التركية الوشيك»(١٣٩).

إن تدخل الدول الأوروبية المتنافسة فيما بينها على مناطق النفوذ والسيطرة ـ وجبل لبنان من ضمنها بالطبع ـ استغلت جميع التناقضات والحساسيات التي وجدت برعايتها وتشجيعها للتدخل من خلالها في الشؤون الداخلية للجبل وإدعائها حماية الطوائف المتواجدة في أرضه. ولولا ذلك، لما رفع المدعو بشارة نصر الله كتابه إلى قنصل دولة المسكوب ـ روسيا ـ للتوسط مع الأمير بشير الشهابي لاسترداد ديونه المحجوزة، بعد أن أصبح ولاء المواطن في جبل لبنان للدولة التي تتعهد حمايته، واعتبارها الملجأ الوحيد لكل قضاياه، حيث يوضح بشارة نصر الله ذلك بكل صراحة في رسالته إلى القنصل قائلاً: «نحن من جملة خدمكم ومن يلوذ بسعادتكم».

بالإضافة إلى أن الامتيازات الأجنبية في السلطنة كانت قد بلغت ذروتها في الوقت الذي كانت تحتضر فيه على فراش الموت، رجلاً مريضاً غير قابل للشفاء. تتراكض من حوله الدول الطامعة في ممتلكاته لتتقاسمها فيما بينها، بعد فقدان الأمل باطالة احتضاره أكثر من ذلك.

كما يبرز بصورة أكثر وضوحاً، اهتمام الغرب بمسيحيّي الجبل، كصلة وصل وواسطة بينه وبين الغرب، عن طريق تكوين طبقة من التجار الكبار البرجوازيين المرتبطين بالدول الأوروبية. ومن هنا تظهر عملية تطور العلاقات الاجتماعية الاقتصادية من التبادل السلعي، إلى نوعٍ أرقى، متمثلاً بالتبادل النقدي عن طريق «طبقة برجوازية ناشئة»، مدعومة أوروبياً، ومرتبطة بالنظام الرأسمالي العالمي، متخذة من التجارة وسيلة فضلى، في الوقت الذي كان فيه المشايخ الاقطاعيون يعتبرون الصناعة والتجارة من «المهن المنحطّة» ومن العار ممارستها، فوقعوا تحت طائلة

(١٣٩) زين نور الدين زين. الصراع الدولي في الشرق الأوسط. دار النهار للنشر. الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٧ ص ٢٢.

الرهونات والديون لهؤلاء التجار الوسطاء الذين لعبوا فيها بعد دوراً أساسياً في السيطرة على القاعدة الاقتصادية بعد عجز المشايخ عن تسديد الدين المترتب عليهم في الأوقات المحددة.

ويبرر بعض الأوروبيين هذا التطور في العلاقات السلعية ـ النقدية، وبروز طبقة برجوازية من المسيحيين خصوصاً، إلى طبيعة البلاد التي يتواجد فيها الموارنة بشكل أخصّ، حيث يذكر الرحالة الأوروبي بول لوقا الذي زار لبنان في بداية القرن الثامن عشر قائلاً: «بما أن البلاد التي يقطنها الموارنة ليست ملائمة تماماً لتوفير الخبز والقمح لأهلها فإن كل مداخيلها تأتي من بيع الحرير الذي يحصل عليه السكان من شتى أنواع دودة القز المتوفرة بكميات كبيرة»(١٤٠).

الفوارق بين الأمير فخر الدين والأمير بشير الثاني:

عندما فرّ الأمير فخر الدين إلى توسكانا من وجه القوات العثمانية، سلّم إدارة البلاد لوالدته الحكيمة السيدة نسب، ولأخيه الأمير يونس حفاظاً على أرواح المواطنين من مختلف الطوائف، ومن أجل ضبط الأمن وفرض النظام. بيد أن فرار الأمير بشير كان مخالفاً لفرار المعني وأهدافه. لقد فرّ بشير الشهابي، ليس من وجه المحتل والمستعمر، بل من وجه الشعب الذي أرهقه بالضرائب الفادحة من أجل مصلحته الشخصية، بعد أن حوّل البلاد إلى حمام من الدم والإرهاب.

ـ كان جيش فخر الدين جيشاً وطنياً، ومن مختلف الطوائف المتواجدة في لبنان. إلا أن عسكر «الحوّالة» الذي كان سيفاً مسلّطاً على رقاب الشعب، كان جميعه من النصارى ولا درزي واحد فيهم على حدّ قول المؤرخ يوسف أبو شقرا في «حركاته».

ـ زرع فخر الدين في نفوس اللبنانيين روح الأخوّة والمحبة والمساواة. بينما عمل بشير الشهابي على زرع بذور الطائفية والتعصب المذهبي وجرّ البلاد إلى أتون حرب الطوائف وجذّر الانقسام والحقد بين اللبنانيين.

---

(١٤٠) سيميليا نسكايا، الحركات الفلاحية في لبنان. ص ١٣ ـ ١٤ نقلاً عن
D. Chevalier. Lyon et Syrie en 1919- les bases d'une intervention- Revue historique - octobre- décembre 1960. P. 278.

ـ كان فخر الدين عقبة كبرى أمام مشاريع الغرب وأهدافه. بينما كان بشير الشهابي الأداة الفعّالة التي ركّز الغرب من خلالها وجوده ومرتكزاته.

ـ عمل فخر الدين كل جهده لمنح المسيحيين الألقاب والأراضي والإقطاعات. بينما عمل الشهابي على ضرب الأسر المقاطعجية الدرزية والقضاء عليها بتجريدها من قوتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية حتى العددية منها.

ـ لم يرضَ فخر الدين بتغيير مذهبه رغم وجوده لاجئاً في أوروبا. بينما لم يكتف الأمير بشير وحده بالدين المسيحي بل سعى جاهداً لحمل أسرته والطوائف الأخرى على ذلك تحقيقاً لسياسة استعمارية غربية، حقق الأوروبيون من خلاله هدفاً مهماً وأساسياً، ليس فقط فيما يتعلق بلبنان، بل وبالمنطقة المجاورة له أيضاً، كنقطة انطلاق لتوسيع الدائرة الغربية في المنطقة العربية.

ـ «كافأت» الدولة اللبنانية الأميرين (فخر الدين وبشير) بوضع صورة فخر الدين على قطعة النقد الورقية من فئة العشر ليرات، بينما وضعت صورة الشهابي على قطعة المئة ليرة. لإيمانها بأن الغرب الاستعماري لا يتعامل مع «عملائه» إلا بالقطع النقدية الكبيرة، بينما قطع العشر ليرات لا يتداولها إلا الشعب الفقير الذي كان يدافع عنه الأمير المعني بكل قوة. وهناك اتجاه اليوم «لتأليه» الأمير بشير من قبل الذين كان سبباً أساسياً في وجودهم المميّز. وهذا دليل كبير على الانحياز الفاضح لصالح السياسة التي انتهجها الأمير الشهابي ضد اللبنانيين.

ـ «الأمير فخر الدين درزي أكرم الموارنة وقرّبهم إليه وأعلى منهم شأناً وأبرز، في الوقت نفسه، مكانة الدروز. أما الأمير بشير الثاني فهو ـ وإن انتمى من خلال عائلته إلى أصل إسلامي ـ ماروني أضعف شوكة الدروز وثبّت أرجحية الموارنة، أرجحية أدركوها من بعد، على تباين في مفهوم الأرجحية، عند قيام لبنان الكبير»[١٤١].

(١٤١) هنري أبو خاطر. من وحي تاريخ الموارنة. مرجع سابق. ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

البَاب الثَالث

دُرُوز لبْنَان :
النَاحِيَة الاجْتمَاعيَة



الفصل الاول

سياسة التسامح الدرزي

كان تسامح الدروز مع الموارنة مشابهاً تماماً للامتيازات التي أعطيت من قبل العثمانيين للدول الأجنبية، في الوقت الذي كانت تمثل فيه موقع القوّة والنفوذ. وكما شكلت الامتيازات الأجنبية الطوق الذي أحكم حول عنق السلطنة، كذلك شكلت الهبات وسياسة التسامح الدرزي مع الموارنة الطوق الذي أحكم حول عنق لبنان عامة، والطائفة الدرزية خاصة لينعكس تأثيره على جميع مقوّماتها: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية والثقافية والدينية وغيرها، وكانت الحاجة إليها عاملاً في انقلاب الموازين لصالح القوى التي مثلت في الأساس القوة الانتاجية الكبيرة وبتأثير عوامل متعدّدة ساعدت في ذلك.

وقد وصل هذا التسامح في أكثر الأحيان إلى حد التفريط والعطاء غير المشروط. ولكن جميع عطاءاتهم توقفت عند حدود أسرار دعوتهم التوحيدية. لأن الأسرار التوحيدية لا تسامح فيها ولا تفريط. وعدم تسامحهم في هذه الناحية كان ثغرة دخل منها أصحاب النوايا الخبيثة والغايات الفاسدة، فقذفوا شتى الافتراءات والتهم بحق الموحدين ودعوتهم.

ولم يستطع المؤرخون، عرباً كانوا أم أجانب، طمس هذه الحقيقة وإخفاءها رغم التشويهات التي ألحقوها بالطائفة الدرزية. حيث من الصعوبة أن نجد أسرة درزية من الأسر التي كوّنت أساس لبنان، لم تمارس هذا «الواجب المقدس» (واجب التسامح) تجاه الطوائف اللبنانية الأخرى، والموارنة خصوصاً. إلا أن الأسرة المعنية، وفخر الدين الثاني بالتحديد، يحتل المكان الأول في هذه السياسة بين جميع الدروز،

حتى أن الموارنة يعتبرونه «حاميهم ومصدر سعادتهم». وهو الذي اشترى بلدة مجدل المعوش حيث أسكن فيها البطريرك الماروني يوحنا مخلوف، الذي التجأ إلى الشوف في سنة ١٦٠٩، طالباً الحماية في كنف فخر الدين[١]. حتى أن بعض المؤرخين الذين أطلقوا على الدروز اسم «الكفرة» «وغير الأمناء»، كالفارس دارفيو[٢]، يؤكد بوضوح أن المسيحيين الذين كانوا يعيشون إلى جانب هؤلاء «الكفرة»، كانوا يتمتعون بالحرية الكاملة في ممارسة طقوسهم الدينية، وفي بناء كنائسهم وأديرتهم، وارتداء ما كان يمنع عليهم سابقاً.

حتى أن بعض المؤرخين اللبنانيين أشاروا وبنوع من التفصيل إلى سياسة التسامح الدرزي التي اتبعها المعنيون مع الطوائف الأخرى.

ولم تكن العائلات الدرزية الأخرى بأقل تسامح مع المسيحيين من الأسرة المعنية. فقد قدمت الأسرة النكدية إلى الرهبان قسماً من أملاكها بنوا عليه ديراً لهم في بلدة «الناعمة»، قرب الدامور، ويؤكد الأستاذ عارف النكدي في مخطوطته عن النكديين[٣] نقلاً عن الدكتور شاكر الخوري في كتابه «مجمع المسرّات» قوله: «بنو نكد من أشجع عيال لبنان... وهم الذين أعطوا الرهبان في الناعمة أرضاً لبناء دير لهم. وأشترطوا عليهم أن يكون الدير باسم قدّيس بطل فبنوه باسم مار جرجس راكباً حصاناً وحاملاً رمحاً. وساعدوا الدير وأعطوه أملاكاً».

وكان للمعيين نصيبهم أيضاً في تقديم الأراضي للمسيحيين، تؤكد ذلك، «وثيقة بتاريخ ١١٦٢/١٧٤٨ هـ تفيد بإعطاء يوسف مراد أبي اللمع دير مار يوحنا القلعة إلى القس سمعان عريض الرئيس العام ورهبانه الانطونيانيين، هبة لا تردّ... وقدّم للرهبان قلعتها المشهورة، مع أرضها بدون أن يكلفهم من ثمنها شيئاً، ولا مما

---

(١) الدويهي، اسطفان. تاريخ الموارنة. بيروت ١٨٩٠. المطبعة الكاثوليكية، ص ١٨٨ - ١٨٩. وتاريخ الأزمنة، بيروت ١٩٥١. ص ٣٠١.

(٢) L. d'ARvieux «Mémoires du chevalier d'Arvieux» recueillis et mis en ordre par J.B. Labat, Paris 1735, Tome II, Page 399-400.

(٣) عارف نكد. بنو نكد. أصل مخطوط. ص ٢ وأيضاً

Michel Chibli, histoire du Liban à l'époque des émirs 1635-1841. Beyrouth, 1955, P 18.

يلزمها من الخشب الكبير، وأمر بأن يُعمل لهم بئر للماء من كيسه إلخ . . .»[٤].

وكذلك سنة ١٧٥٤، «تسلمت الرهبانية دير مار ساسين في بسكنتا هبة من أمراء بيت فارس أبي اللمع من الطائفة الدرزية»[٥].

حتى أن الأمير السيّد عبد الله التنوخي، المرجع الديني الكبير للطائفة الدرزية، أوصى لجيرانه المسيحيين من آل سركيس في قريته عبيه (قرب عاليه)، بقسم من أملاكه، حصلوا عليها بعد وفاته سنة ١٤٧٩.

ولعبت العائلة الجنبلاطية أيضاً دوراً مهماً على هذا الصعيد، ليس فقط على المستوى الداخلي، بل على مستوى خطورة الانعكاسات على الداخل والخارج معاً. حتى أن البابا اكليمنس الثالث عشر أرسل إلى الشيخ علي جنبلاط برسالة يحثّه فيها على رأب الصدع وإيقاف الصراعات الشخصية بين كبار الأكليروس المسيحي في لبنان سنة ١٧٦٥[٦]. وفي إطار سياسة التسامح الدرزية أشار القنصل الفرنسي في صيدا مؤكداً تسامح الشيخ علي جنبلاط ونفوذه، عبر رسالة أرسلها إلى وزير الدولة الفرنسي في باريس في ١٥ آذار ١٧٦٦، قائلاً بأن الشيخ علي جنبلاط هو الرجل الأكثر قوة بين زعماء الدروز والزعيم الدرزي الأكثر نفوذاً في لبنان في القرن الثامن عشر. وهو معروف بثروته وتسامحه وكرمه، وهو الذي قدّم لرهبان الطائفة الكاثوليكية أراض واسعة في جون، شمالي صيدا، بنوا عليها دير المخلص سنة ١٧١١[٧].

ولم يحد الشيخ بشير جنبلاط عن هذه السياسة تجاه المسيحيين، بل كان ذلك نهجاً مبدئياً وثابتاً عند الطائفة الدرزية تجاه الموارنة خصوصاً. ففي «سنة ١٧٩٨ ساعد الشيخ بشير جنبلاط بتجديد بناء دير مشموشة للطائفة المارونية في جميع مقاطعاته فبلغ

---

(٤) سليم حسن هشي. المراسلات الاجتماعية والاقتصادية لزعماء جبل لبنان خلال ٣ قرون. ج ٣. بيروت ١٩٨١ - ١٩٨٢. ص ٢٤ - ٢٥. و«أوراق لبنانية» (لحد خاطر)، الجزء ٦. حزيران ١٩٥٦. ص ٢٤٩.

(٥) عفيف بطرس بشارة. أعرف لبنان. المجلد الخامس. طبعة ١٩٧١ - ١٩٧٢. ص ٢٠٠.

(٦) سليم حسن هشي. المراسلات الاجتماعية والاقتصادية لزعماء جبل لبنان خلال ٣ قرون. الجزء الأول. بيروت ١٩٧٩ - ١٩٨٠. ص ١٠١.

(٧) طنوس الشدياق. أخبار الأعيان. بيروت ١٩٧٠. ج ١. ص ١٤١ - ١٤٢. وسليم حسن هشي المراسلات. . . ج ١.

Adel Ismail. Documents.. Tome I, Beyrouth 1975. Page 182. Tome 2. Page 139 et 151.

ذلـك البابـا فأرسـل لـه مـرسـومـاً يتضمن مـزيـد التشكـر منـه والممنـونيـة من حسن مساعيه. . . وفي سنة ١٨٠٧، جعل الشيـخ فرنسيس أبي جـبر (الخازن) الشيـخ بشير (جنبـلاط) وصياً عـلى أولاده. . . وفي سنـة ١٨٢٠، «وهب الشيـخ بشـير (جنبـلاط) موارنة المختارة أرضاً فيها ليبنوا لهم كنيسة وساعدهم في بنائها فبنوها»[٨].

وكثيراً ما كان يعمد زعماء الطائفة الدرزية لحل الخـلافات النـاشبة بـين الزعـماء المسيحيين أنفسهم (دينيين وزمنيين). وكما استـطاع الشيخ عـلي جنبلاط حـل الخلاف الذي كان ناشباً بـين كبار الاكليروس المسيحي، فقـد كان للشيـخ بشير جنبـلاط اليد الطولى في هذا المجال على الصعيـد الداخـلي أيضاً. وهـو الذي «أصلح بـين الأخوين وفاء وإبراهيم الخـازن سنة ١٨٠٢/١٢١٧ هـ»[٩]، وأعـاد المياه إلى مجـاريها بـين هذين الأخـوين اللذين تخاصما وكان من الممكن أن يؤدي هـذا الخصام إلى نتـائج خـطيرة بينهما لولا تدخل الشيخ الجنبلاطي في الوقت المناسب.

حتى التلاحقة لم يتخلّوا عن هذا «الواجب المقـدس»، فمنذ سنـة ١٧٣٨، قدّم زعيم آل تلحوق للرهبان الموارنة قسماً من أراضيه لإقـامة كنـائسهم وأديرتهم ومـراكز تعليميـة لهم عليها[١٠]. ولم تشـذّ عائلة أبـو شقرا عن هـذه القاعـدة حيث «بنى الشيخ حسن معضـاد أبو شقـرا كنيسة الحسـانية وعـلى انقاض تلك الكنيسـة قامت الكنيسـة الموجودة اليوم»[١١].

إلا أن البعض ينعت الدروز بأوصاف بعيدة جـداً عن الواقعيـة والحقيقة، بينما يؤكد تاريخهم، بشهادة الطوائف الأخرى أيضاً، أن التعصب لا وجود له في قـاموسهم وتعاملهم مع الغير، وهم الذين كانوا يشـاركون مـوارنة لبنـان في اختيار بـطريركهم، ويمنحونهم العطايا والهبات للأفراد والجماعات، وليس أدل عـلى ذلك ممـا تشهده اليـوم بلدة بعقلين الشـوفيـة، عـاصمـة المعنيـين، ومسقط رأس فخـر الـدين، حيث يـرى

---

(٨) طنوس الشدياق. المرجع السابق. ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٩) سليم حسن هشي، المراسلات. . . ج ٣. ص ٣٣.

(١٠) Toufic Touma, op., Tome 2, Page 428
نقلاً عن إدمون بليبل. تاريخ لبنان العام. ج ١. ص ٣٠٩.

(١١) يوسف أبو شقرا. الحركات في لبنان. ص ١٧٢.

الإنسان فيها كنيسة ما زالت قائمة حتى يومنا، بنيت من أجل بيت مسيحي واحد، ولم تهدم رغم ما تعرض له الوطن من تهديم، ورغم الممارسات المهينة التي ألحقت بأبناء الطائفة الدرزية في المنطقة الشرقية من بيروت الخاضعة لسيطرة الكتائبيين «وأحرار شمعون» خلال الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦. والكثير من الدروز ما زال محتفظاً برسائل التهديد التي تحمل عبارة «غير مرغوب فيك»، إلا أن ردّة الفعل الدرزية كانت مزيداً من حماية المسيحيين والحفاظ على ممتلكاتهم وأرواحهم في مناطق الدروز وبين ظهرانيهم؛ (ولولا دخول الجيش الإسرائيلي لبنان عام ١٩٨٢، ومساعدته من قبل حزب الكتائب وقواته المسماة «لبنانية»، لما عرف المسيحيون في الجبل أي نوع من الضغوط والتهجير الذي عرفوه بعد انسحاب الصهاينة من المنطقة).

حدث كل ذلك في أوقات السلم والصفاء بين الطائفتين، الدرزية والمارونية. إلا أن حالة الصفاء هذه لم تدم بينهما، حيث عملت القوى الأجنبية بمساعدة بعض العوامل الداخلية على إثارة النعرات الطائفية لاحداث الانقسامات والصراعات بينهما، تتسلل من خلالها هذه القوى لتضمن مصالحها وامتيازاتها في المنطقة.

ورغم السياسة الخبيثة للدول الأوروبية والعثمانيين، فقد استمرت سياسة التسامح الدرزية حتى أثناء الفتن الطائفية البشعة التي عرفها جبل لبنان والذي أصبح على حد قول دومينيك شوڤالييه، مركز الصراع بين الدروز والموارنة[١٢].

ويؤكد بعض المؤرخين، العرب والأجانب، هذه الحقيقة بوضوح أثناء فتنة ١٨٦٠. حيث أن «الكثيرين من الدروز حموا النصارى الأبرياء من القتل. فعلى سبيل المثال أن قاسم بك الحمود (النكدي) حمى خمسين رجلاً من أهالي دير القمر. وسعيد جنبلاط نحو مئة، ومثله فعل بشير النكدي. وحمى بنو حمادة بني إفرام (البستاني) كما أن رجلاً تقياً من كفر قطرة حمى سبعين رجلاً. كما لقي الكثيرون من نصارى الجرد والغرب حماية آل تلحوق وآل عبد الملك»[١٣]. وتشير «مجموعة المحررات السياسية

---

(١٢) دومينيك شوڤالييه. ص ٣٩. Dominique Chevalier, op., Page 39.

(١٣) انطوان ضاهر العقيقي. ثورة وفتنة في لبنان. ص ١١٥. ويوسف أبو شقرا الحركات في لبنان. ص ١٣١.

والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان»[١٤] على لسان المستر ميشولام (وهو أحد الانكليز المرسلين من قبل قنصل انكلترا في القدس لانقاذ أهالي جزين المشتتين (!!!) وإيصالهم إلى مكان أمين)، قال عن كفر قطرة بأن «ثلثي سكانها مسيحيون يعيشون على أتم وفاق مع الدروز وهؤلاء يحترمونهم كثيراً. وهذه القرية تبعد نصف ساعة عن دير القمر وقد أنقذ سكانها نحو ألف نسمة من دير القمر».

وقد ركز كثير من المؤرخين اللبنانيين الموارنة على سياسة التسامح الدرزي وتعرضوا لها في كثير من كتاباتهم. كان منهم الشدياق والدويهي والحتوني والعقيقي وبليبل وحتي وغيرهم. كما ذكرها المؤرخون: الخالدي وكرد علي والمعلوف ومزهر والأسود وعادل إسماعيل إلخ... مؤكدين ما معناه، إن التسامح الدرزي هو نهج نابع من عقيدة التوحيد، وممارسته بهذا الشكل هو التزام ثابت وفهم واعٍ لقواعد المعتقد ومبادئه.

وهكذا كان توافد الموارنة إلى أراضي الدروز كمزارعين وحرفيين، مشابهاً تماماً لتوافد الصهاينة إلى فلسطين. حتى أن استقبال الدروز لهم كان مشابهاً أيضاً لاستقبال الفلسطينيين في المرحلة الأولى التي كان فيها هؤلاء هاربين من اضطهادات متعددة، كالاضطهادات التي تعرض لها الموارنة من قبل ولاة العثمانيين في المنطقة الشمالية من لبنان خاصة. إلا أن النتيجة كانت خطيرة على صعيد فلسطين، وبدأنا نحن نشعر بمثل هذا الخطر ونحسّه منذ سنوات على صعيد لبنان. إذ كان قيام «الوطن القومي اليهودي» ثمرة أساسية لمخطط واحد كان فيه لبنان وفلسطين على نفس الجدول الاستعماري.

وعلى هذا الأساس تبذل جهود واسعة لإقامة «وطن قومي ماروني» في لبنان، على غرار «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين، وهذا ما أوضحه صراحة بيان

---

(١٤) فيليب وفريد الخازن. مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من ١٨٤٠ - ١٩١٠. المجلد الثاني. مطبعة الصبر. جونيه ١٩١١. ص ١١٢.

«الوصايا العشر»(*) بعنوان: من الدولة الأم (فرنسا) إلى أبنائها المخلصين (الموارنة)، مؤكداً في وصيته الأولى «أن كلمة لبناني معناها مسيحي، والعرب الذين جاؤوا من الصحراء يجب أن يعودوا إليها». وهنا تكمن عملية تشريد مشابهة لما تعرض لها الفلسطينيون إثر قيام دولة الاحتلال الصهيوني. وتفجير الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٥ تدخل ضمن هذا الإطار، ولا تخرج مطلقاً عن أهدافه.

(*) وجد هذا البيان مطبوعاً باللغة الفرنسية في أحد أديرة لبنان «في المتن الشمالي»ومؤرخ بتاريخ عام ١٩٢٠ (أي تاريخ قيام «دولة لبنان الكبير»). وتحدّث الاستاذ كمال جنبلاط يومها عن خطورته الكبيرة، كما نشر في كتابه الذي صدر في باريس بعنوان «Pour le Liban». كما نشر أيضاً في كتاب «ربع قرن من النضال» منشورات الحزب التقدمي الاشتراكي. وفي كتاب «هذه وصيتي»، باريس ١٩٧٨، ص ٨٤ ـ ٨٥.

الفصل الثاني

المرأة الدرزية

تحتل المرأة في المجتمع الدرزي المكانة الهامة والتي تعتبر ركناً أساسياً في تربية الأبناء والقيام بشؤون المنزل، بالإضافة لمشاركتها ومساعدتها لزوجها في أعمال الحقل وقطف الثمار وحصاد المواسم. وتتمتع المرأة الدرزية باحترام بالغ في أسرتها ومجتمعها، كما تفرض وجودها ككائن بشري حي على محيطها.

تمثل المرأة في مجتمعها الدرزي رمزاً للشرف والكرامة[1]. كما تمثل العنصر الأول والضروري في إقامة عائلة مثالية. إن هذه المكانة مستقاة بصورة رئيسية من تعاليم المذهب التوحيدي ومبادئه، والذي أمر بتعليم النساء كواجب إلزامي وضروري، حيث يعتبر حقاً مكتسباً لها لمساواتها مع الرجل، كما خصّها بعدد من الرسائل. وقد نظم الإمام حمزة بن علي أمور الزواج والطلاق، مؤكداً حقوق الشريكين وملحاً على وجوب المساواة بينهما، ومشدداً على الموحدين بعدم ظلم المرأة ومعاملتها بعدل. ولم يقتصر الأمر في المساواة بين المرأة الدرزية والرجل على الزواج والطلاق وحده. بل كرّس ذلك عملياً على الواقع في المهمات الدينية لدعوة التوحيد كما في المجالات الحياتية الأخرى.

من هنا، نستطيع القول، أن المرأة الدرزية، لعبت في مجرى تاريخها ولا تزال دوراً مهماً وفعالاً على كل الصعد وفي مختلف المجالات: الدينية، السياسية، الاجتماعية، العسكرية والأدبية، كما فرضت نفسها واحترامها على الجميع.

---

(١) الجنرال اندريا. ثورة الدروز وتمرد دمشق. ترجمة حافظ أبو مصلح. بيروت ١٩٧١. ص ٦١.

فعلى الصعيد الديني، نذكر من بينهن «الست سارة» التي كلفت من قبل «المقتنى بهاء الدين» بتنفيذ مهمة دينية من مصر إلى سوريا، حيث كان أبوها ضمن البعثة التي ترأستها ونفذتها بنجاح، في الوقت الذي اشتدت فيه حركة «سكين» وعاثت فساداً في منطقة وادي التيم، مهددة دعوة التوحيد بكثير من المخاطر. كما«أن الأميرة نفيسة التنوخية حفظت الكتاب العزيز عن ظهر قلب وهي بنت سبع سنوات»[٢]. وتمثل هذه الناحية على الصعيد العملي، المساواة الحقيقية بين الجنسين.

وعلى الصعيد السياسي، لعب عدد من النساء الدرزيات دوراً لا بأس به. نذكر منهن على سبيل المثال: الأميرة «طيبة معن» والدة الأمير قرقماز. وأم دبوس أبي اللمع. والسيدة نسب التنوخية والدة الأمير فخر الدين الثاني. والسيدة حبوس أرسلان زوجة الأمير عباس أرسلان، والتي اغتالها الأمير بشير الثاني بكمين أعدّ خصيصاً لها.

والسيدة نايفة، ابنة الشيخ بشير جنبلاط وزوجة الشيخ خليل شمس. والسيدة نظيرة جنبلاط والدة الشهيد كمال جنبلاط، التي لعبت دوراً سياسياً كبيراً في لبنان خلال فترة الانتداب الفرنسي وبداية عهد الاستقلال.

وفي هذا الإطار، لا بد من الإشارة إلى بعض العلامات البارزة في مسيرة بعضهن، كالسيدة نايفة جنبلاط مثلاً والتي قال فيها الدكتور حريز «كانت السيدة نايفة جنبلاط، على جانب عظيم من الذكاء والحصانة والرصانة. وإنها تقية جداً، عملت على درء المخاطر والنوازل عن أهل حاصبيا، وخففت الكثير من الويلات والمصاعب»... كما يتكلم أحد معاصريها، وهو الشيخ جمال الدين شجاع قائلاً بأن «العطف الفائق والثورة النفسية العنيفة التي ألمت بالسيدة نايفة، أثناء محنة ١٨٦٠ في حاصبيا نفسها، برهنت على أن هذه السيدة قد ارتقت أرفع المستويات الإنسانية. لقد برزت أريحيتها، وانفجر حنانها وعطفها على المشردين المنكوبين، من إخوانها المسيحيين، بشكل لم تره عين. لقد فتحت منزلها غرفة غرفة، وقدمت كل ما في

(٢) فؤاد أبو زكي، «ثلاثة أدباء روحانيين من شيوخ بني معروف». رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة اليسوعية في بيروت عام ١٩٨٠. ص٣٨.

وسعها من عون وغذاء. ثم أنها لما حوصرت قلعة آل شهاب، اندفعت بشجاعة فائقة تحت زخّات الرصاص، فوصلت إلى القلعة وانقذت كل ما فيها من نساء وأطفال، وحضنتهم بحنان الأمهات، حتى انقشع الأفق وزال القتال». وقد زار الأمير شكيب أرسلان حاصبيا، والتقى السيدة نايفة وهي في آخر عهدها، فكتب عنها: «لقد زرت كثيراً من الكبراء البارزين والفصحاء، فلم يعترني تأثير، كبعض ما أثرتني شخصية هذه السيدة»[٣]. وكذلك السيدة نظيرة جنبلاط التي قال عنها الكاتب الفرنسي المعروف كليمان غرانكور، الذي زارها وكتب عنها: «إن السيدة جنبلاط، منفردة هي نابغة، وهي مع سيدة من طرازها تغدو خطراً، وإذا اجتمع معها على هذا الطراز سيدتان تشكل كارثة»[٤].

وعلى الصعيد العسكري، كانت المرأة الدرزية تقف في كثير من الأحيان إلى جانب أخوتها وأبيها وأقاربها، تساعدهم بمختلف الوسائل، حتى أن بعضهن خضن المعارك في ساحات القتال، واندفعن بين المقاتلين، تحثهن على القتال وتزرع النخوة والشجاعة في نفوسهم ويفرضن وجودهن عاملاً هاماً في تبديل مجاري الأحداث، كما هي حال سعدى ملاعب مثلاً، أثناء المعركة التي حصلت بين العثمانيين والدروز عام ١٨٩٥ في «عيون» في جبل العرب اليوم. وتقهقر الدروز في هذه الموقعة، و«إذا بشبح يخترق الجموع المبعثرة ويصرخ فيهم: إلى أين؟ رمّلوا نساءكم ويتّموا أطفالكم.. ولا تتراجعوا... فتهتك أعراضنا؟؟ قالتها باللهجة العامية، وكأن حبّات قلبها تتناثر مع الكلمات، وما زالت تصرخ بهم وتستقبل نار العدو، حتى ارتد المقاتلون مستميتين وتواثبوا، وصمدوا، وتلاحموا تلاحماً أخرس البارود، فانكفأ الجند، وتبعثروا وعاد المناضلون بالهتافات:

على شانك (سعدى ملاعب) نفني كل الكتايب
وما بيرجع لقرابو السيف حتى يسوّي العجايب

وكذلك الحال بالنسبة لبعض الفتيات والنساء الدرزيات الأخريات، اللواتي

---

(٣) سامي ابو شقرا مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ. بيروت ١٩٧٩، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.
(٤) سامي ابو شقرا. المرجع السابق. ص ٢٦٩ نقلاً عن الواقع الدرزي للدكتور سليم حريز.

لعبن دورهن أيضاً على هذا الصعيد. نذكر منهن: «بستان شلفين» و«شمّا أبو عاصي» و«عبلا حاطوم» و«ترفا المحيثاوي»، وقد عرفتهن موقعة «المزرعة» سنة ١٩٢٥، وما زال الدروز يرددون اليوم هتاف تلك المعركة:

لعيونك عبلا وشمّا منحطم الدبابات
والمدفع ما منسدّوا إلا بيض الشاشيات [٥]

وبرزت «عمشة القنطار» أيضاً في البقاع، وتميزت بالقوة والشجاعة والسطوة والبطش، واشتهرت شجاعتها في طول البلاد وعرضها. حتى اليوم، إذا تفرّدت امرأة بالقوة والسطوة يطلقون عليها لقب عمشة، فهي عنترة النساء[٦]. كما تميزت فاطمة حسام الدين زوجة حسن حمود عابد من كفر نبرخ، واشتهرت بأمرين: أولاً شدّة تديّنها وصحة تقواها. ثانياً، قوة بنيتها ومتانة عضلاتها[٧].

وكذلك على الصعيد الاجتماعي، فقد لعبت المرأة الدرزية دوراً مهماً في تأسيس الجمعيات والمساهمة في إنشاء الحركات الاجتماعية. ومثلت السيدة زاهية سلمان والدة الوزير السابق صلاح سلمان، والسيدة نجلا صعب، والسيدة أنيسة النجار، زوجة الوزير السابق فؤاد النجار. . . الرموز والعلامات البارزة على هذا الصعيد. فقد ساهمت السيدة أنيسة النجار في تأسيس «جمعية نهضة المرأة الدرزية»، كما انتخبت السيدة زاهية سلمان رئيسة «لجمعية رعاية الطفل في لبنان»، والتي كان لجمعيتها هذه مدارس ابتدائية، وروضات للأطفال في القرى النائية. كما انتخبت السيدة نجلا صعب رئيسة «للمجلس النسائي اللبناني» الذي يضم ستاً وتسعين جمعية في أنحاء البلاد.

وليس خافياً أيضاً، تلك الانتفاضة الأدبية والاجتماعية التي قامت بها السيدة نظيرة زين الدين، زوجة محافظ مدينة بيروت سابقاً السيد شفيق الحلبي، عندما

---

(٥) سامي أبو شقرا. المرجع السابق، ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

(٦) محمود خليل صعب. قصص ومشاهد من جبل لبنان. منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء. بيروت ١٩٨٠. ص ١٤٥.

(٧) محمود خليل صعب. المرجع السابق. ص ١٢٨.

أطلقت صرختها المدوية تطالب فيها بالسفور المحشوم، والتي أدّت لردّة فعل كبيرة، انقسم على أثرها رجال الفكر والدين إلى قسمين، أيّدها إحداهما بينما عارضها القسم الآخر. وفي هذا الإطار، كتب جوزف سخن Joseph Sokhn، عن السيدة زين الدين ما يلي: كانت المرأة اللبنانية الأولى التي دافعت عن المرأة الإسلامية وقادت حملة كبرى من أجل حقوقها وحرّيتها مطالبة بنزع الحجاب الذي كان يغطي وجهها[8]. إنها لم تناضل من أجل المرأة اللبنانية وحدها، وإنما من أجل حرية المرأة العربية كي تساهم في جميع الميادين مكرّسة وجودها وشخصيتها كإنسانة لها حقوق وعليها واجبات، شأنها شأن الرجل نفسه بدون تمييز.

وكانت السيدة نظيرة زين الدين من أوائل من أسّسن الحركة النسائية الإسلامية في لبنان. كما ساهمت في تأسيس «اتحاد النساء العرب» واضعة في ميثاقه مواد ذات قيمة عالية، تختص بحقوق المرأة المسلمة وحريتها وتربيتها[9]. وكان لافكارها عن الحجاب، وتحرير المرأة، تأثير كبير في الأغلبية الساحقة من النساء المسلمات، لكنها جوبهت بمعارضة شديدة من قبل رجال الدين[10].

من ناحية أخرى يحرّم مذهب التوحيد زواج الدرزي بأكثر من امرأة واحدة، لأن التعدّد مخالف للعدل، وفقاً للآية الكريمة: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»، وهي جواب الآية: «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة».. «ولا يحرص المذهب على تحريم تعدد الزوجات، وعدم إعادة المطلقة إلى زوجها، وحسب، بل يحصر الزواج بين الموحدين. وينهى عن ابتغاء النساء بالأموال وعن الاستمتاع بهن ولو أوتين أجورهن فريضة»[11].

ويركز الدروز تركيزاً أساسياً على «العرض» ويولونه أولى اهتماماتهم. ومن خلال المحافظة على أعراضهم ينطلقون في الحفاظ على أعراض غيرهم من الطوائف

---

(8) جوزف سخن. الأدباء اللبنانيون المعاصرون، بيروت ١٩٧٢. ص ←
Joseph sokhn. les auteurs libanais contemporains. Beyrouth 1972. Page 267.

(9) Joseph sokhn, op., Page 272 - 273.

(10) Joseph sokhn, op., Page 269.

(11) عبد الله النجار. مذهب الدروز والتوحيد. دار المعارف بمصر ١٩٦٥. ص ١٥٤.

الأخـرى، مؤكدة ذلـك جميـع الفتن الـطائفيـة التي حصلت في لبنـان، والمعـارك التي خاضها الـدروز مع أعـدائهم. حيث أن الشرف والكرامـة ينحصر عند بني معـروف بالمرأة، لينطلق إلى مجالات الحياة الأخرى المتصلة بها. وقد وقف أسيـاد التوحيـد وقفة جريئة في وجه الانحلال الخلقي والتفسخ الاجتماعي حيث تعتبر الرسـائل التـوحيدية منبع الأخلاق الذي يستقي منه الموحدون.

إن دفاع الدروز عن الشرف، يثبته بما لا يقبل الشك، الأعداء قبل الأصدقاء. وإذا وجد البعض ليطلق تهـماً وافتراءات شتى بهـذا الاتجاه، فلتـبرير الكثـير من أعمالـه ونواياه الخبيثة، «وما أفصحه إذا تكلم عن الشرف».

وتوصل بعض المتهمـين اليوم، وهـو أحد الـدكاتـرة في إحدى جـامعات المـانيا الغـربيـة إلى إلصـاق تهم ودعـايـات تتعلق بـأخـلاقيـة الـدروز قـائـلاً: «إن الـدروز متوحشون، يشربون الخمر، والدرزي يتزوج أخته»(*). إلا أن المؤرخ ميخائيل مشاقـة من دير القمر يؤكد بأن «زيجة الدروز ليست كما يتهمونهم بأن الأخ يتزوج أخته والأب بابنته. فهذا كذب صريح. فإنهم لا يجيزون الاقتراب بأقرب من ابنة العم والخال ولا أكثر من زوجة واحدة»(١٢). كما أن الكـابيتان بـورون الفرنسي يقـول بأن للدروز عـادة شريفة أيضاً هي احترام النساء وعدم التعدي على الأعراض، وقـد حافـظوا على هـذا المبدأ أجيالاً طويلة إلى الآن»(١٣). (انظر رسالة الـطالب سقراط شـاهين من المـانيا إلى سماحة الشيخ محمد أبي شقرا في الملحق). ويشير الدكتور محمد كامـل حسين بـوضوح إلى هذا الموضوع قائلاً: «. . . ولا يعرف المجتمع الدرزي شيئـاً عن الزنـا أو الخيانـة

(*) في مقابلة مع سماحة الشيخ محمد أبي شقرا بتاريخ ١٩٨٢/٢/٢٣، أخبرني بأن أحد أساتذة الجامعة في المانيا الغربية أشار في معرض كلامه عن الدروز إلى هذا القـول، مما أثـار أحد الـطلاب الدروز الـذين يدرسـون هناك، فقدّم شكوى ضدّه وأوكل محامين وأرسل إلى سماحة الشيخ يعلمه بذلك حيث اتصـل سماحتـه بسفير المانيا الغربية في بيروت، وبسفير لبنـان في المانيـا الغربيـة يعلمهم بالأمـر لوضـع حد لمثـل هذه الافـتراءات الخبيثة في الوقت الـذي ينتفض فيه دروز الجـولان ودروز الأرض المحتلة ضد الاحتـلال، وكردّ عـلى دروز لبنان في مواقفهم الوطنية.

(١٢) ميخائيل مشاقة. منتخبات في الجواب على اقتـراح الأحباب. الجامعة الامريكية. بيروت. ص ١٢٩.

(١٣) بورون. الدروز. ترجمة عادل تقي الدين. ص ٢٤٢.

الزوجية أو ما أشبه ذلك من المفاسد الاجتماعية، والمرأة الدرزية أعفّ نساء العالم وأشدّهن طهارة ومحافظة على شرفها»[١٤].

وفي معرض المقارنة بين المرأة الدرزية وأخواتها الأخريات من الطوائف الأخرى، يؤكد «بورون» قوله: «بينما نشاهد الدرزية طاهرة اللسان نرى أختها الحورانية والمرأة العصرية المتفرنجة المترجّلة تكيل بصاع الشتائم والمسبّات غير هيّابة ولا واجلة كأن الشتيمة عنوان النهضة والتمدّن»[١٥].

ومن المؤكد أن التهم التي يطلقها المفترون في الفترات التاريخية المتباعدة أحياناً، لا يمكن النظر إليها بمعزل عن الظروف الاجتماعية والسياسية التي أطلقت خلالها. في هذا الصدد نذكر الاتهام الذي أطلقه الدكتور طحّان عام ١٩٢٦ في كتابه باللغة الفرنسية، في الوقت الذي كانت تشتعل فيه الثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الأطرش، قائدها العام، متهماً فيه الدروز بأنهم «يجمعون نساءهم ورجالهم في خلواتهم ويطفئون الأنوار ليلاً، ويرقصون معاً مختلطين، ذكوراً وأناثاً، وهي عقيدة سائدة وعادة سارية بينهم»[١٦].

ويعلق الأستاذ أبو راشد على هذه التهمة، وهو الذي عايش الدروز فترة طويلة وخبر عاداتهم وتقاليدهم، بقوله: «... إن هذه الأخبار لم يكن لها أثر من الصحة مطلقاً حيث أني قد أندمجت فيهم واختلطت بكبيرهم وصغيرهم لأتعرّف على حقيقة المسألة وغيرها. فلم أرَ فيهم إلا الإباء والشرف والمحافظة على المرأة ما بوسعهم»[١٧].

وهنا لا بد من الإشارة إلى شرف القتال الذي كان يتحلى به الدروز بشخص قائد الثورة السورية، سلطان باشا الأطرش، عندما حوصرت قلعة السويداء وحين بدأ السعي لإخراج النساء الفرنسيات من القلعة. قال سلطان باشا الأطرش كلمته المشهورة يومها: «نحن لا نحارب الفرنسيين ومعهم نساؤهم، أخرجهن لنريهم كيف يكون شرف القتال. فهم لم يعفّوا عن قتل نسائنا». ملمحاً إلى قصفهم بالطائرات

---

(١٤) محمد كامل حسين. طائفة الدروز. دار المعارف بمصر ١٩٦٢. ص ٢٩. ونفس الكتاب طبعة ١٩٦٨. ص ٢٦ ـ ٢٧.

(١٥) بورون. الدروز. ترجمة عادل تقي الدين. ص ٢٢٥.

(١٦) حنا أبي راشد. حوران الدامية. بيروت. الطبعة الثانية ١٩٦١. ص ٣٨٩.

(١٧) حنا أبي راشد. حوران الدامية. ص ٣٨٩.

المنازل على النساء والأطفال حين كان الرجال خارجها في ساحات القتال»[١٨]. كما أن رئيس الجامعة الأمريكية الأول في بيروت، دانيال بلس، يقول عن الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠ «أن المرأة من خصوم الدروز كانت تمر في معسكراتهم آمنة. لا يرفع إليها طرف ولا يقع في أذنها كلام. وهذا ما لا تستطيع أن تدّعيه جيوش أمم غربية تتبجح بمدنيّتها، ثم تتنكر في الحروب لحضارتها. إنها الشهامة العربية في ذروتها عند بني معروف»[١٩].

ويؤكد المؤرخ إبراهيم بك الأسود بأن «الدروز شديدو التمسّك بالناموس الأدبي. فلا يسطون على أعراض غيرهم وعندهم احترام للحريم.. وإذا بحث الباحث في عامة أخلاقهم لم يجد منهم ما ينكر بل رأى الناموس سائداً.. وألفى كثيراً من الآداب الحسنة والفضائل.. وأناساً من أهل الورع الحقيقي»[٢٠]. ومهما حاول المفترون إلصاق الافتراءات والتهم بأخلاقية الدروز، فإنهم سيبقون عاجزين عن تحريف حقائق التاريخ الساطعة كنور الشمس. حيث أن أحد الكتاب الفرنسيين يقول: «يجدر بكل من تحدّث عن الدروز وما أظهرون من الشجاعة والقساوة عام ١٨٦٠ أن يشيد بمحافظتهم على حياة نساء أعدائهم. فهذه الخصال الحميدة التي يتحلى بها الدروز ويمتازون بها هي التي ترغمني على إجلالهم والثناء عليهم كلما قدّر لي التحدّث عنهم»[٢١].

من هنا يمكننا إيجاز فضائل الدروز بما كتبه الأستاذ حنا أبي راشد قائلاً: «إذا جئت تعدّد فضائل الدروز فهي تنحصر في ثلاثة أمور: أولاً: الدرزي يحافظ على عرضه كمحافظته على دمه. ثانياً: ويحافظ على استقلاله كما يحافظ على ضيفه. ثالثاً: والدرزي سلام وحرب في آن واحد. فالسلام يعطوه لمن يرغب في السلام، والحرب يندفعون إليه ولو ماتوا عن آخرهم، تجاه من يدفعهم إلى الحرب»[٢٢].

(١٨) عبد الله النجار. المرجع السابق. ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(١٩) عبد الله النجار. المرجع السابق. ص ١٥٢.
(٢٠) إبراهيم بك الأسود. ذخائر لبنان. بيروت ١٩٧٠. ص ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٢١) فؤاد الأطرش. الموحدون الدروز تهم وتاريخ وحقائق. بيروت ١٩٨١. ص ٢٢٩.
(٢٢) حنا أبي راشد. جبل الدروز. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٦١. ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

الفصل الثالث

الخلوات عند الدروز

لم يكن الدروز هم أول من عرف الخلوة، بل سبقهم إليها كثيرون. والمعروف بأن الرسول (ص) اختلى بنفسه فترة طويلة يتعبّد في غار حراء قبل أن ينزل عليه الوحي. وقد عرّف الخلوة كثير من المؤرخين، منهم من وصفها بصدق، ومنهم من تجنى في إطلاق التهم والافتراءات قائلاً بأنها «مستودع للسلاح... ومكان لارتكاب المنكرات والفواحش إلخ...».

إلا أن الوصف الدقيق الذي أعطي للخلوة الدرزية هو ما قدّمه الشيخ أحمد الهجري فقال: «الخلوة مكان يؤمه المتديّنون ليلة الجمعة ويتعاونون على ما فيه خير الوطن الذي يعيشون فيه، ومحبة أهله وإخوانهم ومجاوريهم». ويتابع الشيخ الهجري قائلاً: «والاختلاء هو غير واجب، لكن درج عليه أشياخنا مدفوعين بظروف سياسية ثم ذهبت الظروف وبقي هو موروثاً»[1]. كما عرّفها الشيخ سلمان المصري فقال: «الخلوة كبقية المعابد، تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر. تتميز بالتأمل الفردي والوحدة لاستقبال الاشراق»[2].

وتمثل الخلوة الدرزية المكان الأسمى لدى الطائفة، يجتمع فيها العقال الأجاويد لممارسة واجباتهم الدينية. كما تمثل المكان الذي يلتقي فيه كل دروز العالم. إلا أن الخلوات تختلف فيما بينها من واحدة لأخرى، كما بين فترة زمنية وثانية. وكان الشيخ

---

(١) محمد علي الزعبي. الدروز ظاهرهم وباطنهم. مكتبة العرفان. بيروت. دون تاريخ. ص ٩٢.

(٢) فؤاد يوسف الأطرش. الموحدون الدروز تهم وتاريخ وحقائق. بيروت ١٩٨١. ص ٢١٨.

زين الدين العنداري، من الـذين بنوا غـرفة صغـيرة، عبارة عن خلوة، لـزوجته ابنـة الأمير السيد عبـد الله التنوخي، تنقـطع فيها لممارسة واجباتهـا الدينيـة، معزولـة عن الآخرين[٣].

وقد عرف لبنان كثيراً من الخلوات الدرزية، هدم عدد منها، بينها عـدد آخر مـا زال قائماً، ويحظى بقدسيّة كبيرة واحترام عظيم. نذكر منها:

خلوات البيّاضة:

تقع خلوات البياضـة على تلة مـرتفعة، تشرف عـلى حاصبيـا وفلسطين والبحـر وسهـل مرجعيـون وقسم كبير من البقـاع. تتـألف من عـدة مجـالس هي ملك لـلدروز سوريا الـطبيعية. مجلس يخص دروز لبنـان. وآخر يخص دورز حـوران. وثالث يخص دروز فلسطين ورابع يخص دروز حلب[٤].

تقع خلوات البياضة على بعـد كيلو متر واحـد جنوبي بلدة حـاصبيا، ولهـا وقف كبـير يضبط أغلالـه مجلس مؤلف من خمسة شيـوخ أجـلاء، وينفقهـا في أغـراض دينيـة وتعليم روحي وصدقات على المستحقين من رجال الدين[٥].

تحتل خلوات البياضة المكانة الأولى بين أماكن العبادة الدرزية لأنها تعتبر المركـز الـديني المشترك لكـل دروز العـالم قـاطبـة. وفي هـذه الخلوات يشغلون بنسـخ الكتب المقدسة ويعملون على حفظ الإيمان بعيداً عن الكفر. كما يحتل مشـايخها مـرتبة هـامة لأنهم يتميزون بتعمقهم وتبصرهم في الروحانيات، منقطعون عن مخالطة الناس إلا في أوقات زياراتهم الاجتماعية بين الحين والآخر. كما «إنهم يعيشـون من محصول الأراضي العـائدة لـوقف البياضـة والتي تتألف من عـدة قطع معـدة للزرع وعـدد من الحـدائق وكروم العنب، عدا قفـران النحل وشجـر اللوز والصنوبـر. ومشايـخ البياضـة رجال دين، يحفـظون غيباً الكتب الـدرزية المقـدسة ويتممـون جميع الفـرائض الـدينيـة التي يتطلبها التوحيد، وهم يخرجون من عزلتهم كلما دعت الحاجة إلى وفاق بين أبناء الشعب

(٣) محمد علي الزعبي. المرجع السابق. ص ٩٠.
(٤) حافظ أبو مصلح. واقع الدروز. ترجمة نازك فواز. المكتبة الحديثة. بيروت. ص ٢٣.
(٥) توفيق سلمان، أضواء على تاريخ مذهب التوحيد. بيروت ١٩٦٣. ص ١٩٦ - ١٩٧.

أو أيّة مصالحة بين متخاصمين أو إلى تهيئة الخواطر ساعة الهيجان. كلمتهم مسموعة ورأيهم محترم ومقرر، لا يخرج عنه حتى أبناء الطوائف الأخرى»[٦].

خلوة القطالب:

تقع هذه الخلوة على تلة صغيرة مشرفة على عين قنية في الشوف. بنيت منذ فترة قديمة في أيام الأمير السيد عبد الله التنوخي في القرن الخامس عشر. بقيت خلوة القطالب فترة طويلة تتألف من غرفة واحدة، ثم بني إلى جانبها عدد لا يستهان به من الغرف وذلك في الطابق الأرضي، ثم بني الطابق الأول من الباطون وليس من الحجارة. تعلو عن سطح البحر نحو ألف متر تقريباً. سمّيت بهذا الاسم لكثرة شجر القطلب الذي يحيط بها[٧]. وقد عرفت هذه الخلوة اجتماعات مصيرية تتعلق بحياة الطائفة الدرزية في لبنان، اتخذ فيها مقررات كانت حاسمة بالفعل، نتيجة لخطورة المرحلة، كما حصل إبان الحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٦ مثلاً.

خلوة عين الشاوي:

تقع هذه الخلوة في عبيه على مقربة من الكلية الداوودية «دار الحكمة» اليوم. وهي بناء قديم جداً، شبه مهمل الآن. كان القيّمون عليها عبر الوقت الطويل آل فرج من عبيه الذين ظهر منهم المتديّن الكبير الشيخ أبو حسين محمود فرج. بنى هذه الخلوة الشيخ أحمد أمين الدين وكانت خلوته المفضلة يجتمع فيها مشايخ البلاد قاطبة. تطل هذه الخلوة على قرية عين كسور الجميلة ومدينة بيروت والبحر. مركزها جميل جداً. ولقد أصابها الإهمال ربما لوجود مقام الأمير السيد في عبيه الذي استقطب الأجاويد[٨].

خلوة المونسة:

تقع هذه الخلوة على رابية فوق بلدة عرمون في قضاء عاليه. تشرف على البحر

---

(٦) حافظ أبو مصلح. المرجع السابق. ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٧) حافظ أبو مصلح. المرجع السابق. ص ٢٢.
(٨) حافظ أبو مصلح. المرجع السابق. ص ٢٥.

ومدينة بيروت ومناطق عديدة أخرى. بنى هذه الخلوة الشيخ جمال الدين ابن إسماعيل الشهير بابن المهتار. كان ذلك في أوائل القرن الثاني عشر هجرياً. كانت هذه الخلوة موئل الشيوخ المتعبدين يتقاطرون إليها بأعداد غفيرة من جميع المناطق اللبنانية والسورية والفلسطينية، تشدهم إليها سكينتها الوادعة،وتربطهم بها محبتهم لمجالسة بانيها المذكور وهو التقي الورع الذي لا يزال الشيوخ يذكرون أنه الإنسان الفريد الذي طبّق على نفسه شروط شريعة مذهبه المجيدة الصعبة. هذا ولا زالت خلوة المونسة قائمة حتى يومنا هذا إنما أحدثت لها بعض الترميمات وجانبتها المنازل. كما أقيم بالقرب منها سنة ١٢٩٤ هـ مقام لأحد أحفاد الشيخ السالف الذكر وهو الشيخ أبو حسن جمال الدين بن إبراهيم الذي اقتفى آثار سلفه في التقى والتعبد. وقد رمم هذه المقام حديثاً وتحول إلى خلوة فسيحة لها قبّة عالية. وفي داخل هذا المقام أو هذه الخلوة حجرة رخامية للشيخ المذكور وقد نقشت عليها هذه الأسطر:

ضريح فيه مجد واحترام ... عليه تحية وله سلام
وقد بني له ذكراً جميلاً ... مدى الأيام تذكره الأنام
جمال الدين إبراهيم يدعى ... أبو حسن له هذا المقام

وتلة المونسة قديمة في روحية التعبّد والزهد[9].

خلوة الزنبقية:

تقع في الجانب الشرقي من بلدة كفر نبرخ قرب الباروك في الشوف. كان لها أهمية عظيمة. وكان أول شيخ عام لها المرحوم الشيخ أحمد الدويك. أما الآن فقد أصبح أكثرها خراباً[10]. والشيخ أحمد الدويك «كان من الأفذاذ الذين اشتهروا بالورع والتقوى. ويروى أنه يوم وفاته حضر الأمير بشير (شهاب) والشيخ بشير جنبلاط، وساهما كلاهما في حمل نعشه تبركاً، وإعلاناً لفضله وتقواه»[11].

---

(٩) حافظ أبو مصلح. المرجع السابق. ص ٢٦ - ٢٧.
(١٠) توفيق سلمان. المرجع السابق. ص ١٩٦.
(١١) يوسف أبو شقرا. الحركات في لبنان. ص ١٩٧.

الأماكن الدينية الأخرى: مقام النبي أيوب:

يقع هذا المقام فوق بلدة نيحا في الشوف. يشرف على مساحة واسعة من الأراضي، ويطل على البحر من صور حتى جونيه. وهو عبارة عن بناء أبيض اللون، تغص ساحته يوم الجمعة من كل أسبوع بالناس الآتين من كل حدب وصوب: بالنساء اللواتي يضعن المناديل البيضاء على رؤوسهن، وبالرجال الذين يتهامسون همساً فيما بينهم، ويمشون في خشوع. لا يدّخنون ولا يكثرون الحركة، ولا ينظر أحدهم إلا إلى أهله. وفي هذا المقام يحتفل الدروز في صيف كل عام بذكر أيوب، عليه السلام. ولد «أيوب» في «عوس» بالقرب من قنوات في جبل الدروز. رزق أولاداً وثروة كبيرة، بدّدها كلها في الإحسان والمشاريع الخيّرة. وبعد أن أصبح صفر اليدين من المال، فقد أولاده وعانى الكثير من الآلام والأحزان والأمراض التي عصفت بجسده بالإضافة إلى المكائد والمصائب التي تحملها كلها برضى وتسليم لأن في ذلك كلها مشيئة الله وإرادته. أيوب الذي أضناه الشقاء وأعيته الهموم يرمز إلى الصبر والجلد الكبير والإيمان العميق المطلق.

يروي الكتاب المقدس حكاية أيوب في اثنين وأربعين فصلاً. والقرآن الكريم يذكر هذه الحكاية المدهشة عن رجل بقي أميناً لرسالته الدينية متمسكاً بإيمانه القوي بالرغم من كل الويلات التي أصابته إنْ من ناحية فقدانه لأولاده أو من ناحية تبديده أمواله وتعرضه للمتاعب والأمراض. وأخيراً وبعد أن أقعده مرض عضال شفاه الله وخلّصه من الموت. أيوب نبي من أنبياء الله. يتألف مقامه من عشرين غرفة صغيرة، شيدت بالحجارة البيضاء»[١٢].

وكان لسماحة شيخ عقل الطائفة الدرزية الشيخ محمد أبي شقرا اليد الطولى في ترميم بنائه وزيادة عدد غرفة حتى أصبحت بما هي عليه اليوم، واهتم اهتماماً بالغاً بالطريق الموصل إليه، فسهّل كثيراً على قاصديه من المشقات والعوائق. وكرّس له يوماً سنوياً يحتفل خلاله رسمياً في صيف كل عام.

---

(١٢) حافظ أبو مصلح، المرجع السابق ٢٩ ـ ٣٠ و٣٢. و٢٩.

مقام السيّد عبد الله التنوخي:

يقع هذا المقام في بلدة عبيه، عاصمة التنوخيين. يشرف على مدينة بيروت. تحيط به الأبنية من ثلاث جهات، باستثناء الناحية الشمالية منه. يؤمه الدروز من جميع الأقطار، كما يؤمن به المسيحيون أيضاً ويعتقدون بقدسيته وطهارته. كان يتألف من غرفتين اثنتين، إلا أن الاستاذ عارف بك النكدي الذي كان متولياً أوقافه، بنى إلى الناحية الشمالية منه بناء من طابقين يشمل عدداً من الغرف لاستقبال الزوار الذين يضطرون للبقاء ليال عديدة في المقام. كما يقع إلى جهته الشرقية بناء «دار الأيتام الدرزي» الذي بناه عارف بك النكدي أيضاً يوم كان متولياً على الأوقاف الدرزية.

يحتل هذا المقام المكانة ذاتها التي يحتلها مقام النبي أيوب في نيحا. وقد كتب على ضريح الأمير السيد هذان البيتان من الشعر:

«بشراك يا قبر فيك البحر مسجون   تم الكمال وبدر التم مدفون
طممت شخصاً فليس الدهر يخلعه   وأنت ذو صدف والدر مكنون»[١٣]

المقام الشريف أو مقام شمليخ:

يقع بالقرب من بلدة شارون في قضاء عاليه، له أهمية مماثلة للمقامين السابقين حيث أن «خامس الحدود المقتنى بهاء الدين مرّ به ماكثاً ليلة حافلة بالوصايا الدينية مع جماعة من أبناء التوحيد، أثناء مهمة دينية كان ينوي إنجازها في دمشق».

يتألف هذا المقام من سبع عشرة غرفة تستوعب عدداً كبيراً من الزوار الذين ينامون فيه في أيام الصيف، بالإضافة إلى عدد من المتدينين الذين يمضون ليلتهم هناك أيضاً بعد أن ينهوا صلاة الجمعة»[١٤].

مقام الست شعوانة:

يقع هذا المقام في البقاع، ويحتل مكانة دينية عالية. وهو عبارة عن مكان دفنت

---

(١٣) و(١٤) حافظ أبو مصلح، المرجع السابق ٢٩ ـ ٣٠. و٣٢. و٢٨.

فيه إحدى الفتيات التقيات بعد أن مرّت بتجربة قاسية أثبتت من خلالها ورعها وتقواها محتلة مكانة دينية مقدسة في نفوس الموحدين. يزور هذا المقام دروز ومسيحيون أيضاً لإيمانهم العميق بقدسيتها وطهارتها.



الفصل الرابع

الأحوال الشخصية عند الدروز

وافق المجلس النيابي اللبناني على مشروع قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية في جلسته السابعة المنعقدة في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم الثلاثاء الواقع في ١٠ شباط ١٩٤٨، والمحال بالمرسوم رقم ٧٢٢٤ تاريخ ٢١/١٠/١٩٤٦.

وقد لاقى هذا المشروع اعتراضاً من قبل الاستاذ أديب الفرزلي في المجلس النيابي في محاولة عرقلته وعدم إبرازه إلى النور تمشياً مع استقلالية الأحوال الشخصية للطائفة الأرثوذكسية التي ينتمي إليها، مطالباً الأستاذ كمال جنبلاط «بالتنازل عن قانون الأحوال الشخصية لطائفته الكريمة» في الوقت الذي أعلن فيه «أنني كنائب أرثوذكسي أعلن أنا وطائفتي ومن يمثلها في هذا المجلس، أننا نتنازل كل التنازل عن الأحوال الشخصية للطائفة الارثوذكسية».[1].

وكان رد الأستاذ كمال جنبلاط على هذا الكلام واضحاً كل الوضوح عندما قال: «لقد اقتضت الظروف بتنظيم قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية، وحتى الساعة كانت عادات وتقاليد. وقد اعتمدنا في هذا القانون ووضعنا نصب أعيننا، أن نحافظ ما أمكن على هذه التقاليد التي تعد تطوراً كبيراً على الشرائع المعمول بها في الشرق فيما يتعلق أولاً بالمحافظة على قضية الزواج والطلاق في أوضاع معينة، وثانياً لقد أردنا أن نعطي المرأة حقوقها كما تنص عليها كتب الدين والعادات المعمول بها. إن هذا المشروع قد حوى كل هذه العادات وأدخل عليها تعديلات جديدة، وهناك

(١) حليم تقي الدين. الأحوال الشخصية عند الدروز. بيروت ١٩٨١. ص ٣١٣ نقلاً عن محاضر جلسات مجلس النواب (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨). مكتبة الجامعة الأمريكية. بيروت.

بعض تعديلات طفيفة طرأت ستتلى عندما نصل إليها. ان الأحوال الشخصية يا حضرة الزميل الاستاذ أديب الفرزلي، لا تمنع بضرورة إلغاء الطائفية وأنا كنت أول نائب في المجلس السابق طالب بإلغائها واقترحت أيضاً الزواج المدني الاختياري للمجلس الكريم، إذ لا يمكن لهذه البلاد أن تصل للوحدة القومية ما لم تزل هذه العقبات السطحية كما أعدّها. . . أرجو من المجلس الكريم، أن يصدّق هذا المشروع ليس باعتبار أنه تقاليد بل باعتبار أنه يمثل فكرة تطورية في لبنان والدروز هم بمثابة بروتستانت في الإسلام خرجوا نوعاً عن الشرع الإسلامي»[2].

كما أن الشيخ بهيج تقي الدين أعطى في ردّه على الفرزلي صورة واضحة أيضاً عندما قال موجهاً كلامه إلى النواب: «إن الزميل أديب بك الفرزلي كثيراً ما يوجه إلينا السهام وهي في أكثر الأحيان سهام طائشة، وبصورة خاصة اليوم، يريد أن يخلط بين الطائفية وقوانين الأحوال الشخصية. . . نحن في بلاد لكل طائفة فيها قانون أحوال شخصية، ونحن الطائفة الدرزية لا تستند إلى قانون مكتوب في هذه القضايا، بل إلى تقاليد كما تفضّل الزميل كمال بك جنبلاط. أراد بعض المشترعين أن تصاغ بقالب قانون مكتوب لا أكثر ولا أقل. ومن اليوم حتى نتخلص من نير الطائفية نرجو من المجلس الكريم، أن يفسح لنا المجال حتى نتمتع بقانون ينظم تقاليدنا كباقي الطوائف، وأني أرجو أن لا نقيم سباقاً في العلمانية بيننا وبين الزميل أديب الفرزلي. نحن لا نبحث هذا الأمر بل نبحث قضية وضع تقاليد الطائفة الدرزية موضع القانون»[3]. تكلم بعد ذلك النائب جورج زوين موافقاً على قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية ولجميع الطوائف. ثم عرض مشروع القانون على المجلس وصوّت عليه مادة مادة، فصدّق بالاجماع في ١٠ شباط ١٩٤٨.

ومنذ وجودها في لبنان، مثلت الطائفة الدرزية وزناً مهماً في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ووزناً طائفياً كبيراً عبر تاريخها، لا يقل شأناً عن مجالاتها الأخرى. ومن خلال ذلك، كانت تمارس استقلالها، في لبنان خاصة، وفي كل الميادين كطائفة تاريخية لها وجودها وجذورها.

---

(٢) حليم تقي الدين المرجع السابق، ص ٣١٤. نقلاً عن محاضر جلسات المجلس النيابي (١٩٤٧ - ١٩٤٨).
(٣) المرجع السابق نفسه.

على هذا الأساس، تبرز قدميّة استقلال القضاء المذهبي عند الموحدين، الـذين أطلق عليهم اسم الـدروز، حيث «يـرجـع تـاريـخ هـذا الاستقـلال إلى سنـة ٤١٠ للهجـرة، فمنذ ذلـك الحـين، انفصـل قضـاء المـوحـدين الشرعي، بمقتضى مـرسـوم معلوم»[٤]، في عهد الحاكم بأمر الله في مصر، عندما أرسل رسالة إلى القاضي أحمـد بن العوام ـ الحنفي المذهب ـ الذي تولى القضاء في السنة ٤٠٥ للهجـرة، يحذّره فيهـا من النظر في قضايا الموحدين وشؤونهم المذهبية.

ويؤكد كثير من المؤرخين أهمية القاضي الدرزي وشمولية صـلاحياتـه التي كانت تشمل مختلف الطوائف في عهد التنوخيـين والمعنيين والشهـابيين، حيث ورد في كتـاب «آرار وأبحاث» للدكتور أسد رستم[٥] ما حرفيته: «. . . إن صلاحية القاضي الدرزي في لبنان الجنوبي كانت تتناول الطوائف غير المسيحية وإنه كان يحق للمسيحيين أيضـاً، أن يتقاضواَ لـديه إذا أرادوا. . . فنـذهب إلى أبعد من هـذا، ونزيـد أن المسيحيين في لبنان الشمالي والمتوسط والجنوبي كانوا يترافعون مرات غير قليلة أمام المحكمـة الدرزيـة في بعقلين أو غـيرها من قـرى الشوف، ذلـك أني لا أزال أحفظ أمراً من الشيـخ أحمد تقي الدين، القاضي في بعقلين يعين بموجبه جدّي الأكـبر، رستم مجاعص الشـويري، حكماً في إحدى الدعاوى بدير القمر». لكن التقلبات التي عرفها لبنان، أثرت بشكـل كبير على خصوصيات الـطوائف اللبنانيـة أيضاً، واتخـذ القضاء طـابعاً مـذهبياً بحتـاً. وكـان لعهد القـائمقاميتـين تأثـيره الكبير. كـما مثّل عهـد المتصرفية تكـريساً قـانـونيـاً للطائفية، ومذهبية المحاكم. وأصبح لكل طائفة محاكمها المذهبية الخاصة بعـد أن كان القاضي الدرزي يحكم جميع الطوائف، بمـوجب صلاحيـة شاملة، فـأصبح منـذ ذلك الوقت يعرف باسم قاضي المذهب.

ولم يشذ الدستور اللبناني الذي صدر في ٢٣ أيار ١٩٢٦ عن القاعدة الطائفيـة، حيث كرّست مادته التاسعة ذلك مؤكدة، أن «حرية الاعتقاد مطلقة، والـدولة بتـأديتها

(٤) كلمة سماحة الشيخ محمد أبي شقرا بمناسبة تكريم قاضي المذهب الشيخ أمين شمس. كتاب قضاء الموحدين الدروز «للشيخ حليم تقي الدين. بيروت ١٩٧٩. ص ٢٥١.

(٥) أسد رستم. آراء وأبحاث. منشورات الجامعة اللبنانية. قسم الدراسات التاريخيـة. المطبعـة الكاثـوليكية. بيروت ١٩٦٦. ص ٨٦.

فروض الاجلال لله تعالى، تحترم جميع الأديان والمذاهب، وتكفل حرية إقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها، على أن لا يكون في ذلك إخلال في النظام العام. وهي تضمن أيضاً، للأهلين على اختلاف مللهم، احترام نظام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية». وفي التاسع من كانون أول ١٩٣٠، صدر قانون أعطي بموجبه للمحاكم المذهبية الدرزية «صلاحية النظر في الأحوال الشخصية الخاصة بأبناء الطائفة الدرزية تبعاً لتقاليدهم وأعرافهم المتوارثة منذ القدم، مساواة بالصلاحيات التي أعطيت للمحاكم الشرعية السنية والجعفرية»[٦].

وجاءت الرسالة التي بعث بها سفير فرنسا، المفوض السامي في سوريا ولبنان إلى رئيس محكمة حل الخلافات في المفوضية بتاريخ ٢٨ أيلول ١٩٣٨، لتلقي كثيراً من الضوء على الاعتراف للطائفة الدرزية في سوريا ولبنان بأن لها قانوناً للأحوال الشخصية خاصاً بها، يمنحها امتيازات قضائية... استناداً إلى النصوص الدولية التي ضمنت للطوائف كافة، الإبقاء على امتيازاتها كما كانت في ظل النظام العثماني القديم، قبل إندلاع حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨[٧]. وهكذا شملت صلاحية محاكم الأحوال الشخصية الدرزية عندما يكون الأطراف المتنازعون جميعهم دروزاً، القضايا التالية:

١ ـ الزواج وما يتفرع عنه من بطلان الزواج، وحلّه، والبنوّة، وإثبات شرعية الأولاد وحضانتهم في السنين الأولى من العمر، والوصاية، والنفقة بين الزوجين.

٢ ـ الوصيّة ـ٣ ـ الوقف.

والجدير بالذكر، أن لكل طائفة في لبنان أحوالها الشخصية، ولها أيضاً محاكمها وجهازها القضائي وأصول محاكمات خاصة بها. والأحوال الشخصية عند الموحدين الدروز، هي تراث من تقاليدهم الاجتماعية واجتهاداتهم المذهبية منذ القدم، وقد تقنّنت هذه التقاليد والاجتهادات أو أكثرها، في قانون خاص، عرف بقانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية، صدر في ٢٤ شباط ١٩٤٨. وأن أحكام هذا القانون مستمدة في أكثرها من المذاهب الإسلامية الخمسة: الحنفي، المالكي، الشافعي،

---

(٦) حليم تقي الدين. قضاء الموحدين الدروز. بيروت ١٩٧٩. ص ٦١.

(٧) حليم تقي الدين. المرجع السابق. ص ٦٦ ـ ٦٧.

الحنبلي، والجعفري مع أحكام خاصة مستمدة من تقاليد الدروز واجتهاداتهم المذهبية، وأن هذه الأحكام الخاصة، تتباين مع الأحكام المطبقة لدى محاكم الطائفة السنّية المستمدة من قانون حقوق العائلة وارجح الأقوال من مذهب أبي حنيفة، ولدى محاكم الطائفة الشيعية المستمدة من المذهب الجعفري وما يتلاءم مع هذا المذهب من أحكام قانون حقوق العائلة[8].

تطرق الشيخ حليم تقي الدين[*]، رئيس المحكمة الاستئنافية العليا الدرزية سابقاً، إلى الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية في كتابه الخاص بهذا الموضوع وبصورة تفصيلية حيث يعتبر مرجعاً مهماً، ليس للطائفة الدرزية فحسب، بل وللطوائف الأخرى أيضاً. كما يعتبر هذا الكتاب تكملة لكتابه الأول «قضاء الموحدين الدروز»، مؤكداً فيهما بأن السنة القضائية بدأت بعد التنظيم القضائي الجديد الذي نفذ سنة ١٩٦٧. كما تمّ في ٤ أيار ١٩٦٨، تأليف جهاز المحاكم البدائية والاستئنافية، قضاة ومساعدين قضائيين، وفاقاً لأحكام قانون تنظيم هذا القضاء الصادر في ٥ آذار ١٩٦٠ والمعدل بالقانون الصادر في ٤ كانون الأول ١٩٦٧.

أولاً: قضاة المذهب المنفردون: محاكم الدرجة الأولى (البدائية):

محكمة بيروت: الشيخ مرسل نصر (١٩٦٧/٩/٢١).

محكمة عاليه: الشيخ مسعود الغريب (١٩٦٧/٧/٢١).

(اغتيل في مجزرة كفرمتّى (قضاء عاليه) سنة ١٩٨٣ مع عشرات من أبناء البلدة على يد الجيش اللبناني الطائفي و«القوات اللبنانية).

محكمة بعقلين: الشيخ شريف بوحمدان (١٩٧٥/٤/١).

سابقاً: الشيخ أمين شمس (١٩٦٧/٧/٢١ ـ تقاعد في أول تموز ١٩٧٠ وتوفاه الله في ٢٣ نيسان ١٩٧٧).

محكمة البقاع ـ راشيا: الشيخ شريف شرف (١٩٦٧/٧/٢١).

محكمة الجنوب ـ حاصبيا: الشيخ شريف شرف (منتدب المركز شاغر حالياً).

(٨) حليم تقي الدين. الأحوال الشخصية عند الدروز. بيروت ١٩٨١. ص ٧ (المقدمة).

(*) اغتيل الشيخ حليم تقي الدين في منزله ببيروت بتاريخ الأول من كانون الأول سنة ١٩٨٣.

سابقاً: الشيخ نجيب قيس (١٩٣٣/٨/١٩. انتهت خدمته في أول تموز ١٩٧٥. وتوفاه الله في ١٩٨٠/٥/١٩).

ثانياً: المحكمة الاستئنافية العليا:

الرئيس: الشيخ حليم تقي الدين (١٩٦٨/٥/٤).
المستشار: الشيخ سجيع الأعور (١٩٦٨/٥/٤).
المستشار: الشيخ شفيق أبو الحسن (١٩٦٨/٥/٤).

ثالثاً: القضاة المنتدبون من سلك القضاء العدلي مع ممارستهم مهام وظائفهم القضائية الأصلية:

النائب العام: الشيخ سامي يونس (١٩٦٩/٢/٢٦).
النائب العام: الشيخ رياض طليع (١٩٨٠/١٢/٢).
المفتش: الشيخ شريف قيس (١٩٦٦/٢/٢٣).

رابعاً: تأليف محاكم الدرجة الأولى (قضاة المذهب) وصلاحياتها: تتألف محاكم الدرجة الأولى من:

١ ــ محكمة بيروت. مركزها بيروت. ونطاق صلاحياتها: محافظة بيروت. محافظة الشمال. قضاء المتن. قضاء بعبدا. قضاء كسروان. قضاء جبيل.

٢ ــ محكمة عاليه: مركزها عاليه. ونطاق صلاحياتها: قضاء عاليه.
٣ ــ محكمة بعقلين: مركزها بعقلين. ونطاق صلاحياتها: قضاء الشوف.
٤ ــ محكمة البقاع: مركزها راشيا. ونطاق صلاحياتها: محافظة البقاع.
٥ ــ محكمة الجنوب: مركزها حاصبيا. ونطاق صلاحياتها: محافظة الجنوب.

ولكل محكمة قلم يتألف من رئيس قلم وكاتب ومباشر وحاجب.

واعتبرت المحكمة الاستئنافية العليا المجلس التأديبي لقضاة المذهب والمساعدين القضائيين[٩].

---

(٩) حليم تقي الدين. الأحوال الشخصية عند الدروز. بيروت ١٩٨١. ص ٢١.

وكان القضاة الدروز الأوائل نخبة من الأمراء التنوخيين. كان أولهم الأمير عماد الدين حسن التنوخي الذي بنى «جسر القاضي» على نبع الصفا، (وحمل اسمه)، وهو الذي يصل منطقة الغرب بمنطقة المناصف في الشوف، وما زال قائماً حتى اليوم[10].

أما قضاة المذهب الدرزي في المرحلة الثانية المتمثلة بعهد المتصرفية (ابتداء من ١٨٦١)، وعهد الانتداب الفرنسي، فإنهم توزعوا حسب المناطق التالية:

١ ــ في جبل لبنان[11]: الشيخ أبو صالح سلمان تقي الدين. ثم الشيخ سعيد حمدان الذي ولد في دير كوشه ـ الشوف عام ١٨٤٠. واستمرت فترة حكمه من سنة ١٨٧٨ حتى ٤ أيلول ١٩٢٨، حيث قدم استقالته فخلفه ابنه الشيخ ملحم في تولي هذه الوظيفة في ٦ أيلول سنة ١٩٢٨، حتى ١٩٤٥، حيث قدم استقالته أيضاً بعد مرضه واستحالة قيامه بمهمة القضاء، فتسلّم المقدم علي مزهر هذه المهمة من بعده في مرحلة الاستقلال.

٢ ــ في بيروت: تسلم هذا المنصب الشيخ محمد علي روضة.

٣ ــ في راشيا[12]: كان الشيخ عبد الخالق عبد الله زاكي أول من تولى هذا المنصب في راشيا، ومن بعده الشيخ محمد محمود زاكي[13]. ثم ولده حمد، فالشيخ شمس الدين ثم عبادة زاكي. فالشيخ نعمان محمد زاكي الذي تولى منصبه عام ١٩١٩ وتوفي سنة ١٩٢٥ أثناء الثورة السورية الكبرى ضد الفرنسيين، حيث تولى بعده ولده سليم من سنة ١٩٢٧ حتى ١٩٤٥.

---

(١٠) يذكر سماحة الشيخ حليم تقي الدين في كتابه «قضاء الموحدين الدروز» ص ١٤ عن تاريخ «الأمراء آل تنوخ» بأنه «مخطوطة غير مطبوعة بحياطة صديقنا الأمير نديم آل ناصر الدين (التنوخي)». إلا أن هذه «المخطوطة» منشورة في مجلة «أوراق لبنانية»، الجزء السادس، حزيران ١٩٥٦، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٨، وكذلك في نفس المجلة، الجزء السابع، تموز ١٩٥٦، وبتوقيع الأمير أمين آل ناصر الدين أيضاً».

(١١) حليم تقي الدين، قضاء الموحدين الدروز. ص ٢٨ ـ ٢٩.

(١٢) يوسف أبو شقرا. الحركات في لبنان. بيروت ١٩٥٢. ص ١٩٦.

(١٣) توفيق سلمان. أضواء على تاريخ مذهب التوحيد. بيروت ١٩٦٣. ص ٢١٠.

٤ ــ في حاصبيا[١٤]: كان الشيخ حمد قيس أول من تولى هذا المنصب في حاصبيا، ثم خلفه ولده الشيخ حسين الذي توفي سنة ١٩٣٣ . فتسلم الشيخ نجيب حسين قيس الذي انتهت خدمته القضائية سنة ١٩٧٥ ، وتوفي عام ١٩٨٠، حيث قام الشيخ شريف شرف بإملاء هذا المركز الشاغر.

(١٤) يوسف أبو شقرا. المرجع السابق. ص ١٩٦ .

الفصل الخامس

عدد الدروز في لبنان

لم يتفق المؤرخـون حول التحـديد الصحيـح لعدد الـدروز في لبنـان ابتـداء من القـرن الثامن عشر. ذلـك لأن تاريـخ الموحـدين كان مليئاً بـالحـروب والمجـازر التي شكلت عاملاً أساسياً في التأثير على الناحية العددية لهم. والحقيقة أن عدد الدروز كان فيما مضى أكثر منه اليوم ـ لـولا العوامـل المذكـورة ـ حيث ساهمت عـوامل متعـددة في نقصـان عددهم إلى مـا أصبح عليـه حاليـاً، ابتداء من الصليبيـين مـروراً بـالمـماليـك والعثمانيين وانتهاء بالشهابيين والمصريين. في هذا الوقت الذي كـان يتناقص فيـه عدد الدروز بصورة متواصلة، كان عدد المسيحيين بالمقابل آخذاً بالإزدياد المستمر من جراء تدفق هجراتهم إلى لبنـان وتشجيعها من قبـل الشهابيـين ـ خاصـة في زمن بشير الثـاني الذي شجع المسيحيـين على الإقـامة في جبـل لبنان» ـ[1]. يضـاف إليه نجـاح المخطط «التنصيري» الذي استهدف عائلات درزية بكـاملها (كـآل أبي اللمع مثـلاً)، أو قسماً منهـا (كآل أبي شقـرا)، عندمـا سلخ عن الطائفـة الدرزيـة قوة اقتصـاديـة وسيـاسيـة واجتماعية وعددية لعبت دورها الهام في التأثير على مقومات الطائفـة ككل، والاخـلال بموازين القوى في الجبل. . . والمعارك الدامية والحمـلات والفتن التي سقط على أثـرها من الدورز أضعاف ما فقده المسيحيون، كما لعبت الضغوطات المارونية المـدعومـة من القوى الأوروبية دوراً كبيراً على هذا الصعيد. وجميع هذه العوامل ساهمت في إحداث تغيـيرات وتعديـلات في نسبة الطوائف المتصـارعـة عـلى الجبـل، كـما يؤكـد الاستـاذ دومينيك شوڤالييه أن العنف نفسـه، والصدامـات الداخليـة كانت إشـارة واضحة في

---

(١) Encyclopédie de l'Islam, op., Tome II, 1965, Page 652.

تعديلات طرأت على القوة العددية والتوزيع الجغرافي[٢].

ويتطرق الرحالة الفرنسي ڤولناي Volney، الذي زار جبل لبنان في أواخر القرن الثامن عشر، مشيراً إلى ذلك ومحدداً عدد المقاتلين الدروز بأربعين ألفاً وخمسة وثلاثين ألفاً من المسيحيين، مستنتجاً بأن عدد الدروز يبلغ مئة وعشرين ألفاً بينما يبلغ عدد المسيحيين مئة وخمسة عشر ألفاً[٣]. إلا أنه، بعد ثلاثين سنة تقريباً، ينكر كورنسيه Corancey هذا التحديد الذي ذكره Volney محدداً عدد الدروز بسبعين ألفاً، منهم ستة عشر إلى سبعة عشر ألف رجل قادر على حمل السلاح. ويضيف قائلاً بأنها حقيقة ثابتة ومعترف بها (!!!)، وإن الموارنة هم أكثر عدداً من الدروز في جبل لبنان[٤].

بينما الانسيكلوبيديا الإسلامية تقول بأنه في منتصف القرن العشرين يعدّ الدروز حوالي مئتي ألفاً يسكنون مناطق مختلفة من سوريا وجبال لبنان وحوران. وهم من الناحية المبدئية مزارعون وملاّكو أراض[٥]. ويذكر القنصل الفرنسي في بيروت، هنري غيز بأن الدروز القادرين على حمل السلاح سنة ١٨٤٣ في ستة عشر مقاطعة، ابتداء من الشوف حتى جبيل، يبلغ ١٠,٠٥٠ درزياً، ومجموع عدد الدروز، الذكور والإناث، يبلغ ٢٦٤٤٥ نسمة[٦].

أما الدكتور عبد الرحمن بدوي، فإنه ذكر «حسب إحصاء سنة ١٩٤٤، بلغ عدد الدروز ٧١٧١١ شخصاً. وفي إحصاء ١٩٥٦، بلغ عددهم ٨٨١٠٠ نسمة وموضحاً بأن لهم في مجلس النواب اللبناني ـ وعدد أعضائه ٩٩ ـ ستة نواب (نائبان عن منطقة عاليه ـ نائبان عن منطقة الشوف. نائب واحد عن البقاع الغربي، ونائب واحد عن قضاء بعبدا)»[٧].

(٢) Dominique Chevalier, op., Page 38.

(٣) Volney, Voyage en Egypte et en syrie pendant les annèes 1783, 84, 85 Paris 1787, Tome I, Page 416 et 456.

(٤) Dominique Chevalier, op., Page 39.

(٥) Encyclopédie de l'Islam, op., Page 647.

(٦) Henri Guys. Relation d'un sejour... Page 218.

(٧) عبد الرحمن بدوي. مذاهب الإسلاميين. الجزء الثاني. دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٤. ص ٦٣٥.

ويذكر الأستاذ سليم أبو إسماعيل أنه «بناء على إحصاء أُجري في سنة ١٣٢٣ هـ بلغ عدد سكان المتصرفية ٤١٤,٨١٨ نفساً منهم ٢٦,٢٥٣ ذكراً درزياً، و٢١,٠٣٧ أنثى. ومجموع الدروز ٤٧,٢٩٠ نفساً. أما في عام ١٩٥٢، فقد بلغ عددهم ٨٢٢٦٨ نسمة»[٨].

إلا أن القاضي أمين طليع يذكر بنوع التفصيل التوضيحي عدد الدروز حسب إحصاء أُجري عام ١٩٣١، واعتمد في الانتخابات النيابية عام ١٩٥٣ على الوجه التالي: «بيروت ٢٤٥٧ نسمة. جبل لبنان ٧١٥٦٩ نسمة. الشمال ١٩ نسمة. الجنوب ٦٨٩٣ نسمة. البقاع ٧١٩٣ نسمة. المجموع ٨٨١٣١ نسمة، أما الآن فإن عددهم لا يقل عن مئة ألف نسمة في لبنان، وعن نصف مليون في لبنان وسوريا وفلسطين»[٩].

أما التحديد الصحيح هو الذي اعلنته سكرتارية دار الطائفة الدرزية في بيروت مؤكدة بأن عدد الدروز في لبنان عام ١٩٥٨، بلغ ١٢٠,٠٠٠ (مئة وعشرين ألفاً) يسكنون في وادي التيم، والشوف والمتن وبيروت. إلا أن عددهم الاجمالي يصل اليوم إلى ١٥٠,٠٠٠ نسمة (مئة وخمسين ألفاً)، يتواجدون في نفس المناطق المذكورة.

الأعياد عند الدروز:

ككل الطوائف اللبنانية يحتفل الدروز بمناسبات دينية يعتبرونها جزءاً من وجودهم ومن صميم معتقداتهم، خاصة وأن الدين ما زال يحتل المكانة الهامة ـ والأولى ربما ـ ليس في لبنان فقط، بل وفي الشرق كله باعتباره مهداً لكل الأديان السماوية. حتى أن استمرارية الزعماء الروحيين اليوم في الحياة الاجتماعية في البلاد تعود إلى قوة العامل الديني وتأثيره. فالبطاركة والعلماء، والعقال والخوارنة، يعتبرون زعماء زمنيين كما هم زعماء روحيون على حد قول الدكتور عادل إسماعيل[١٠].

كان عيد الأضحى المبارك يعتبر العيد الديني الكبير الذي يحتفل به الدروز كل

---

(٨) سليم أبو إسماعيل. الدروز. ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٩) أمين طليع. أصل الموحدين الدروز. منشورات عويدات. بيروت ١٩٨٠، ص ٢٧.

(١٠) Adel Ismail. l'histoire du Liban. Paris 1955, Tome I Page 21.

سنة. إلا أن سماحة الشيخ محمد أبي شقرا، شيخ عقل الطائفة الدرزية في لبنان، كرّس منذ سنوات عدّة، يوم الواحد والثلاثين من آب كل عام، عيداً رسمياً للنبي أيوب (عليه السلام). يقام الاحتفال بهذه المناسبة في المقام الذي يحمل اسمه في نيحا ـ الشوف، بحضور رئيس الجمهورية والوزراء والنواب وأعضاء السلك الدبلوماسي، يلقي خلالها رئيس الجمهورية كلمته، كما يشارك بعض الوزراء والدبلوماسيين في إلقاء الخطب. وتبقى كلمة سماحة شيخ العقل الكلمة المميزة والمؤثرة لأنها تنطلق من الإحساس الصادق والعميق، والالتزام المبدئي بقدسيّة المناسبة ونبلها. هذا ما أكدته جميع المناسبات التي احتفل فيها حيث يبقى العقّال الدروز وجهّالهم يتناقلون كلمات سماحته شهوراً وتصبح الشغل الشاغل لهم، نظراً لأهميتها وقداسة مناسبتها.

وكما كرّس سماحته يوماً خاصاً للنبي أيوب، فقد كرّس يوماً مماثلاً للأمير السيّد عبد الله التنوخي، حدّد تاريخه في الرابع من أيلول من كل سنة. وقد أقيم احتفال كبير في ذكرى مرور خمس مائة سنة على وفاته في عام ١٩٧٩. والمعروف بأن عيد الأضحى المبارك هو عيد يحتفل به جميع المسلمين، إلا أنه يأخذ أهمية كبرى وقدسيّة مميزة عند الطائفة الدرزية. كما يشارك الدروز في أعياد الطوائف الأخرى انطلاقاً من مبدأ التسامح الذي عرفوا به، واحترامهم لسائر المذاهب والأديان عبر تاريخهم.

هذا ويحتل عيد الفطر المبارك قدسيّة هامة لدى الموحدين الدروز أيضاً، إضافة إلى عيد المولد النبوي الشريف الذي يكتسب أهمية بالغة واحتفاء مميّزاً، وكذلك عيد رأس السنة الهجرية.

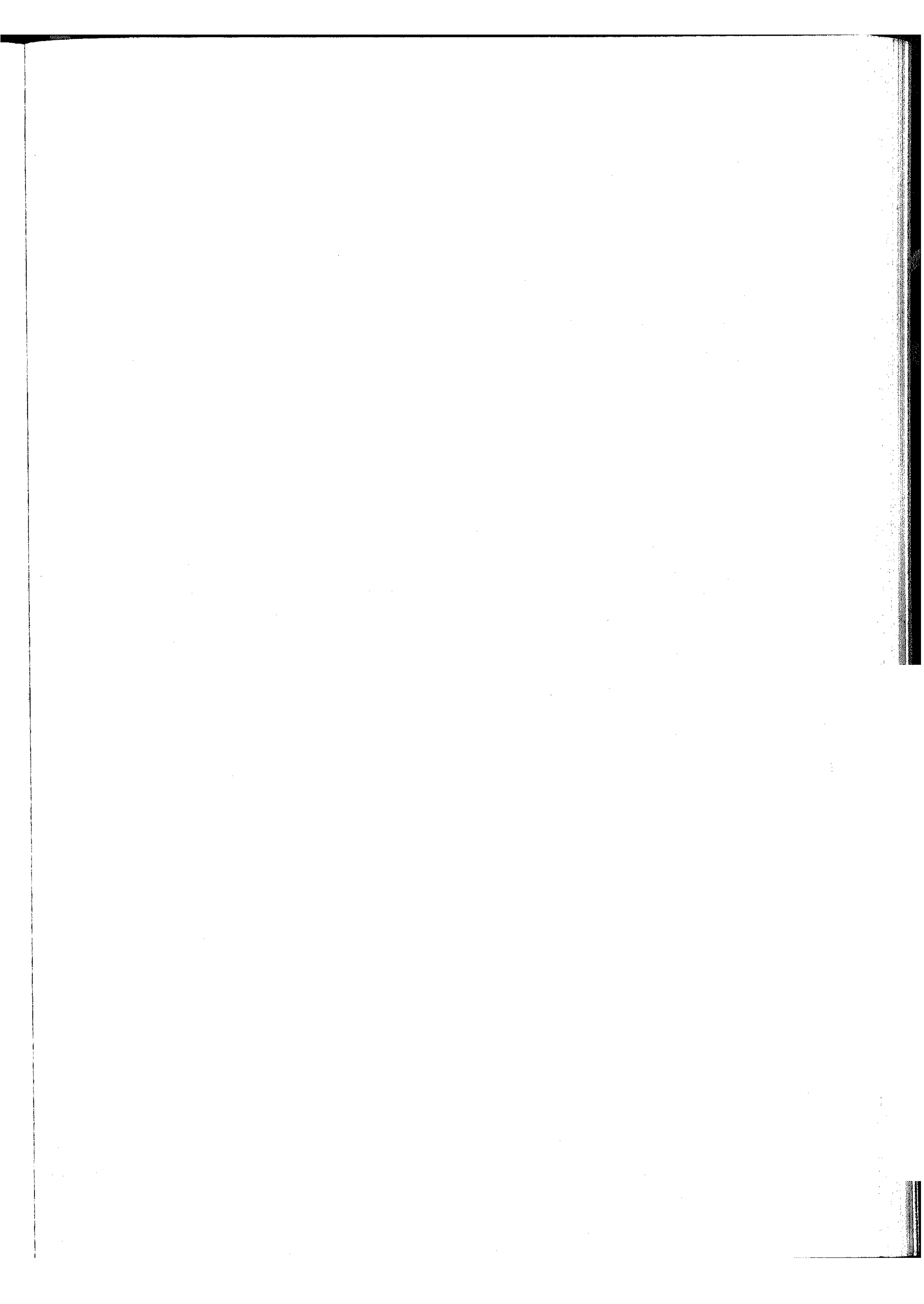
الصحافة الدرزية:

لكل طائفة دينية في لبنان وسيلة أعلام تنطق باسمها وتعبر عن قضاياها، كما هي الحال في مختلف دول العالم. كذلك شأن الطائفة الدرزية باعتبارها إحدى الطوائف اللبنانية التي تمتلك وسيلة إعلامها الخاصة. تمتلك الطائفة الدرزية صحافتها المتمثلة أولاً وقبل كل شيء بمجلة «الضحى» التي يصدرها المجلس المذهبي للطائفة الدرزية، وتعتبر لسان حال دار الطائفة ومكتب مشيخة العقل، تصدر بصورة دورية

مرة كل شهر، وتعالج مختلف المواضيع الخاصة بالطائفة ضمن إطار أبواب محدّدة. كما تشتمل على باب خاص بالتبرعات التي تصلها مساهمة في إنماء المشاريع الحيوية التي تعود لصالح الطائفة.

أما مجلة «الميثاق» فإنها تهتم أيضاً بشؤون الطائفة الدرزية، وهي مجلة شهرية تبحث في الاجتماع والآداب والتاريخ والثقافة والعلم. أنشئت سنة ١٣٧٤ هـ الموافق ١٩٦٤ م في عبيه (مقر التنوخيين) قرب عاليه. صاحبها ومديرها المسؤول الأستاذ شكيب النكدي. تتوزع مواضيعها أيضاً أبواب ثابتة وصفحات مخصصة لأسماء المحسنين الذين يرسلون إليها تبرعاتهم لدعم «مؤسسة بيت اليتيم الدرزي» من ناحية، و«مدرسة عارف النكدي المهنية» التي بوشر العمل بها بعد وفاته سنة ١٩٧٥، من ناحية أخرى.

وقبل هاتين المجلتين كان هناك جريدة اسمها «الصفاء» أسسها سنة ١٨٨٦ الأمير علي، والد الأمير أمين آل ناصر الدين. وابتداءً من سنة ١٩٩٨، تسلّم الأمير أمين إدارتها والإشراف عليها حيث كانت تتولى معالجة القضايا الأساسية المتعلقة بشؤون الطائفة الدرزية، والنواحي السياسية والاجتماعية على وجه الخصوص. لكن جريدة «الصفاء» توقفت منذ عشرات السنين عن الصدور، إلا أن مجلتي «الضحى» و«الميثاق» ما زالتا تصدران باستمرار في مطلع كل شهر. لكنهما توقّفتا عن الصدور كالمعتاد بعد الاجتياح الصهيوني للبنان في حزيران ١٩٨٢.



الفصل السادس

المؤسسات الدرزية

١ ـ مشيخة العقل:

تمثل مشيخة العقل الرئاسة الروحية العليا عند بني معروف. كما يعتبر شيخ عقل الطائفة، الزعيم الديني الأول بين العقال حسب تعبير هنري غيز[١]. ويعتبر هذا المنصب ارثاً تقليدياً قديماً قدم الدعوة الفاطمية منذ ولادتها في مصر على أيدي الحاكم بأمر الله. ومشيخة العقل من المناصب الكبرى الحساسة والمسؤولة في البلاد، حيث كان يهابها الحكام ـ الشهابيون خاصة ـ لأهميتها وتأثيرها ووزنها الفاعل على كل الصعد. وقد أورد القنصل الفرنسي هنري غيز في معرض كلامه عن شيوخ عقل الدروز قائلاً: «أن شيوخ العقل نخبة من شيوخ الدين يعاونون الشيخ الكبير الذي كان يدعى شيخ المشايخ أو شيخ العصى»[٢].

أما في زمن الشيخ علي جنبلاط (شيخ عقل الدروز في عصره)، استطاع بنفوذه وقوته وتديّنه أن يجمع السيادتين في يده، السيادة الزمنية والسيادة الروحية، حيث «كان من أعظم رجال دهره وأجلّ سادة عصره إذ خصّه المولى بنصيب وافر من حميد الصفات وكريم المناقب والأخلاق وحلاه من الفضل والكمال والتقى مع عزّة الجانب ولين العريكة وشدّة البأس بخلال يندر وجودها فيمن سواه ولذا أحرز السيادة على

---

(١) هنري غيز. بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن. تعريب مارون عبود. منشورات دار المكشوف. الجزء الثاني. بيروت الطبعة الثانية ١٩٥٠. ص ٥٤.

(٢) يوسف أبو شقرا. الحركات في لبنان. ص ١٩٢.

البلاد جسمانياً وروحياً»[٣]. وعلى الرغم من قوة الشخصية التي كان يتمتع بها الأمير بشير الشهابي الثاني ـ ومن قبله الأمراء الشهابيين ـ فإنه «كان مجبراً إذا ما التقى شيخ العقل، أن يقبّل يده»[٤].

وبسبب هذا النفوذ والتأثير، عمل الأمير بشير جهده لإحداث الانقسام والشقاق الديني بين أبناء الطائفة، فنجح في تقسيم مشيخة العقل إلى مشيخة يزبكية وأخرى جنبلاطية، لهما نفس المسؤوليات والصلاحيات، وذلك عندما تأثر منصب المشيخة بأحوال السياسة الزمنية والغرضية التي سادت لبنان وتميز بانقسام ظاهر على حد قول يوسف أبي شقرا في «حركاته» (ص ١٩٢)، وقد بدأ عهد الانقسام هذا في الثلث الأخير من أيام حكم الأمير بشير. رغم أن الأمير أضاف مرّة شيخاً ثالثاً هو الشيخ أبو حسين شبلي أبو المنى (شانيه). لكن مشيخة العقل لم تعد إلى وحدتها وتماسكها إلا في عهد سماحة الشيخ محمد أبي شقرا، شيخ العقل الحالي في لبنان بعد وفاة الشيخ علي عبد اللطيف في أواخر الستينات. وقد خبر سماحته غايات الساسة اللبنانيين ومراميهم ـ ورؤساء الجمهوريات خاصة ـ في أعترافهم ودعمهم لمشايخ العقل، لتكريس الانقسام وبقاء الشقاق، فعمد بكل جهوده للقضاء على ذلك محققاً هدف وحدة المشيخة ووحدة الدروز بشكل عام، عاملاً وفق مبادىء «التوحيد» وتماسك العقيدة.

وبعد انتخابه بسنوات قلائل، وبتوجيه من سماحة الشيخ محمد أبي شقرا ورعايته وجدت «دار الطائفة الدرزية» في بيروت، وهي صرح كبير، ومن المنجزات الهامة على صعيد دروز العالم قاطبة، وبيتاً يجتمع فيه بنو معروف في الأفراح والأتراح، يستقبلون فيه الشخصيات الرسمية خلال المناسبات من أبناء الطائفة وخارجها. وقد أثبتت اللوحة الرخامية الموجودة في دار الطائفة عام التأسيس وأسماء أعضاء اللجنة (لجنة دار الطائفة) على الشكل التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾

بتوجيه شيخ عقل الدروز سماحة الشيخ محمد أبو شقرا.

---

(٣) يوسف أبو شقرا. المرجع السابق. ص ٨٠.

(٤) هنري غيز. المرجع السابق. ص ٥٣.

وبرعايته وضع حجر زاوية هذه الدار يوم الجمعة الواقع فيه ٣٠ ربيع الثاني سنة ١٣٧٢ هـ الموافق ١٦ ك٢ ١٩٥٢، وانجزت بأريحية بني معروف وبجهود لجنة دار الطائفة الدرزية المؤلفة من السادة:

توفيق عساف. أمين خضر. يوسف نويهض. سليم القاضي. محمود أبو الحسن. أنيس روضة. وديع النجار. عادل صعب. أسعد العقيلي. رامز أبي صعب. سامي عبد الباقي. نجيب الفقيه. رامز صعب. فريد أبو شقرا. سليم أبو حاطوم حمادة. أنيس يونس. علي العود.

تصميم وإشراف المهندس المعماري سامي محمد عبد الباقي».

* * *

إن شيخ العقل لا يشغل أي وظيفة أخرى، ولا يتعاطى أي مهنة حرّة. يتم انتخابه العام من قبل الدروز الذكور الذين يملكون حق الانتخاب. ويشغل هذا المنصب مدى الحياة.

٢ ـ المجلس المذهبي:

عالج القاضي أمين طليع، وبنوع من التفصيل، هذا الموضوع في كتابه «أصل الموحدين الدروز»(٥).

فبموجب القانون الصادر في ١٣ تموز ١٩٦٢، أنشيء للطائفة الدرزية في لبنان مجلس يسمى المجلس المذهبي للطائفة الدرزية يتولى شؤون الطائفة الزمنية والمالية وتمثيلها في الشؤون العائدة لكيانها الاجتماعي والسهر على رفع مستواها والمحافظة على حقوقها. ومن صلاحياتها الإشراف على الأوقاف باستثناء أوقاف خلوات البياضة، والإشراف على انتخاب الهيئات الإدارية للجمعيات والتصديق عليها. والإطلاع على موازنات وحسابات المؤسسات والجمعيات والإشراف على المدارس الطائفية... يتألف هذا المجلس من أعضاء دائمين: شيخ العقل والوزراء والنواب الحاليون والسابقون. ومن أعضاء منتخبين هم: محاميان، ومهندسان من حملة شهادة الهندسة على اختلاف

---

(٥) أمين طليع. أصل الموحدين الدروز. منشورات عويدات ١٩٨٠، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

أنواعها. ثلاثة من حاملي شهادات الطب والصيدلة. ثلاثة من حاملي الشهادات الجامعية المختلفة الأخرى وينتخب هؤلاء بالاشتراك مع جميع أفراد هذه الفئات. ويتألف المجلس أيضاً من ممثلين عن المناطق: ستّة من قضاء الشوف. ستّة عن قضاء عاليه. ثلاثة عن قضاء بعبدا. واحد عن قضاء راشيا. واحد عن قضاء حاصبيا. واحد عن محافظة بيروت والمتن الشمالي وباقي المناطق. يجري انتخاب هؤلاء الممثلين من قبل المخاتير وأعضاء المجالس الاختيارية ورؤساء وأعضاء البلديات الدروز، كل في منطقته. مدة المجلس أربع سنوات ويرأسه شيخ العقل.

٣ ـ الأوقاف الدرزية:

هي عبارة عن مديرية على رأسها مدير برتبة مدير عام يعاونه عدد من الموظفين من مختلف الدرجات. وبقيت الأوقاف مدّة طويلة بعيدة عن التنظيم والاهتمام الجدّي بقضاياها وضبط أمورها بالشكل اللازم والمطلوب، إلى أن تسلّمها الأستاذ خالد جنبلاط في سنة ١٩٦٩ (وزير الاقتصاد والتجارة السابق) فأدارها بحكمة ودراية وتنظيم دقيق. وفي حزيران ١٩٨٠، أصدر البيان الشامل عن أوقاف الطائفة الدرزية الإدارية والمالية ابتداء من ١٩٦٩/٦/١٨ حتى ١٩٧٩/١٢/٣١ ضمّنه بالأرقام والتفصيلات كثيراً من المعلومات الهامة التي تعطي صورة واضحة عن الأوقاف ومراحل أزماتها وتطورها. وما زال الأستاذ خالد جنبلاط مديراً للأوقاف حتى اليوم، وهو من الشخصيات المشهود لها بالإدارة والاقتصاد والسياسة، ولا عجب، فهو من العائلة الجنبلاطية المعروفة بأصالة تاريخها الوطني العريق.

٤ ـ المحاكم المذهبية:

سبق الكلام عنها عند بحثنا لموضوع الأحوال الشخصية عند الدروز.

٥ ـ المؤسسة الصحية للطائفة الدرزية:

كان سماحة الشيخ محمد أبو شقرا، يرى منذ وقت طويل، حاجة الطائفة الماسة لمستشفى درزي، أو مؤسسة صحية تقدم العناية والاهتمام الضروري بأبناء بني معروف، على غرار ما هو متوفر لدى الطوائف اللبنانية الأخرى. وعندما سنحت له

الظروف بدأ بتنفيذ هذا المشروع الضخم حيث خرج إلى النور وبدىء بالعمل الفعلي فيه عام ١٩٧٨، في منطقة عين وزين في الشوف. ففي مستهل هذا العام خرجت فكرة إقامة «المؤسسة الصحية للطائفة الدرزية» إلى حيّز التنفيذ والعمل، ووضعت التصاميم الهندسية للبناء. وضع حجر الأساس للمؤسسة في احتفال كبير بتاريخ ٧ تموز ١٩٧٨، ونفذت الأشغال التمهيدية من شق طرقات وحفر أساسات وجر مياه وكهرباء وبناء مستودعات وغير ذلك.

تألف مجلس الأمناء برئاسة سماحة الشيخ محمد أبو شقرا، من السادة:
خالد جنبلاط نائباً للرئيس. عباس الحلبي أميناً للسر. سعيد عبد اللطيف أميناً للصندوق. حسيب رسامني محاسباً. والأعضاء: أنور الخليل. بهجت غيث. الدكتور سهيل الأعور. الدكتور صلاح سلمان. فريد أبو شقرا. فؤاد ذبيان. نبيه أبو شقرا. الدكتور محمود ربح.

وبتاريخ ١١ نيسان ١٩٧٩ تمّ تلزيم بناء المباني الثلاثة العائدة للمؤسسة: دار العجز ـ المستشفى والعيادات الخارجية.

أما التجهيزات، فقد تم استيراد المعدات والآلات اللازمة لإكمال التجهيز من مصادرها في أميركا والمانيا وكندا واليابان حسب مقتضى الحال، وبدأ تسليمها تباعاً منذ مطلع عام ١٩٨١.

وقد أقبل ما يزيد على المئة من الشبّان والشابات أظهروا استعدادهم للقيام للتمريض، حيث يتلقون الدروس والتدريب ليتخرجوا سنة ١٩٨٢، السنة التي كان مقرراً أن يبدأ فيها عمل المؤسسة. وسيتبع هؤلاء أعداد أخرى كل سنة، حتى يصبح هناك العدد اللازم من أصحاب الكفاءات، المزوّدين بالخبرة والمهارة الفنية. أما مهندس البناء فهو الأستاذ نبيه أبو شقرا. وقد بدأت المؤسسة الصحية بالفعل عملها ودورها بالشكل اللازم والمطلوب.

كما سيقام مركز صحي أيضاً في راشيا، في المكان الذي تبرع به أحد أبنائها، السيد نجيب علبي، بعقار مساحته (٦٠٠٠) ستة آلاف متراً مربعاً، وسيبدأ العمل فيه قريباً.

٦ ــ المجلس الدرزي للبحوث والانماء:

مركزه بيروت قرب مبنى الأونيسكو. يضم هذا المجلس عدداً كبيراً من المثقفين الدروز من الدكاترة والمهندسين والأطباء والمحامين وذوي الاختصاصات المختلفة. تأسس هذا المجلس منذ سنوات خلال الحرب الأهلية التي نشبت في لبنان بدءاً من عام ١٩٧٥. يهتم اهتماماً أساسياً في الأبحاث والدراسات المتعلقة بالتراث. وقد صدر عنه حتى الآن مجموعة مهمة من المنشورات التي تعنى بشؤون الطائفة الدرزية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وعلاقاتها مع الطوائف الأخرى.

٧ ــ مدرسة عارف النكدي المهنية:

مركزها عبيه، قضاء عاليه. أسست حديثاً بعد وفاة الأستاذ عارف النكدي عام ١٩٧٥. مهندس البناء هو الأستاذ نبيل يحيى. تؤمن هذه المدرسة اختصاصات متنوعة هي: الهندسة المدنية. ميكانيك عام. كهرباء. الكترونيك. سكرتارية. محاسبة. تكنولوجيا.

وقد استعانت المدرسة بخبراء يابانيين وتجهيزاتها أمريكية ويابانية. وأول عام دراسي فيها كان ١٩٨١ ـ ١٩٨٢.

٨ ــ بيت اليتيم الدرزي:

هو مؤسسة خيرية تضم ما يقارب من الخمس مائة يتيم ويتيمة. انشأها الأستاذ عارف النكدي في عبيه. وكان قد أنشأ قبلها بيتاً لليتيم في بيروت سنة ١٩٤١. كما كان قد أنشأ بيتاً لليتيم في السويداء ثم تخلى عنه للحكومة السورية.[٦].

٩ ــ المدارس الدرزية:

إن وجود هذه المدارس مرتبط أشد الارتباط بنظام الملل العثماني الذي أدى إلى

---

(٦) مقدمة كتاب «فقيد العروبة الخالد: عارف النكدي ١٨٨٧ ـ ١٩٧٥». مطابع قدموس الجديدة. فرن الشباك. بيروت. بدون تاريخ. ص ٩ ـ ١٠.

وجود نظام الامتيازات الأجنبية وتغلغل الدول الأوروبية في الأقطار العربية عن طريق الارساليات والمدارس، وإدعاء كل دولة منها بضرورة حماية طائفة دينية في لبنان وذلك من أجل تأمين مصالحها والمحافظة على امتيازاتها. ولكن الدروز اللبنانيين «لم يحتاجوا يوماً إلى حماية»[٧]، رغم ادعاء الانكليز بحمايتهم، إلا أن الطائفة سعت إلى إيجاد مدارس خاصة بها دون الارتباط بأي دولة أو قوة أوروبية. وعند قيام نظام المتصرفية ابتداء من عام ١٨٦١، وكان المتصرف الأول داوود باشا، فقد عمل هذا الأخير على إقامة عدد من المدارس، كانت المدرسة «الداوودية» في عبيه (نسبة إليه)، إحدى هذه المدارس. ويشير الاستاذ عارف النكدي في معرض كلامه على ذلك قائلاً: «جدّدت (لقومي بني معروف) مدرسة قديمة كان قد أنشأها داوود باشا أول متصرف في جبل لبنان ونسبت إليه (الداوودية)، فوسّعت بناءها وأحدثت لها دوائر عديدة وجعلتها مدرسة ثانوية ربطت فيها في وقت من الأوقات ثلاثاً وثلاثين مدرسة ابتدائية في مختلف القرى اللبنانية. ذلك لما كنا نراه من معاكسة السلطة الفرنسية في نشر التعليم بين أبنائنا. وسعيت لدى الحكومة المصرية لمساعدتنا في نهضتنا فأرسلت إلينا بعثة مؤلفة من ثمانية معلمين كما ارسل إلينا الجامع الأزهر شيخاً من شيوخه لتدريس القرآن والعلوم الإسلامية. وأنشأت مدرسة للبنات في عبيه أطلقت عليها اسم المدرسة الداوودية للبنات، كما أنشأت في بيروت مدرسة مختلطة للبنين والبنات أطلقت عليها اسم المدرسة «المعنّية»، ثم عدت وافتتحت في عبيه المدرسة «التنوخية» إحياء لذكرى هاتين الإمارتين»[٨]. وأصبحت هذه المدارس خاضعة لأوقاف الطائفة الدرزية وتحت إشرافها.

«وفي ٣١ آب عام ١٩٣١، وُكّل عارف النكدي على وقف الداوودية من قبل شيخي العقل حسين طليع وحسين حمادة وقاضي المذهب ملحم حمدان»[٩]. وبقي عارف النكدي وكيلاً على وقف المدرسة الداوودية حتى سنة ١٩٦٩، حتى تسلم

---

(٧) كمال جنبلاط. هذه وصيتي. منشورات مؤسسة الوطن العربي. باريس ص ٤٦.
وأيضاً .Kamal Jumblatt, pour le Liban, op., Page 71

(٨) مقدمة كتاب: «فقيد العروبة الخالد عارف النكدي». المرجع السابق. ص ١٠.

(٩) حليم تقي الدين. قضاء الموحدين الدروز. بيروت ١٩٧٩. ص ٣٠.

الأستاذ خالد جنبلاط الإدارة العامة لأوقاف الطائفة الدرزية (ومنها وقف الداوودية) في ١٨/٦/١٩٦٩[١٠].

أما المدرسة «المعنية» في بيروت، فإنها تأسست عام ١٩٤١. تخضع أيضاً لأشراف مديرية الأوقاف الدرزية بإدارة الأستاذ خالد جنبلاط. ولقد مرّت هاتان المدرستان بمرحلة من الضعف والتردّي، أدت إلى الشلل في هذه المؤسسات التربوية الدرزية حيث تدنّى المستوى التعليمي «نتيجة لوجود عدد من المعلمين والإداريين من غير ذوي الاختصاص، والمنقسمين حزبياً وسياسياً. وهذا ما أدى إلى صرف هؤلاء والاستعانة باداريين ومعلمين من ذوي الاختصاص والكفاءات العالية. وهذا الأمر أدى إلى تأمين النظام والانضباط ورفع المستوى التعليمي والحصول على نتائج جيدة في الامتحانات الرسمية»[١١]. وتؤمن هذه المؤسسات التربوية العلم لعدد كبير من التلامذة الدروز إما مجاناً وإما لقاء أقساط مدرسية رمزية أو منخفضة جداً «حيث ارتفع عدد الطلاب في المدرستين الداوودية والمعنيّة، إلى ما يقارب الألف وخمسماية طالب نسبة الإناث فيهم خمس وستّون في المئة»[١٢].

مدرسة العرفان:

يشرف على إدارتها الشيخ علي زين الدين. تقع في بقعاتا من منطقة الشوف، قرب المختارة. تأسست بمساعدة الأستاذ كمال جنبلاط وشيخ عقل الطائفة الشيخ محمد أبو شقرا. يصل عدد طلابها إلى الألف وخمس مائة من الجنسين. ونظراً لتوسع المدرسة وضخامتها وارتفاع عدد طلابها فقد ألحق بها أيضاً مستوصف طبي ـ تحوّل إلى مستشفى ـ لمعالجة طلاب المدرسة وأبناء الطائفة، ويجمع عدداً كبيراً من الأطباء والاخصائيين.

مدرسة الإرشاد:

لها فرعان: الأول في قرية العبادية في المتن. والثاني في حاصبيا في الجنوب.

---

(١٠) خالد جنبلاط. التقرير الشامل عن أوضاع أوقاف الطائفة الدرزية الإدارية والمالية من ١٨/٦/١٩٦٩ إلى ٣١/١٢/١٩٧٩. بيروت حزيران ١٩٨٠. ص ٧.

(١١) خالد جنبلاط، التقرير الشامل (مرجع سابق). ص ١٢.

(١٢) المرجع نفسه. ص ١٤.

وكان لها فرع أيضاً في بلدة بعقلين في الشوف، إلا أنه توقف منذ سنوات قليلة. ويضم الفرعان عدداً كبيراً من الطلاب الدروز. بيد أن مدرسة العرفان، والإرشاد، هما مدرستان دينيتان للطائفة، يفرض على بعض طلابها اللباس الديني الخاص.

روضة أبناء الشهداء:

والجدير ذكره، إنه بتاريخ ٨ كانون الأول سنة ١٩٨٤، وفي نفس المكان الذي كانت تشغله مدرسة الإرشاد في بعقلين، تم افتتاح «مؤسسة رعاية اليتيم الدرزي» (روضة أبناء الشهداء) برعاية وحضور القائدين الحكيمين سماحة شيخ عقل الطائفة الدرزية الشيخ محمد أبو شقرا، ومعالي وزير السياحة والأشغال الزعيم الوطني وليد بك جنبلاط (كما جاء في نشرة المؤسسة).

وحول عملية تأسيسها وأهدافها، تضيف النشرة بأن «مؤسسات رعاية الأطفال ضرورة اجتماعية هامة. فهي ملاذ الأطفال وبديل أسرتهم إذا ما أصيبت الأسرة بكارثة تؤدي إلى تفكيكها وانهيارها. ومن البديهي أن تكون الدولة، الحافز على إنشاء هذه المؤسسات الإنسانية والمصدر المموّل لاستمراريّتها. غير أن الوضع في منطقة الجبل عكس ذلك تماماً لندرة وجود مثل هذه المؤسسات، وعلى الأخص منها دُورُ الأيتام.

ولئن كان عدد الأيتام القصّر في منطقة الجبل قبل الحرب غير قليل، شأنه شأن جميع المناطق اللبنانية، فقد زاد عددهم إبان سنوات المحنة وثقلت أعباء المسؤولية بهم أمام الأحياء المعوزين من ذويهم. وإذا تقاسم أفراد العائلة ألم المأساة، تبقى هناك حقيقة ثابتة، ألا وهي أن الطفل اليتيم هو وحده الذي عاني بالنهاية مأساة يتمه كونه الضحيّة دون سواه.

وفي غمرة هذه الحاجة الاجتماعية الملحّة لوجود مؤسسات، وعملاً على تحسين الواقع الإنساني المؤلم، بادرت قيادة الجبل الحكيمة، لتعيد للجبل بعض ما ألحق به من غُبن، شاحذة همم الأخيار والمحسنين لبناء مجتمع يقوم على أسس المشاركة والتعاون الخيِّر، يكون لليتيم القاصر فيه حق العيش الكريم أسوة بجميع المواطنين.

فهبّ السادة أبناء الشيخ علي غيث، بغيرة مكارم الأخلاق، ملتزمين بأداء

واجبهم الإنساني، إزاء هذه المسؤولية التاريخية، بأمانة وإخلاص، وأنشأوا «مؤسسة رعاية اليتيم الدرزي ـ روضة أبناء الشهداء». أما عن أهدافها، فقالت: إن المبادىء التي بنيت عليها مؤسسة رعاية اليتيم الدرزي نابعة من إيمان قيادة الجبل الحكيمة، وهي حق كل طفل بالحياة، وتأمين كل ما يحتاج إليه لبلوغ ذروة ما يستطيع تحقيقه من بناء شخصية قوامها العلم والعمل والتربية الصالحة، ليصبح الطفل مواطناً صالحاً لأسرته ولمجتمعه وبالتالي لوطنه. من هنا تلعب هذه المؤسسة دوراً فريداً ندر توفّره في أية مؤسسة تربوية أخرى. فهي تؤمن المناخ الذي يعيش فيه الطفل وكأنه في أحضان ذويه، مكتنفاً بعطف المشرفين عليه، ولا تقتصر العناية بالأطفال على تأمين المأوى والغذاء والكسوة والطبابة تأميناً متناهياً كمّاً ونوعاً، بل تتعداه إلى توفير تعليمهم في أرفع المدارس مستوى في الجوار، مع تأمين النقل اليومي إليها ومنها، إضافة إلى توفير أوقات معينة للعب والترفيه، وأخرى للدرس والتثقيف الخلقي.

كل ذلك يتم باشراف هيئة إدارية تجمع في تأهيلها بين الحرص على التربية الصالحة والإدارة الحكيمة انطلاقاً من مبدأ الإيمان بخدمة المواطن والعناية به.

ومما قاله الأستاذ وليد جنبلاط في يوم الافتتاح «إن الحرب ليست فقط مدافع ودبابات وكلاشينات، الحرب هي رعاية اجتماعية للعائلات، للأيتام الذين دفعوا الثمن، ثمن الشهادة في جبهات القتال. وها نحن اليوم نلتقي لنفتتح هذا المركز الكريم الذي بناه أو ساعد في تشييده آل غيث المحترمين الذين رأوا أن هذا العمل الاجتماعي ضروري من أجل دعم صمود أهل الجبل».

أما سماحة شيخ عقل الطائفة الدرزية الشيخ محمد أبو شقرا، فقال أيضاً في يوم الافتتاح هذا: «بعونه تعالى وعلى بركاته، نفتتح هذه المؤسسة الخيرية الإنسانية، مؤسسة رعاية اليتيم الدرزي، التي أنشأها وجهّزها لوجه ربه المثيب طمعاً بالأجر الباقي، العامل الصامت، رجل المكارم والمبّرات، الشيخ بهجت غيث، وفّقه الله، ووفّق إخوانه الأفاضل أصحاب الأيادي البيضاء... وأبقاهم سبّاقين إلى المكرمات».

وردّ الشيخ بهجت غيث في هذه المناسبة بكلمة قال فيها: «وفاء لبعض ما يجب علينا لشهدائنا الذين سقطوا في سبيل كرامتنا وبقائنا... وشعوراً بما يقتضيه استمرارنا

في هذه الظروف التي نعيش، ويقيناً أن أطفال شهدائنا أمانة في أعناقنا، ونحن بنو معروف معروفون بالشهادة والإيمان والوفاء. . . قمنا بهذا العمل المتواضع، بمؤازرة نخبة من ذوي المروءة والإخلاص، فكانت هذه المؤسسة». هذا، ويشرف على إدارة «روضة أبناء الشهداء» مجلس أمناء مؤلف من خمسة أعضاء. ويتولى إدارتها جهاز إداري يعنى بكل مستلزمات المؤسسة البعيدة والقصيرة المدى، معتمداً في ذلك على أسس ومبادىء وضعها وأقرها مجلس أمناء المؤسسة(*).

١٠ ـ جمعية التضامن الخيري الدرزي:

تأسست عام ١٩٣٠ في بيروت. واتخذت اسماً لها هو: جمعية التعاون الخيري الدرزي، ثم عدّل اسمها بناء على طلب وزارة الداخلية اللبنانية تحت رقم ٣٢٤/ اد بتاريخ ٣١ تموز ١٩٦٧، بحيث أصبح اسم الجمعية: جمعية التضامن الخيري الدرزي. مركزها بيروت، وغايتها المحافظة التامة على وقف الطائفة الدرزية في بيروت.

والسبب المباشر لقيام هذه الجمعية تحسس دروز بيروت بالخطر الذي بدأ بالتعدّي على تربتهم (مقبرتهم) من قبل المعتدي انطون سيّور (يهودي كان قنصلاً لالمانيا سابقاً)، صاحب الدعوى الباطلة المشهورة على الوقف، وورثته من بعده، التي أثارت نفوس الدروز في كل من سوريا وفلسطين ولبنان حتى المغتربين الدروز في كل مكان.

وبنتيجة الجهود التي بذلتها الجمعية في اعلام الجميع عن هذا التعدي الفاضح على التربة، هبّوا جميعهم بوجه المعتدي مستنكرين، وضد الانتداب الفرنسي الذي ساند انطون سيّور وورثته من بعده وذلك لأسباب سياسية، في ربح الدعوى على الوقف لدى المحكمة المختلطة ـ فقاوموا بشتى الوسائل وحالوا دون تمكين آل سيّور من تنفيذ الحكم الصادر عام ١٩٣٣، ولا يزال ورثة سيّور يحاولون حتى اليوم إحياء هذا الحكم الجائر الباطل.

(*) آثرنا الإشارة إلى هذه المؤسسة نظراً لأهميتها على مختلف الصعد، مع أنها لم تكن موجودة عند إعداد هذه الأطروحة.

لم تقم الحكومة العثمانية بمسح العقار المذكور، بل اكتفت بشهادة قيد بملكية العقار باسم «درزي طائفة سي» في محلة رأس بيروت، وذلك في عام ١٢٨٦ هجرية.

إن تأخر مصلحة المساحة (الكاداستر) بمسح التربة وتحرير سند بملكيتها نتج عنه أن اغتصب البعض أقساماً منها، واقتطع الآخرون المجاورون لها أقساماً أخرى ضمت إلى أملاكهم المجاورة، وذلك بالسنين الغابرة.

تجاه هذا الواقع، تنادى دروز بيروت للاجتماع والعمل على صيانة وقف مقبرتهم من التعدي، فألفوا لجنة منهم أخذت على عاتقها صيانة الوقف وإحاطته بتصوينة، وراجعت اللجنة سماحة شيخ عقل الدروز في عكا الشيخ محمد طريف، لأن دروز بيروت كانوا تابعين له في عكا، بحكم انتمائهم لولاية بيروت العثمانية، ومنفصلين عن متصرفية جبل لبنان وإخوانهم في الشوف وعاليه، بالرغم من قربهم لهم. فما كان من سماحة شيخ العقل المغفور له الشيخ محمد طريف، إلا أن عيّن نائباً عنه المرحوم الشيخ محمد أفندي روضة في بيروت «لرؤية وفصل المعاملات والدعاوى المذهبية المتكونة بينهم بالنظر لعدم وجود رئيس روحي لهم بذلك الظرف وذلك سنة ١٣٢٦ هجرية» الموافقة ١٩٠٤ ميلادية(*).

لقد ساعد تعيين قاضي مذهب منهم على مؤازرة اللجنة الموكلة بالمحافظة على الوقف، والتقدم من الحكومة العثمانية للمراجعة والشكوى من التعدي، وبذلك تمكنوا من صيانة الوقف مؤقتاً، وكان ذلك في عام ١٣٢٦ هجرية الموافقة ١٩٠٤ م.

وبعد الحرب العالمية الأولى وذهاب الاتراك، تم تعيين فضيلة القاضي المذهبي للدروز في جبل لبنان وبيروت «الشيخ سعيد حمدان»، فأصبحت الطائفة الدرزية في بيروت تابعة له دينياً وشرعياً. وبحكم هذا التعيين أنيط بفضيلته أن ينوب عن صاحبي السماحة شيخي العقل بممارسة صلاحيتهما بما يتعلق بتولية الأوقاف الدرزية في كل مكان. وعلى أثر هذا التعيين راجعت اللجنة المؤقتة الموكلة بالمحافظة على الوقف من دروز بيروت فضيلة القاضي بشأن صلاحيتها فرأى أن يعطي هذه اللجنة صفة قانونية لإدارة وصيانة الوقف والمدافعة عنه من كل اعتداء خاصة بما يتعلق بالدعوى

(*) انظر صك تولية الشيخ محمد علي روضة في الملحق.

المقامة من قبل ورثة سيّور على الوقف، وعليه وبصفته السلطة العليا للأوقاف وبوكالته عن صاحبي السماحة شيخي العقل المتوليين الشرعيين على الأوقاف حسب العرف والعادة والتقاليد الدرزية، أعطى اللجنة المذكورة الممثلة بشخص السيّدين الشيخ إبراهيم أفندي روضة والسيد عارف أفندي روضة، من دروز بيروت، وكالة قانونية بصفتهما ناظرين قيّمين على وقف التربة، وبأن يقوما بالمدافعة والمرافعة وتقدم كل ما يلزم لإدارة هذا الوقف، وأن يحضرا جلسات المحاكمة ويقدما للمحامين الموكلين من قبلهما ملاحظاتهما بدعوى المقبرة ورعاية مصلحة الوقف... إلخ(*).

وبعد أن فشلت دعوى سيّور بتحديد ملكيتها لقسم من الوقف على مساحة ٨٣٠٠ ذراعاً مربعاً غربي التربة (مركز دار الطائفة الدرزية اليوم)، استأنف ورثة سيّور الدعوى لدى المحكمة المختلطة باعتبار أن ورثة سيّور أجانب، وكانت الدولة الإفرنسية صاحبة السلطة العليا بيدها القضاء وإدارة البلاد، وكان الدروز لهم صبغة عداء للإفرنسيين بحكم مقاتلتهم السلطة الإفرنسية في سوريا أثناء الثورة السورية عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦، ثم تحولت دعوى سيّور على الوقف إلى قضية درزية عامة وأخذت اهتماماً بالغ الأهمية وتولد شعور لدى الدروز في بيروت أن الإفرنسيين لا بد من أن يخذلوهم لدى المحكمة المختلطة، فقاموا يستنجدون بإخوانهم دروز جبل لبنان ودروز جبل العرب في سوريا، وهكذا توحدت الصفوف وقاموا بمظاهرة كبيرة ضخمة قدر عدد المتظاهرين فيها بما لا يقل عن عشرين ألف نسمة من كافة أنحاء لبنان وسوريا دفاعاً عن حقهم تجاه الغاصب المعتدي سيّور. وقد اختير الأستاذ عارف النكدي وكيلاً بموافقة دروز بيروت، للمدافعة عن هذا الحق باسم الدروز. وبعد تطور قضية سيّور، وجدت اللجنة الموكلة بادارة الوقف والاشراف عليه أن تشرك جميع دروز بيروت بإدارته فعمدت إلى تأليف جمعية دعيت «بجمعية التعاون الخيري الدرزي»، غايتها المحافظة على وقف هذه التربة وصيانته من التعدي وإعماره وإنمائه والقيام بأعمال خيرية تعود بالمنفعة العامة على كافة أفراد الطائفة الدرزية كان ذلك في عام ١٩٣٠، إبان حكم الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا.

وعلى أثر ذلك، أرسل المفوض السامي الافرنسي (الكونت ده مارتيل) كتاباً إلى

(*) انظر صك توكيل السيدين إبراهيم وعارف روضة في الملحق.

سماحة شيخي العقل ونسخاً عن هذا الكتاب إلى كل من الأستاذ عارف بك النكدي وجمعية التعاون الخيري الدرزي بوصفها القيّمة على «التربة»، يؤكد فيه ما يلي:

«أكرر قولي أن طائفتكم سوف لا تحرم من قطعة الأرض المستعملة مقبرة حالياً مهما كانت نتيجة المحاكمة». ثم استحصلت الجمعية على شهادة قيد بتملك «التربة» بكاملها(*).

ولا بد هنا من الإشارة، إلى بعض القصائد التي القيت خلال هذه المظاهرة الضخمة، حيث كان لها صدى مؤثر، وما زال المسنّون من الدروز يرددون بعض مقاطعها. منها قصيدة السيد شاهين حامد من عبيه، والتي تعبّر عن الحدث بكل صدق وواقعية، موضحة نقمة الدروز على سيّور وأعوانه من ناحية، والوقوف بصلابة وعناد، كعادتهم، للدفاع عن حقهم المهضوم من ناحية ثانية. وهذا نص القصيدة:

هضم الحقوق تأبى النفوس قبولها ... يخشى الورى من عاقبة مفعولها
وقد ما تكون السفيني محصّني ... عليها خطر أن ثقّلت محمولها
قد ما تكون السفيني محصّني ... عليها خطر إن لم تكن متوازني
الحكم جائر والحقوق مبيّني ... يا ابن آدم بفكارك جولها
يا ابن سيّور لا تزيد النفور ... اتقِ الرحمن في يوم الحشور
سمعنا صدى أمواتنا ضمن القبور ... أرواحنا صارت ترفرف حولها
ورفرفت أرواحنا عرضاً وطول ... فوق الأوزاعي حول تلك الرمول
بحسامنا أرواح موتانا تجول ... هيذي الحقيقة لا تكون مجهولها
هيذي الحقيقة عن براهين وثبوت ... ابن عشرة، ابن تسعة ما بموت
حقنا وحقوق سلفنا ما نفوت ... ولو هفينا بحد ماض نصولها
قوم نحنا للإهانة ما نطيق ... يوم عز ولا الحياة بطولها
يوم عز وفخر لا طيلة سنين ... عالضيم ما منام صرنا مجربين
تعدّيت عالموتى وهنت الطيبين ... كِفّنا شرّك علنا منقولها
كف شرّك عالقبور لا تعتدي ... اتقِ الرحمن للحق اهتدِ

(*) انظر نص كتاب المفوض السامي ده مارتيل في الملحق.

الخيـل في حـوران بـاقي مسنـدي	بيـطلقـوهـا عند عكف ذيـولهـا
يـطلقـوهـا عنـدمـا يحمى النفيس	الله أكـبر عـنـد حميـان الـوطـيس
أرواحنـا منبيعـهـا نـفس ونـفيس	ضحيـة عظام الـراقدين في رمـولها
للحكم مـا منرضـخ لـو مهـما جرى	حتى جثثنـا تـضمـهـا هـالمقـبرة
وبـعـد ستّـعشر سني تحت الـثرى	منعـود لهـا ولا بـد من تحصيلهـا
تحت ظـل الانـتـداب مـوطـنـين	وبـالسكـيني قـاطـنـين بـلادنـا
مـا تـعـدّينـا حـقـوق الآخـريـن	قـوم نـحـنـا واقـفـين ع حـدّنـا
بـالحق سبـحـانـه تعـالى مسلمـين	نهوى المفـاخـر والشرف معـبـودنـا
وبسيـوف عـدلـك يـا فـرنسـا مجـردين	نـحمي بهـا تـرب أبـينـا وجـدّنـا
وانـصفـينـا حـقنـا ظـاهـر مبـين	مـن عـهـد آدم هـالـتراب بـيـدنـا
وحقـوق دمـانـا آخـذي مفعـولهـا	آخـذي مفعـولهـا بـكـل الـعـرب
وعيـال معـروف كلهـا تحت الـطلب	مـن صـفـد لـبراق لـلشـام لحلب
تحت السلاح جاهزي بخيولها(*)

وما زالت والدتي تردد قصيدة أخرى أيضاً حول هذا الموضوع، وقد حفظتها غيباً منذ أكثر من ثلاثين سنة، وقد نسيت بعض أبياتها. والمعروف أن هذه القصيدة لم تنشر بعد ويرددها بعض المسنّين، حتى فترة الخمسينات، في مناسبات عدّة كدليل على تمسكهم بالحق ودفاعهم المستميت عنه. وهذه بعض أبيات القصيدة:

أنـصفـنـا يـا بـحـر الـروم	وتهـيّـج عـالـشـاطـي وعـوم
يـا بـيروت عـا شطوط بحـرك	يـا منـغـرق يـا بنّـا نـعـوم
عـا شـطوط بحـرك يـا بـيروت	يـا منـعـيش يـا بنّـا نمـوت
شـبر مـن الـتربـة مـا نفـوت	وحـق المـيّـت بـدو يـقـوم
هـيـذي الـتربـة تـربـتـنـا	مـا مـنـفـوتـا لـو متـنـا
بـجـاه فـرنـسـا دولـتـنـا	مـنـحـصّـل حق المهضوم

(*) جمعية التضامن الخيري الدرزي في بيروت تقدم سجلاً تاريخياً وبياناً شاملاً لأعمالها بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيسها ١٩٣٠ ـ ١٩٨٠.

يا فرنسا المشكل حلّي — والموت خير من الذلّي
عا نبينا منصلّي — ومنعبد حيّ القيّوم
إسلام ومسيحيي — مع طايفة الدرزية
إسلام بالوطنية — موراني ومسلم وروم
ما منقبل حكم الجاير — لا منرضى ولا منساير
قاضي واعطى الدواير — وعليهم منحط اللوم
يا فرنسا وانصفينا — بحق العدل احكمينا
إنكان بتريدي تجافينا — بتصيري بأرض روم
منصمد ما بين النهرين — ما منخلي علينا دين
لاقينا يا غراب البين — ورفرف فوق الرمل وحوم
يا دروز بيروت لا تذلّوا — والحق منسأل عنو
ويلّي بيحرمنا منو — منحرم عينو طعام النوم
منهز الحكم بدينا — وعلّي بيتعدّى علينا
وعارف بك(**) أفندينا — وبأمرو منقعد ونقوم
والبدُّو يتعدّانا — يقرأ تاريخ آبانا
بحرمة تربة موتانا — منتذبّح عالرمل عموم

(* *) هو المرحوم عارف بك النكدي الذي كان له موقف مشرّف في هذا الموضوع.

الفصل السابع

التأثير الاقتصادي لدروز لبنان

منذ وجودهم في لبنان اتخذ الدروز من الجبال اللبنانية، وخاصة تلك المشرفة على الساحل مقراً وملجأ لهم، يستطيعون من خلاله حماية الساحل من غزوات الأعداء وحماية أنفسهم متحصّنين في هذه المرتفعات التي شكّلت حصوناً وقلاعاً منيعة بعد الاضطهادات التي تعرضوا لها. ونظراً لطبيعة هذه الأرض فقد فرض عليهم الاحتكاك بها مباشرة وتعاطي الزراعة بعد أن كانوا يشكلون الارستقراطية الزراعية وحكام المقاطعات. وقد بقي الدروز حتى اليوم يسكنون نفس المناطق التي تحصّنوا فيها من قبل ـ إلا القليل منها التي تركوها قسراً ـ والزراعة هي المورد الأساسي بالنسبة لهم، بالإضافة لبعض الأعمال الصناعية والتجارية. ولكن المزارعين من الدروز يشكلون الأغلبية الساحقة بين أفراد الطائفة، وأكثر تواجد الدروز اللبنانيين في الشوف والمتن ووادي التيم، ونادراً ما نرى نوعاً من الخضار والفواكه إلا وتنتجه هذه الأرض التي يديرها ويعتني بها المزارعون الدروز في مواسم مختلفة على مدار السنة، حيث تعرف الأرض الواحدة أكثر من موسمين وثلاثة في العام الواحد.

واضطر الدروز للعمل والاهتمام بالأرض بعد أن بدأ الاهتمام الأوروبي بالموارنة في لبنان وخاصة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي زوّدت الموارنة بتأييد سياسي لم تعرف الطوائف اللبنانية الأخرى مثيلاً له. ثم كان الجانب الثقافي الوجه الآخر لهذا التغلغل الغربي وذلك عن طريق الرهبان والمدارس والارساليات التي نشرت التعليم بين أبناء الموارنة فتولّوا أعلى المناصب في الحياة العامة، والسيطرة على مقاليد الأمور السياسية بعد ظهور البرجوازية المتمثلة بالمسيحيين خاصة. وهذا ما عبّر عنه ڤولناي

Volney بقوله[1]: «كانت الفائدة الجلّى التي نتجت عن نشاط هذه الارساليات الدينية أن فن الكتابة أصبح أكثر شيوعاً بين الموارنة، مما جعلهم في هذه المناطق بمقام الأقباط في مصر، أي أنهم أصبحوا هم الكتّاب، والنظار، والحجاب عند الأتراك، وخصوصاً عند جيرانهم الدروز».

ومن خلال تمركز الدروز في المناطق الجبلية ذات التربة الخصبة والمياه الوافرة والمناخ المعتدل، نرى أن لهم اليد الطولى في التأثير الاقتصادي في لبنان وذلك للارتباط الوثيق بين مقومات الاقتصاد الأساسية (الزراعة والصناعة والتجارة). وهذا الاحتكاك الدرزي بالأرض جعلها أن تصبح جزءاً منه ولا تنفصل عنه، فتعلق بها تعلقه بروحه وحياته ولا يمكن أن يتخلى عنها نظراً لما تمثله من قدسيّة وعطاء بالنسبة إليه. فبواسطتها يكسب المال الحلال ويبتعد عن الحرام الذي ينهي عنه التوحيد، وذلك تشبّهاً بالشيخ الفاضل، محمد أبو هلال، كبير مشايخ دروز العصر المعني، الذي كان متعلقاً بالأرض، يزرعها بيده وينكشها بمعوله لكي يأكل خبزه بعرق الجبين[2]. أو كما يقول المؤرخ محمد كرد علي عن الدروز: «قد يعتاشون من عمل لهم خاص، يتعاطونه بأنفسهم من زراعة وصناعة»[3].

وتجدر الإشارة إلى أن الدروز لا يتعاطون زراعة التبغ (الدخان)، لأن هذه الزراعة تعرف «في المناطق الساحلية، من ضواحي بيروت إلى اللاذقية (سوريا)، ويقع ثلث المساحات المخصصة له في متصرفية جبل لبنان. ويشغل الناس من شباط إلى أيار، ثم من آب إلى أيلول»[4]. وابتعاد الدروز عن زراعة التبغ لا يعود فقط إلى أنهم لا يسيطرون على أراض ساحلية تصلح لمثل هذه الزراعة، بل وبصورة خاصة لأن المذهب الدرزي ينهي عن الدخان. وأكثر الزراعات التي يهتم بها الدروز تشمل الأشجار المثمرة وأهمها الزيتون «الذي يحتل المكانة الأولى من حيث المساحة»[5]، وأكثر

---

(١) volney. Voyage en Egypte et en syrie. Paris 1959, Page 227.

(٢) توفيق سلمان، مرجع سابق. ص ١٥٦.

(٣) محمد كرد علي. خطط الشام. الجزء السادس. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٢. ص ٢٦٧.

(٤) جاك كولان. الحركة النقابية في لبنان. تعريب نبيل هادي. دار الفارابي. بيروت ١٩٧٤. ص ٣٧.

(٥) جاك كولان. الحركة النقابية في لبنان. تعريب نبيل هادي. ص ٣٧
Jacques Couland. Le mouvement syndical au Liban. Paris 1970 Page 35.

المناطق التي تعرف زراعة الزيتون في لبنان، فإن منطقة الشوف والمتن والشويفات (أي المناطق التي تمثل فيها الطائفة الدرزية الأغلبية الساحقة)، تحتل المساحات الواسعة من هذه الزراعة. وكذلك التفاح والإجاص والدّراق والمشمش والجنارك والحمضيات والتين والكرمة (العنب)، كلها من انتاج الأرض التي تسيطر عليها الأكثرية الدرزية.

ومن الملاحظ أن تربية المواشي تسير جنباً إلى جنب مع الزراعة حيث من النادر أن نجد مزارعاً جبلياً لا يملك من الأبقار والأغنام والماعز ما يتلاءم مع مساحة أرضه الزراعية، وكذلك الحمير والبغال التي تشكل وسيلة النقل المفضلة لانتاجه عبر الطرقات الوعرة التي يصعب على السيارة سلوكها لنقل الانتاج. بالإضافة إلى أن الحليب واللبن والجبن واللحم، مع ما تنتجه أرضهم من الخضار، تشكل الغذاء الرئيسي للمزارعين.

فتعلق الدروز بالأرض هو تعلق بالحياة نفسها. فهم يفضلون الموت في أرضهم على أن يتركوها تدّنس بأقدام الغزاة والمحتلّين. ويعتقدون تماماً أن كرامة الإنسان مرتبطة بأرضه ولا كرامة لإنسان بدون وطن وأرض. كما أن دروز فلسطين رفضوا التخلي عن أرضهم بعد قيام دولة الاحتلال الصهيوني. لقد فضلوا الموت دفاعاً عنها، على أن يتركوها سائبة لشذّاذ الآفاق الصهاينة. ورغم كل المصادرات التي يتعرضون لها، فإنهم يقاومون جميع مشاريع التهويد والتشريد، ويواجهون المحتلين بكل عزم وصلابة وإيمان، تجسيداً للعلاقة الحقيقية بين الأرض والإنسان.



الفصل الثامن

الشعر والأدب عند الدروز

اشتهر العرب منذ القدم بشعرهم وشعرائهم، حيث كان لكل قبيلة عربية شاعرها أو شعراؤها الذين يمجّدونها ويعدّون مآثرها، كما يعملون على هجاء القبيلة المنافسة. وبكلمة موجزة، فقد كان الشاعر العربي منذ القديم «الناطق الرسمي» باسم قبيلته ولسان حالها.

وبما أن الدروز عرب أقحاح، كان لهم منذ نشأتهم شعراؤهم أيضاً، ولكن هؤلاء الشعراء يختلفون عن شعراء القبائل، لأن شعرهم «كان محصوراً في الأغراض الروحية ولا يتعداها، ولذا بقي هذا المنظوم مطوياً عن الكافة لا يعلم أمره إلا قلّة من الناس. وأما الناظمون فكانوا على الأكثر من أبرز الجماعة علماً ومعرفة، ولذا كانوا علماء بالنسبة إلى سواهم من أفراد الجماعة»[1].

ومنذ أن وصلت الطائفة الدرزية الأرض اللبنانية، كان لها شعراؤها الذين نظموا الشعر، ولكن ليس على غرار شعراء المصانعة والتكسّب، بل كان هذا الشعر نابعاً من تراثهم الديني، ومقتبساً من العادات والتقاليد الدرزية التي تمثل منهج سلوكهم الاجتماعي ككل. لقد كان شعرهم وأدبهم «أدب الحكمة والصلاح والزهد والتقوى. وكان لرسالة الدين أثر بعيد المدى في هذا الأدب، بل هو مصدر الإلهام الأدبي، وقد جاء أدبهم مطبوعاً بالطابع الديني»[2].

---

(١) عارف أبو شقرا. ثلاثة علماء من بني معروف. بيروت ١٩٥٧. ص ٥.

(٢) عارف أبو شقرا. المرجع السابق. ص ٦ ـ ٧.

وكما لعب التنوخيون دوراً سياسياً وعسكرياً منذ وجودهم في لبنان، كذلك كان منهم الشعراء والأدباء الذين تكنّ لهم طائفتهم احتراماً كبيراً، كما يعترف شعراء الطوائف الأخرى بقوة أسلوبهم وشعرهم وأدبهم العربي ويتفاخرون به. ومن أشهر الشعراء التنوخيين الروحيين كان سيف الدين يحيى بن فخر الدين عثمان بن يحيى بن صالح، الذي «ولد في عبيه، وعاش خمس وسبعين سنة في ظل الإمارة التنوخية العربية في جبل لبنان»[٣].

وتذكر معظم المصادر أن شعر الأمير سيف الدين التنوخي كان بعيداً عن النهج الديني في البدء، ولكن بعد صحبته للأمير جمال الدين عبد الله التنوخي، وهو قريبه، وتأثره بتعاليمه ونصائحه وخطته في التديّن، انصرف عن الغزل وكفّ عن المدح، وكرّس شعره للتغزّل بعظمة الخالق وجلاله، ثم قضى عمره بصحبة الأمير السيد وعلى خطته الدينية وتاب توبة صادقة. لقب «بشاعر الدارين»[٤] (مصر والشام)، لأن المماليك كانوا يحكمون بلادنا وكانت عاصمتهم القاهرة.

وكان في كل سنة يتنقل على دابته متجولاً في القرى الدرزية، يساعد الفقراء والمحتاجين من أبناء الطائفة حتى ذاع صيته واشتهر في كل الأنحاء لأنه كان يتمتع بثقة الدروز جميعاً. وما زالت كلمته المأثورة «حط بالخرج» تتردد حتى اليوم.

الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي:

ولد في عبيه سنة ١٤١٧ وتوفي فيها عام ١٤٧٩. استلم الديانة على يد الشيخ أبو علي مرعي زهر الدين من الفساقين قرب عبيه. ودرس الفقه حتى توصل أن يكون المرجع الدرزي الوحيد لأهل عصره.[٥].

له مقام كبير في عبيه، يؤمه الدروز من مختلف الأنحاء تبركاً وتديّناً. لم يكن شاعراً ولكن شرح كتب العقيدة في مجلدات عدة تعتبر مرجعاً أساسياً ومهماً لكل أبناء الطائفة في كل مكان، حيث أطلق عليها «شرح الأمير السيّد». وله معجم ضخم في

---

(٣) عارف أبو شقرا. المرجع السابق. ص ١٤.

(٤) توفيق سلمان. المرجع السابق. ص ١٣٥. وعارف أبو شقرا. ص ١٧.

(٥) حافظ أبو مصلح، واقع الدروز. (مرجع سابق). ص ٣٦.

لغة العرب اسمه «سفينة اللغة»، وكتاب آخر «سياسة الأخيار» و«شرح كمالات النبي المختار»[٦].

كان محباً لجميع الناس، حتى أنه أوصى لجيرانه المسيحيين في عبيه. و«بموجب وصيته ورث مسيحي من آل سركيس ما أوصاه له الأمير السيد»[٧].

الشيخ يوسف الكفرقوقي:

هو الشيخ يوسف سعيد برّو من كفرقوق في راشيا، وعرف بهذا الاسم (الكفرقوقي) نسبة لقريته. كان شاعراً دينياً ومن كبار اتقياء وعلماء الموحدين. له كتاب ضخم اسمه «دور النحور في التوبة إلى الملك الغفور»[٨]. توفي في قرية «ينطا» بعد عودته من دمشق ودفن فيها عند أقاربه من آل تمراز[٩].

الشيخ الفاضل محمد أبو هلال:

ولد في قرية صغيرة من جبل الشيخ تدعى «الشعيرة»، وسكن كوكبا قرب راشيا الوادي. تيتّم منذ طفولته وكان راعياً للماعز يتنقل في الطبيعة من مكان إلى آخر، عند الشيخ محمد أبو عبادة. لكنه كان ذكياً جداً منذ صغره. فانكبّ على القراءة والمطالعة، حتى أتقنها وبدأ بقراءة كتب المعتقد فحفظها غيباً. وبدأ نجمه يلمع ويتألق حتى توصل لمرتبة شيخ عقل الدروز كافة ونال ثقة الموحدين ومحبتهم واحترامهم حتى أصبحوا يطلقون عليه اسم «الشيخ الفاضل»، وما زال معروفاً بهذا الاسم حتى اليوم، والكثير من الدروز لا يعرفون اسمه (محمد أبو هلال)، حيث غلب اللقب على الاسم الحقيقي. وبرع في شعره براعة فائقة. وجميع الدروز في كل أنحاء تواجدهم يرددون شعره وشعر رفاقه الشعراء الروحانيين في اجتماعاتهم الدينية لأنها تمجيد للخالق، والمآثر الدينية الحميدة. هذا وقد كتب عنه وعن آدابه أحد تلاميذه، الشيخ

---

(٦) توفيق سلمان. مرجع سابق. ص ١٤١.

(٧) حافظ أبو مصلح. مرجع سابق. ص ٣٦.

(٨) توفيق سلمان. مرجع سابق. ص ١٦٢ ـ ١٦٣. وعارف أبو شقرا. ص ٣٦.

(٩) توفيق سلمان. مرجع سابق. ص ١٦٣. وعارف أبو شقرا ص ٨٠.

أبو علي عبد الملك، ضمن كتاب اسمه «آداب الشيخ الفاضل». وفيه وصف حياة سيده الفاضل في مرحلة تدّينه وتقواه، وهي المرحلة التي كتب فيها الشعر حيث كان يبلغ من العمر الأربعين أو خمسة وأربعين عاماً. توفي في بلدة عين عطا ودفن فيها[١٠].

وهناك عدد كبير من الشعراء والأدباء الدروز الزمنيين، الذين يحتلون مكانة كبرى في هذا المضمار. وجميع كتاباتهم الشعرية والنثرية تدور حول القضايا الوطنية والقومية والتراثية واللغوية. نذكر منهم على سبيل المثال: الأمير شكيب أرسلان الملقب بأمير البيان، والأمير عادل أرسلان، وسعيد تقي الدين، وأمين آل ناصر الدين، وعجاج نويهض، وسليمان أبو عز الدين، وطارق آل ناصر الدين، وكمال جنبلاط الشاعر والأديب والمؤرخ والفيلسوف والمفكر إلخ . . . والدروز يرددون في معظم المناسبات الشعر الحماسي الخاص بالحروب والذي نظم لهذه المناسبات، وهم الذين اشتهروا بالفروسية والقتال. كما تردد النساء هذه الأشعار أيضاً لإيقاد الحماسة ودبّ النخوة في نفوس المقاتلين لخوض غمار القتال والانتصار.

---

(١٠) عارف أبو شقرا. ص ٨٢.

الفصل التاسع

العادات والتقاليد الدرزية

للطائفة الدرزية عادات وتقاليد تعتبر جزءاً من تراثها التاريخي والتي تستمد وجودها وأصالتها من تعاليم العقيدة ومبادىء التوحيد.

يحتل الكرم والضيافة المكانة الرئيسية بين هذه العادات، كما يعتبر واجباً مقدساً. وتمثل البيوت الدرزية «فنادق مجانية» لكل زائر وضيف، أجنبياً كان أو غير أجنبي، مع ما يتطلبه ذلك من استقبال وترحيب كبيرين. وهذه الميّزة، التي تحمل الأصالة العربية وعراقتها يؤكدها كثير من الأجانب بالإضافة لأبناء الطوائف الأخرى الذين عاشوا مع الدروز وبين ظهرانيهم، يأتي العلامة محمدٌ كرد علي وحنا أبي راشد والجنرال أندريا في مقدمتهم[1].

ويشتهر الدروز أيضاً بالصداقة المخلصة، حيث ينطبق عليهم قول المثل: صديقك من صدقك لا من صدّقك. ويتفانون في الدفاع عن الصديق حتى ولو كلفهم ذلك غالياً، ويعدون التهرب من نصرته غدراً وخيانة لمن وثق بهم، والغدر والخيانة لا مكان لهما في نفوسهم ولا في قاموسهم، وشجاعتهم في هذا المضمار قلما يجاريهم فيها أحد، لأنها نابعة من مبادئهم التوحيدية وتحثهم للذفاع عن كل حق مهما كان الثمن.

---

(١) محمد كرد علي. خطط الشام. الجزء ٦. ص ٢٩١ ـ ٢٩٣. والجنرال أندريا. ثورة الدروز وتمرد دمشق. ترجمة حافظ أبو مصلح. بيروت ١٩٧١. ص ٦٠ ـ ٦١. وحنا أبي راشد. جبل الدروز. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٦١. ص ١٥٨.

وتعتبر الشجاعة والفروسية توأمين عند بني معروف، لأنهم اشتهروا تاريخياً بالحرب والقتال واتقان فنونها بكل مهارة. ودروز الشوف خاصة، ولبنان عامة يذكرون عن القرن الماضي حادثة الشيخ رافع عبد الصمد الذي استطاع أن ينتزع من المتصرف واصا باشا عفواً عن ابنه حسن باعجوبة. وقد نشر الأستاذ عارف أبو شقرا هذه الحادثة في مجلة «أوراق لبنانية»[٢].

وملخصها أن الشيخ حسن ابن الشيخ رافع عبد الصمد كان قد اتهم بخيانة ولوحق عليها، وكان يقضي أيامه متوارياً عن عيون رجال الأمن. فعز على والده أن يمضي ابنه إلى السجن، كما عز عليه أن يظل محروماً من مخالطة الناس، وشهود المحافل الاجتماعية، وكان على صلة طيبة بنسيب بك ونجيب بك جنبلاط، فكلفهما أن يساعداه في المراجع المختصة لعلهما يجدان للمشكلة حلاً. وعندما تولى نسيب بك جنبلاط قائمقامية الشوف عام ١٨٨٤ من قبل متصرف جبل لبنان واصة باشا، قرر هذا الأخير زيارة المختارة لتهنئة القائمقام بمنصبه الجديد. استغلها الشيخ رافع وولده فرصة مناسبة لاصدار عفو عن المتهم، ولما كان الموعد المحدد، حضر الشيخ رافع وولده كل على فرسه إلى قصر المختارة. وبدأت أعمال الفروسية في باحة القصر وكان هذان الشيخان من روادها الأوائل. وعندما لاحظ الشيخ رافع أن رجال الأمن سيهمون لإلقاء القبض على ولده، أشار إليه بأن يتبعه، وصعد على حصانه على درج القصر حتى وصل إلى الطابق الثالث بأعجوبة والناس في الباحة ينتظرون سقوط الشيخ وحصانه إلى الميدان والموت بين لحظة وأخرى. إلا أن هذا الخوف انقلب فجأة إلى دهشة وتعجب وفرح، عندما وصل الشيخ رافع بفرسه مشرفاً على البهو الواسع في الطابق الثالث حيث كان المتصرف قد تصدر الناس وحوله نسيب بك ونجيب بك وسواهما من وجوه القوم.

وكانت المفاجأة التي أدهشت الجميع والمتصرف خصوصاً الذي وقف متعجباً. فترجل الشيخ رافع عندها، وأمسك ابنه حسناً بيده اليمنى وتقدم به نحو المتصرف،

---

(٢) عارف أبو شقرا في مقاله بعنوان: «يوم كان في لبنان فرسان وفروسية»، مجلة «أوراق لبنانية» الجزء السادس، حزيران ١٩٥٦. ص ٢٥١ ـ ٢٥٤.

ولما اقترب منه وقف باحترام وأدى له تحية شبيهة بالتحية العسكرية، ثم وضع يده على كتف ابنه وقال: يا مولاي! هذا حسن المتهم، وهو الآن بين يديك فاصنع به ما تشاء.

لم تنته تلك الزيارة حتى كان الشيخ حسن ينعم بأمان العفو الذي انتزعه له أبوه من المتصرف، باعجوبة من أعاجيب الفروسية، فراح طليقاً حراً. بالإضافة لذلك يتميز الدروز بالشوارب الكثيفة التي تحتل أهمية كبرى في حياتهم وتعاملهم مع باقي الطوائف. ويشير الفرنسي دومينيك شوڤالييه إلى هذه النقطة قائلاً: لا شرف ولا شجاعة ورجولية، دون شوارب، كما أن القروي في الجبل يقسم بشواربه للدلالة على قدسية قسمه[٣].

ومن المستحيل أن نجد شيخاً من عقال الدروز إلا وشارباه الكثيفان هما جزء من وقاره وعنفوانه. والدروز، وخصوصاً مشايخهم، لا يأكلون خبزهم إلا بعرق جباههم، لذلك يفضلون الزراعة والعمل اليدوي على باقي المهن الأخرى لأنهم يعتقدون أن مالها فيه من الشبهة ما يمنعهم عن تداوله والتعامل به. كما أن الحرية والاستقلال لهما عند الدروز قدسيّة مميزة، وقد أثبت تاريخهم الطويل صدق تمسكهم بهما رغم كل المصاعب والتضحيات.

لذلك نراهم أول من وضع المدماك الأساسي في بناء دولة اسمها لبنان، كان التنوخيون والمعنيون من روادها العظام. وقد تطرق سماحة الشيخ محمد أبو شقرا إلى ذلك قائلاً بأن «المعنيين (الدروز) هم أول من أقاموا دولة مستقلة في المنطقة العربية»[٤].

جبليون نشيطون محاربون، ذوو بأس وشجاعة، ومن أمهر الرماة على حد قول لامنس[٥].

ولم يخرج الدروز بشكل عام، عن أخلاقية الأسرة التنوخية العريقة بدرزيتها

---

(٣) Dominique Chevalier, op., Page 32.

(٤) مجلة «الضحى» عدد كانون الثاني عام ١٩٤٨.

(٥) H. Lammens. La syrie précis historique. Beyrouth 1921. Tome 2. Page 69-70 et Bouron, op. Page 106-107. et A. Ismail. op. Page 31-32.

والتي وصفها المؤرخ المقريزي بأنها «بيت حشمة وأدب». ويشير المؤرخ العلّامة محمد كرد علي قائلاً: «لم يبرح الدروز يعدون من المحافظين على عاداتهم القديمة وأخلاقهم العربية من اباء ووفاء وحسن عشرة وكرم وحسن وفادة»[٦] كما يؤكد المؤرخ ميخائيل مشاقة وبنوع من التفصيل المركز حول هذا الموضوع قائلاً بأن «الدروز يتجنبون فحش الكلام أكثر من جميع الطوائف وعندهم مزيد من القناعة في معيشتهم وعدم الشراهة مع الاحتشام في ملابسهم. . . ويراعون حق الجوار لمن يسلك معهم بالاستقامة، ويصبرون على الضيم، وعندهم من عزة النفس ما لا يقاس بهم غيرهم. فضربك أحدهم بالسلاح مع كلامك معه بالاحتشام مقبول عنده أكثر من هدية سنيّة مع كلام مهين»[٧].

حتى أن الجنرال الفرنسي ويغان، الذي كان مفوضاً سامياً على لبنان بعد الجنرال غورو وإبان الحكم العسكري، قال عن الدروز الذين خبرهم عن قرب «بأن الدرزي يتحلى بفضائل ومحاسن تغبطه عليها أرقى الأمم»[٨].

هذا ولم يقتصر الموضوع على الفرنسيين، بل كان للامريكيين أيضاً رأيهم بالدروز بشخص رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت الدكتور دانيال بلس، الذي قال فيهم: «إن صفاتهم تحسدهم عليها أرقى الأمم». كما «يعدون من أكثر الناس عزة واشجع رجال الحرب لا في سورية ولبنان وحسب، بل في الشرق كله»[٩]. وجاء على لسان «فيريه» قوله: «بأنهم القوم الأعرق بداوة بين جميع حضر الشرق»[١٠].

أما الغربيون الذين اشتهروا بالصاق التهم والافتراءات بالموحدين الدروز، فقد بقي الكثير منهم صادقاً من نفسه ومع الآخرين، عندما التزم الحقيقة قولاً وتدويناً، مؤكداً بأنها لا يمكن أن تبقى مغمورة ومحاطة بأسوار من الأكاذيب والتحريف. فانبرى

---

(٦) محمد كرد علي. المرجع السابق ص ٣٠٠.
(٧) ميخائيل مشاقة. منتخبات في الجواب على اقتراح الأحباب. ص ١٢٩.
(٨) مقدمة كتاب بورون. ترجمة عادل تقي الدين.
(٩) و(١٠) سلام عبيد. الثورة السورية الكبرى، ص ٦٩ و٧٦.

الكابيتان بورون مثلاً إلى القول «إنهم (الدروز) يحرّمون الكذب والخمرة والتدخين وشهادة الزور والاغتياب والنميمة»[١١].

كما يؤكد بيجيه دي سان بيير بأن «الدروز قوم طيبو السريرة، نيرو الفكرة ذوو مشاعر محببة، ولهم قامات كبيرة. وهم يتمتعون بقوة غريبة، وخفة فائقة. صبورون، نشيطون، مستقيمون، أمناء، إنسانيون، يتمسكون بمثلهم حتى حدود الخرافة. وفي الوقت ذاته لا يخلفون وعداً ولا يغدرون»[١٢].

أما الدكتور عمر فروخ فيقول: «كان للدروز في حركتهم الدينية عبقرية عملية تلفت الأنظار. لقد استطاع المذهب الدرزي أن يقر في نفوس اتباعه نظاماً أخلاقياً عملياً يندر أن نجد مثله بمثل هذه القوة، وذلك الاستمرار عشرة قرون متوالية ويظن أن حسن الأخلاق في المذهب الدرزي جزء من الدين. والدرزي متصف بالعفاف والصدق وإتيان الفضائل. وليس مكان العبقرية أن يأمر المذهب الدرزي بهذه الأخلاق التي أمرت بها المذاهب كلها وأتت بها الفلسفات جميعها، ولكن مكان العبقرية أن هذا الأمر لم يفقد سلطته إلى اليوم». ويضيف الدكتور فروخ قائلاً: «لقد أصبحت الأخلاق جزءاً من الحياة الدرزية»[١٣].

أما بالنسبة للزواج، حيث تشكل العائلة أساس المجتمعات البشرية، وخلال حكم العائلات المقاطعجية اللبنانية، كان الزواج قائماً على أساس العادات والتقاليد المفروضة من قبل هذا المجتمع الذي يتألف من مجموع هذه الأسر من الأعيان، ولا يمكن تجاوزها وتخطيها، لما يجعله هذا التجاوز من عواقب كبيرة قد تنعكس بشكل سلبي على الأفراد والجماعاتّ أحياناً. من هنا كان على الفلاح أن يتزوج إلى فلاحة. والشيخ لا يتزوج إلا من طبقته الاجتماعية التي تحمل نفس المرتبة واللقب. وكذلك الأمير لا يتزوج إلا أميرة. . .

وهكذا كان الزواج في الماضي يتم حسب المراتب الاجتماعية والألقاب.

---

(١١) فؤاد يوسف الأطرش. الموحدون الدروز تهم وتاريخ وحقائق. بيروت ١٩٨١. ص ٢٤٢.

(١٢) بيجيه دي سان بيير. الدولة الدرزية. ترجمة حافظ أبو مصلح. بيروت ١٩٦٧. ص ١١٠.

(١٣) عمر فروخ. عبقرية العرب. الطبعة الثالثة. ص ١٨٥.

والمحافظة على ذلك ضروري جداً ومقدس. وعندما صادف مرة أن الشيخ سرحال العماد تجرأ على طلب يد أميره معنية خلال حكمه لمقاطعة الشوف بدلاً من الأمير أحمد المعني، رأينا هذا الأخير، يعمد بعد عودته إلى الحكم عام ١٦٦٤، إلى قتل الشيخ سرحال لأنه تجرأ على هذه المغامرة متجاوزاً «قوانين» المراتب والألقاب المتعارف عليها في الإمارة. وقد أشار المؤرخ طنوس الشدياق إلى هذه الحادثة في كتابه «أخبار الأعيان في جبل لبنان» (الجزء الأول. بيروت ١٩٧٠. ص ١٥٩) إلا أن الوضع اختلف اليوم عما كان عليه في الماضي حيث لم تعد الألقاب والمراتب تقف حائلاً في طريق الزواج.

إلا أن الدروز لا يعترفون بزواج الموحد أو الموحدة إلا من أبناء مذهبهم فقط، ويرفضون الزواج من «الخوارج»، أبناء الطوائف الأخرى. ويشير سماحة الشيخ حليم تقي الدين في إحدى محاضراته التي ألقيت في مقر رابطة العمل الاجتماعي في بيروت (رابطة الجامعيين الدروز) عن «زواج المرأة الدرزية وطلاقها» قائلاً: لا يجوز عقد زواج بين رجل وامرأة إلا إذا كانا من الموحدين ليصبح قائماً وصحيحاً وقد يأخذ مفعوله إذا حصل في بلاد خارج البلد الذي شرع فيه النظام، نظام الموحدين، وأكد على وحدانية الزوج من أجل العدل في المعاملة»[١٤].

أما بالنسبة للطلاق، فقد أثبته قانون الأحوال الشخصية للطائفة الدرزية «إذ ورد في نص المادة ٣٧ منه ما حرفيته: «لا يحل عقد الزواج بالطلاق إلا بحكم قاضي المذهب»[١٥].

وأكد الشيخ حليم تقي الدين ذلك قائلاً: «إن الطلاق اللفظي عند الدروز لا يحل الزواج، إنما يتم ذلك عبر طريقتين: الفسخ بالتراضي أو بناء لطلب من أحد الزوجين. الأول يتم أمام قاضي المذهب، والثاني يتم بناء لإصدار من أحد الزوجين، ويتعين وجود شاهدين لمعرفة أسباب الطلاق وإتاحة الفرصة للتسوية إذا أمكن[١٦]. من

---

(١٤) جريدة السفير «البيروتية. السنة الثامنة. العدد ٢٨٠٤. السبت ١٩٨٢/٢/٢٠.

(١٥) المحامي زهير عبد الصمد، في مقاله «حق الزوج في الطلاق مقيّد أم مطلق؟». مجلة «قضايا المرأة» (تصدرها لجنة حقوق المرأة اللبنانية)، عدد ٨ آذار ١٩٨٢. ص ٥٠ - ٥١.

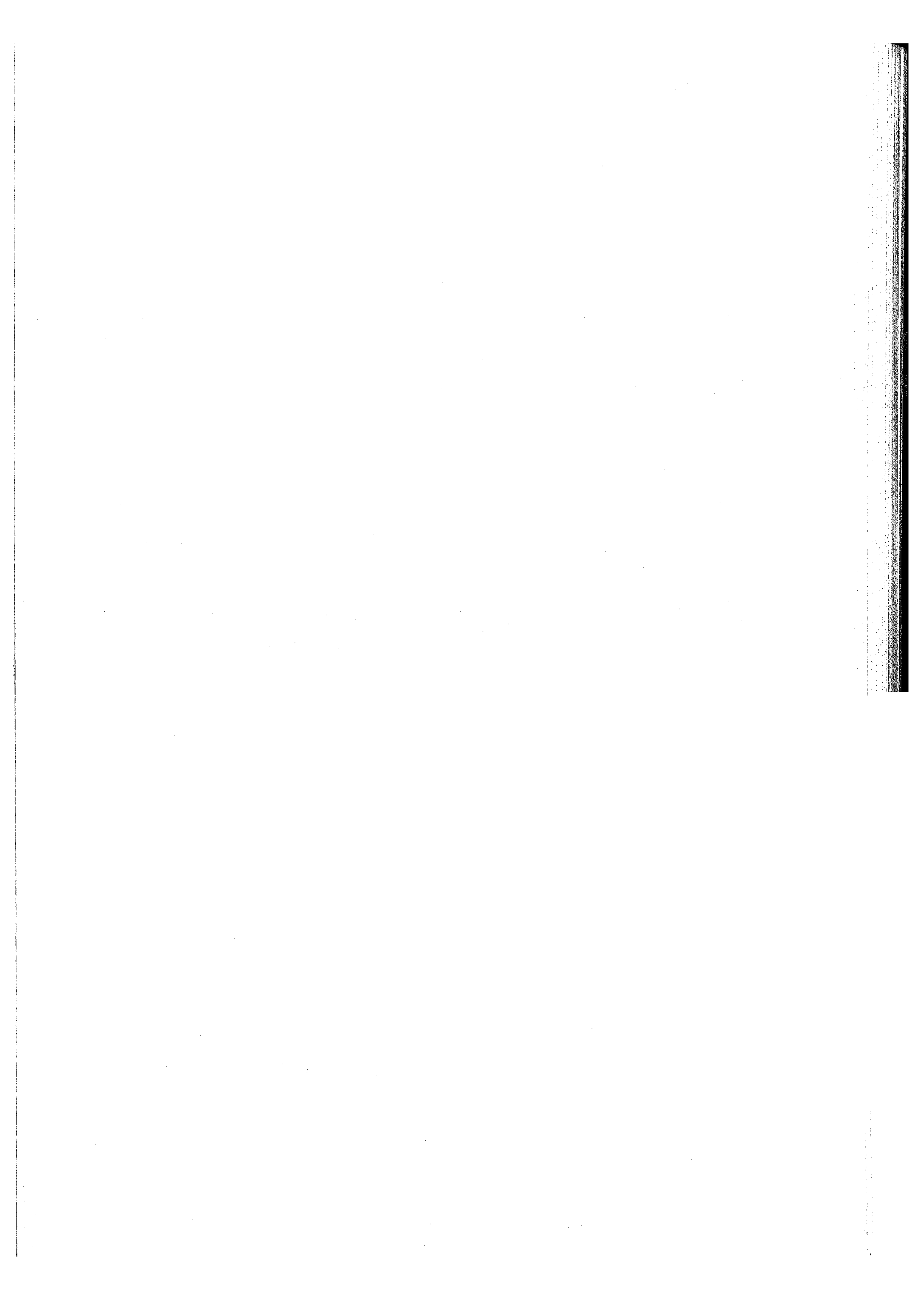
(١٦) جريدة «السفير». المرجع السابق. نفس الصفحة.

ناحية ثانية، يحرّم المذهب الدرزي زواج الموحد من أكثر من امرأة، واحدة، ولا يجيز تعدد الزوجات لاستحالة العدل، وفقاً للآية: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم».

وإذا أردنا تسجيل ما ذكره جميع المؤرخين والكتاب في أخلاقية الدروز وصفاتهم نصبح بحاجة إلى مجلد ضخم لاستيعابها، حيث تضيق بها هذه الصفحات القليلة. إلا أن همنا الأساسي يتمحور حول إثبات الحقائق التي ذكرها بعض المؤرخين العرب والأجانب، والتي تؤكد بما لا يقبل الشك مصداقيتها مهما حاول المفترون تشويهها وتحريفها.

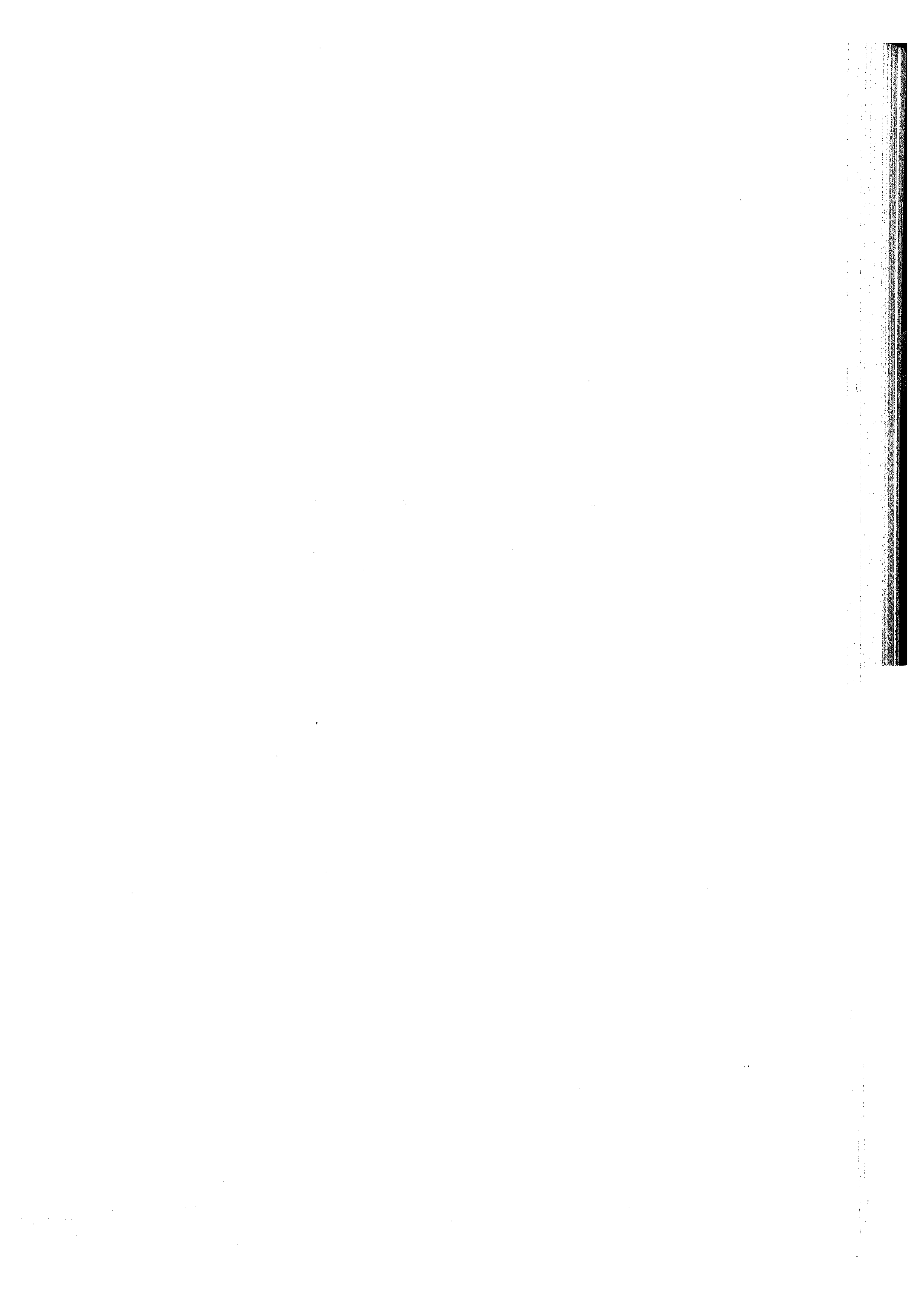
وقد تطرق الكثيرون من الشعراء للكتابة عن الدروز وتاريخهم، نذكر منهم على سبيل المثال: الشاعر أحمد شوقي. وحافظ إبراهيم. ووديع تلحوق. وإلياس فرحات. والشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) ومسعود سماحة. والشيخ سليمان ضاهر. والأمير عادل أرسلان.وعادل شعبان. حتى أن أحد شعراء الانكليز قال فيهم: «شجعان أشداء أباة، ذوّادون عن الحرية، انهم هم وحدهم، بينما كل من حولهم يركع ضارعاً خاشعاً للسيف العثماني»[17].

(١٧) فؤاد الأطرش. المرجع السابق. ص ٢٤٣.



ملحق رقم ١

شهادات رجال الفكر والقلم
* نثراً وشعراً *



شهادة الشيخ ابراهيم اليازجي(*)
«في مجلته الضياء»

* * *

«. . . وننقل إلى حضرات القرَّاء شذراً من كتاب وقفنا عليه لأحد أئمة الدروز، لم نهتدِ إلى اسم مؤلفه لأن الكتاب ناقص من أوله. وإنما العبرة للقول والعمل، لا للقائل. ولا جرم أن من تأمَّل في هذا المنقول، من الحكم الناصعة والزواجر الرائعة، وما اشتمل عليه من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتزام جانب الله، واتباع الحق والزهد والتقوى، علِم ما في هذه الطائفة المستترة من الفضل والكمال، وما تحت تلك الأعبئة الغليظة، من كرم الشمائل وطيب الخلال، ومن الدعوة إلى مراعاة الذمّة وحفظ حق النعمة، وتسليم الأمر إلى صاحبه، وإيثار العدل والصدق، والحق والاستقامة. . .».

ومضت هذه الطائفة على هذه السنّة الحميدة، والشرعة السَّديدة، والأخلاق الكريمة، والتقاليد المستقيمة، حتى كان إذا خرج أحد أبنائها ـ ولا سيما المتصلين بالدين منهم ـ عن هذه الآداب، قاطعته ونبذته نبذ النواة، وحرَّمت عليه مجالسها، وابتعدت عن مخالطته ومعاملته، مهما كان من مقامه وشأنه. وبهذا اكتسبت هذه الطائفة هذه المنزلة الرفيعة والمكانة السامية، وحفظ لها كيانها وصان استقلالها، استقلالاً نزيهاً كريماً مئات السنوات ما كانت لتبيعه بالألوف والمئات، فضلاً عن الليرات المعدودات. . .».

* * *

(*) مجلة «الميثاق». الجزء الثالث. آذار ١٩٧٤. ص ١١٣ ـ ٨١١٤

شهادة إسبر الغريّب(*)

* * *

«نكتب هذا الفصل إظهاراً للحقيقة. والحقيقة يجب أن تقال لا أن تعلم. وتنويراً للقرّاء في حقيقة مسلم من الشعب السوري العربي الكريم لم يفهمه سوى القليل من الناس، من السوريين أنفسهم، وهذا الجهل، جهل حقيقة أخوان لنا تربطنا معهم روابط أصل وفصل ودم ولغة وعادات، أدّى إلى تسهيل دسّ سموم التعصب الديني في عقول أكثرية سائر الطوائف العربية في سوريا...

«إن التاريخ العربي يترصّع بأوسمة الفخر والمجد... وكما يترصّع تاريخ العرب بأولئك البدور، فتاريخ سوريا كان وما زال يترصّع بمآثر الدروز ومكارمهم... قد يكون في سوريا رجال أريحية وكرم وفضل، نحن لا ننكر، ولكن اشتهار أفراد هذه الطائفة عموماً لها قصب السبق في هذا الميدان وعقد التاريخ لها وحدها عقدة النصر.

«... لكن تمسك الدروز بتلك الصفات العالية والمبادىء السامية، مبادىء الكرم والأنفة وعزة النفس والتضحية في سبيل الغير، وبذل الدم لحماية الضعيف المستجير، وفتح الصدور قبل المنازل للاجئين إليهم مهما يكن نسبهم ومهما اختلفت مذاهبهم، وروح التسامح لخصم يستظلّ شهامتهم، كل هذه الصفات أصبحت أعلاماً للدروز لأكثريتهم...».

* * *

(*) راجع: فؤاد الأطرش «الدروز: مؤامرات، تاريخ وحقائق». ص ١٥.

شهادة الأستاذ الياس ربابي(*)
(أحد قادة حزب الكتائب اللبنانية)

* * *

كـان من طفرات الكـلام في دورانـه عـلى شؤون سـورية وشجـونها في الآونـة الأخيرة، ما كان من الواجب ألاّ يكون.

فقـد أبت دعايـات وأقـوال خـارج لبنـان ـ في غمـرة الهيـاج والصخب وتـوتـر الأعصاب ـ إلا أن تنحرف عن جادة الإتزان والإنصاف، فزلقت إلى غمز ولمز كان من أهدافها محاولة النيل من وطنية (بني معروف) الأشاوس.

وكان الانحراف وحـده كافيـاً لإثارة الامتعـاض، وكان وحـده كافيـاً للطعن في الطاعنين بدافع من دسٍّ أو افتراء وتجنٍّ.

مـا وراء إخواننـا الـدروز من رصيد ضخم عـلى صعيد الكـرامـة والمـروءات والبطولات يغنيهم حتى عن ابتسامة الهزء يطلقونها استخفافاً بالمتهجمين والمتطاولين.

فالبانون على الجماجم معاقل الإباء والعز.
والسائرون في طليعة الطلائع إلى رفع ضيم وإشاعة فضل.
والباذلون ما هو أغلى من شقشقات الألسنة وغرغرات الحناجر. . .
الباذلون مهجاً وأرواحاً من أجل حرية وسيادة واستقلال.

والصامدون بوجه المغـريات والأهـوال وفاء لعهـد قطعـوه، وبرّاً بمبـدإ اعتنقوه، وضنّاً بشرف أعزّوه. والمندفعون في يوم نكر وكـريهة، سيـوفاً للحق، وألـوية للبـأس، ومشاعل للصدق والإخلاص والجهاد النبيل.

والمستعدون اليوم وفي كل يوم للبـذل الجديـد، والتضحية الجـديدة، في سبيـل سؤدد الوطن ورفع شأنه. . .

هؤلاء يجوز لهم أن يتهموا كثيرين من مواطنيهم بالقعود عن واجب، والتخـاذل عن تبعة، والإنسياق في تيّار خيانـة، وإنما لا يجـوز لأحد أن يـرميهم حتى بوردة نضرة نديّة: فالاتهامات تحقر وتصغر إزاء أعمالهم الجبّارة والكبيرة.

ليس المجال هنا مجال الشهادة بما لإخواننا الدروز من مكرمات ومحامد في نصرة القضايا الوطنية في كل من لبنان وسورية.

وليس الموقف بموقف نشر ما كتبوه من صفحات مشرقة في ثوراتهم على العبودية وانتصاراتهم للحرية.

وليس الظرف ظرف الإشادة بما كان منهم ولهم في ميادين النضال والكفاح...

وهذه كلها حقائق يموت التاريخ ولا تموت، وينسى النسيان نفسه وتظل ماثلة بالجبين العالي في الحي من الخواطر والأذهان.

وإنما إزاء هبات محاولة التشويه والإفساد كان من الواجب أن نشهد الحق والحقيقة.

كان من واجبنا ذلك كي لا يعتقد الواهمون من صغار الأحلام أن إنكار الجميل والتنكر للخير في عداد السلع الرائجة السوق حتى يوم الأخلاق في فجيعة والرجولة في مناحة.

* * *

(*) نشرت في جريدة «العمل» الكتائبية بتاريخ ٩ شباط ١٩٥٤، أثناء حملة أديب الشيشكلي لإذلال أبناء جبل العرب في سوريا والتنكيل بهم.

شهادة بولس سلامة(*)
بعنوان: من بولس سلامة
إلى سعيد فرنسيس

* * *

حضرة الصديق الكريم السيد سعيد فرنسيس حفظه الله.

تحية عاطرة. وبعد فقد كنت آليت ألَّا أسطِّر كلمة في نقد لفرط ما تراكم عندي من المؤلفات في الآونة الأخيرة، فشقَّت المهمة حتى لتنوء بمطالعة هذه الكتب وتقويمها العصبة من الأدباء ذوي السواعد الغلب فضلاً عن المريض الناقه. بيْد أن كتابكم (بنو معروف في ساحات المجد) أيقظ في نفسي شعوراً يصعب معه الصمت أو الاعتذار، وأثار في خاطري شؤوناً كنت أحسب أن قد طواها الزمن. وإنها لتنتشر في صدري الساعة فأتمثَّلني في ميعة أحداثها؛ إذ أن هذا الحسّ ترسَّخ في ما هو أبعد من الذاكرة، فأصبح مني جزءاً شائعاً في كياني، فما أستطيع منه انسلاخاً.

أما كتابكم فلئن افتقر إلى البيان الأنيق، والأسر العربي المحكم، لقد حفل بالصدق وتنزه عن الهوى، فما أنبله قصداً، وما أشرفها غاية. وإذا خفي عليكم العامل الذي حفَّز قلمكم الإنساني للذياد عن الحق وإنصاف الموحّدين الألى ظلمهم التأريخ، فإني بإبرازه لقمين، ذلك أن بينكم وبين الدروز من القربى الروحية ما يزري بوشائج النسب الطبيعي.

أفلم يولد ويترعرع جدكم البطل المغوار، الشيخ يوسف فرنسيس الحاج الحاصباني في مشارف ذلك البلد الطيب، فكان أول ما تفتّح عليه بصره تلك العمائم الزُهر، تيجان العرب، والعباءات المخططة، أوشحة المهابة، وهالات الوقار. وكان أول ما رنَّح مسمعه حداء الحماسة، وزغردة البنادق، تشوبها حمحمة الجرد المذاكي بين مباسط سوق الخان وخمائل النبع الألفاف وتلاع (زعلا والشميس).

إذن فإن أبا ملحم درج في شعاب وادي التّيم وبطاحه، وأيضع في غياضه حيث انطلقت لُهاته بالزمجرة فنودي بأبي الأشبال شيخاً لشباب الوادي. أوَلست أنت يا

سعيد نجل راعي الحصان سليم الذي كان يقارع الفـرسان ويعتمـد الخطأ في إطـلاق الجريد على منازليه لئلا يوردهم حقوقهم، أو يراهم على الجدالة صرعى، لما في ساعده الشمشوني من العضل الوشيج، والقوة المتراكمة؟.

ولم يتح لي أن أشهد جدك أو أباك وأعمامك فرسان الميـادين، وأقطاب الـوغى، فكان علمي بمآتيهم الغُرّ مما نقله لي ولأترابي، الثقات شهـود العيان، وبينهم أبي. ومـا أعلم أن في الرّواة من هو أجدر منه بالحديث على البطولة، فهو من قد عرفت صـلابةً وبأساً وتمرّساً بالرجال.

غير أن الحظ أمكنني من رؤية عمتكم «عليـا» حين كنت ضيفكم سنة ١٩٢١، فذكرت عهدئذ ما قرأت في تأريخ الفتوح عن خولـة أخت ضرار بن الأزور ونظائـرها اللائي بيَّضن وجه حـواء. وأثبتن أن التي تهزّ الأسرّة يمنـاها تستـطيع ـ إذا هي أغـرتها البطولة فصدَّت عن الهوى ـ أن تهزَّ الأعنَّة يُسراها فيكون مثـار النقع حجـابها، ودويّ البارود زفّتها الكبرى.

وكأني بها ـ رحمها الله ـ وقد بلغت السن العالية فـذرّفت على التسعـين، طفقت بعد العشاء تحدِّثنا بما أوتيت من التوفيق في معالجة المـرضى، ابتغاء وجـه الله، معتمدة أساليب الرازي وابن سينا، ولا غروى فقد نذرت صباها للمجد والشرف، وكهولتهـا والهرم للمواسات وبذل الخير. وما كنت ولأنسى مجلسنا في اليوم التـالي وقد كلَّفتهـا أنا الفتى الجذع أن تحدِّثني عن عهدها بالسيف اليمانيّ، والصواهل الأعـوجيات، فـوسعني حلمها بعد عبوس، وحدَّثتني على قدر الطاقة؛ فـرجح لـديّ أنها تكاد تعـرف من أمر الفروسية ما يعلمه أبوها مؤلِّف (سراج الليل في سروج الخيل). ويوم ذلك أدركت أن الخيل العتاق تردّ إلى سلالات خمس هي (كحيلاء العجوز والصقلاوي جدران والعبيّا والمعنقي والحمـداني). وعلمت أن جدك النبيـل كـان يـرتبط في سـاحـة داره ثـلاثـين أصيلاً، بينها الكميت، والأشقـر، والمحجَّل، والأبلق، والمصمت، واليهيم. يسمِّيهـا بأسمائها ويفصّل ألوان أوظفتها وسوقها ولبَّاتها. ولا يفوته الوصف لأية شيّة كانت بـين أعرافها وعسبانها. فكأنه وهو اللبناني الخالص ـ الآخذ من حضارة عصره بنصيب غـير يسير ـ نشأ في البادية بين المهاريّ والخيل العراب. وعلمت أن ذلـك الشيخ كـان عفّ

الضمير واليد واللسان وأمير خلق وسخاء. ولعمري إنها الإمارة الحق التي ترين على عدد وافر من أمراء الزمن الأخير، مطايا المال، وعبيد الشهوات.

ولقد تأمّلت في تلك الساعة محدّثتي العجوز التي تمادى بها العمر وما برحت يدها على سبحة الصلاة رفيقتها في ربيع الحياة وشتائها، وقرنت بين يومها ذاك وأمسها المحجّل إذ تتبوّأ صهوة فرسها الأدهم بين إخوتها الأشبال الأربعة وأبيها أسد العرين. فتبيَّنت في تلك اللبوءة المخدرة بقايا صيت عريض، وأيقنت أنه ليتعذَّر على الزمن محو عليا فرنسيس من الخواطر المولعة بالبطولة ولو بيَّض الرمس رفاتها.

أفرأيت أيها الصديق بعد هذه العجلى وجه القرابة بين بني معروف الميامين وبيتكم العريق؟ فلقد وردتم في المعالي حوضاً واحداً، ثم صدرتم عن المنهل نفسه، فتوحَّد المشرب وتعدَّدت الأسماء.

وإني لأعتبرها برهة من حياتي ماثلة أبداً تلك الأيام التي سلختها في حاصبيا إذ كنت قاضياً. ويا طالما ذكرت ـ وأنا مسمَّر على السرير ـ طيب أصباحها، إذ يباركني نسيم حرمون من صوب (عين قنيه)، وحلاوة عشاياها ونور القمر يفرش دربي إلى قنن (شويا) إذا الطلّ يتنزَّل على شعاف الجبال الشرقية، فيبلّ أجنحة حجلانها. وكأيّن من سحر أزعجت فيه الطيور عن مجاثمها. وأنا في نفر من شباب الدروز، أعلام الفتوّة والنخوة، وألوية الشجاعة التي عليها فطروا، فهي قوامهم والجوهر الذي به يعيشون. وإنما البسالة تجري في أفئدتهم مجرى المهج. فلو حاولوا النوم على الخسف والهوان لنَبَت بهم المضاجع ونبذتهم جلودهم، فازورَّت عنهم الحلائل، وأعرض الأبناء. ألا ترى أن الأسد لو شاء تقليد الظبي في نزيبه، لتمرَّدت عليه لهاته، لأنها على الزئير بريت، وفي الأجم اخشوشنت، فما هي ربيبة الكناس وما ينبغي لها.

وها أنذا أمحو من رصيد حسابي في سجل الزمن سحابة ربع قرن ليخفق في صدري ذكر اليوم الذي توقَّلت فيه الربى إلى (البيّاضة) منسك الموحدين، وقدس أقداسهم، وإني لأتصورني محاطاً بصفوة من الأجلّة الأجاويد الألى يصحّ فيهم قول الذكر الحكيم: «الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار» وقوله «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً».

يومئذ شهدت وداعة الأكابر فما تُسْمَعُ الأصوات إلا همساً، وما ينطلق الكلم الرصين إلا بمقدار، وقد اقترن بتلك البشاشة الطافحة بين العمائم واللحى، فما أكرمها ضيافة، وما أهيبه مجلساً.

وأحسب أنك وفّقت كثيراً في (اختيار) عنوان كتابك: «بنو معروف في ساحات المجد» إذ لو لم يقم بينهم سوى الأمير فخر الدين المعني لكفى به المجد ملاذاً، ولساحاته لواءً، وكأن الذي سمّاه رُفع له المستقبل، وسقط حجاب الغيب، فجاء اسمه أصدق صفة لموصوف. ألا وإن أبا عليّ فرّج آفاق لبنان، فأمست المروج بين الشهباء وعريش مصر ملاعب حصانه، وبساتين التوت والزيتون وغابات الصنوبر آي عمرانه، وغدت النجود قواعد أبراجه. ولقد أظلّ جناحه المديد كل صنديد سلّ حساماً على اسم الوطن، وهزّ قناة على أجنبي، فذاب في معمعان بطولته ضباب الطائفية، وتآخت البيارق في عنجر وصوفر وطرابلس وعكار، فريعت الآستانة لاتحاد البواتر وائتلاف الأسنّة، وكان ما كان من الغدر والإيقاع بالأسد الرهيص، أوَلَست أنا القائل فيه:

يا مطلق الخيل وأرسانها	أطلقت شعر الشاعر الألمعي
لبنان من كفيك روض الندى	وواحة الركبان في البلقع
تغصّ بالريحان آفاقه	من موضع فيه إلى موضع
واستكبر الأرز فأغصانه	تشامخت للفلك الأرفع
فعجّ سلطان الربى زاهياً	وماس في أذياله اللمّع

ولقد استمر فخر الدين حياً متعدداً بالمناجيد من بني معروف، فكأن الخلود يضنّ على الفناء بالمروءات العلى، فيسلّم الراية إلى آحادٍ يتداولونها فيبلغون بها الشأو الأمدي والغاية التي لا غاية فوقها.

ألا وإن أصحابك وأصحابي ليتوّجون مآثرهم بما يعرفه كل آدمي في حميّتهم للذّود عن أعراضهم وأعراض خصومهم على السواء: فما أعفّهم في الوقائع حين تطيش الحلوم، وتنفلت الغرائز، ويثبتون هم في الزعازع، فما يهتكون ستراً، وما

يدنّسون حريماً. هذا بعض ما أيقظه في نفسي كتابك يا صـديقي، حفظك الله للخلق الطيب، وللجهر بالحق، وحفظ الموحدين لعزة التأريخ ورفعة لبنان الحبيب.

بيروت في ١٦ نيسان سنة ١٩٥٩.
بولس سلامة

(*) طبعت هذه الرسالة على نفقة صديق الدروز النائب الأميركي حليم شبلي الفغالي.

شهادة الشيخ بشارة الخوري(*)

* * *

«لا يعتلي خطيب منبراً ولا يتلو سياسي لائحة ولا يلقي مرشد نصيحة إلا ويذكر الطوائف، كأنما هذا الوطن بؤرة نزعات الأديان... أو كأنما سورية لا تريد أن تعترف بغير هذه الفرق لها سمة الدين وصبغة الدين.

قرأنا الجرائد ونقرأها فإذا هي لا تذكر من طوائف هذا الوطن سوى المسلمين والنصارى واليهود... ثم تتوسع في التفصيل فتعدد الطوائف الإسلامية ولو كان لليهود بطون وأفخاذ لعدّدتها فرداً فرداً. تفصّل ذلك وهي لا تشاء أن تتذكر أن في سورية طائفة لها مقامها ولها نفوذها، لها آدابها ولها قوميتها، لها أخلاقها ولها وطنيتها... ألا وهي الطائفة الدرزية الكريمة.

إن الطائفة الدرزية التي اشتهرت بالإباء والمروءة والبسالة والعفة يجب أن يكون لها المقام الذي تستحقه فضائلها، إن الطائفة التي سبقت أشد الأمم تمدناً ففرض دينها العلم على أبنائها ذكوراً وإناثاً وأمر بإبطال الاسترقاق وتساوي المرأة والرجل في الحقوق يجب أن يكون لها مقاماً في الطوائف السورية، لا سيما لا تعرف سوى سورية وطناً ولا تعبد غيره وطناً.

«إن المسلمين والنصارى واليهود هم أقل حباً لوطنهم من الدروز؛ إنهم وزعوا حبهم بين مكة والمدينة والقدس وسائر الأمكنة المقدسة، ثم وزعوه على الدول والبلدان الإسلامية والمسيحية الأجنبية عن سورية بخلاف الدروز الذين حصروا حبهم بلبنان وسورية.

عشقوا الحرية ولم يبيتوا على ضيم...».

* * *

(*) راجع: فؤاد الأطرش «الدروز: مؤامرات، تاريخ وحقائق». بيروت ١٩٧٤. ص ١٤ ـ ١٥.

شهادة الكابيتان الفرنسي «بورون»(*)

* * *

. . . ولأتقياء الدروز في ممارسة الصدق عزائم صادقة وأحاديث طريفة، فلا ينقض (الجويّد) قوله ولا ينكث عهده ولا يحنث بيمينه ولو تعرض للهلاك. . .

أما القسوة المعزوّة إليهم فهي من أطباع البداوة؛ غير أنها مقرونة بأرق عواطف الإنسانية وأقصى غايات الشرف، وهو عدم التعرض لنساء العدو، لا بل المحافظة على كرامتهن وأعراضهن في السلم والحرب.

فحسبنا أن نجاهر بالحقيقة والحقيقة هي رائدنا فنقول: إن الدرزي بشجاعته أو ببراعته في ساحة الحرب يوازي أحسن جندي أوروبي. ولسنا نعمد إلى الثناء على فروسية الدروز لنبين فضلنا في الانتصار عليهم، بل إننا مرغمون على إعطائهم حقهم من المدح والإطناب لنكون من المنصفين. وبقطع النظر عن الشجاعة والفروسية فإن معدات الدروز وهجماتهم المتتابعة واستبسالهم في الدفاع وثباتهم في وجه عيارات البنادق وقنابل المدافع وقذائف الطيارات تجعل منهم خصماً عنيداً جباراً ومقاوماً لا تلين قناته.

وإذا دعي غريب لوليمة أقامها له أحدهم، فترى جميع أفراد العائلة يجلّون الضيف ويبتسمون له كما لو كان أعزّ أقربائهم.

* * *

(*) بورون «الدروز». . .

كلمة جورج فرنسيس(*)

إلى سلطان باشا الأطرش
يوم زحف دروز لبنان إلى الجبل الأشم

* * *

على أثر عودة صاحب العطوفة سلطان باشا الأطرش من شرقي الأردن، زحف دروز لبنان لتهنئة هذا المجاهد الأكبر. وبهذه المناسبة السعيدة وجّه جورج سعيد فرنسيس إلى سلطان باشا الأطرش هذه الكلمة الدالة على عاطفة فياضة:

«وإذا مشت بيض العمائم للوغى   حُمّ القضاء فكل شيخ بيرق»

لمعالي زعيم زعماء المجاهدين الأبرار، الزعيم سلطان باشا الأطرش، قائد الثورات الوطنية وحامي حمى الجبل الأشم.

لا غرابة، ولا عجب، أيها الزعيم إذا ما سار الخلف على غرار وتراث السلف. إن الجبل الأشم، كان ولم يزل، عريناً للأشبال، ذاك العرين الرابض بين أحضانه وربوعه، بنو معروف الأشاوس. بنو معروف جبابرة التاريخ، ومفاخر التاريخ، وأبطال التاريخ. بنو معروف أباة الضيم، أولئك المجاهدون الأبرار، الذين جبلت بدمائهم الزكية مراراً، وتكراراً، تربة الوطن المفدّى.

لقد ثار أسلاف عطوفتكم أيها القائد المفدّى، من أجل الحرية والسيادة والإستقلال، أجل لقد ثاروا على الطغيان، لأن النفس الأبية الشريفة تأبى المذلة والهوان، فحملوا بيارقهم الخفاقة عالياً تموج من حولها الأبطال، وفاء لعهد قطعوه، وبراً بمبدإ اعتنقوه، وضناً بشرف أعزوه.

لقد ثار بنو معروف على الغازي الكبير، والقائد الخطير، إبراهيم باشا المصري، ذاك الغازي، الذي دوّخ وقهر جيوش السلطان، غير أن الجبابرة الأشبال، قهروه بغير معركة ومعركة، خلدها التاريخ، عبرة للتاريخ، ولأبطال التاريخ.

وإبّان العهد العثماني، أجل إبان ذاك العهد، فاسألوا أسلافكم الراقدين في أضرحة فرشت من أغصان الخالدين، ومن زنابق الحقول ورياحينها، أولئك الأبطال الذين لا تزال ذكراهم خالدة في القلوب ومحفورة برؤوس الأسنة، على صخور اللجاه الصلبة، على تلك الصخور السرمدية، والشاهدة التاريخية لمواقع الأبطال، ولتلك الأيام الغابرة والمحجّلة.

إسألوا البطل الخالد خلود الأجيال، المغفور له عبد الغفار باشا، الحيّ بكل ضمير حيّ، كم وكم من مرة شتّت بفتيان الجبل شمل الفيالق والطوابير التركية، أجل أيها الزعيم، جيوش سلطان البرّين، وخاقان البحرين.

إن قادة فرنسا العظام، وأمراء جيش الشرق، أولئك الذين نازلوا سلطان الجبل، وجيوش سلطان، بيوم المزرعة والكفر، إن هؤلاء القادة قد تغنوا وأشادوا في بلاغاتهم الحربية بشجاعة بني معروف وبطولتهم، فلا غرو، لأن الشجاعة يقدسها ويحترمها ويفاخر بها الأبطال.

بالأمس القريب، وبالظرف العصيب، شاءت الأقدار ولا مفرّ ولا مهرب من المقدر المحتوم. أجل، شاءت الأقدار أن تمتحن مجدداً همم وعزائم أهل الوفاء والجهاد، وتضحية أشبال الجبل. فلم يبخلوا بالدماء، لا بل جادوا بها وبالمهج أيضاً وأيضاً بكرم دونه الكرم الحاتمي، وما ذلك إلا في سبيل سؤدد الوطن وعزته وكرامته.

إن القائد الأكبر، على الرغم من وطأة السنين والأعوام، ومن أهوال الجهاد، وعلى الرغم من الجيوش الجرارة التي تألبت على حصن حامي الحمى، ومعقل الشهامة والوفاء (القريّة) للنيل من كرامة سلطان.

أجل، إن هذه الجيوش قد عرفت،وتحققت أن سلطان لا يزال سلطاناً، والأشبال الغرّ الميامين أشبالاً.

بهذا اليوم التاريخي، الذي نقشت ذكراه على جبهة الخلود وعلى مفرق الدهور، بهذا اليوم تزحف أشبال لبنان، أشبال أرز الخلود، أرز الرب، لزيارة الجبل الأشم، جبل بني معروف وحصن المجاهدين الأشاوس، موطن الآباء والشمم وعزة النفس، بهذا اليوم تزحف الأشبال معقودة اللواء لزعماء بني معروف وقادتهم ومفكريهم من

رجال الدين والدنيا. لقد زحف لبنان هذا الزحف الجبار، من مواطىء مضرب أمواجه حتى قمم جباله وثلوجه، مستعيضاً بزحفه هذا عن متون العتاق الصافنات بمتون من الحب والوفاء والإعجاب. حاملة الفتيان والعذارى أغصان غار لبنان، لتضفر على مفارق الأبطال ولتجعل أكاليل لشهداء سالت دماؤهم الزكية في سبيل سؤدد الوطن وكرامته، ولسان حالهم يردد معنا الآن، من أعماق القبور، ما قاله الشاعر:

«يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول»

عاش سلطان، وعاش بنو معروف.

* * *

شهادة الأميرة الإيطالية «بلجيو جوزو» (**)

قالت الأميرة الإيطالية «بلجيو جوزو» التي جابت جبل الدروز مراراً خلال ثلاث سنوات:

«كنا ثلاث نساء غربيّات، فلم تسمع إحدانا في خلال السنين التي قضيناها كلمة، أو رأت حركة، أو شعرت بريبة تحمرّ منها وجوهنا».

* * *

(*) راجع: سعيد فرنسيس «بنو معروف في ساحات المجد». ص ٤٤ ـ ٤٧.

(**) راجع: بورون «الدروز». ترجمة عادل تقي الدين.

شهادة الرئيس كميل شمعون(*)
أثناء الاحتفال بتدشين دار الطائفة الدرزية في بيروت

«للطائفة الدرزية في قلبي مكانة توطدها مودة عالية واحترام متبادل العواطف تفعمني اغتباطاً بحضور هذا الاحتفال؛ وما نشأ الدروز إلا على غرّ من السجايا، فهم في أيام الفاطميين والعباسيين مثلهم في يوم نزلوا وادي التيم وامتدوا إلى قمم الشوف والعرقوب والجرد والمتن، ومثلهم في صفد وحوران واللجاه، سادة وأباة ضيم «كينبوع الصفا خشنوا ورقّوا» عزة في همم واتضاح في شمم ووفاء للجار وذمة للأخوة وشجاعة دونها الدرع والمجنّ، وصفحات مشرقة ترتقي إلى القرن الخامس للهجرة يوم تأصلوا عروقاً في لبنان فكانوا له من أبرّ الأبناء وكان لهم من أعزّ الأوطان.

فبنو معروف قطعة من صميم الجبل عمرت صدورهم إيماناً بمحبته، وتعلقاً بأرزته، يؤمنون بكيانه ومصيره كأيمانهم بالخالق الحيّ، ويحرصون على حريته وكرامته كحرصهم على أقدس مفاخر النفوس. وقد درجوا في بيوتاتهم الكبيرة وبيئاتهم العامة والخاصة على مبدأ الوفاء له والذود عنه والاستماتة لأجله، وهي حقيقة يطيب لي أن أشيد بها في هذا الجو العابق بروح الوطنية الحقة والإلفة الشاملة».

* * *

شهادة المؤرخ والمجاهد حنا أبي راشد(**)

إذا جئت تعدّد فضائل الدروز، فهي تنحصر في ثلاثة أمور:

أولاً: الدرزي يحافظ على عرضه كمحافظته على دمه.

ثانياً: يحافظ على استقلاله كما يحافظ على ضيفه.

ثالثاً: الدرزي سلام وحرب في آن واحد. فالسلام يعطوه لمن يرغب في السلام، والحرب يندفعون إليه ولو ماتوا جميعاً...

* * *

(*) نشرت هذه الكلمة في عدد من الصحف والمجلات اللبنانية. كما أثبتها الدكتور سليم حسن هشي في كتابه «الإسماعيليون عبر التاريخ» بيروت ١٩٦٩. ص ١٢٩.

(**) ميخائيل مشاقة «منتخبات في الجواب على اقتراح الأحباب». ص ١٢٩.

شهادة الشاعر الفرنسي «لامارتين»(*)

إن كرم الضيافة عندهم (الدروز) أمر مقدس، فلا وعد ولا وعيد يحمل الدرزي على تسليم ضيف لاذ به ولو طلبه أميره. وحدث في زمن معركة «نافارين» أن الأوروبيين الذين كانوا مقيمين في مدن سوريا وخافوا انتقام الأتراك لجؤوا إلى جبل الدروز ومكثوا عندهم عدة أشهر آمنين مطمئنين كل الطمأنينة. وشعارهم الأدبي أن كل الناس إخوة، وهذا ما يقوله الإنجيل لنا، غير أن القوم يحفظونه أكثر منا.

* * *

شهادة الجنرال شارل ديغول(**) رئيس الجمهورية الفرنسية

خلال زيارة كان يقوم بها الرئيس الفرنسي الجنرال شارل ديغول للبرازيل، أثناء محاكمة نواف غزالة، الذي اغتال العقيد أديب الشيشكلي هناك، سئل ديغول عن رأيه بالعشيرة المعروفية، فكان جوابه بمثابة شهادة دامغة، خفّفت كثيراً من مدة الحكم على نواف غزالة. قال الجنرال ديغول إن «العشيرة المعروفية من أشرف العرب وأكرمهم. بيوتها ومضافاتها فنادق مجانية ومقاهي مجانية. إنها تحب الحق وتموت في سبيله. لا تتعدّى على أحد، ولا تنام على ضيم. تحمي الضيف والدخيل بالدم وتبذل الغالي والرخيص فداء كرامته، وحمايته واجب مقدس عندها. عاداتها وتقاليدها من أشرف العادات... حاربناها لكنها هزمتنا. ولم يذلّ الجيش الفرنسي إلاّ أمام العشيرة المعروفية فقط، رغم كل الانتصارات التي حققها في أكبر المعارك المصيرية».

* * *

(*) راجع: سعيد فرنسيس «بنو معروف في ساحات المجد». ص ١٠١.

(**) من مقابلة مع نواف غزالة أجراها المؤلف معه نهار الاثنين الواقع فيه ١٧ أيلول ١٩٨٤ في مدينة السويداء، عاصمة جبل العرب، في منزل ابن عمه أبو بسام علي نايف غزالة (راجع: كتابنا: أسرار من التاريخ ـ الدبلوماسية السوداء». دار الكاتب. بيروت. الطبعة الأولى. ت٢ ١٩٨٥ ص ٢٢٩).

شهادة الجنرال ويغان (الفرنسي)(*)
(إلى الكابيتان «بورون» مؤلف تاريخ الدروز)

* * *

يمكننا القول أن الدروز عنصر حربي لا غنى عنه لنجاح كل ثورة. فيجب إذاً لإدارتهم واجتذابهم أن تنظر إليهم فرنسا بعين الحقيقة غير مغترة بالتباينات المدهشة التي تبدو في كل مكان بسوريا سواء في الطبيعة أو في الناس...

وحق لك أن تصرّ على مشروعك هذا، وبعد أن تستعرض الحضارات الغابرة على هذا الأديم السوري قبل أن يطأه الدروز؛ تصل إلى تاريخ هذا الشعب الدرزي المضطرب المضرّج بالدماء، وإلى درس أخلاقه وعاداته وطبائعه، فيظهر لنا جلياً تحلّيه بفضائل ومحاسن تغبطه عليه أرقى الأمم. ثم تشيد بطهارة حياتهم العائلية، وبشاشتهم في الإحتفاء والضيافة، واستقامتهم في الأعمال، وتعجب كجندي بشجاعتهم التي لا تقمع وبجسارتهم في المعارك...

* * *

(*) راجع: بورون «الدروز». ترجمة عادل تقي الدين. ص ٨ - ٩.

شهادة الأستاذ سعيد فرنسيس(*)

* * *

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

إن الشرف والإباء، والشمم، وعزة النفس، هذه الصفات التي يزدان بها المرء، أجل هذه الصفات تقضي على كل امرىء شاء الحفاظ عليها، والدفاع عنها، امتشاق الحسام، والتضحيات الجسام.

إن الطائفة الدرزية الشقيقة، التي كانت ولا تزال تستميت في سبيل كرامتها، وتقاليدها الشريفة الموروثة، لم تحمل بيارقها الخفاقة يوماً، ولم تسل دماء أبطالها إلا بوجه كل باغٍ جرّب الحظّ من كرامتها، والنيل من شممها، وإبائها، أو خرق حرمة أوطانها، واستقلالها.

إن كتابنا هذا، الحامل بكل جدارة واستحقاق شعاره، وعنوانه الرائع (بنو معروف في ساحات المجد)، إن هذا الكتاب يتضمن بين دفتيه أمجاداً تاريخية وطنية، وتضحيات جساماً، كنا قد نشرنا بعضها على صفحات جريدة العمل الغراء، لسان حال الكتائب اللبنانية التي كرست حقولها لهذا الواجب الوطني المقدس، وذلك إثر ثورة الجبل الدرزي على حكومة الشيشكلي. إذ أن بعض من يجهلون التاريخ ويجهلون الحقائق، ويجهلون جهاد وتضحيات جبابرة الشرف، بني معروف، يفسرون هذا الجهاد النبيل الأخير وما سبقه من تضحيات وثورات على ممرّ العصور، بما لا يتفق ولا بوجه من الوجوه مع الواقع.

فهذا ما حملني على نشر ما نشرت عن أمجاد أبطال الاستقلال التقليديين، وعن حروبهم الدوليّة، في سبيل العزة والكرامة، وحب الأوطان. وعسى أن تبقى هذه الصفحة المكتوبة بدماء شهداء بني معروف الأشاوس، ومحفورة برؤوس الحراب على صخور حرمون وصنين واللجاه، ستبقى صفحة مشرقة بتاريخنا الوطني، وأمثولة خالدة للجهاد النبيل تذكرها الأجيال المقبلة بالفخر والإعجاب.

* * *

(*) راجع مقدمة كتابه «بنو معروف في ساحات المجد»، ص ٣ ـ ٥

شهادة يوسف سلامة(*)

بعنوان:
لماذا نحترم الدروز؟

* * *

في الأمثال المأثورة: من لا يحترم نفسه لا يحترمه غيره ـ والشاعر يقول:

«ومن لم يكرّم نفسه لم يكرّم»

الطائفة الدرزية هي تلك العصبة الأنوفة الأبيّة التي تحترم ذاتها وتكرِّم نفسها، وتعتمد على شخصيتها وتثق بها.

فبنو معروف تتوفَّر فيهم صفات وأخلاق وطباع وعوائد ثابتة راسخة لا تتوفَّر في سواهم من الطوائف، وذلك بفضل التربيتين: الدينية والاجتماعية. فالتربية الدينية ترسخ في نفوسهم ست صفات طيّبات هي عنوان سمو الأخلاق وكرم المحتد:

١ ـ منع المسكرات: ولا يختلف اثنان فيما لهذه السموم من عاهات وويلات تجرّها على العقول السليمة، فتبدل الشيء الكثير من صفات الرجل النفسية وأعضائه الجسميّة، ولذلك فالدروز يمتنعون عن تناولها، فهم في أصحّ ما يكون من تركيب الطبيعة.

٢ ـ منع القمار: الداء الفظيع والمرض القتَّال للإرادة ولعزة النفس وللمال وللوقت؛ والدروز يمنعونه ولا يتعاطونه.

٣ ـ منع التدخين: فبذلك تسلم الرئتان والقلب والدماغ وتحفظ الذاكرة، والدروز لا يدخنون.

٤ ـ المحافظة على العرض: ولا يخفى ما في هذه النظرية من إباء وشمم، وعزّة نفس وسمو أخلاق، وتحفّظ أدبي يرفع بصاحبه إلى أسمى درجات المنعة والإعتزاز. والدروز متحفِّظون مصونون.

٥ ـ الضرب بالخرافات عرض الحائط والاعتماد على العقل وعلى المنطق الصحيح. وهذه نظرية فلسفية لإخوان الصفاء يتمشّى عليها بنو معروف ويسيرون بموجبها.

٦ ـ العقيدة بالقدر المحتوم الذي يولد في نفوس الدروز تلك الشجاعة الهائلة وذلك الإقدام الجريء دونما تخوف أو جبن؛ فهم أباة الضيم حماة الحمى ـ كلما دقّ الزناد وصاح ـ .

أما التربية الاجتماعية فمبنية على أسس التربية الدينية، وأهمها اربع صفات عاليات:

١ ـ حبّ الضيف وإكرامه والترحيب به، وهذه صفة إنسانية شريفة.
٢ ـ الكرم والندى. وذلك دليل كرم المحتد العربي وتجليه.
٣ ـ مداراة الجار ومراعاة المستجير. وما أطيبها من خلّة عزيزة ثمينة.
٤ ـ الابتعاد عن البهرجة والخلاعة وحب الظهور الفارغ، وذلك دليل الرصانة والرزانة.

ولذلك فبنو معروف أباة أشاوس أبطال، أعزاء النفوس، أوفياء عاقلون، محبوبون ومحترمون. ولذلك نحترم الدروز ونقول للطوائف الأخرى مع الشاعر العربي:

«وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبّه بالكرام فلاح».

عن بيروت في ٦ شباط ١٩٣٤

* * *

(*) مجلة «الميثاق»، الجزء الثالث، آذار ١٩٧٤، ص ١١٨ ـ ١١٩.

الدروز أو بنو معروف بأجمعهم عرب صراح
بقلم أمير البيان المغفور له الأمير شكيب أرسلان(*)

* * *

ورد في مقالة مترجمة عن الألمانية كلام عن الدروز يزعم الكاتب فيه أن الدروز كسائر أهل سوريا من أجناس مختلفة، وهذا الكلام خبص في خبص كسائر تخليط الإفرنج إذا شرعوا في الكلام عن الشرقيين.

فالدروز في النسب عرب أقحاح لا يوجد في العرب الحاليين من جزيرة العرب أصلح عروبية منهم، ونستدلّ على ذلك بما يأتي:

أولاً: من سحنتهم العربية الصرفة وتشابه بعضهم لبعض إذ لا يوجد قبيل يشبه بعضه بعضاً مثل الدروز، وكان أستاذنا الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يفضي إليّ بعجبه من شدة هذا التشابه فيقول لي: إذا رأيت الرجل المعروفي فكأنك رأيتهم جميعاً.

ثانياً: من نقاوة لغتهم العربية وإخراجهم الحروف من مخارجها الصحيحة فلا تجد في الخارج عن جزيرة العرب من يتكلّم بالعربية مثل الدروز ولا من يتلفّظ بالعربية مثل الدروز. وإن المرأة منهم لتسوق الحديث بعبارة إن لم تكن معربة فهي فصيحة صريحة متينة مستعملة فيها الكلمات بالمعاني التي وضعت لها فتجدها أصح لغة من الرجل العالم النحوي من غيرهم، والفصاحة التي اشتهر بها الدروز رجالاً ونساء آتية من كونهم عرباً.

ثالثاً: التواريخ التي عند الدروز والتي عند الطوائف الأخرى المساكنة لهم في جبل لبنان متفقة على كونهم أبناء اثنتي عشرة قبيلة عربية هاجروا من ديار حلب إلى لبنان في أوائل عهد العباسيين، ولا تزال بقية منهم في الجبل الأعلى بجهات حلب. وهذه القبائل كانت في بلاد معرة النعمان منذ أوائل الفتح العربي، ثم إن التواتر فيما بينهم المأثور من الخلف عن السلف يؤيد هذه التواريخ المكتوبة.

رابعاً: إنهم كانوا من الشيعة السبعية أي القائلين بالأئمة السبعة، وهم فرقة من الشيعة وكانت الدعوة الفاطمية فتلقّاها بعض الشيعة وكان منهم الاسماعيليون، وكان منهم الدروز. وانقسمت بعض العائلات إلى قسمين منهم من بقي على التشيّع الأصلي ومنهم من غلا غلوّ الفاطميين. ولكن هذه العائلات التي أصلها واحد معروف كثير منها إلى هذا اليوم، وهم يعرفون أنهم أقارب وهؤلاء دروز وأولئك متاولة أي شيعة، وذلك مثل بني أبي علوان وبني عبد الصمد وبني المصري وبني القنطار وغيرهم. وكذلك موجودة قرابات عصبية بين كثير من الدروز والمسلمين والسنّيين وإن كانت هذه القرابات أكثر منها بين الشيعيين والدروز، وذلك مثل بني أبي شقرا وبني الأعور وغيرهم. ولا يخفى أن الشيعة في سوريا عرب أقحاح أيضاً، وبلادهم جبل عاملة إنما سُمِّيت كذلك لنزولة عاملة وهي قبيلة من عرب اليمن بذلك الجبل. كذلك نجد أسماء كثيرة منسوبة إلى قبائل يمانية مثل السكسكية في ساحل عاملة بقرب صيدا وهي نسبة إلى السكاسك من عرب اليمن وغيرها مما لم يحضرني الآن بدون مراجعة كتب. وتجد بيوتات كثيرة محفوظة إلى قبائل العرب مثل إخواننا الأمراء آل الحرفوش ببعلبك المنسوبين إلى خزاعة، ومثل إخواننا البكوات آل الصغير المنسوبين إلى وائل وغيرهم مما لا يحصى. فإذا تقرّر أن الشيعة عرب فالذين أصلهم من الشيعة عرب؛ أما الذين أصلهم من السنّة فلا بد أن يكونوا من أهل السنّة العرب أيضاً، بدليل السحنة، إذ أن السحنة العربية لا تخفى. ثم بدليل أنهم منذ تسعمائة سنة، أي منذ وقع هذا الانشقاق من الشجرة الواحدة لا يزال بعضهم يعرف بعضاً ولا يوجد حفظ الأنساب إلى هذا الحد مع تعاقب القرون الجديدة إلا عند العرب. فلو كان أولئك المسلمون الذين تشعّب من دوحة نسبهم كثير من بني معروف هم من الآراميين أو الكلدانيين أو من الذين أسلموا من اليونان أو الرومان أو من الترك أو الكرد، ما كان نسبهم محفوظاً.

خامساً: في الدروز أنفسهم بطون وأفخاذ معروفة الأنساب إلى قبائل العرب، هذا إلى لخم، وذاك إلى طي، وأناس إلى تميم، وأناس إلى كلب. ومنهم من درست سلالتهم بأقاربهم من القبائل، ومنهم من لا تزال معروفة مثل بني عزام الذين هم

أقـارب في الشرارات، ومثـل بني قعيق وبني ركـين وبني خميس الـذين لهم أقـارب في العراق. نعم يوجد في الدروز بعض عائلات وجيهة أصلهم من الأكراد والأتـراك هم معـروفون وعـددهم قليل جـداً، وهـذا لا يخـرج هـذه الـطائفـة عن صراحـة النسب العربي، لأن العبرة بالسواد الأعظم كما لا يخفى.

* * *

(*) نشرت هذه المقالة. لأهميتها، في عدد من الصحف والدوريات. وقد أثبتهـا سعيد فـرنسيس أيضاً في كتـابه «بنو معروف في ساحات المجد»، ص ١٢٧ ـ ١٣٠.

من قصيدة أمير الشعراء، أحمد شوقي(*)

سلام من صبا بردى أَرَقُّ ... ودمعٌ لا يُكفكفُ يا دمشقُ
دمُ الثوّار تعرفه فرنسا ... وتعلمُ أنه نورٌ وحقُّ
وما كان الدروز قبيل شرٍّ ... وإن أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيفٍ ... كينبوع الصفا خشنوا ورقّوا
لهم جبلٌ أشمُّ له شِعافٌ ... مواردُ في السَّحاب الجون بُلْق
لكلٍّ لبوءةٍ ولكلِّ شبلٍ ... نضالٌ دون غايته ورَشقُ
كأن من السَمَوْأل فيه شيئاً ... فكلُّ جهاته شَرفٌ وخلقُ

* * *

من قصيدة الشيخ سليمان ظاهر(**)

العرف ما ينفكّ فيهم عرفه ... تستاف حقب نشره وقرونُ
خضر مرابعهم وفي جنباتها ... الخيلُ العتاقُ السابقاتُ صفونُ
نصروا العروبة في المواطن كلها ... وهُمُ لها في النائبات حصونُ
لم يخلفوا عهداً ولا إلا لها ... بمواقف فيها الأمين يخونُ
أقلامهم مشحوذة كسيوفهم ... لم يَنْجُ منهم هارب وحصين

* * *

(*) ديوان أحمد شوقي (أمير الشعراء)، دراسة ونصوص فوزي عطوي. دار صعب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، ص ٣٢١ - ٣٢٧.

(**) أمين طليع، «أصل الموحّدين الدروز»، منشورات عويدات، بيروت - باريس، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص ١٩٢.

من قصيدة مسعود سماحة(*)

* * *

قــالــوا بـنـو مـعــروف قـلـت أعـزّة — خـلـق الـزمـان وفـضـلـهـم لم يخـلـق
غــرسـوا بحــوران الحـديـد فـأينعت — ونمـت أسـنّـتـه بـغـوطـة جـلّـق
إنْ راودوا أمـراً ولـو عـرضـت لهـم — جـنّ الـفـلاة وأنـسـهـا يـتـحـقّـق
أو زوجمـوا سبقـوا الـورى بصنيعـهم — فـمـدى جميـل صـنـيـعـهـم لم يـلـحـق
فخـلالهم كـظبى السيـوف بعـزمهـا — وبـلـطـفـهـا كـالـكـوثـر المـترقـرق
كَـرَمٌ عـلى بـأسٍ عـلى شمـمٍ عـلى — عـزٍ عـلى حـزمٍ عـلى أصـلٍ نـقـي
شرفـاً بني معـروف لـو جمـع الـوفـا — أعـوانـه في الـغـرب أو في المشرق
وحـبـا قـبـيـلاً بـرده ولـواءه — لحـبـاكُـم بـردائـه والـبـيرق
فـنـزيـلكـم ربّ المضـيـف وجـاركـم — في ظـلّ روض بـالـصـوارم مـورق

* * *

(*) أمين طليع، «أصل الموحّدين الدروز»، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

الدُّرُوزُ

قصيدة الشّاعر الاستاذ مارون عبّود في وصف بني معروف

قَالُوا الدّرُوزُ فقلتُ: جيلٌ مُعرِقُ — «العقلُ» دينٌ، والوفاءُ «الموثقُ»
وَالصِّدقُ شِرعتهم فإنْ عاهدتهم — برّوا وإنْ نطقوا بأمرٍ يصدقوا
خُلقُ الأسودِ متى يُمسّ حِماهمُ — وَسخاءُ حاتم طيءٍ إنْ يطرقوا
نمّتْ مروءتُهم فإنْ ناديتهم — طاروا إليك عصائباً تتدفقُ
رَبضوا بباب الشرقِ خيرَ ضراغمٍ — تحمي العرينَ، فأين منه الأبلقُ؟
غنّتْ سيوفهمُ أناشيداً شجتْ — قلبَ العروبةِ واستعزّ المشرقُ
فإذا مَشتْ بيضُ العمائمِ للوغى — حُمّ القضاءُ، فكلُّ شيخٍ بيرقُ
وفناهمُ يلقى الجموعَ مجازفاً — فكأنّما تحتَ العباءةِ فيلقُ
تتلثّمُ الآفاقُ من نيرانهمْ — وسيوفهم كَكواكبٍ تتألّقُ
وتضيءُ أوجُهُهم إذا طايبتهم — وتخالهم جنّاً إذا ما أطبقوا
فإذا سُئلتَ عن الدّروزِ فقل: هُمُ — قومٌ لهم في كلّ حالٍ منطقُ
إنْ تستفزّهمُ، فقل خابَ الرّجا — العقلُ يعقدُ والسّيوفُ تُطلّقُ
قالوا الدّروزُ، فقلتُ شعبٌ مُعرقُ — العقلُ دينٌ والوفاءُ الموثقُ
يتناهمونَ البرّ في «خلواتهم» — مُتنسّكينَ، وإنْ جنفتَ استغرقوا
وإذا الكريهةُ شمّرتْ عن ساقها — كرّوا وفي أفقِ البطولةِ حلّقوا
ما قصّرتْ عن غايةٍ فرسانهمْ — فاستنطقوا تاريخهمْ تستوثقوا

يمشي الدمُ العربيُّ في أعراقِهِم ... صِرفًا صُراحًا، والدليلُ المنطقُ
لِمَ لا تُصانُ أصولُهم وفروعُهم ... والبابُ في وجهِ البريّةِ مُغلقُ ؟
فهمُ ذوو الجبلِ الطويلِ نجادُه ... حلّوا رُباهُ وفي ذُراهُ تعلّقوا
تتدهورُ الأرياحُ عن جبهاتِهِ ... وعلى ذوائبهِ الصواعقُ تزلقُ
لاذوا بهِ مُستعصِمينَ، ومُذ غدا ... حُصنًا لهمْ عزّوا بهِ وتفوّقوا
وتألّبوا عُصبًا تصونُ ذِمارَهُ ... فرعتْ سيادتَهُ قلوبٌ تخفقُ
فإذا تعرّضَ للمطامعِ أرعدوا ... وإذا تُشيرُ إليهِ كفٌّ أبرقوا
السيفُ يخطبُ عنهمُ إنْ هوجِموا ... والصدقُ في ندواتِهمْ إنْ ينطقوا
قالوا الدروزُ، فقلتُ: شعبٌ مُعرِقٌ ... العقلُ دينٌ، والوفاءُ المنطقُ
سبعٌ وعشرونَ انقضتْ في ظلّهمْ ... للهِ ظلُّهمُ المنيفُ المورِقُ
فإذا أقولُ عشيرتي، فهوَ الوفا ... يُملي عليَّ، فما هُناكَ تملّقُ
فأنا مواطِنُهمْ بفضلٍ منهمُ ... والفضلُ يعرفُهُ الدروزُ السُّبَّقُ
قدْ هوّنَ الموتَ اعتقادُهمُ فما ... أجسادُهمْ إلّا تُراثٌ يُنفَقُ
فإذا هززتَ هززتَ رُمحًا طيّعًا ... وإذا سللتَ سللتَ سيفًا يفلقُ
وإذا تمرَّ طارئٌ صاحوا بهِ: ... أبشِرْ فإنَّ «السيفَ» حيٌّ يُرزَقُ
نحنُ الأُلى هانَ المماتُ عليهمِ ... الروحُ تبقى، والقميصُ يُمزَّقُ

من قصيدة «الشاعر القروي»
رشيد سليم الخوري(*)

* * *

خففت لنجدة العاني سريعاً ... غضوباً لو رآك الليث ريعا
وحولك من بني معروف جَمْعٌ ... بهم - وبدونهم - تفنى الجموعا
كأنك قائد منهم هضاباً ... تبعْنَ إلى الوغى جبلاً منيعا
تخِذْتَهمو لدى الجلّى سيوفاً ... لها لَعَنَ الفرنسيُّ الدروعا
وأيُّ دريئة تعصى حساماً ... تعوَّد في يمينك أن يطيعا
أَلَمْ يلبس عداكَ التنكَ درعاً ... فَسَلْهم هل وقى هُمو ضلوعا؟
كأنّ به إلى الافرنك جوعاً ... وسيفك مثل ضيفك لن يجوعا
تكفّل للثرى بالخصب لما ... هفا برقاً فأمطرهم نجيعا
فخرّ الجندُ فوق التنك صرعى ... وخرّ التنكُ تحتهمو صريعا
فيا لكِ غارةً لو لم تُذِعْها ... أعادينا لكذّبْنا المذيعا
ويا لكَ «أطرشاً» لما دعينا ... لثأْرٍ كنت أسمعنا جميعا!!

* * *

(*) ديوان القروي (رشيد سليم الخوري)، منشورات وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة ـ مطبعة الجمهورية ـ بغداد، ١٩٧٣، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

من قصيدة الياس فرحات(*)

* * *

مرحى بني معروف إنَّ لكم ... جيشاً تضيق بخيله السبلُ
جيش من المجد الذي رفعت ... أعلامه الخطية الذبلُ
للشام تاريخ بصفحتكم ... صفحاته الغرَّاء تكتملُ
هي صفحة تعتزّ ما تليت ... كلماتها وأعيدت الجملُ
بلظى الوغى الحرّى مؤطرة ... وعلى الوفا والفضل تشتمل
يا سائلي عنهم أتجهلهم ... وهم الذين على العلى جبلوا
وهم بنو معروف همّتهم ... بين الكواكب والورى مثلُ
البأس يركب كلما ركبوا ... والحزم ينزل حيثما نزلوا
والعدل يجعل شيخهم حملاً ... فإذا ظلمت استأسد الحملُ
هم ناب سوريا ومخلبها ... وهي اللبوءة والعدى حمل

* * *

(*) أمين طليع، «أصل الموحّدين الدروز»، منشورات عويدات، بيروت - باريس، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص ١٩٠ - ١٩١.

من قصيدة معروف الرصافي(*)

* * *

لله درّ بني معروف إذ صبروا ... على التجالد ما كلُّوا ولا سئموا

أخلوا منازلهم للكرِّ ثانية ... كالأسْد ترتدّ خلفاً ثم تقتحم

ولازموا القفر، عاشوا في مجاهله ... عيش القناعة لا حلوٌ ولا دسم

بذاك حبّهم الأوطان يأمرهم ... إذ هُمْ بسيماء حب الموطنِ اتسموا

باتت دمشق لهم ترنو نواظرها ... كما رنا للطبيب المدنف السَّقم

أيام لم يَبْقَ من بيت بغوطتها ... إلاَّ ذكت فيه نار أو أريق دم

ثم انضوى بعدما اجتيحت معالمها ... منها إلى جمعهم أبطالها البُهمُ

فاستقْتلوا في سبيل الذود عن وطن ... صينت له من قديمٍ عندهم ذمم

كانوا أشدّ مضاءً من صوارمهم ... فليس يثنيهمُ ثانٍ إذا هجموا

عند الهجوم كموج البحر تُبْصِرهُمْ ... وكالجبال الرواسي هم إذا التحموا

صلّت سيوف بأيديهم يسلْنَ دماً ... حتى حكين الغوادي حين تهتزم

* * *

من قصيدة حافظ ابراهيم(*)

ومن غطارفة في جلّق نجب ... ومن غطارفة في أرض حوران

عافوا المذلّة في الدنيا فعندهم ... عزّ الحياة وعزّ الموت سيّان

لا يصبرون على ضيمٍ يحاوله ... باغٍ من الإنس أو طاغٍ من الجان

* * *

(*) ديوان معروف الرصافي، الجزء الثاني، مكتبة النهضة ـ بغداد، ودار العودة ـ بيروت، ١٩٧٢، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.

(*) ديوان حافظ ابراهيم.

الملحق رقم ٢
يتضمّن عدداً من الوثائق



وثيقة رقم ١

مرسوم لويس الرابع عشر بوضع الطائفة المارونية تحت الحماية الفرنسية ٢٨ نيسان ١٦٤٩

(نقلاً عن «وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث» ١٥١٧ ـ ١٩٢٠ جمعها وعلّق عليها الدكتور عبد العزيز سليمان نوار، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٤، ص ٨٥ ـ ٨٦).

نص الوثيقة

نحن لويس بنعمة الله، ملك فرنسا ونافار
تحية إلى كل من تقدم إليه هذه:

ليكن معلوماً أننا بتوجيه من الملكة الوصية، سيدتنا وأمنا ذات الشرف الرفيع، قد أخذنا ووضعنا تحت حمايتنا ورعايتنا الخاصة ـ بمقتضى توقيعنا بيميننا ـ صاحب النيافة البطريرك وكل الاكليروس والموارنة المسيحيين من رجال دين أو علمانيين الذين يقطنون جبل لبنان خاصة واننا لنرغب في أن يدركوا هم ذلك، ولهذا الغرض أمرنا السيد لاهاي دي بنتيته ـ المستشار في مجالسنا وسفيرنا في الليفانت ـ وكل من يخلفه في منصبه أن يبدو كل اهتمام، بهؤلاء سالفي الذكر فرادى كانوا أم جماعات، بالعناية بهم والرعاية لهم والعطف عليهم وبالتوسط من أجلهم وبحمايتهم سواء أمام الباب العالي لعزيزنا السلطان صديقنا الوفي، أو أمام جهة أخرى تتطلب ذلك، حتى لا يتعرضون لأية معاملة سيئة، بل العكس سيتابعون شعائرهم ومسئولياتهم الدينية.

ومنذ الآن وفي المستقبل، نوصي قناصل ووكلاء قناصل «الأمة الفرنسية»

في موانى الليڤانت، وغيرهم ممن يرفع العلم الفرنسي أن يبدو اهتمامهم بأقصى ما لديهم من قوة نحو نيافة البطريرك المشار إليه ونحو أولئك الموارنة المسيحيين في جبل لبنان سالف الذكر، وأن يساعدوا في تسفير الشباب وكل ماروني مسيحي قد يرغب في الرحيل إلى بلد مسيحي، سواء أكان ذلك من أجل الدراسة أو لأي عمل آخر، وذلك دون أخذ أو تقاضي أية رسوم غير تلك التي يستطيعون دفعها، ومعاملتهم بآخر منتهى الرقة والكرم.

إننا نطلب ونريد من أصحاب السعادة والفخامة الباشوات ومن موظفي عظمته (أي السلطان العثماني) أن يبدو اهتمامهم وأن يساعدوا صاحب النيافة رئيس أساقفة طرابلس وكل الاكليروس والموارنة المسيحيين، متعهدين من جانبنا بأن نقوم بالمثل نحو كل من توصون به.

وثيقة رقم ٢

رسالة أبو نوفل الخازن إلى بابا روما
لتوسيطه لدى ملك فرنسا لتثبيته قنصلاً لفرنسا في صيدا ١٦٥٧

(نقلاً عن نسيب وهيبة الخازن والأب بولس مسعد الحلبي اللبناني: الأصول التاريخية، لبنان، المجلّد الأول، الجزء الثالث، ص ٢٣٢ - ٢٣٣).

نص الوثيقة

حضرة عالي الجناب الأب الأقدس

نقبّل الأرض وننحني تحت مواطىء أقدام سيدنا الحبر الأعظم خليفة مار بطرس الرسول ووكيل سيدنا يسوع المسيح ريس الرؤساء الجالس على الكرسي المعظم الروماني أدام الله تعالى عزه وناموته (صحها: ناموسه) وتدبيره على جميع النصاره المؤمنين زمان طويل آمين وبعده.

يوضع العبد بين أيديكم الشريفة الجليلة أن لما بلغنا أن الحق سبحانه وتعالى شرفكم واختاركم وأقامكم على الكرسي المعظم راعياً لشعبه المؤمنين انسرينا غاية السرور نحن وجميع طايفتنا الموارنة القاثوليقية الطايعين مواطي أقدامكم وللكرسي الرسولي الروماني ونطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم قداستكم على روس المسيحيين زمان طويل آمين وخاصة امتلت قلوب المومنين فرح وسرور في زود غيرتكم وناموتكم (الصح: وناموسكم) على بيعت (الصح بيعة وقد وردت أخطاء نحوية وإملائية كثيرة في هذه الرسالة) الله وفي سعيكم الصالح في الصلح بين السلاطين المومنين (يقصد ملوك وأمراء أوروبا المسيحيين) انشا الله تعالى بيصير هل (هذا) الصلح على أياديكم الطاهرة المقدسة ونحن نطلب من جود سيدنا يسوع المسيح أن بعد الصلح وفي أيامكم السعيدة تتقدم خطوات الفرج والخير لهذه الجوانب وإلى القدس الشريف وليس على الله شيء عسير حتا نكون نحن وكل تباعنا من أكبر المجاهدين بداللك وبعده

نـوضح إلى قـداستكم أن السنيور فـرنسيس بيكت قنصل حلب معـرض علينـا قنصلية بيروت ونطلب في مراحم قـداستكم تشرفونـا في مكتوب شريف لحضرة عالي الجناب سلطان فرنسا المسيحي عن نصره حتا يتنعم علينا في أمر شريف في تثبيته (تثبيت) القنصلية المذكورة علينـا وينعم في الإجازة بضـمان قنصليت صيدا على جاري عادتها من أصحابها بوصاطت (بوساطـة) قداستكم وهـذا وجه خـير وإصلاح ونفع إلى التجار والرهبان ورفع أيادي الظرر (الضرر) عنهم من الحكام وغيرهم وبنضر (بنظر) قداستكم لنا أيادي لرفع الظرر عنهم ونحن مترجايين من مراجعكم أن يكون حسن نضركم السعيد على عبدكم في قضى هذا الأمر كما هو مأمولنا ورجانا بجنابكم العالي الكريم ولا تخلو من نضركم الكريم حتا نـاموس الكنيسة والنصاره بهذا الجانب منقام ونحنه دايما داعيين لجنـابكم العالي في دوام البقا لأن إحسانكم على عبدكم من زمان الذي تفضلتم علينا في إطلاق منصـور اليسير (الأسير) في محروست مالطة.

الله يـديمكم على روس المـومنين زمـان طويـل آمين يـا رب العالمـين باقي الدعا.

عبوديت

أبو نوفل ابن الخازن

وثيقة رقم ٣



١٦٧

١٧

حيث كانت اراضي المقبرة المعروفة والمشهورة بوقف [illegible] الكائنة في حي المصيطبة في بيروت [illegible]
قيم يتولاها وكان ابراهيم افندي روضه وعارف افندي روضه من وجوه بيروت اهلاً للقوامة عليها
بالتحرير وتعيينهما على اراضي المقبرة المذكورة لكي يتعهدا امورها ويحفظا عينها ويصوناها من التعدي ويؤجرا ما يلزم
ايجاره من الابنية القائمة في اراضي المقبرة المذكورة ويتعاطيا جميع امورها من اخذ وعطاء وقبض وصرف
وايفاء واستيفاء وان يقدما الاستدعاءات واللوائح الى الحكومة والمحاكم والدوائر الرسمية بالخصوص
المتعلقة باراضي هذه المقبرة سواء كانت مختصة [illegible] او من اجلها وحيث ان المحامين [illegible] الدعوى
المقامة [illegible] من قبل ورثة الحاج [illegible]
المذكورين ابراهيم افندي وعارف افندي ان يحضرا جلسات المحاكم ويقدما للمحامين المذكورين ملاحظاتهما [illegible]
المذكورة رعاية لمصلحة الوقف ولهما لدى الحاجة ان يقدما الاستدعاءات والتقريرات المفيدة [illegible]
الوقف المتعلقة باراضي هذه المقبرة واوصيناهما بالعمل بتقوى الله واداء الامانة ورعاية الحظ والمصلحة
لجهة الوقف المذكور وان يقيدا الدخل والخرج بدفتر مخصوص مصدق عليه منا يقدمانه لاجراء المحاسبة [illegible]

[illegible] ١٧ كانون اول ١٩٢٥

صك توكيل السيدين ابراهيم وعارف روضه

وثيقة رقم ٤

Haut-Commissariat
de la
République Française
en Syrie et au Liban

BEYROUTH, le 12 Décembre 1933

CONTROLE DES WAKFS ET DE
L'IMMATRICULATION FONCIERE

10211

Excellence,

Vous avez bien voulu me faire part de l'inquiétude qui s'est manifestée dans votre communauté à la suite du jugement rendu dans l'affaire hoirs SAYOUR - communauté Druze par le tribunal civil mixte de Beyrouth.

Comme vous en aviez déja reçu l'assurance, je vous confirme que votre communauté ne sera pas, quelle que soit l'issue judiciaire de l'affaire, dépossédée du terrain à usage de cimetière dont elle jouit actuellement.

Veuillez agréer, Excellence, les assurances de ma haute considération ./.

Signé : D. de MARTEL

Pour ampliation

Son Excellence
Cheikh HOSSEIN HAMADE
Cheikh Akl de la Communauté Druze

صورة عن المفوضية الفرنسية بشأن الوقف الدرزي أيام المفوض السامي دي مارتيل

وثيقة رقم ٤

Haut — Commissariat
de la
Republique Rrancaise
en Syrie et au Liban

BEYROUTH, Le 12 Decembre 1933

CONTROLE DES WAKFS ET DE
L'IMMATRICULATION FONCIERE
IO211

Evcellence,

Vous avez bien voulu me faire part de l'inquietude qui s'est manifestée dans votre communauté a la suite du jugement rendu dans l'affaire hoirs SAYOUR — communauté druze par le tribunal civil mixte de Beyrouth ·

Comme vous en aviez deja Reçu l'assurance, je vous confirme que votre communauté ne sera pas, quelle que soit l'issue judiciaire de l'affaire, depossedée du terrain a usage de cimetiére dont elle jouit actuellement ·

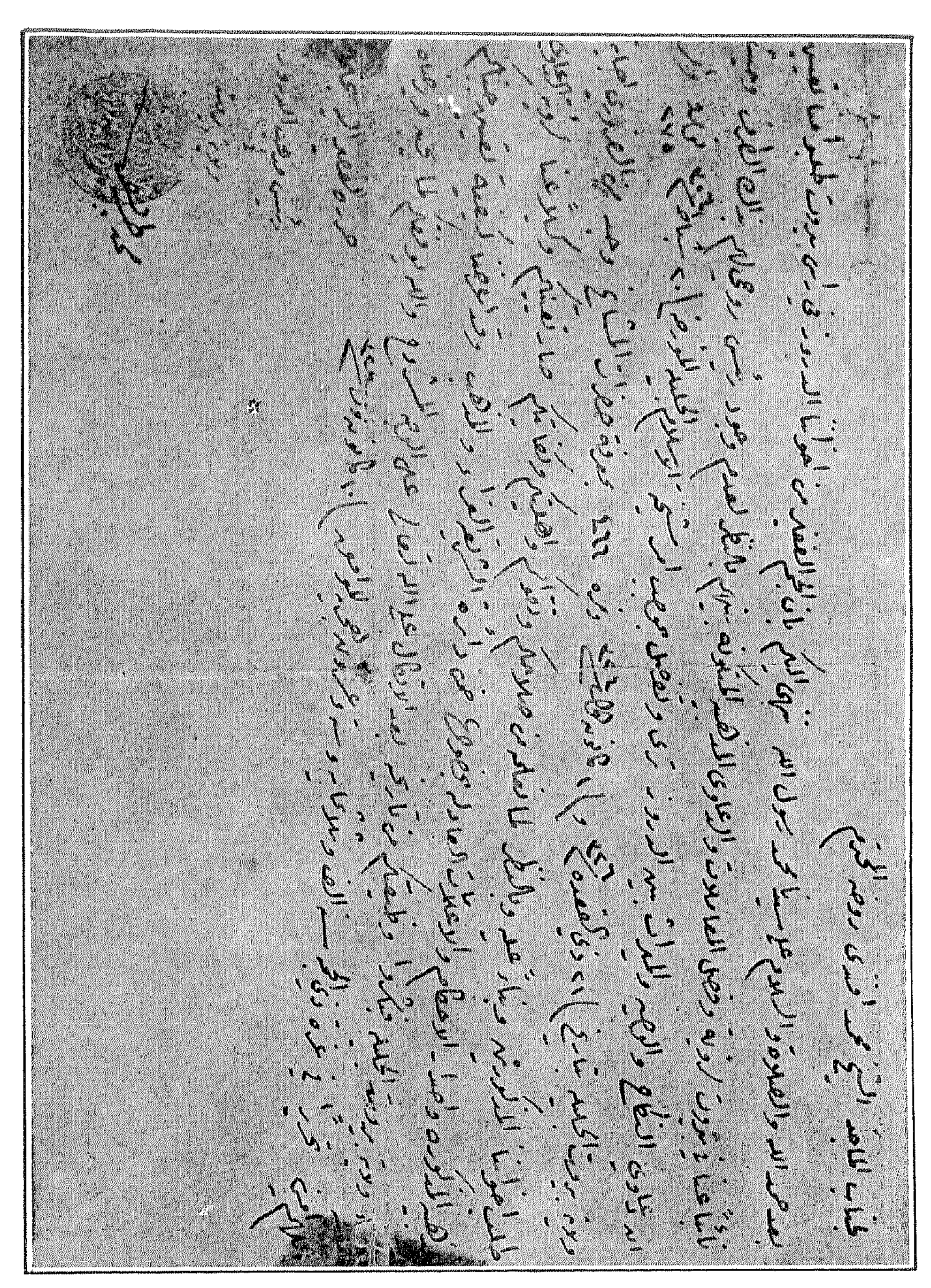
Veuillez agréer, Excellence, les assurances de ma haute consideration ·

Signe : D· de MARTEL

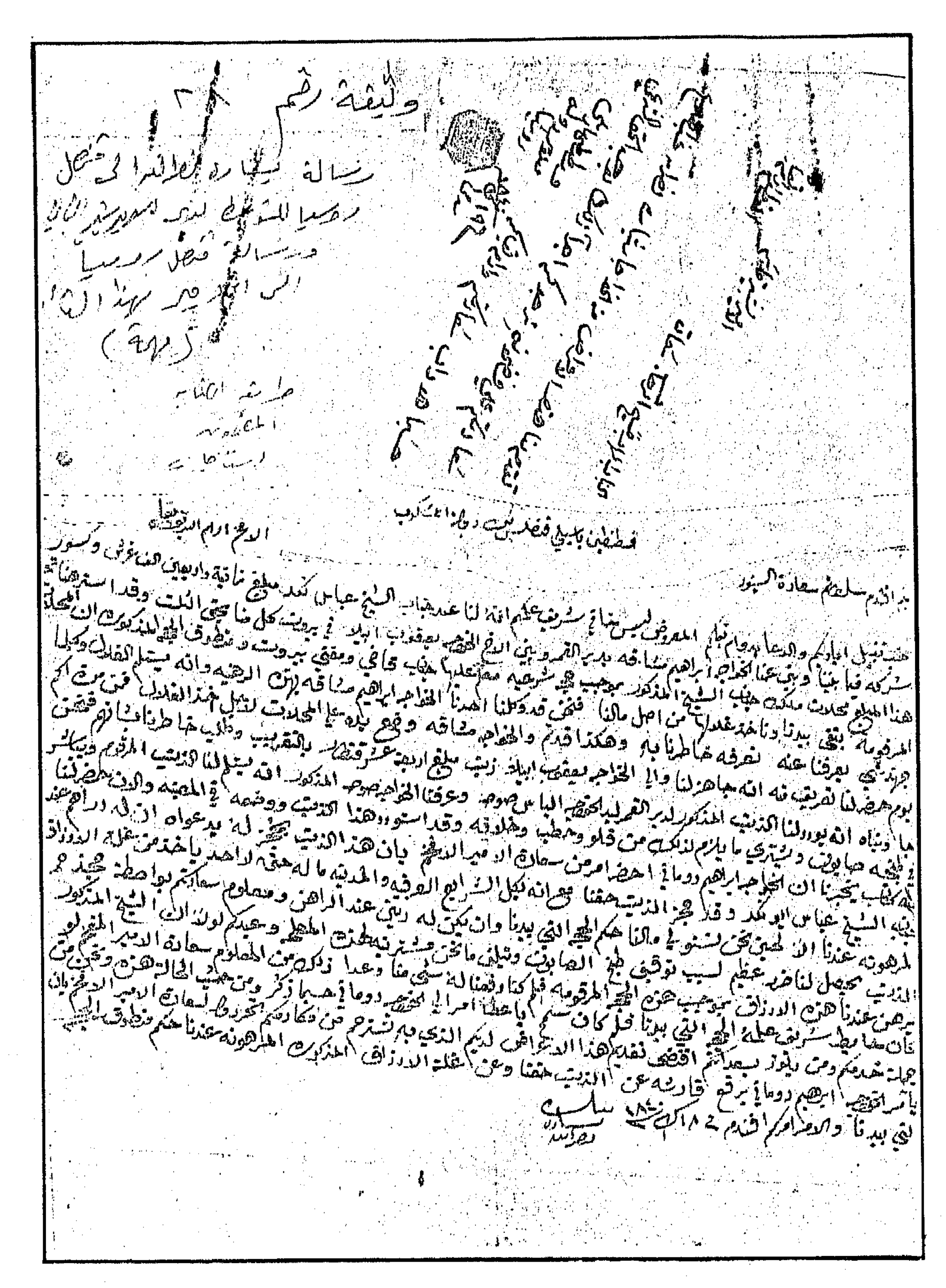
pour ampliation

Son Excellence
Cheikn Hossein Hamadé
Cheikh AKL de la Communauté Druze

صورة عن المفوضية الفرنسية أيام المفوض السامي دي مارتيل بشأن الوقف الدرزي



صك تولية الشيخ محمد علي روضه　　　**وثيقة رقم ٥**


وثيقة رقم ٣

صورة الوثيقة رقم (٦)

وثيقة رقم ٦

رسالة بشارة نصر الله
إلى قنصل روسيا باسيلي
للتوسط لدى الأمير بشير

قسطنطين باسيلي قنصل دولة المسكوب
الأفخم أدام الله بقاه

غب تقبيل أياديكم والدعا بدوام بقاكم المعروض ليس منا في شريف علمكم أنه لنا عند جناب الشيخ عباس نكد مبلغ ثمانية وأربعين ألف غرش وكسور شركة فيما بيننا وبين عمنا الخواجة ابراهيم مشاقة بدير القمر وبين الأخ الخواجة يعقوب أبيلا في بيروت كل منا بحق الثلث وقد استرهنا تحت هذا المبلغ محلات ملك جناب الشيخ المذكور بموجب حجة شرعية معلَّم عليها جناب قاضي ومفتي بيروت ومنطوق الحجة المذكورة أن المحلات المرقومة تبقى بيدنا ونأخذ غلالها من أصل مالنا فنحن قد وكلنا أحدنا الخواجة ابراهيم مشاقة بهذه الرهينة وأنه يستلم الغلال وكلما جهز شي يعرفنا عنه تعرفه خاطرنا به وهكذا قد تم والخواجة مشاقة وضع يده على المحلات لأجل أخذ الغلال فمن مرة أكم يوم حضر لنا تعريف منه أنه جاهز لنا وإلى الخواجة يعقوب أبيلا زيت مبلغ أربعة عشر قنطار بالتقريب وطلب خاطرنا بشانهم فنحن جاوبناه أنه يودولنا الزيت المذكور لدير القمر ليد الخواجة الياس صوصه وعرفنا الخواجه صوصه المذكور انه يستلم لنا الزيت المرقوم ويباشر في طبخه صابون ويشتري ما يلزم لذلك من قلو وحطب وخلافه وقد استورد هذا الزيت ووضعه في المصبنة والآن حضر لنا منه كتاب يخبرنا أن الخواجة ابراهيم دوماني أحضر أمر من سعادة الأمير الأفخم بأن هذا الزيت يحجز له بدعواه ان له دراهم عند جناب الشيخ عباس أبو نكد وقد حجز الزيت حقنا مع انه بكل الشرايع المصرفية والمدنية ما له حق لا أحد ياخذ من غلة الأرزاق المرهونة عندنا إلا لحين نحن نستوفي مالنا

حكم الحجة التي بيدنا وإن يكن له دين عند الراهن ومعلوم سعادتكم بواسطة حجزه الزيت يحصل لنا ضرر عظيم بسبب توقيف طبخ الصابون ويتلف وما نحن مشترينه لهذه المصلحة وعبدكم انه لولا الشيخ المذكور كان حايط شريف، علمه الحجة التي بيدنا فلم كان سمح باعطاء أمر الى الخواجة دوماني حسبما ذكر ومن حيث الحالة هذه ونحن من جملة خدمكم ومن يلوذ بسعادتكم اقتضى تقديم هذا الأعراض لديكم الذي به نسترحم من مكارمكم تحرروا لسعادة الأمير الأفخم بأن يأمر الخواجة ابراهيم دوماني يرفع قارشه عن الزيت حقنا وعن غلة الأرزاق المذكورة المرهونة عندنا حكم منطوق الحجة التي بيدنا والأمر أمركم أفندم في ١٨ ك ١ سنة ١٨٤٠.

بشارة نصرالله

رسالة قسطنطين باسيلي إلى الأمير بشير

الجناب المهاب فسيح الرحاب سعادة الأمير بشير قاسم المعظم أدام بقاه

تقدم لنا هذه الأعراض من الخواجا بشارة نصر الله غب اطلاع سعادتكم على مضمونه نرجوكم اجراء ذلك بوجه الحق الشرعي حسبما هو دأب سعادتكم وأدام بقاكم.

قسطنطين باسيلي
مسكوب دولة روسيا
في ١٩ ك ١ سنة ١٨٤٠
مكان الختم

وثيقة رقم ٧

قضية الدروز في جامعة ألمانيا

سبق لمجلة «الضحى» أن نشرت في صفحات: ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ من عدد شباط الماضي، ما حصل للطالب سقراط أمين شاهين، في جامعة ألمانيا الغربية، حول الدروز وعاداتهم، وموقفه الشجاع، واتصاله بسماحة شيخ العقل، الذي تفضل فزوَّده بما يلزم من مستندات أدَّت إلى ما يلي:

كتاب جديد من الطالب سقراط:

بسم الله الرحمن الرحيم

لحضرة سماحة شيخ عقل الطائفة الدرزية المحترم.

تحية واحترام

تحية من الأعماق من صميم الفؤاد أهديها لشخصكم الغالي الكريم راجياً منه سبحانه وتعالى أن يصادفكم تحريري هذا وأنتم على ما أتمناه لكم من الخير والصحة والعافية التي أرغب دوامها لكم على مر الزمن.

سماحة الشيخ الكريم، أردت أن أطمئنك بأن رسائلك القيّمة قد وصلتني جميعها «وإني أشكرك من صميم قلبي» على هذه الرسائل والمعلومات القيّمة...

سماحة الشيخ الكريم، اتصلت بي السفارة اللبنانية «ببون» المانيا، ذهبنا إلى السفارة اللبنانية ببون وقابلنا قنصل لبنان في «بون» المدعو السيد فيكتور بيطار وأخذت الكتاب معي للسفارة في بون ليروا الكتاب والمكتوب فيه...

فقرأ القنصل فيكتور المقال فأخذه وأعطيته كل ما يلزم من معلومات عن الكتاب واتفقنا على أن تعمل السفارة اللبنانية ببون من جهتها، وسنبقى دائماً على اتصال مع بعضنا البعض هنا.

وأنـا أعمل من جهتي: فلله الحمـد من جهتي أبشرك خيراً فـإن كل شيء ماشي على ما يرام بعون الله تعالى وعونكم لي بالذات.

وسأبقى دائماً بالاتصال بكم لأطمئنك بكل ما يحدث. . .

ملاحظة: سماحة الشيخ أرسلت الأستاذ الى قـريتي لعند الأهـل والأعمام والأخوال ليتعرف من هم الدروز. أقسم لقد جـاء مذهـولاً بما رأى من الـدروز لعاداتهم الأصيلة ولأخلاقهم الـرفيعة النبيلة وسخـاء كرمهم. . . فهـو اليوم من أشد المساعدين لي ويساعدني كثيراً كثيراً لالغاء هذا المقال بعدما عرف الحقيقة.

وفي الختـام أدعو لـك يا سـماحة الشيـخ الفاضـل بطول العمـر والصحـة والعافية لتبقى سنداً قوياً للطائفة.

بإخلاص

سقراط شاهين

نقلاً عن مجلة «الضحى»

وثيقة رقم ٨

«كل من يدخل ديرهم
لا نسمح بأن ينمسك»

نص الصك الذي بموجبه وهب الشيخ كنعان أبي نكد أرض الدير للرهبانية اللبنانية:

«بسم الله الرحمن الرحيم»
سبب تحريره وموجب تسطيره،

هو أننا أعطينا إلى حضرة أعزازنا الرهبان وهم القس جرجس قشوع الرئيس العام ومدبريه المعروفين القس اقليموس والقس رافائيل والقس نهرا وجميع الرهبان القائمين هؤلاء الرؤساء عليهم في وقت تاريخه دون غيرهم وهو مكان دير يعمروه بأرض الناعمة وينشئوه نشوءاً كاملاً ويكون وقفاً مخلداً في سبيل الله تعالى ويكون ملكاً لهم كباقي ديورهم وأملاكهم الشرعية وووقوفاتهم العادلة. وقد أوقفنا للدير بستان المشمش وشهرته تغني عن تعديده وقفاً مخلداً للدير كباقي حدود الدير بلا مبرر ولا خراج وأعطيناهم أرض معدة لا بحدودها... مهما كان عندهم شركاء نأخذ منهم جوالة على كل رجل قرشين ونصف لا غير والسخرة مرفوعة عنهم أي عن شركائهم وأجرائهم ورعيان عنزاتهم وعن بقرهم ودوابهم وقلم الميري مرفوع عن خدامهم وعن رعيانهم وأجرائهم وسائقتهم من بقر وماعز ودواب ونخل وعداد زيتون ومرفوع كل قلم براني من خولية ونطارة وتسفير وبلص وخدمة وإذا حدث توازيع أو بلص على الأديرة لا نكلفهم نحن شيء لأنهم ساعين مسلمين. وأشرطنا على أنفسنا أننا لا نعارضهم في قوانين دينهم وترتيب ديرهم ورهبانهم ولا نقبل عليهم دفوعة لا من حاكم ولا من كهناء ولا من رهبان ولا من رؤساء ولا أحداً في الدنيا أبداً كلها ولو كان من رهبانهم ولو جاءنا من القرش إلى الكرا ولهم منا السعفة والحماية والصيانة هم وجميع رهبانهم كذلك. كل من يدخل إلى ديرهم وكان مظلوم أو متهوم لا نسمح أن ينمسك في الدير لأجل وقار الدير، لأن ناموس

الدير المذكور وناموس حارتنا واحد. وكل من يتجرأ على الدير أو على الرهبان بشيء ينكد عليهم نقاصره جدّ المقاصرة ويخرج من خاطرنا ولهم عندنا الشفاعة والطاعة ونفوذ الكلمة وقيام الحرمة وعلى ما وقع عليه الشرط في باطن هذه الحجة قول الله ورأي الله ومحمد رسول الله. لا تغيير ولا تبديل لا منا ولا من كل من يظهر من ذريتنا لأن ذلك الشرط مخلد بذلك القول المعهود، وكل من غير أو بدل عن ما نحن شارحون من ذريتنا يكون محروم من جميع رزقنا المسمى بهذا الدير، ولأجل ذلك القول الصادق والتكرير الواثق حررنا لهم هذه الحجة وجميع شروطها باسمنا وختمنا إثباتاً لصدق قولنا وقد جرى ذلك برضانا وصحتنا وصحة عقلنا وصفاوة فكرنا من غير عَيْطة ولا تكلف وعملنا تلك الشروط علينا في سبيل الله تعالى وقفاً عنا وعن الذرية. تحريراً في شهر جمادي الأول سنة ١١٧١ هجرية التي توافق مسيحية سنة ١٧٥٦»

الفقير إلى الله تعالى

«كنعان نكد»

وثيقة رقم ٩

مشيخة عقل الطائفة الدرزية

الى اخواننا واخواتنا الكرام

لما كان الانتخاب واجبا وطنيا

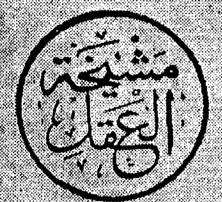
وبما ان امتناع كثرة من اخواننا واخواتنا الدروز من الاقتراع في الدورات الانتخابية يسبب ضعفا في بيان رأي الطائفة ويضر بمصلحتها العامة .

وبما انه قد خصصت للنساء اقلام اقتراع يمارسن فيها حقهن الانتخابي ضمن نطاق الحفاظ والخفر والحشمة المفروضة .

لــــذلــــك

ندعو الاخوان والاخوات الى اداء واجبهم الانتخابي ، ولا مؤاخذة دينية على من تمارس هذا الحق من النساء .

في ٤ نيسان ١٩٦٨



بيان مشيخة عقل الطائفة الدرزية بشأن الاقتراع في الدورات الانتخابية كواجب على الرجال والنساء الدروز.

وثيقة رقم ١٠



عدد ٤

[illegible] جبل لبنانه تابع عاليه قصبه سنده الصفا نامنده عربجه بر رساله نشری حقنده صاحب ومدير مسئولی علي بك ناصر الدين [illegible] مطبوعات قانوننامه سنك [illegible]



عدد ٤٠

ان ورقة البيان المقدمة من علي بك ناصر الدين صاحب جريدة الصفا بشأن نشر مجلة تحت عنوان الاصلاح تنشر في عاليه وتبحث في شؤون اصلاحية وادبية تصدر شهرية وجدت موافقة للمادة [illegible] الثانية والثالثة من قانون المطبوعات وبالبيان اعطي هذا العلم [illegible]

وثيقة تخوّل علي بك ناصر الدين إصدار مجلة «الإصلاح» في عاليه

وثيقة رقم ١١

وثيقة تاريخية من البابا بيوس السابع إلى الشيخ بشير جنبلاط بتاريخ ١٥ شباط سنة ١٨١٧:

نص الوثيقة(*):

من البابا بيوس السابع إلى الشيخ بشير جنبلاط الذائع الصيت، الكبير السطوة.

أيها الأمير الشهير والمقتدر، سلام ونور النعمة الإلهية. شملنا فرح كبير إذ بلغ مسمعنا لأول مرة، أن من جملة المزايا الرفيعة التي تتحلى بها نفسكم، عطفكم الخاص على الكاثوليك الموارنة. هذا ما أخبرنا به الابن العزيز يوسف السمعاني المدبّر الأول للجمعية (الرهبانية) الحلبية اللبنانية. وبما أنه يستعد للرجوع إلى نواحيكم حاملاً بعض الأحكام الموجهة إلى بطريرك الطائفة المارونية وأساقفتها، فإننا لم نشأ أن يبارح هذا المكان دون (أن نزوده) برسالة تخبر بمحبتنا لكم.

وفي الرسالة عينها نطلب منكم ـ والنفس واثقة ـ أن تسهروا بحمايتكم واهتمامكم على أولادنا الأعزاء الكاثوليك الموارنة وتتابعوا إعادة سلطتكم وخدماتكم فتنفذ أحكامنا المذكورة، العائدة بالخير على قوانين الطائفة الكنسية. (واعلموا) إنكم بعملكم هذا تحققون أمراً عزيزاً علينا، وتساهمون في سبيل ازدهار الطائفة المارونية الكريمة وتوطيد السلام (بين أبنائها).

هذا واننا نضرع إلى الله العزيز قدره لكي يمنحكم نعمته السماوية والسعادة الحقيقية.

أعطي برومة في ١٥ شباط ١٨١٧، السنة السابعة عشرة لحبريّتنا.

(*) نشرت هذه الوثيقة وردّ الشيخ بشير جنبلاط عليها، في مجلة «التضامن» في عددها رقم ٢٦، الصفحة ٧١. كذلك في نشرة «الجبل» (التي كانت تصدر عن الإدارة المدنية في الجبل) في عددها الأول، الخميس ٢٠/١٠/١٩٨٣.

مكتبة البحث

المصادر والمراجع العربية

١ ـ أبو شقرا ، يوسف. الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية. بيروت ١٩٥٢.

٢ ـ أبو شقرا، عارف. ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف. ١٩٥٧.

٣ ـ أبو شقرا، سامي. مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ. مكتبة ناصيف. عماطور. ١٩٧٩.

٤ ـ أبو مصلح ، غالب. الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي. منشورات مكتبة العرفان. بيروت ١٩٧٥.

٥ ـ أبو مصلح ، فريد. تقويم الأود والسير في الجدد. بدون تاريخ.

٦ ـ أبو مصلح ، حافظ. واقع الدروز. معتقداتهم. خلواتهم. أدبهم. ترجمة نازك فواز. المكتبة الحديثة للطباعة والنشر. بيروت. بدون تاريخ.

٧ ـ أبو زكي، فؤاد. ثلاثة أدباء روحانيين من بني معروف. رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة اليسوعية عام ١٩٨٠ بإشراف الدكتور جبور عبد النور. (لم تنشر).

٨ ـ أبو راشد، حنا. تاريخ جبل الدروز. الطبعة الثانية بيروت ١٩٦١.

٩ ـ أبو راشد، حنا. تاريخ حوران الدامية. الطبعة الثانية. بيروت ١٩٦١.

١٠ ـ أبو صالح ، عباس. ومكارم، سامي. تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي. منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء. بيروت ١٩٨٠.

١١ ـ أبو خاطر، هنري. من وحي تاريخ الموارنة. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٧٧.

١٢ ـ الأحدب، عزيز. فخر الدين مؤسس لبنان الحديث. دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٩٧٤.
١٣ ـ الأطرش، فؤاد. الدروز تاريخ ومؤامرات وحقائق. بيروت ١٩٧٤.
١٤ ـ الأطرش، فؤاد يوسف، الموحدون الدروز تهم وتاريخ وحقائق. بيروت ١٩٨١.
١٥ ـ الأسود، إبراهيم بك. ذخائر لبنان. مطابع الرهبانية اللبنانية. بيروت ١٩٧٠.
١٦ ـ أندريا، الجنرال. ثورة الدروز وتمرد دمشق. ترجمة وتعليق حافظ أبو مصلح. المكتبة الحديثة. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧١.
١٧ ـ ابن الأثير. الكامل في التاريخ. دار صادر. بيروت. الجزء السابع ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧.
١٨ ـ ابن إسباط. حمزة ابن الفقيه شهاب الدين أحمد: تاريخ ابن إسباط. الجامعة الأميركية. بيروت (مخطوط).
١٩ ـ الأشرفاني، محمد مالك. عمدة العارفين (مخطوط).
٢٠ ـ أرسلان، الأمير شكيب. الروض الشقيق في الجزل الرقيق (السجل الأرسلاني). دمشق. مطبعة ابن زيدون. ١٩٢٥.
٢١ ـ الأنطاكي، يحيى بن سعيد. تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي. تحقيق لويس شيخو. المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٩.
٢٢ ـ أبو إسماعيل، سليم. الدروز، تعريف وتأليف وتصنيف. بيروت. مطابع فضول ١٩٥٥.
٢٣ ـ ابن يحيى، صالح. تاريخ بيروت. نشر الأب شيخو اليسوعي. بيروت ١٩٢٧. والطبعة الأخرى تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي. بيروت دار المشرق ١٩٦٩.
٢٤ ـ ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد. زبدة الطلب في تاريخ حلب. دمشق. المعهد الفرنسي للدراسات العربية. ١٩٥١ ـ ١٩٦٨.
٢٥ ـ ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة. ذيل تاريخ دمشق. بيروت. نشر الآباء اليسوعيين ١٩٠٨.

٢٦ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر. دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٩٥٩. الجزء الرابع.
٢٧ ـ المقريزي، تقي الدين أحمد. أتعاظ الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء. تحقيق جمال الدين الشيّال. القاهرة. دار الفكر العربي ١٩٤٨.
٢٨ ـ المقريزي، تقي الدين أحمد. كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق مصطفى زيادة. القاهرة ١٩٣٩. الجزء الأول. القسم الثالث.
٢٩ ـ المقريزي. تقي الدين أحمد. خطط المقريزي. الجزء الثالث والرابع.
٣٠ ـ باز، رستم. مذكرات رستم باز. المطبعة الكاثوليكية بيروت. الطبعة الثانية ١٩٦٨.
٣١ ـ بدوي، عبد الرحمن. مذاهب الإسلاميين. الجزء ٢. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٤.
٣٢ ـ بلبيل، إدمون. تاريخ لبنان العام. بيروت. دون تاريخ.
٣٣ ـ برستيد. تاريخ الشرق القديم. تعريب أحمد بدوي. الطبعة الأولى. مصر. دون تاريخ.
٣٤ ـ بيير، بيجيه دي سان، الدولة الدرزية. ترجمة حافظ أبو مصلح. المكتبة الحديثة. بيروت ١٩٦٧.
٣٥ ـ بيهم، محمد جميل. فلسفة التاريخ العثماني. بيروت. الكتاب الثاني ١٩٥٤.
٣٦ ـ بشارة، عفيف بولس. أعرف لبنان. الجزء الخامس. بيروت ١٩٧١ ـ ١٩٧٢.
٣٧ ـ بورون، الكابيتان. الدروز. ترجمة عادل تقي الدين.
٣٨ ـ تقي الدين، زين الدين عبد الغفار. مختصر البيان في مجرى الزمان (مخطوط).
٣٩ ـ تقي الدين، حليم. قضاء الموحدين الدروز في ماضيه وحاضره. بيروت ١٩٧٩.
٤٠ ـ تقي الدين، حليم. الأحوال الشخصية عند الدروز. بيروت ١٩٨١.
٤١ ـ جنبلاط، كمال. هذه وصيتي. منشورات مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر. باريس ١٩٧٨.

٤٢ ـ حتي، فيليب. لبنان في التاريخ. دار الثقافة. الطبعة الثالثة. بيروت ١٩٧٨.
٤٣ ـ حتي، فيليب. تاريخ العرب. الجزء الثاني. دار الكشاف. بيروت ١٩٥٠.
٤٤ ـ الحصري، ساطع. الولايات العربية والدولة العثمانية.
٤٥ ـ حسين، محمد كامل. طائفة الدروز. دار المعارف بمصر ١٩٦٢. والطبعة الثانية ١٩٦٨.
٤٦ ـ حقي، إسماعيل. لبنان مباحث علمية واجتماعية. جزءان. بيروت ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠.
٤٧ ـ حجار، جوزيف. أوروبا ومصير الشرق العربي. ترجمة بطرس حلاق وماجد نعمة. مراجعة حسن فخر. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٧٦.
٤٨ ـ الخازن، فيليب وفريد. مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان. مطبعةالصبر. جونية ١٩١١.
٤٩ ـ الحتّوني، منصور. نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية. لبنان ١٨٨٤.
٥٠ ـ الخوري، منير. صيدا عبر حقب التاريخ. منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ١٩٦٦.
٥١ ـ خالدي، مصطفى. وعمر فروخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية. المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت. الطبعة الخامسة ١٩٧٣.
٥٢ ـ خوري، إميل. وعادل إسماعيل. السياسة الدولية في الشرق العربي. دار النشر للسياسة والتاريخ. بيروت ١٩٦٠. الجزء الأول والثاني.
٥٣ ـ الدويهي، إسطفان. تاريخ الأزمنة. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٥١.
٥٤ ـ الدويهي، إسطفان. تاريخ الموارنة. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٨٩٠.
٥٥ ـ الريحاني، أمين. النكبات. دون تاريخ.
٥٦ ـ رزوق، أسعد. الصهيونية وحقوق الإنسان العربي.
٥٧ ـ رستم، أسد. آراء وأبحاث. منشورات الجامعة اللبنانية. المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٦.

٥٨ ـ الزعبي، محمد علي. الدروز ظاهرهم وباطنهم. دار الهلال. بيروت. دون تاريخ.

٥٩ ـ زين، نور الدين زين. الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، بيروت دار النهار للنشر ١٩٧١.

٦٠ ـ سليمان، توفيق. أضواء على تاريخ مذهب التوحيد. بيروت ١٩٦٣.

٦١ ـ سويد، العقيد ياسين. التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين. الجزء الأول. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ١٩٨٠.

٦٢ ـ الشهابيون بقلم أحد أمرائهم من وادي التيم. تحقيق سليم حسن هشي. مديرية الآثار. بيروت ١٩٧١. مخطوطة رقم ٦٤٦٨.

٦٣ ـ شهاب، حيدر أحمد. لبنان في عهد الأمراء الشهابيين. منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية. ثلاثة أجزاء. بيروت ١٩٦٩.

٦٤ ـ الشدياق، طنوس. أخبار الأعيان في جبل لبنان. منشورات الجامعة اللبنانية. المطبعة الكاثوليكية جزءان. بيروت ١٩٧٠. ومنشورات مكتبة الوفاء. بيروت ١٩٥٤.

٦٥ ـ شرارة، وضاح. في أصول لبنان الطائفي. دار الطليعة. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٧٥.

٦٦ ـ الصليبي، كمال سليمان. تاريخ لبنان الحديث. دار النهار للنشر. بيروت ١٩٦٧.

٦٧ ـ الصليبي، كمال سليمان. منطلق تاريخ لبنان. منشورات كارفان. بيروت ـ نيويورك ١٩٧٩.

٦٨ ـ الصغير، سعيد. بنو معروف (الدروز) في التاريخ. بيروت ١٩٥٤.

٦٩ ـ الصفدي، أحمد الخالدي، لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني. منشورات الجامعة اللبنانية. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٦٩.

٧٠ ـ صعب، محمود خليل، قصص ومشاهد من جبل لبنان. منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء. بيروت ١٩٨٠.

٧١ ـ ضاهر، مسعود. تاريخ لبنان الاجتماعي. دار الفارابي. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٧٤.
٧٢ ـ ضاهر، مسعود. الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية. منشورات معهد الإنماء العربي. بيروت ١٩٨١.
٧٣ ـ طليع، أمين. أصل الموحدين الدروز وأصولهم. منشورات عويدات. بيروت ١٩٨٠.
٧٤ ـ طليع، أمين. التقمص. منشورات عويدات. بيروت. طبعة أولى ١٩٨٠.
٧٥ ـ ضو، بسام. الدروز في معترك العروبة (أصل مخطوط).
٧٦ ـ العقيلي يوسف. خبايا الجواهر (مخطوط).
٧٧ ـ عوض، عبد العزيز محمد. الإدارة العثمانية في ولاية سورية. القاهرة ١٩٦٩.
٧٨ ـ عبيد، سلامة. الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧. دار الغد. بيروت ١٩٧١.
٧٩ ـ العقيقي، أنطون ضاهر. ثورة وفتنة في لبنان. نشر يوسف إبراهيم يزبك. بيروت ١٩٣٩.
٨٠ ـ عنان، محمد عبدالله. الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٥٩.
٨١ ـ غيز، هنري. بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن، تعريب مارون عبود. دار المكشوف بيروت. جزءان. ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠.
٨٢ ـ غالب، الخوري بطرس. فرنسا صديقة ومحامية. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٧٨.
٨٣ ـ فاخوري، رياض. لبنان تحت الرماد. مطابع دار الوقائع. بيروت ١٩٧٨.
٨٤ ـ فراج، عفيف. دراسات يسارية في الفكر اليميني. دار الطليعة. بيروت ١٩٧٠.
٨٥ ـ فروخ، عمر. عبقرية العرب. بيروت. الطبعة الثالثة.
٨٦ ـ «فقيد العروبة الخالد عارف النكدي ١٨٨٧ ـ ١٩٧٥». مطابع قدموس الجديدة. فرن الشباك بيروت.

٨٧ ـ قربان، ملحم. تـاريخ لبنـان السياسي الحـديث. الجزء الأول. الأهليـة للنشر والتوزيع. بيروت ١٩٧٨.
٨٨ ـ قازان، فؤاد. لبنان في محيطه العربي من التكوين الجيولوجي حتى أيامنـا. الجزء الأول. دار الفارابي. بيروت ١٩٧٢.
٨٩ ـ قـرألي، بولس. الأمـير فخر الـدين المعني الثاني حـاكم لبنـان ودولـة تـوسكانا (١٦٠٥ ـ ١٦٣٥)، الجزء الثاني. رومية ١٩٣٨.
٩٠ ـ كولان، جاك. الحركة النقابية في لبنان ١٩١٩ ـ ١٩٤٦. تعريب نبيـل هادي. دار الفارابي بيروت ١٩٧٤.
٩١ ـ كـوثراني، وجيـه. الاتجاهـات السياسيـة والاجتماعيـة في جبـل لبنـان والمشرق العربي. ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠. منشورات معهد الإنماء العربي. بيروت. طبعـة أولى ١٩٧٦.
٩٢ ـ كوثراني، وجيه. بلاد الشام: السكان، الاقتصاد والسياسية الفرنسيـة في مطلع القرن العشرين. منشورات معهد الإنماء العربي. بيروت. طبعة أولى ١٩٨٠.
٩٣ ـ كـردعلي، محمـد. خـطط الشـام. دار العلم للمـلايـين ستّـة أجـزاء. بـيروت ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢.
٩٤ ـ كحالة، عمر رضا. اعـلام النساء في عـالمي العرب والإسـلام. ج ١. المطبعـة الهاشمية يدمشق ١٩٤٠.
٩٥ ـ مكارم، سامي. أضـواء على مسلك التـوحيد «الـدرزية». دار صـادر. بيروت ١٩٦٦. المقدمة بقلم كمال جنبلاط.
٩٦ ـ المحبي، محمـد الأمين بن فضـل الله. خلاصـة الأثر في أعيـان القـرن الحـادي عشر. القاهرة ١٢٨٤ هـ. الجزء الثالث والرابع.
٩٧ ـ مزهر، يوسف. تاريخ لبنان العام. جزءان. بيروت. دون تاريخ.
٩٨ ـ المعلوف، عيسى إسكنـدر. تاريـخ الأمـير فخـر الـدين المعني الثـاني. المطبعـة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٦.
٩٩ ـ مشاقة، ميخـائيل. منتخبـات في الجواب عـلى اقتراح الأحبـاب. بيروت. نشر رستم وأبو شقرا. مديرية الآثار ١٩٥٥.

١٠٠ ـ مؤلف مجهول، أو تاريخ ميخائيل الدمشقي. تاريخ حوادث الشام ولبنان. تحقيق أحمد غسان سبانو. دار قتيبة. دمشق ١٩٨١.
١٠١ ـ مكي، محمد علي. لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني. دار النهار للنشر. بيروت ١٩٧٧.
١٠٢ ـ نسكايا، سيميليا. الحركات الفلاحية في لبنان. تعريب عدنان جاموس. دار الفارابي. بيروت ١٩٧٢.
١٠٣ ـ النكدي، عارف. أبو نكد (مخطوط).
١٠٤ ـ النجار، عبدالله. مذهب الدروز والتوحيد. دار المعارف بمصر ١٩٦٥.
١٠٥ ـ نويهض، عجاج. التنوخي، الأمير جمال الدين عبدالله والشيخ محمد أبو هلال المعروف بالشيخ الفاضل. بيروت. الطبعة الثانية. دار الصحافة ١٩٦٣.
١٠٦ ـ نوار، عبد العزيز سليمان. وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧ ـ ١٩٢٠. جامعة بيروت العربية. بيروت ١٩٧٤.
١٠٧ ـ الحزب الشيوعي اللبناني من خلال وثائقه. الجزء الأول. بيروت ١٩٧١.
١٠٨ ـ هشي، سليم حسن. الإسماعيليون عبر التاريخ. بيروت ١٩٦٩.
١٠٩ ـ هشي، سليم حسن. المراسلات الاجتماعية والاقتصادية لزعماء جبل لبنان خلال ثلاثة قرون ١٦٠٠ ـ ١٩٠٠. ثلاثة أجزاء. بيروت ١٩٧٩ ـ ١٩٨٢.

المجلات والصحف العربية

١ ـ الأنباء ـ ٢ ـ أوراق لبنانية ـ ٣ ـ دراسات عربية ـ ٤ ـ السفير. ٥ ـ شؤون فلسطينية ـ ٦ ـ الضحى ـ ٧ ـ الميثاق ـ ٨ ـ الفكر الإستراتيجي العربي ـ ٩ ـ القدس ـ ١٠ ـ قضايا المرأة ـ ١١ ـ ملف «النهار».

المراجع باللغة الفرنسية

1 - Ankiri, Gabriel. le règne de Béchir 2 . Imprimerie slim. Beyrouth. sans date.

2 - L. D'ARVIEUX. Mémoires du chevalier d'Arvieux. recueillis et mis en ordre par J.B. labat. Tome 2. Paris 1735.

3 - Boulos, Jawad. les peuples et les civilisations du Proche - Orient Tome 5, Paris 1968.

4 - Bouron, C. histoire du Liban et de la montagne Hauranaise. Paris 1930.

5 - Barrès, Maurice. En quête au pays de Levant. Paris 1924.

6 - Chevalier, Dominique. la société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe. Paris 1971.

7 - Chibli, Michel. l'histoire du Liban à l'époque des émirs, 1635 - 1841. Beyrouth 1955.

8 - Couland, Jacques. le mouvement syndical au Liban 1919 - 1946. Editions Sociales. Paris 1970.

9 - Guys, Henri. Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrouth et dans le Liban. 2 Tomes. Paris 1874.

10 - Hichi, Sélim Hassan. la famille des Jumblatt du VII[e] siècle à nos jours. Beyrouth 1973.

11 - Hichi, sélim Hassan, la Communauté des Usmàilites de l'epoque des Mamaliques à nos jours. Beyrouth 1972.

12 - Huart, Cl. Histoire des arabes. Tome I. Pairs 1912.

13 - Le P. Hilaire de Barenton. la France Catholique en orient durant les trois derniers siécles, Paris 1902.

14 - Ismail, Adel. histoire du Liban. Tome I. Paris 1955.

15 - Ismail, Adel. Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban et des pays du proche - orient du XVII[e] siècle à nos jours. 9 Tomes. Beyrouth 1975 - 1977.

16 - En Cyclopédie de l'Islam, établie avec le Concours des principaux orientalistes par: B. Lewis, CH. Peliat et J. Schacht; Tome 2. 1956.

17 - Jumblatt, Kamal. Pour le Liban. Edition Sthock, Paris 1978.

18 - Lammens, Henri. l'Islam. Croyances et Instituions, Beyrouth 1943.

19 - Lammens, Henri. la Syrie précis historique. 2 Tomes. Imprimerie Catholique. Beyrouth 1921.

20 - Lamartine. Voyage en orient. Tome 2 Pairs 1841.

21 - Mascle (P.y). le Djebel Druze. Edition III. Damas 1943.

22 - Pierre, Puget de st. histoire des druzes, peuple du Liban. Paris 1762.

23 - Histoire des religions. Tome 3. sous la direction d'Henri Charles Puech, encyclopédie de la pleiade. Edition Goullimard. Paris 1976.

24 - Histoire des religions. Tome 5. puplié sous la direction de Maurice Brillant et René Aigrain.

25 - Raphael, Pierre. le rôle du Collége Maronite Romain dans l'orientalisme au XVII^{e} et XVIII^{e} siècle. Beyrouth 1950.

26 - S. de sacy. Exposé de la religion des druzes. 2 Tomes, Imprimerie Royale. Paris.

27 - Sivan, Emmanuel. l'Islam et la Croisade. Paris 1968.

28 - Sokhn, Joseph. les auteurs libanais Contemporains. Beyrouth 1972.

29 - Tharaud, J.J. le chemin de Damas. Paris 1923.

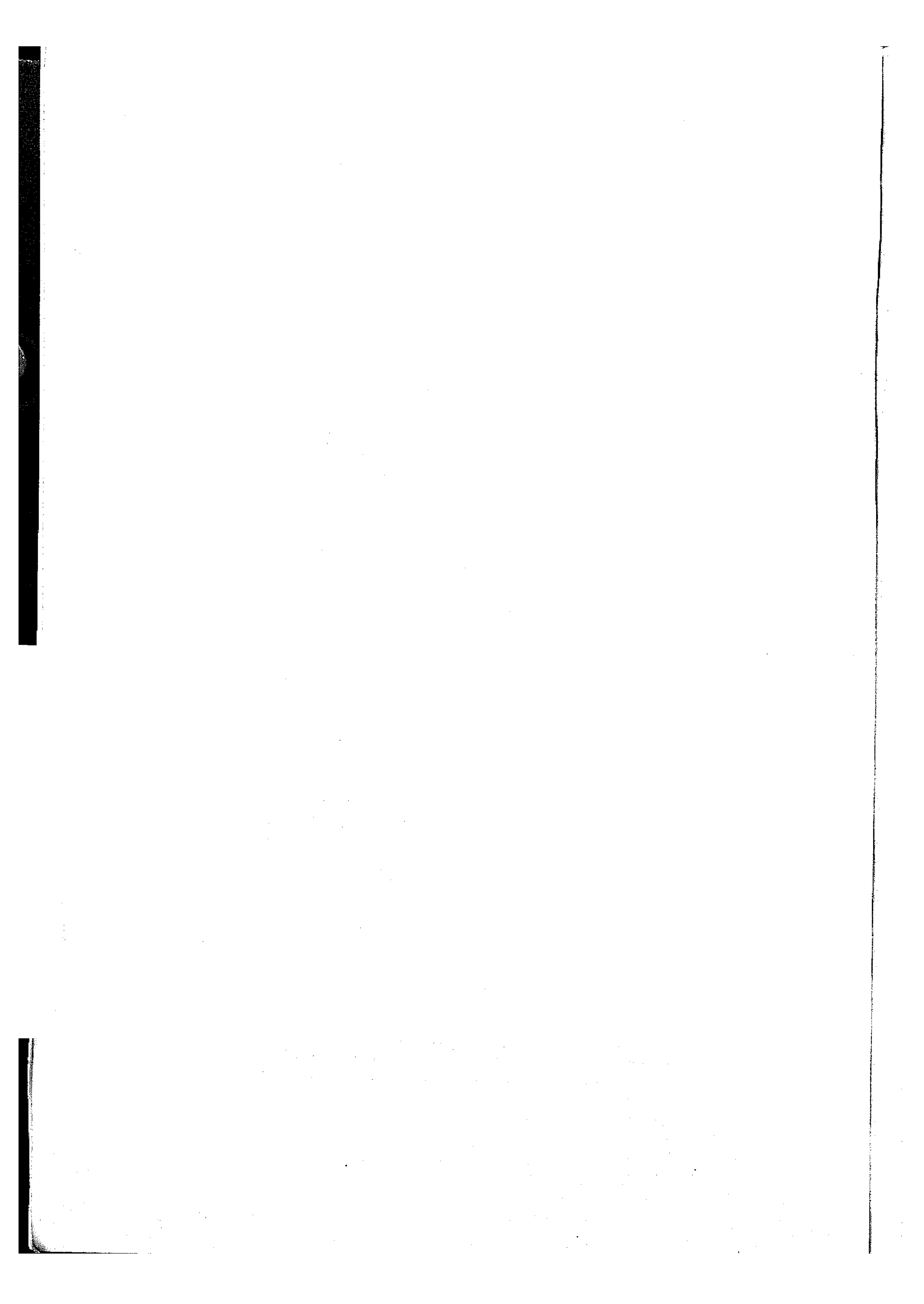
30 - Touma, Toufic. Paysans et Institutions féodales chez les druzes et les Maronites du Liban du XVII^{e} siècle à 1914. 2 Tomes. Imprimerie catholique. Beyrouth 1971 - 1972.

31 - Volney, C. voyage en Egypte et en syrie pendant les anneés 1783, 84, 85. Paris, Monton & Co LAHAYE, 1959.

الفهرس

الباب الثالث:

دروز لبنان:





تصميم الغلاف والخطوط : زهير كركي .

